


العدد ٣٧

ISSN: 2090 - 0449
Universal Impact Factor (UIF).
Impact Factor for Arabic Scientific Journals.

أول
| دورية عربية إلكترونية مُحَكَّمة ربع سنوية
| متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية
| تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩هـ
| صدر العدد الأول سبتمبر ٢٠٠٨م

# السنة العاشرة

سبتمبر ٢٠١٧ - ذو الحجة ١٤٣٨

www.kanhistorique.org






kanhistorique






رقمية الموطن عربية الهوية عالمية الأداء

**دورية كان التاريخية.- س١٠، ع٣٧ (سبتمبر ٢٠١٧/ ذو الحجة ١٤٣٨)**
Dawriyyaẗ Kān al-Tārīẖiyyaẗ
Iliktrūniyyaẗ, muḥakkamaẗ , rub' sanawiyyaẗ
Vol. 10, no. 37 [ September 2017 ]
Cairo – Arab Republic of Egypt.
http://www.kanhistorique.org
Information on this issue: www.kanhistorique.org/Archive/2017/Issue37

**تصنيف ديوي العشري – مقالات ودراسات ع٣٧ سبتمبر ٢٠١٧**

| | |
|---|---|
| ٩٥٣ | التاريخ العام للعرب والمسلمين |
| ٩٥٣,٠٧٣٩ | الدول الإسلامية في الشام ومصر |
| ٩٦١,٠٣ | تاريخ شمال أفريقيا تحت الاحتلال الأوربي |
| ٩٦١,٠٢٣ | تاريخ شمال أفريقيا تحت الحكم العثماني |
| ٩٦٤,٠٩ | تاريخ المغرب الحديث |
| ٩٦٥ | تاريخ الجزائر – الاحتلال والاستقلال |

---

**دورية كان التاريخية**

إصدار مؤسسة كان التاريخية.- س١، ع١ (سبتمبر ٢٠٠٨).- القاهرة: المؤسسة، ٢٠٠٨ – ٢٠١٧ .

دورية إلكترونية مُحَكَّمة ربع سنوية

متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية

ردمد ٠٤٤٩ – ٢٠٩٠

١- تاريخ ٢- الآثار

٣- التراجم ٤ - التراث

**ديوي ٩٠٥**

---

**Historical Kan Periodical**
Published by Historical Kan Organization.- Vol.1, no.1 [September 2008].- Cairo: Organization, 2008 – 2017.
Peer-reviewed, open-access journal.
Indexed and abstracted in several international databases.
ISSN: 2090 – 0449 (Online)
Keywords: History, Heritage, Archaeology, Biographies.

أول دورية عربية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية
متخصصة في الدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩هـ
صدر العدد الأول منها في سبتمبر ٢٠٠٨م




ISSN: 2090 – 0449 Online

## مسجلة ومفهرسة في قواعد البيانات الببليوجرافية العالمية

- Academic Journals Database
- Access to Mideast and Islamic Resources, AMIR
- CORE: Open Access repositories
- Directory of Abstract Indexing for Journals, DAIJ
- Directory of Open Access Scholarly Resources, ROAD
- Directory of Research Journals Indexing, DRJI
- Eurasian Scientific Journal Index
- Google Scholar
- Host Online Research Databases, EBSCO
- Journal Database – Zurich Open Repository and Archive
- JOURNAL FACTOR – forum for promoting research work
- Journal Guide- Research Square
- ROOT INDEXING – Journal abstracting and indexing
- The researchBib Journal database
- Ulrichsweb
- WorldCat

## مدرجة في الأدلة الرقمية لمكتبات الجامعات والمراكز البحثية العالمية

- Birmingham Public Library
- Max Planck Institute for the Physics of Complex Systems
- National Cheng Kung University Library
- National Taiwan Normal University Library
- NYPL (New York Public Library)
- OALib - Open Access Library
- OREGON Health & Science University
- San Francisco Public Library
- SAN JOSÉ STATE UNIVERSITY
- Stanford University Libraries & Academic Information Resources
- State Library of New South Wales
- State Library of Queensland (Australia)
- The J. Paul Getty Trust
- The University of Texas at El Paso Library
- Toronto Public Library
- UCDAVIS University Library
- University of California
- University of Michigan
- University of Rochester
- University of South Australia
- Villanova University

## دراسات ومقالات الدورية مفهرسة وذات خلاصات

www.kanhistorique.org



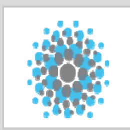

أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:
دار ناشري للنشر الإلكتروني
أول دار نشر إلكترونية عربية مجانية تأسست يوليو ٢٠٠٣ – الكويت
www.nashiri.net




أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:
أرشيف الإنترنت الرقمي العالمي
منظمة غير ربحية – سان فرانسيسكو – الولايات المتحدة
www.archive.org




مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة معلومات اللغة والأدب والعلوم الإنسانية
دار المنظومة "الرواد في قواعد المعلومات العربية" – السعودية
www.mandumah.com



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة بيانات المنهل
أول قاعدة بيانات عربية تأسست ٢٠١٠ – الإمارات
www.almanhal.com



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة البيانات العربية الرقمية "معرفة"
شركة عالم المعرفة للمحتوى الرقمي تأسست ٢٠٠٤ - الأردن
www.e-marefa.net




دورية كان التاريخية مدرجة في:
دليل الدوريات العربية المجانية
الدوريات العلمية المُحكّمة الصادرة في الوطن العربي والمتاحة على شبكة الإنترنت مجاناً
www.dfaj.net




موقع دورية كان التاريخية مسجل لدى:
هيئة الإنترنت للأسماء والأرقام المخصصة
الآيكان منظمة غير ربحية تأسست ١٩٩٨ – كاليفورنيا
www.icann.org

| | |
|---|---|
| كُتّاب الدورية | 395 |
| الدول العربية والأجنبية | 24 |
| الجامعات والمؤسسات الأكاديمية والعلمية | 124 |
| المقالات والدراسات المنشورة في الدورية | 706 |

تعتبر الدوريات شريانًا رئيسًا من شرايين المعلومات في المكتبات ومراكز المعلومات وخاصةً المكتبات الأكاديمية التي تولي اهتمامًا خاصًا للدوريات العلمية في مختلف مجالات المعرفة. ولقد ظلت الدوريات المطبوعة هي السائدة في مقتنيات المكتبات الأكاديمية حتى قبيل نهايات القرن العشرين وقبل التحول الجذري في وسائل نقل المعلومات إلى الوسيط الرقمي الذي يزداد يومًا بعد يوم.



تحددت مهام أعضاء الهيئة الاستشارية وفق مذكرة تأسيس دورية كان التاريخية في غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية، حيث تتكون الهيئة الاستشارية من خبراء ومتخصصين بهدف التعاون مع طاقم عمل الدورية لخدمة البحث العلمي، وتقديم الدعم الفني من خلال تبادل الآراء والمقترحات. والتواصل مع المؤسسات الأكاديمية العربية والأساتذة والباحثين بما يعزز مكانة الدورية في الأوساط العلمية. وتقديم المشورة والنصح في الموضوعات المطروحة من قبل هيئة التحرير. والتعريف بأهداف الدورية، وتشجيع الباحثين على النشر العلمي الرقمي. وتولي مهمة التوصية فيما يتعلق بتطوير الدورية من حيث الشكل والمضمون.



عملت هيئة التحرير ومنذ اليوم الأول على بناء الأرضية الثقافية الرقمية من أجل المساعدة في استحداث وعي ثقافي تاريخي عند الجيل العربي الشاب، وخصوصًا في ما يتعلق بأهمية التاريخ والتراث وارتباطهما المباشر بالهوية العربية والإنتاج الإبداعي الثقافي المستدام




"كان التاريخية" أول مبادرة عربية مستقلة متخصصة، تدعم مبدأ "المعبر المفتوح" في تداول المعرفة على شبكة الإنترنت بتشجيع النشر الرقمي للدراسات التاريخية. "كان التاريخية" غير هادفة للربح وتتيح نصوصها كاملة على شبكة الإنترنت، وتسعى إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي.



حاصلة على "**معامل التأثير العالمي**" (UIF) للمجلات العالمية والعلمية

حاصلة على "**معامل التأثير العربي**" (AIF) للدوريات العلمية العربية المَحَكَّمة

## الإشعار القانوني

دورية كان التاريخية غير مدعومة من أية جهة داخلية أو خارجية أو حزب أو تيار سياسي، إنما هي منبر علمي ثقافي مستقل يعتمد على جهود المخلصين من أصحاب الفكر ومحبي الثقافة الذين يؤمنون بأهمية الدراسات التاريخية.

## موضوعات الدورية

الدورية متخصصة في المقالات والدراسات العلمية والأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العربية، وأصحاب الدراسات العليا، والباحثين في الدراسات التاريخية، والمهتمين بالقراءات التاريخية، وتعبر الموضوعات المنشورة في الدورية عن وجهة نظر كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية أو هيئة التحرير.

## حقوق الملكية الفكرية



## حقوق الطبع والنشر والترجمة



## رخصة التشارك الإبداعي



## إدارة المعرفة

كَان التَّارِيْخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهُويّة الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

## علاقات تعاون

ترتبط دورية كان التاريخية بعلاقات تعاون مع عدة مؤسسات عربية ودولية بهدف تعزيز العمل العلمي في المجالات ذات الاختصاص المشترك، وتعظيم الفائدة من البحوث والدراسات التي تنشرها الدورية، وتوسيع حجم المشاركة لتشمل الفائدة كل أنحاء الوطن العربي.


## رئيس التحرير

**د. أشرف صالح محمد**

أستاذ مساعد تاريخ وتراث العصور الوسطى

كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة ابن رشد




An Arab Weaver, 1886

Point, Armand (1861-1932)

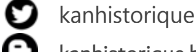
## المراسلات

توجه المراسلات والموضوعات المطلوبة للنشر باسم رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

**mr.ashraf.salih@gmail.com**


historicalkan


groups/kanhistorique

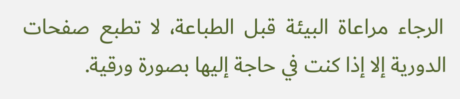

kanhistorique


kanhistorique.blogspot.com


goodreads.com/kanhistorique


www.kan.nashiri.net





الرجاء مراعاة البيئة قبل الطباعة، لا تطبع صفحات الدورية إلا إذا كنت في حاجة إليها بصورة ورقية.



# دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية

علمية. عالمية. مُحَكَّمَة. ربع سنوية

## السياسات والقواعد والإجراءات

ترحب دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة في أي من حقول الدراسات التاريخية، أو العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظرًا لطبيعة الْتَّارِيْخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، وألا تتخذ أية صفة سياسية، وألا تتعارض مع الأعراف والأخلاق الحميدة، وأن تتسم بالجدّة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح.

### سياسات النشر

تسعى دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي، ويسعدها أن تستقبل مساهمات أصحاب القلم من الأساتذة الأكاديميين والباحثين والكُتَّاب المثقفين الأفاضل، ضمن أقسام الدورية: البحوث والدراسات، عروض الكتب، عروض الأطاريح الجامعية، تقارير اللقاءات العلمية.

**هيئة التحرير:**

- تُعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقًا للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
- تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي والمراجعة اللغوية.
- يكتفي بالإجازة من قبل اثنين من أعضاء هيئة التحرير لنشر مراجعات الكتب، والأطاريح الجامعية، وتقارير اللقاءات العلمية.
- يحق لهيئة التحرير إجراء التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر لتكن وفق المعيار (IEEE) تنسيق النص في عمودين، مع مراعاة توافق حجم ونوع الخط مع نسخة المقال المعياري.
- تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسبًا للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.

**هيئة التحكيم:**

- يعتمد قرار قبول البحوث المقدمة للنشر على توصية هيئة التحرير والمحكمين؛ حيث يتم تحكيم البحوث تحكيمًا سريًا بإرسال العمل العلمي إلى المحكمين بدون ذكر اسم الباحث أو ما يدل على شخصيته، ويرفق مع العمل العلمي المراد تحكيمه استمارة تقويم تضم قائمة بالمعايير التي على ضوئها يتم تقويم العمل العلمي.
- يستند المحكمون في قراراتهم في تحكيم البحث إلى مدى ارتباط البحث بحقل المعرفة، والقيمة العلمية لنتائجه، ومدى أصالة أفكار البحث وموضوعه، ودقة الأدبيات المرتبطة بموضوع البحث وشمولها، بالإضافة إلى سلامة المنهاج العلمي المستخدم في الدراسة، ومدى ملاءمة البيانات والنتائج النهائية لفرضيات البحث، وسلامة تنظيم أسلوب العرض من حيث صياغة الأفكار، ولغة البحث، وجودة الجداول والأشكال والصور ووضوحها.
- البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها في موعد أقصاه أسبوعين من تاريخ إرسال التعديلات المقترحة إلى المؤلف، أما إذا كانت التعديلات طفيفة فتقوم هيئة التحرير بإجرائها.
- تبذل هيئة التحرير الجهد اللازم لإتمام عملية التحكيم، من متابعة إجراءات التعديل، والتحقق من استيفاء التصويبات والتعديلات المطلوبة، حتى التوصل إلى قرار بشأن كل بحث مقدم قبل النشر، بحيث يتم اختصار الوقت اللازم لذلك إلى أدنى حد ممكن.
- في حالة عدم مناسبة البحث للنشر، تقوم الدورية بإخطار الباحث بذلك. أما بالنسبة للبحوث المقبولة والتي اجتازت التحكيم وفق الضوابط العلمية المتعارف عليها، واستوفت قواعد وشروط النشر بالدورية، فيُمنح كل باحث إفادة بقبول بحثه للنشر.
- تقوم الدورية بالتدقيق اللغوي للأبحاث المقبولة للنشر، وتقوم هيئة التحرير بعد ذلك بمهمة تنسيق البحث ليخرج في الشكل النهائي المتعارف عليه لإصدارات الدورية.

# قَوَاعِدُ النَّشَر

## إرشادات المؤلفين [ الاشتراطات الشكلية والمنهجية ]

ينبغي ألّا يزيد حجم البحث على ثلاثين (٣٠) صفحة، مع الالتزام بالقواعد المتعارف عليها عالميًا بشكل البحوث، بحيث يكون المحتوى حسب التسلسل: ملخص، مقدمة، موضوع البحث، خاتمة، ملاحق: (الأشكال/ الجداول)، الهوامش، المراجع.

### البحوث والدراسات العلمية

تقبل الأعمال العلمية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في مجلة إلكترونية أو مطبوعة أخرى.

تقبل البحوث والدراسات المنشورة من قبل في صورة ورقية، ولا تقبل الأعمال التي سبق نشرها في صورة رقمية: مدونات/ منتديات/ مواقع/ مجلات إلكترونية، ويستثنى من ذلك المواضيع القيمة حسب تقييم رئيس التحرير.

يجب أن يتسم البحث العلمي بالجَوْدة والأصالة في موضوعه ومنهجه وعرضه، متوافقًا مع عنوانه.

التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.

اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع، مع الالتزام بعلامات الترقيم المتنوعة.

- **عنوان البحث:**
يجب أن لا يتجاوز عنوان البحث عشرين (٢٠) كلمة، وأن يتناسب مع مضمون البحث، ويدل عليه، أو يتضمن الاستنتاج الرئيس.
- **نبذة عن المؤلف (المؤلفين):**
يقدم مع البحث نبذة عن كل مؤلف في حدود (٥٠) كلمة تبين آخر درجة علمية حصل عليها، واسم الجامعة (القسم/ الكلية) التي حصل منها على الدرجة العلمية والسنة. والوظيفة الحالية، والمؤسسة أو الجهة أو الجامعة التي يعمل لديها، والمجالات الرئيسة لاهتماماته البحثية. مع توضيح عنوان المراسلة (العنوان البريدي)، وأرقام (التليفون- الموبايل/ الجوال- الفاكس).
- **صورة شخصية:**
ترسل صورة واضحة لشخص الكاتب لنشرها مع البحث، كما تستخدم بغرض إنشاء صفحة للكاتب في موقع الدورية على شبكة الإنترنت.
- **ملخص البحث:**
يجب تقديم ملخص للبحوث والدراسات باللغة العربية في حدود (٢٥٠ - ٣٠٠) كلمة.
البحوث والدراسات باللغة الإنجليزية، يرفق معها ملخص باللغة العربية في حدود (١٥٠ - ٢٠٠) كلمة.
- **الكلمات المفتاحية:**
الكلمات التي تستخدم للفهرسة لا تتجاوز عشرة كلمات، يختارها الباحث بما يتواكب مع مضمون البحث، وفي حالة عدم ذكرها، تقوم هيئة التحرير باختيارها عند فهرسة المقال وإدراجه في قواعد البيانات بغرض ظهور البحث أثناء عملية البحث والاسترجاع على شبكة الإنترنت.
- **مجال البحث:**
الإشارة إلى مجال تخصص البحث المرسل "العام والدقيق".
- **المقدمة:**
تتضمن المقدمة بوضوح دواعي إجراء البحث (الهدف)، وتساؤلات وفرضيات البحث، مع ذكر الدراسات السابقة ذات العلاقة، وحدود البحث الزمانية والمكانية.
- **موضوع البحث:**
يراعي أن تتم كتابة البحث بلغة عربية سلمية واضحة مركزة وبأسلوب علمي حيادي. وينبغي أن تكون الطرق البحثية والمنهجية المستخدمة واضحة، وملائمة لتحقيق الهدف، وتتوفر فيها الدقة العلمية. مع مراعاة المناقشة والتحليل الموضوعي الهادف في ضوء المعلومات المتوفرة بعيدًا عن الحشو (تكرار السرد).
- **الجداول والأشكال:**
ينبغي ترقيم كل جدول (شكل) مع ذكر عنوان يدل على فحواه، والإشارة إليه في متن البحث على أن يدرج في الملاحق. ويمكن وضع الجداول والأشكال في متن البحث إذا دعت الضرورة إلى ذلك.
- **الصور التوضيحية:**
في حالة وجود صور تدعم البحث، يجب إرسال الصور على البريد الإلكتروني في <ملف منفصل> على هيئة (JPEG)، حيث أن وضع الصور في ملف الكتابة (Word) يقلل من درجة وضوحها (Resolution)
- **خاتمة (خلاصة):**
تحتوي على عرض موضوعي للنتائج والتوصيات الناتجة عن محتوى البحث، على أن تكون موجزة بشكل واضح، ولا تأتي مكررة لما سبق أن تناوله الباحث في أجزاء سابقة من موضوع البحث.
- **الهوامش:**
يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة، فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر، وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش. يمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق الحواشي (الهوامش) بشرط التوحيد في مجمل الدراسة، وبإمكان الباحث استخدام نمط American Psychological Association " APA" الشائع في توثيق الأبحاث العلمية والتطبيقية، حيث يُشار إلى المرجع في المتن بعد فقرة الاقتباس مباشرةً وفق الترتيب التالي: (اسم عائلة المؤلف، سنة النشر، رقم الصفحة)، على أن تدون الإحالات المرجعية كاملة في نهاية البحث.
- **المراجع:**
يجب أن تكون ذات علاقة فعلية بموضوع البحث، وتوضع في نهاية البحث، وتتضمن قائمة المراجع الأعمال التي تم الإشارة إليها فقط في الهوامش، أي يجب ألا تحتوي قائمة المراجع على أي مرجع لم تتم الإشارة إليه ضمن البحث. وترتب المراجع طبقًا للترتيب الهجائي، وتصنف في قائمة واحدة في نهاية البحث مهما كان نوعها: كتب، دوريات، مجلات، وثائق رسمية، ...الخ، ويمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق المراجع والمصادر بشرط التوحيد في مجمل الدراسة.

# قَوَاعِدُ النَشَر

## قواعد عامة

تُرسل كافة الأعمال المطلوبة للنشر بصيغة برنامج مايكروسوفت وورد Word ولا يلتفت إلى أي صيغ أخرى.

المساهمون للمرة الأولى من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات يرسلون أعمالهم مصحوبة بسيرهم الذاتية العلمية "أحدث نموذج" مع صورة شخصية واضحة (High Resolution).

ترتب الأبحاث عند نشرها في الدورية وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث أو قيمة البحث.

## حقوق المؤلف

- المؤلف مسئول مسئولية كاملة عما يقدمه للنشر بالدورية، وعن توافر الأمانة العلمية به، سواء لموضوعه أو لمحتواه ولكل ما يرد بنصه وفى الإشارة إلى المراجع ومصادر المعلومات.
- جميع الآراء والأفكار والمعلومات الواردة بالبحث تعبر عن رأى كاتبها وعلى مسئوليته هو وحده ولا تعبر عن رأى أحد غيره، وليس للدورية أو هيئة التحرير أية مسئولية في ذلك.
- ترسل الدورية لكل صاحب بحث أُجيز للنشر، نسخة من العدد المنشور به البحث، ومستلة من البحث على البريد الإلكتروني.
- يحق للكاتب إعادة نشر البحث بصورة ورقية، أو إلكترونية بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير، ويحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.
- يحق للدورية إعادة نشر البحث المقبول منفصلاً أو ضمن مجموعة من المساهمات العلمية الأخرى بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى أية لغة أخرى، وذلك بصورة إلكترونية أو ورقية لغايات غير ربحية.
- لا تدفع المجلة أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما ينشر فيها إسهامًا معنويًا من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي.

## عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر. أما مراجعات الكتب القديمة فتكون حسب قيمة الكتاب وأهميته.
- يجب أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.
- يعرض الكاتب ملخصًا وافيًا لمحتويات الكتاب، مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور، وإبراز بيانات الكتاب كاملة في أول العرض: (اسم المؤلف/ المحقق/ المترجم، الطبعة، الناشر، مكان النشر، سنة النشر، السلسلة، عدد الصفحات).
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.

## عروض الأطاريح الجامعية

- تنشر الدورية عروض الأطاريح الجامعية (رسائل الدكتوراه والماجستير) التي تم إجازتها بالفعل، ويُراعي في الأطاريح (الرسائل) موضوع العرض أن تكون حديثة، وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد حقول الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة.
- إبراز بيانات الأطروحة كاملة في أول العرض (اسم الباحث، اسم المشرف، الكلية، الجامعة، الدولة، سنة الإجازة).
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث، مع ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وأدواته، وخاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.

## تقارير اللقاءات العلمية

- ترحب الدورية بنشر التقارير العلمية عن الندوات، والمؤتمرات، والحلقات النقاشية (سيمنار) الحديثة الانعقاد في دول الوطن العربي، والتي تتصل موضوعاتها بالدراسات التاريخية، بالإضافة إلى التقارير عن المدن والمواقع الأثرية، والمشروعات التراثية.
- يشترط أن يغطي التقرير فعاليات اللقاء (ندوة / مؤتمر/ ورشة عمل/ سيمنار) مركزًا على الأبحاث العلمية، وأوراق العمل المقدمة، ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.
- ألا تزيد عدد صفحات التقرير عن (١٠) صفحات.

## الإصدارات والتوزيع

- تصدر دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخِية أربع مرات في السنة:
- (مارس- يونيو – سبتمبر – ديسمبر).
- الدورية متاحة للقراءة والتحميل عبر موقعها الإلكتروني على شبكة الإنترنت.
- ترسَل الأعداد الجديدة إلى كُتَّاب الدورية على بريدهم الإلكتروني الخاص.
- يتم الإعلان عن صدور الدورية عبر المواقع المتخصصة، والمجموعات البريدية، وشبكات التواصل الاجتماعي.

## المراسلات

- تُرسَل الاستفسارات والاقتراحات للبريد الإلكتروني:
  **info@kanhistorique.org**
- تُرسَل الأعمال المطلوبة للنشر إلى رئيس التحرير:
  **mr.ashraf.salih@gmail.com**

# مُحْتَوَيَاتُ الْعَدَدِ

# الحكم العثماني في الجزائر وتونس
## دراسة مقارنة

**فاطمة زهرة آيت بلقاسم**

أستاذ ة مساعدة

قسم التاريخ وعلم الآثار

جامعة أبي بكر بلقايد – الجمهورية الجزائرية

### مُلَخّصْ

يتطرق هذا المقال إلى موضوع الحكم العثماني في الجزائر وتونس من خلال دراسة مقارنة خاصة في المجالين السياسي والإداري، فقد مرت الدولة العثمانية بمراحل مختلفة وظروف متغايرة محاولة توحيد المسلمين ومنع دول الغرب من بسط نفوذها في العالم الإسلامي ووقفت كجسر منيع في طريق التوسع الاوربي وبالتالي القضاء على فكرة الاستيلاء على خيرات وثروات البلدان الاسلامية. وبالنسبة للجزائر وتونس فان الظروف الصعبة التي كانتا تمران بها بداية القرن السادس عشر الميلادي خاصةً تفاقم الخطر الاسباني واحتلاله لموانئ مهمة وإخضاع سكان مدنه هي العوامل الرئيسية التي دفعت بالجزائريين والتونسيين الاستنجاد بالإخوة بربروس لإنقاذهم من الاحتلال الاوربي وذلك بالالتجاء الى الدولة العثمانية القوية والقادرة على حمايتهم. وفعلاً تم صد الخطر على سواحل المغرب العربي وطرد الاسبان في مدة غير طويلة وأعاد العثمانيون بذلك الى البلاد إدارة نظامية يسودها الأمن والاستقرار، ويتناول هذا البحث طبيعة النظام الاداري في الجزائر وتونس خلال العهد العثماني، إضافة الى الغوص في طبيعة النظام السياسي للدولتين خلال نفس الفترة مع معرفة التغيرات وعوامل التحول من مرحلة الى أخرى، وفي الأخير وضع مقارنة بينهما من خلال توضيح نقاط التشابه ونقاط الاختلاف بين الحكمين، هذه المقارنة كان لها دور كبير في توضيح سلبيات الحكم العثماني في المنطقة دون تجاهل ايجابياته التي حاول الاستعمار الاوربي أن يمحيها، ففي كل بلد يدخلونها يصرحون لأهلها أنهم أتوا اليهم لإنقاذهم من المستعمر العثماني، لكن النتيجة أنهم قضوا على استقلالهم واستعمروهم اسوء استعمار.

**بيانات المقال:**

| | | | |
|---|---|---|---|
| تاريخ استلام المقال: | ٢٨ | يونيو | ٢٠١٥ |
| تاريخ قبـول النشـر: | ٠٢ | أكتوبر | ٢٠١٥ |

**كلمات مفتاحية:**

تاريخ الجزائر الحديث، تاريخ تونس الحديث، الدولة العثمانية، عهد الدايات، عهد البايات

**معرِّف الوثيقة الرقمي:** DOI 10.12816/0045081

**الاستشهاد المرجعي بالمقال:**

فاطمة زهرة أيت بلقاسم. **"الحكم العثماني في الجزائر وتونس: دراسة مقارنة".**- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد السابع والثلاثون؛ سبتمبر ٢٠١٧. ص ١٠ – ١٥.

### مُقَدِّمَةُ

امتاز القرن الخامس عشر الميلادي بتدهور الأوضاع في منطقة المغرب العربي أين زاد الخطر الاسباني والبرتغالي على شواطئه، حيث تمكن الاسبان من الاستيلاء على ثغور مهمة في تونس والجزائر ذلك ما أدى بأهلها الى الاستنجاد بالإخوة بربروس[1] الذين كان لهم دور كبير في التصدي للتوسعات الاسبانية ووضع حد للقرصنة الأوربية وبمساعدة الدولة العثمانية[2] تمكنوا من القضاء نهائيا على الخطر الإسباني وبذلك أصبحت الجزائر ولاية عثمانية سنة ١٥١٨م ثم تلتها تونس سنة ١٥٧٤م.

وهكذا لم يكد القرن السادس عشر الميلادي ينتهي حتى كانت الإمارات العربية في بلاد المغرب العربي (ليبيا، تونس، الجزائر) قد أصبحت ولايات عثمانية، ثم بدأت الخطوة الثانية في تنظيم تلك الولايات عن طريق ترسيخ نظام سياسي وإداري فيها، حيث مر هذا النظام بمراحل تاريخية تعبر عن تطوره من ناحية صلاحيات الحكم وكذا علاقاتهم مع الباب العالي أي السلطة المركزية في العاصمة اسطنبول.

ومن هذا المنطلق حاولنا دراسة النظام السياسي والإداري للجزائر وتونس في العهد العثماني مركزين على الجوانب التالية:

١- طبيعة النظام السياسي والإداري في الجزائر.
٢- دراسة النظام السياسي الاداري في تونس.
٣- المقارنة بينهما من خلال ابراز نقاط التشابه والاختلاف في النظامين.

وسبب اختيارنا لهذا الموضوع هو الرغبة في الكشف عن بعض الحقائق التاريخية المجهولة، ولكون هذا الجانب لم يسلط عليه الضوء كثيرا وبقيت الدراسة فيه قليلة، رغم أن الكثير من المؤرخين كتبوا عن الجزائر وتونس خلال الفترة العثمانية، إلا أنه لم تكن هناك كتابات كثيرة عن مدى تشابه أو اختلاف الحكم العثماني بينهما.

كما يكتسي هذا الموضوع أهمية كبيرة خاصة وأنه يرتبط ببلدين الكل يشهد لهما بتاريخ عريق منذ العصور القديمة فالوسطى الى الحديثة والمعاصرة، ويبقى بذلك تاريخ هذه الأمة في هذه الحقبة من الزمن رصيدًا خاصًا ومادة علمية تحتاج الى استنطاق واستقراء وفق ما تقتضيه تقنيات البحث العلمية.

## أولاً: النظام السياسي والإداري للجزائر في العهد العثماني (١٥١٨-١٨٣٠م)

عرف تاريخ الحكم العثماني في الجزائر أربع مراحل متتالية هي:

**١- مرحلة البايلربايات (١٥١٨-١٥٨٧):** حيث ازدهرت البلاد في هذه الفترة من الناحية التعليمية والاقتصادية والعمرانية وذلك بفضل التعاون بين فئة الرياس في القيادة وأبناء الجزائر، وكان أول بايلرباي خير الدين باشا الذي عينه السلطان العثماني حاكما على الجزائر سنة ١٥١٨م ومنحه لقب بايلرباي أي باي البايات[٣].

**٢- مرحلة الباشوات[٤](١٥٨٧-١٦٥٩):** تم تغيير نظام البايلرباي بنظام الباشوات بسبب تخوف الباب العالي من استقلال الجزائر عن الدولة العثمانية بعدما اصبح لولاتها حرية أكبر في اتخاذ القرارات، زد على ذلك الصراع الذي ظهر بين رياس البحر وجنود الانكشارية ذلك ما أدى الى تعيين باشا لمدة ثلاث سنوات خوفا من ان تطول مدته فيسيطر على شؤون الولاية.[٥]

**٣- مرحلة الأغوات (١٦٥٩-١٦٧١):** عرفت هذه المرحلة سيطرة الانكشارية على الحكم ذلك ما أدى الى انتشار الفوضى في البلاد، ذلك ما فسح المجال لرياس البحر للاستيلاء على السلطة سنة ١٦٧١م.[٧]

**٤- مرحلة الدايات[٨](١٦٧١-١٨٣٠):** تميزت هذه المرحلة بكثرة التمردات والثورات نتيجة السياسة التي انتهجها معظم الدايات ضد السكان(الضرائب)[٩]، كما عرفت هذه المرحلة فقدان الدولة العثمانية لقوتها وهيبتها الدولية وإنهاء وجودها في الجزائر على يد فرنسا سنة ١٨٣٠م[١٠].

أما عن التنظيم الاداري فقد قسمت الجزائر في العهد العثماني الى أربع بايليكات:

- **دار السلطان**: شملت العاصمة وضواحيها.
- **بايلك التيطري**: قاعدته مدينة المدية ويعتبر أصغر البايليكات وأفقرها.
- **بايلك الشرق**: عاصمته قسنطينة.
- **بايلك الغرب**: عاصمته مازونة ثم معسكر ثم وهران بعد تحريرها من الاسبان عام ١٧٩٢م.[١١]

أما فيما يخص التنظيم السياسي للجزائر العثمانية كان كالتالي:

- **الوالي أو الحاكم العام:** حيث اختلفت تسميته حسب مراحل الحكم السابقة (البايلرباي ثم الباشا ثم الأغا ثم الداي).
- **الديوان الخاص:** ويدعى أيضا المجلس الشوري وكان يضم:

*الخزناجي: وهو بمثابة وزير المالية ومسؤولا عن خزينة الدولة.

*الآغا: قائد الجيش البري.

*خوجة الخيل: المشرف على املاك الدولة ومسؤولا عن جمع الضرائب.

*بيت المالجي: المتصرف الاول في أموال بيت المال.

*وكيل الخرج: المكلف بالشؤون الخارجية وكل ما له علاقة بالبحرية.[١٢]

بالإضافة إلى هؤلاء الموظفين الذين كانوا يعتمد عليهم في تسيير أمور البلاد، هناك موظفون آخرون يقومون بأعمال محددة: كالكتاب، مجموعة الخوجات، القياد ومجموعة الخدم والشواش، المحتسب أو صاحب الشرطة.[١٣] وهكذا نرى أن الجهاز السياسي والإداري للجزائر قد تطور في العهد العثماني خاصة في فترة الدايات حيث عرف استقرارًا من ناحية المؤسسات السياسية والإدارية على الخصوص وأصبح للداي كامل السلطات التنفيذية.[١٤]

## ثانيًا النظام السياسي والإداري لتونس خلال العهد العثماني (١٥٧٤-١٨٨١م)

عندما قام سنان باشا بفتح تونس سنة ١٥٧٤م أصبحت ولاية عثمانية، حيث أنشأ هذا الأخير (سنان باشا) قبل أن يتركها ديوانًا يجمع مسؤولين لتسيير شؤون البلاد وخدمتها،[١٥] ولكن بعد فترة ثار صغار الجند ضد رؤساء الديوان سنة ١٥٩١م بسبب جورهم وظلمهم ومنذ تلك الحادثة بدأ أول حكم عثماني في تونس.[١٦]

**عهد الدايات (١٥٩١-١٦٤٠م):**

وصل الدايات الى الحكم بعد ثورة ١٥٩١م وكان ذلك بفضل جند الانكشارية الذين اغتنموا الأزمة السياسية والمالية التي كانت تعيشها الدولة، وقد عرف هذا العهد نشاطًا ملحوظًا في جميع الميادين واستفاد منها الدايات لتدعيم نظامهم واستفاد منها أكثر البايات المراديون لإرساء نفوذهم.[١٧]

**عهد البايات (الاسرة المرادية١٦٤٠-١٧٠٥م):**

عرف القرن السابع عشر الميلادي تعاظم سلطة البايات من ناحية وتأخر وتقهقر أمر الدايات من ناحية ثانية، أين أعلن المراديون ولائهم للسلطان العثماني ونصبوا انفسهم في السلطة مكان الدايات،[١٨] ويعتبر مراد كورسو مؤسس هذه الاسرة واصبح الحكم وراثيًا من بعده وتوطدت سلطة الباي[١٩] وعرفت البلاد انتعاش الزراعة والصناعة اهتم البايات بالمشاريع العمرانية الضخمة، وإلى جانب تلك الصورة غرقت البلاد في سنوات طويلة من القتل والتشريد والظلم بسبب الفتن والحروب الاهلية خاصة في عهد ابراهيم الشريف الذي عرف عهده بكثرة الحروب خاصة مع طرابلس والجزائر هذه الاخيرة التي هزم أمامها وانكسر جيشه ضدها وبذلك انتهى عهد هذه الاسرة نهائيًا.[٢٠]

**عهد البايات (الاسرة الحسينية ١٧٠٥-١٨٨١م):**

إثر انهزام ابراهيم الشريف وجدت البلاد نفسها مهددة من عدة أطراف وعمت الفوضى فيها ما أدى الى تعيين حسين بن علي بايا[٢١] على تونس وبذلك ظهرت الأسرة الحسينية التي عرف عهدها تضاربا في الأوضاع خاصة خلال صراعها مع الجزائر، واستمر حكم هذه الأسرة الى غاية الاستعمار الفرنسي سنة ١٨٨١م.[٢٢]

تميز النظام السياسي بتونس العثمانية بتسيير الوزير الأكبر على الشؤون المالية والخارجية وساعده في الإدارة العامة للبلاد وزير الداخلية الذي لقب بوزير القلم ومستشارون إلى جانب وزير الحرب ووزير البحرية. كما خضعت المالية التونسية لنظام الرقابة الأجنبية سنة ١٨٦٩م من طرف فرنسا وإنجلترا وإيطاليا نتيجة عجز تونس تسديد ديونها، ذلك ما أجبر محمد الصادق الى تأسيس لجنة مالية دولية سنة ١٨٧٠م وضمت جهازين أساسين هما:

- اللجنة التنفيذية: تألفت من ثلاثة أعضاء هم الوزير الأكبر بمساعدة عضو تونسي ومتفقد مالي فرنسي، وظيفتها الأساسية جباية الضرائب.
- لجنة المراقبة: تكونت من ستة أعضاء يمثلون مقرضي الحكومة التونسية اثنان من فرنسا اثنان من انجلترا واثنان من إيطاليا، ولهذه اللجنة الحق في مراقبة كل العمليات التي تقوم بها اللجنة التنفيذية والمصادقة عليها ان اقتضى الأمر.[٢٣]

أما الشؤون المحلية للبلاد فقد ظلت تسير من طرف أدارة محلية تقليدية ممثلة بشخصية القياد أين تقمص الكثير منهم شخصية القائد المحلي أي منفرد بقبيلته عن السلطة المركزية، ومن هنا نرى أن السلطة العثمانية بتونس بقيت تقليدية ولم تصل الى ما كانت عليه في الجزائر.[٢٤]

## ثالثًا: مقارنة بين الحكم العثماني في الجزائر وتونس سياسيًا وإداريًا

بدخول الجزائر وتونس في كنف الدولة العثمانية طبق عليهما نظام الحكم العثماني القائم أساسا على التنظيم العسكري، ولكن هل نفس النظام طبق على البلدين؟ أم كانت هناك نقاط تشابه فيها هذا النظام واختلف في نقاط أخرى؟

**١/٣- أوجه التشابه:**

عرفت سواحل الجزائر وتونس موجة توسعية خطيرة من طرف الاستعمار الإسباني، ولولا تدخل الدولة العثمانية وسيطرتها على الأوضاع لأصبح البلدين جزء من الإمبراطورية الإسبانية،[٢٥] ولكان المغرب نفسه مهددًا على نحو ما حدث بعد ذلك في القرن التاسع عشر الميلادي عند الاحتلال الفرنسي، فالحكم العثماني اذن أنقذ الجزائر وتونس من احتلال أوربي مبكر. كما أن التدخل العثماني في البلدين لم يكن بالقوة والحروب وإنما جاء بناء على رغبة من شعوب البلدين حيث استنجدوا بالأخوين عروج وخير الدين لتحريرهم من الاحتلال الإسباني،[٢٦] ومنذ القرن السادس عشر الميلادي أصبحت الجزائر وتونس ولايتين عثمانيتين تداران على النحو العثماني التقليدي، وهو أسلوب في الحكم ليست له إلا فضيلة واحدة وهي المحافظة على البلاد في إطار الإسلام أما نظم الحكم، فهي دائمًا عاجزة تشيع فيها كل مساوئ الادارة الفاسدة من رشوة وسرقة وإهمال للمصالح.[٢٧]

ونجد انتشار الظلم والفوضى في البلدين، ففي الجزائر حاول بعض الجنود المستبدين السيطرة على الأموال التي كانت تُرسل من الباب العالي، كما حرموا البشوات من سلطة صرف المرتبات وتعيين قواد الجنود، وفي سنة ١٦٥٩م انتقل الحكم الى الأغا وهو ما أثار الفوضى في صفوف الجند.[٢٨] وبعد اثنتي عشر سنة ونظرًا لقلة أعداد الانكشارية فقد استعاد رياس البحر الحكم بانتخاب واحدًا منهم دايًا على الجزائر سنة ١٦٧١م، إلا أن الانكشارية استعادوا قوتهم بداية من سنة ١٦٩٨م حيث أصبح الداي يُختار من طرفهم واستمر هذا الوضع الى غاية سنة ١٨٣٠م سنة الاحتلال الفرنسي للجزائر.[٢٩] وفي تونس حدث الشيء نفسه، حيث كان الباشا يُختار من طرف الإنكشارية في أول الأمر ثم أصبحت طائفة الرياس هي التي تقوم بذلك، وكان يقود أولئك الجند واحد من الأغوات وتولى جباية الضرائب لأغا من الجند تساعده قبائل المخزن.

والخلاصة أنه سواء في الجزائر أو في تونس لم تكن هناك سلطة مستقرة أو قانون إداري يعتمد عليه، كما عمد الحكام العثمانيين في كلا البلدين إلى إبعاد السكان الاصليين عن السلطة، حيث كانوا يعاملونهم معاملة سيئة ويحتقرونهم، وهذا ما أدى بهم إلى القيام بثورات وتمردات دفاعًا عن مصالحهم أو ضد الظلم الذي يلاحقهم.(٣٠) ولم يستفد من العهد العثماني كثيرًا إلا الذين انضموا الى الجيش والبحرية، فضلاً عن بعض المنافع التجارية التي كان يستفيد منها بعضهم عن طريق التجارة التي كانت رابحة بسبب الأسرى والغنائم المالية، وبعكس ذلك فقد كان السكان ضحايا لكثير من المعارك الداخلية والمعارك البحرية الأجنبية التي كانت الشواطئ مسرحًا لها ولمدة طويلة. فالحكم العثماني لم يتسم بإصلاحات مهمة يستفيد منها الشعب وقد كان بإمكان السلطة العثمانية أن تستفيد من الدول التي دخلت عصر النهضة والثورة العلمية والتكنولوجيا المتطورة ولكنها لم تعرف غير الحكم العسكري، أما ولاتها سواء في الجزائر أو تونس من باشوات وبايات ودايات فقد كان همهم هو السيطرة والنهب والسلب وكان السكان الأصليون هم الضحية.(٣١)

لكن الشيء الذي يمكن أن يكون قد تحقق هو أن العهد العثماني حرر البلدين من الاحتلال الاسباني كما قضى على تمرد القبائل والحروب الداخلية، فإذا جاز أن نسمي ذلك أمنا فقد تحقق أمن نسبي في الجزائر وتونس. كما أن العهد العثماني أنهى فكرة توحيد المغرب الإسلامي، فقد انفصلت الجزائر وتونس نهائيًا عن المغرب ليس بسبب التدخل العثماني فحسب بل لأن المغرب الذي تبنى فكرة الوحدة في عهدي المرابطين والموحدين لم يعد قادرًا على حماية هذه الفكرة، وقد كان المغرب يتوق أحيانًا إلى احتلال تلمسان للدفاع عنها ضد الغزو الإسباني من جهة، وليكون الوجود المغربي فيها حاجزًا للعثمانيين عن التطلع للمغرب من جهة أخرى. وقد كانت تونس تحكم في بعض الفترات من طرف الجزائر في شكل وحدة حكم، وبسبب خوف العثمانيين من تكوين دولة قوية ضدها فصلت الحكم في تونس وطرابلس من الجزائر بتعيين حاكم خاص في كلا المنطقتين. وكان حكام الجزائر وتونس يختلف وضعهم حسب الاوضاع السياسية وتطور نظام الحكم خلال المراحل المذكورة في كلا البلدين، إضافة إلى دور أجهزة الحكم القائمة، فبينما كان الحكام يعينون في أول الامر من طرف السلطان أصبح الجيش الانكشاري يلعب دورًا رئيسًا في تعيينهم.(٣٢)

كما نلاحظ أنه؛ في جميع مراحل الحكم كثيرًا ما كان يتعرض الحاكم إلى الاغتيال، أما من طرف الانكشاريين أو غيرهم، فالجزائر كانت عبارة عن ولاية عسكرية تربطها بالدولة العثمانية علاقات دينية واتفاقيات شكلية، مثلها كمثل تونس التي اعتبرت أيضًا ولاية عسكرية بحيث سيطر على كليهما الجيش الإنكشاري الذي تكون أساسًا من الأتراك ومن أقليات عديدة (أندلسيون، كراغلة، وحتى بعض المسيحيين). وقد أصبح حكام الجزائر وتونس مع مرور الوقت يعتبرون أنفسهم خلفاء للباب العالي حيث يتصلون مباشرة بالدول الاوربية دون اعتبار لمصلحة الخلافة العثمانية، كما أن ممثلي الدول الأوربية لدى البلدين أصبحوا يتجاهلون السيادة العثمانية في تعاملهم مع الجزائر وتونس خاصة ممثل فرنسا.(٣٣)

أما فيما يخص الجهاز الإداري، فقد كان هناك تشابه كبير بين الجزائر وتونس في هذا المجال، حيث كان يساعد في إنجاز مهامه عدد من المجالس والوزراء، وهناك الديوان الذي ضم كبار الموظفين لتدبير شؤون الولاية، وكان كل واحد منهم مسؤولاً عن شيء معين فمنهم مَنْ كان مسؤولاً عن المالية وآخر عن قيادة الجيش إضافة الى مَنْ كان يجمع الضرائب من أملاك الدولة، كما كان هناك مَنْ يهتم بشؤون البحرية وبشؤون الخارجية، كما نجد الخوجات الذين كانوا يشكلون طبقة عُليا في كلا المجتمعين أين تميزوا بلباسهم الخاص وقد شملت وظائفهم عدة ميادين (خوجة السوق، خوجة الجمارك...)، زيادة على ذلك نجد القياد الذين تمتعوا بصلاحيات إدارية ومالية كبيرة تتمثل في الأساس في جمع الضرائب وإبقاء الأمن في المنطقة التي تعود إليه وتمثيل السلطة المركزية، هذا بالإضافة إلى وجود المفتيان الحنفي والمالكي في كلا البلدين.(٣٤)

**٢/٣-أوجه الاختلاف:**

أول ما يمكن أن نبدأ به نقاط الاختلاف بين الحكم العثماني في الجزائر وتونس هو الإطار الزماني الذي خضعت فيه الدولتين للحكم العثماني، فالجزائر أصبحت ولاية عثمانية منذ ١٥١٨م. أما تونس فسنة ١٥٧٤م وكما اختلفا في سنة انضمامهما للدولة العثمانية فقد اختلفا أيضًا في سنة انفصالهما عنها، فالجزائر انتهى الحكم العثماني فيها سنة ١٨٣٠م، أما تونس فقد استمر إلى سنة ١٨٨١م وهذين التاريخين يبرزان إلى بداية الاحتلال الفرنسي للبلدين.(٣٥) كما أن الجزائر انضمت إلى الدولة العثمانية برغبة أهاليها الذين استنجدوا بالأخوين بربروس لإنقاذهم من بطش الاسبان، أما تونس فاستنجادها بالعثمانيين لم يكن رسميًا بل كان هناك تذبذب في السلطة الحفصية رعاية لمصالحها، فتارة كان استنجادهم بالإسبان وتارة أخرى بالعثمانيين، ونتيجة لهذا تمكن الإسبان من إعادة احتلال تونس سنة ١٥٧٣م بعد أن تمكن العثمانيون من الدخول اليها سنة ١٥٦٩م، ولكن لما ازداد الاستبداد الاسباني لتونس طلبت العون رسميا من العثمانيين فدخل الجيش العثماني بقيادة سنان باشا الذي تمكن من تحريرها وبذلك أصبحت تونس منذ ١٥٧٤م ولاية عثمانية.(٣٦)

لقد عاش التونسيون حياة منعزلة سياسيا بل كان هناك اجماع من عدة قبائل بعدم الولاء والانتماء للسلطة الحفصية الضعيفة

التي لم تستطع تسيير البلاد، والتي كانت تسير محليًا عن طريق القبائل والأعراش، وبالتالي كان موقف التونسيين حتى من الحكم العثماني فيه تدخل أجنبي وليس تدخلا من أجل حمايتهم من الإسبان، بعكس موقف الجزائريين الذين أيدوا العثمانيين حتى عندما قرر خير الدين مغادرة الجزائر فإنهم ألحوا عليه بالبقاء وقبلوا شروطه التي كان من ضمنها الحاق الجزائر بالخلافة العثمانية.

كما أن الحكم العثماني في الجزائر مر بأربعة مراحل في حين بتونس مر بثلاث مراحل فقط، كانت أولها مرحلة الدايات والتي هي آخر مرحلة في الجزائر، وآخر مرحلة في تونس هي البايات والتي كانت أول مرحلة في الجزائر. فتونس استطاعت أن تكون دولة (شبه مستقلة) تابعة رسمياً للدولة العثمانية تحت حكم الأسرة الحسينية، أما الجزائر فقد استمرت تحت حكم أغاوات وبشاوات ودايات استقلوا عمليًا عن سلطة الدولة بسبب الجيش الانكشاري والقوة البحرية، ولم تكن فيها أسرة حاكمة على عكس تونس التي شهد عهدها الأسرة المرادية ثم الأسرة الحسينية.[٣٧]

وعلى أي حال؛ فقد كانت تونس أكثر استقرارًا من الجزائر وأقرب إلى أن ينشأ فيها حكم وطني لأن الأسرتين (المرادية والحسينية) لم تكونا من أصول عثمانية، كما أنهما انفصلتا تقريبًا عن الدولة العثمانية، كما حرص أهل تونس على أن يجعلوا الحكم العثماني يسير في الحدود التي تعودا عليها من أقدم العصور، فقدموا للحكومة الرجال الذين يستطيعون النهوض بعبء إدارتها وخير دليل الحسينيون الذين استطاعوا بمساعدة أهل البلاد تحويل تونس من دولة تعيش على غنائم الجهاد البحري إلى دولة منظمة تواصل تقاليد الحفصيين والموحدين،[٣٨] كما استفادت تونس كذلك من نشر التعليم ورعاية العلماء وتجميع المكتبات العلمية وبناء بعض المؤسسات التعليمية ثم أن صلتها بالدولة العثمانية نقلت اليها الفكر السياسي الذي يعتبر الدستور أكبر مظاهر تنظيم الحكم.[٣٩]

ومن الملاحظ أن الجيش الإنكشاري كان له دور في تنصيب الدايات بالجزائر وتونس، غير أن رجالاً مثل عثمان داي حاكم تونس كانوا من الكفاءة والمقدرة بحيث مثلوا السلطة العثمانية خير تمثيل وقاموا بإصلاحات مهمة في البلاد، وقد تعاقب على الحكم عدد كبير من الدايات الذين كان الجند ينصبهم وكانوا يستطيعون السيطرة على الحكم أكثر ما كان دايات الجزائر مع الانكشارية. كما عرفت تونس الحكم الوراثي الذي تمثل في عهد البايات من خلال الأسرة المرادية ثم الأسرة الحسينية، أما الجزائر فلم تشهد الحكم الوراثي طيلة فترة انضمامها للدولة العثمانية. ومن الناحية الإدارية قسمت الجزائر إلى أربعة بايليكات (دار السلطان، بايلك الغرب، بايلك الشرق، وبايلك التيطري)، في حين لم تعرف تونس نظام البايليكات.

وقد كان اهتمام الدولة العثمانية بالجزائر أكثر من تونس لذلك لا نجد ذلك الكم الهائل من الموظفين الاداريين في تونس مثل الذين تواجدوا في الجزائر، فالسلطة العثمانية في تونس كانت تقليدية ولم تستطع الوصول إلى ما كانت عليه في الجزائر.[٤٠] ولكن مهما اختلفت طبيعة الحكم العثماني في الجزائر وتونس إلا أن هناك نقطة هامة جمعت بينهما وهي أن الدولة العثمانية ساهمت في تحرير البلدين من الاستعمار الإسباني كما أخرت الاحتلال الفرنسي لمدة ثلاثة قرون، حيث أن فرنسا صممت على احتلال الجزائر انتقامًا لنفسها وكرامتها فهو احتلال له سوابق عديدة أما لواحقه فهي احتلال كل من تونس والمغرب.

## خَاتِمَةٌ

وما يمكن قوله في الأخير؛ هو أن الحكم العثماني في الجزائر وتونس قد تشابه واختلف في نقاط عديدة، ولكن أهم نقطة أن انقاذ البلدين من الاستعمار الاسباني يرجع الفضل فيه إلى الأخوة بربروس وتعاونهم مع الدولة العثمانية التي أعطت للمنطقة نظم سياسية وإدارية مكنتها من توفير نوع من الاستقرار فقدته من مدة طويلة. لكن رغم ذلك نلاحظ أن الحكم العثماني في البلدين تميز بظاهرة الخضوع للسلطان إضافة إلى عدم الاستقرار الإداري وسيطرة طبقة الانكشارية على مقاليد الحكم، إضافة إلى العنف الذي كان يصحب تغيير الحاكم من قسوة في تسليط العقوبات وسرعة التقاضي وتنفيذ الأحكام، وانتشار الفساد الإداري كالرشوة والغش، لكن مهما ذلك فلقد ترك لنا العثمانيون تراثًا أدبيًا وفنيًا لا يستهان به في كلا البلدين ويكفي أنهم أبعدوا بالحروب البحرية الخطر الاسباني والبرتغالي من بلاد المغرب العربي. ومهما قال التاريخ عن تاريخ الدولة العثمانية، فقد خدمت البلاد الإسلامية وجزء من بلاد المغرب العربي خصوصًا وحافظت على هويته وإسلامه أكثر من ثلاثة قرون إلى غاية سقوط البلدين في يد الاستعمار الفرنسي سنة ١٨٣٠ بالنسبة للجزائر وسنة ١٨٨١ بالنسبة لتونس وبذلك انتهى العهد العثماني تاركًا آثاره الحضارية والعمرانية التي لازالت قائمة إلى يومنا هذا.

## الهَوامِشُ:

(١) يرجع أصل الاخوة بربروس الى جزيرة ميديلي، كان والدهم يعقوب بن يوسف وأمهم أمة مسيحية أنجبت أربعة أطفال، أكبرهم اسحاق ويليه عروج ثم خير الدين فالياس وقد عمل هؤلاء الاخوة في التجارة وكان لهم شأن كبير في البحر المتوسط ويعود لهم الفضل في تحرير عدة مناطق من السيطرة الاوربية. يُنظر: علي محمد محمد، الصلابي: **الدولة العثمانية-عوامل النهوض وأسباب السقوط-**، ط٢، مكتبة الايمان، المنصورة، ٢٠٠٦، ص ١٩٧-١٩٨.

(٢) ينتمي العثمانيون إلى قبيلة الغز التركستانية بقلب آسيا، ثم اتجهوا غربًا إلى شبه جزيرة آسيا الصغرى وأسسوا دولتهم، وقد توسعت الدولة أواخر القرن الخامس عشر الميلادي خاصةً بعد فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣م على يد محمد الفاتح، وكان لهذ الدولة الدور الكبير في نشر الاسلام في أغلب مناطق العالم. يُنظر: أحمد عبد الرحيم، مصطفى: **في أصول التاريخ العثماني**، ط١، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٢، ص ١١.

(٣) بسام، العسلي: **خير الدين بربوس (والجهاد في البحر) ١٤٧٠-١٥٤٧م**، ط١، دار النفائس، بيروت، ١٩٨٠، ص ١٠٨.

(٤) الباشا: أصلها باش بمعنى الرأس في اللغة التركية وهي من ألقاب التشريف التي شاع استعمالها في العهد العثماني، منح في البداية لكبار ضباط الجيش والبحرية ثم أطلق على الوزراء والولاة وكبار الاعيان ورجال الدولة من غير الوزراء، وقد ألغي مع انهيار الدولة العثمانية. يُنظر: مصطفى عبد الكريم، الخطيب: **معجم المصطلحات والالقاب التاريخية**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص ٦٥.

(٥) أحمد، السليماني: **النظام السياسي الجزائري في العهد العثماني**، الجزائر، ١٩٩٣، ص ١٢.

(٦) **الآغا**: كلمة فارسية أصلها "أقا" وهي بمعنى الأب أو العم أو الأخ الآكبر، استعملها العثمانيون للدلالات كثيرة أهمها آغا الانكشارية، لقب أبرز رجال الدولة وهو بمثابة قائد الجيش. يُنظر: مصطفى عبد الكريم، الخطيب: المرجع السابق، ص١١.

(٧) مبارك بم محمد، الميلي: **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، ج٣، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، ص ١٧١.

(٨) **الداي**: كلمة تركية معناها "الخال"، ثم استعملت بمعنى الحاكم والرئيس، وأطلقت في العهد العثماني على طائفة من قادة القوات التي اشتركت في فتح شمال افريقيا، وبعد استيلائها على الحكم أصبح الدايات يقومون بعمل الولاة إلى غاية الاحتلال الفرنسي. يُنظر: مصطفى عبد الكريم، الخطيب: المرجع السابق، ص ١٧٥.

(٩) أحمد، السليماني: المرجع السابق، ص ١٧.

(١٠) مبارك بم محمد، الميلي: المرجع السابق، ص ٢٨٦.

(١١) أبو القاسم، سعد الله: **محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث – بداية الاحتلال-**، ط٣، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨٢، ص ٥٢.

(١٢) عزيز سامح، التر: **الأتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية**، تر: محمود علي عامر، ط١، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت،١٩٨٩، ص١٣٨ ١٣٩.

(١٣) ناصر الدين، سعيدوني: **موظفو الايالة الجزائرية في أوائل القرن التاسع عشر-صلاحياتهم الإدارية-**، مجلة المؤرخ العربي، ع ٣١، ١٩٨٧، ص ١٩١.

(١٤) عزيز سامح، التر: المرجع السابق، ص٥٦٣.

(١٥) أحمد، بن أبي الضياف: **اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٩، ص٢٧.

(١٦) رشاد، الإمام: **سياسة حمودة باشا في تونس ١٧٨٢-١٨١٤**، مج ٢، منشورات الجامعة التونسية، ١٩٨٠، ص٤٩.

(١٧) محمد الهادي، الشريف: **تاريخ تونس**، تعريب: محمد الشاوش ومحمد عجينة، ط٣، سراس للنشر، تونس، ١٩٩٣، ص ٧١ ٧٢.

(١٨) رشاد، الامام: المرجع السابق، ص ٥٢.

(١٩) شارل أندري، جوليان: **تاريخ افريقيا الشمالية**، تر: محمد المزالي والبشير بن سلامة، تونس، ١٩٧٤، ص ٢٧٦.

(٢٠) رشاد، الامام: المرجع السابق، ص ٥٦.

(٢١) يرجع أصله إلى جزيرة كريت، وفد أبوه الى تونس في عهد الدولة المرادية وانخرط في الجيش، ونشأ ابنه حسين في كنف البايات من بني مراد أين تقلد عدة وظائف في الولاية حتى أنتخب بايا على تونس واستمر حكمه من ١٧٠٥ إلى ١٧٤٠م. يُنظر: أحمد، بن أبي الضياف: المصدر السابق، ص ٨٥.

(٢٢) Mohamed Hadi Chérif: Pouvoir et Société dans la Tunisie de Hussein Ben Ali ;T2; Tunis; 1986; Pp. 90 91.

(٢٣) علي، المحجوبي: **انتصاب الحماية الفرنسية بتونس**، سراس للنشر، تونس، ١٩٨٦، ص٩ ١٠.

(٢٤) نفسه: ص ١٥.

(٢٥) وليم، سبنسر: **الجزائر في عهد رياس البحر**، تعريب: عبد القادر زبادية، دار القصبة للنشر، الجزائر، ٢٠٠٦، ص ٣٩ ٤٠.

(٢٦) عبد الكريم، غلاب: **قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي – عصر الامبراطورية. العهد التركي في تونس والجزائر-**، ج٢، ط١، دار الغرب الاسلامي، بيروت،٢٠٠٥، ص٣٥٥ ٣٧٥.

(٢٧) عزيز سامح، التر: المرجع السابق، ص٧.

(٢٨) حسين مؤنس: **تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي**، مج٢، ج٢، ط١، العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٢، ص٣٤٨.

(٢٩) عمار، عمورة: **موجز في تاريخ الجزائر**، ط١، دار ريحانة للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠٢، ص٩٩.

(٣٠) حسين مؤنس: المرجع السابق، ص ٣٤٨ ٣٤٩.

(٣١) وليم، سبنسر: المرجع السابق، ص ٥٣ ٥٤.

(٣٢) عبد الكريم، غلاب: المرجع السابق، ص٣٧٦.

(٣٣) ناصر الدين، سعيدوني: **النظام المالي للجزائر في العهد العثماني**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،١٩٧٩، ص ٢٢.

(٣٤) أبو القاسم، سعد الله: المرجع السابق، ص ٥٠ ٥٣.

(٣٥) حسين مؤنس: المرجع السابق، ص ٣٣٨ ٣٣٩.

(٣٦) عبد الرحمن، تشابجي: **المسألة التونسية والسياسة العثمانية ١٨٨١-١٩١٣**، تر: عبد الجليل التميمي، الشركة التونسية لفنون الرسم، تونس، ١٩٧٣، ص٢٨ ٢٩.

(٣٧) عبد الكريم، غلاب: المرجع السابق، ص ٣٧٥.

(٣٨) حسين مؤنس: المرجع السابق، ص ٣٥٠.

(٣٩) محمد الهادي، الشريف: المرجع السابق، ص ٧٦.

(٤٠) عبد الكريم، غلاب: المرجع السابق، ص ٣٧٧.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].



# الدور السياسي والاجتماعي لعلماء الجزائر خلال العهد العثماني (١٥١٨ – ١٨٣٠م)



**مخفي مختار**
باحث دكتوراه في التاريخ الحديث
أستاذ متعاقد "سابقًا"
جامعة التكوين المتواصل – الجمهورية الجزائرية

## مُلَخّصْ

اضطلع علماء الجزائر في العصر الحديث بأدوار مهمّة في الحياة السياسية والعلمية والدينية وشؤون الحياة العامة؛ من خلال المكانة التي تمتّعوا بها عند الحكّام والمحكومين، وتبوّئهم مراتب ومنازل في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافيّة، ودورهم في دعم أركان الدولة ومساندة النّظام، كما تميزت أيضًا بالنّفور من خلال استبعاد وتجاهل بعضهم. إنّ التاريخ السياسي للجزائر خلال العصور الحديثة تجاذبته قوّتان متنافستان، فمن جهة رجال السياسة والذين استمدوا قوتهم من السلاح، ومن جهة ثانية جمهرة العلماء (علماء، مرابطون، شيوخ زوايا) استمدّوا مكانتهم من الشرعية الدينية. شارك علماء الجزائر العثمانية الذين كانوا رجال دين وشريعة، من خلال المراكز الدينية (المساجد والزوايا) والعلمية (المدارس) والاجتماعية (الحرف والمهن)، واضطلعوا بالأدوار الجهادية، والأدوار التشريعية والقضائية باعتبارهم حماة الدين ومصابيح الهدى، ممّا جعل بعض الكتّاب والمؤرخين يصنّفونهم في القسم الثاني من نظم الدولة بعد رجال الحكم والسياسة. دور وأثر العلماء في الأحداث الهامة خاصةً ما يتعلّق بتحرير البلاد واسترجاع وهران من الإسبان، واعتماد الحكام عليهم في دعم حكمهم، ودورهم أيضًا في نهاية الحكم العثماني في الجزائر.

**بيانات الدراسة:**

تاريخ استلام البحث: ٢٠ يناير ٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر: ٠٩ مايو ٢٠١٥

**كلمات مفتاحية:**

العثمانيون، المرابطون، الأولياء، الصوفية، الجمود الفكري، الانكشارية، الثورة الدرقاوية

**معرِّف الوثيقة الرقمي:** DOI 10.12816/0045082

**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**

مخفي مختار. "الدور السياسي والاجتماعي لعلماء الجزائر خلال العهد العثماني (١٥١٨ – ١٨٣٠م)".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد السابع والثلاثون؛ سبتمبر ٢٠١٧. ص١٦ – ٢٥.

## مُقَدِّمَةُ

إنّ الأحداث التي عرفتها الجزائر العثمانية والتطورات المتلاحقة والمختلفة التي شهدتها البلاد جعلت العلماء يمثلون الرأي العام في الجزائر خلال العهد العثماني، من خلال اهتماماتهم بالحياة السياسة والقضائية، والثقافية والاجتماعية، فكانوا على اتصال مباشر مع الناس رغم مكانتهم العلمية والدينية، من خلال المجالس القضائية وحلقات الدرس وخطب الجمعة، والزوايا، في المساجد والأسواق والمقاهي[1]، ليبيّنوا لأفراد المجتمع موقف الدين من هذه الأحداث، والتحولات والظواهر، والتي ستساهم في بروز إنتاج فكري وثقافي غزير تتعدّد مظاهره وتتنوع مواضيعه، وستضطر العلماء إلى إبداء مواقف من خلال فتاويهم المختلفة سواء كانوا أحنافًا أم مالكيين.

اهتم العلماء بالأحداث التاريخية التي عرفتها البلاد على الأصعدة الثقافية والدينية والسياسية من خلال التأريخ للباشاوات والبايات وسير العلماء، بل امتد هذا الاهتمام إلى ما كان يجري في ساحة العالمية من تغييرات سياسية وفكرية اقتصادية وعسكرية. ومثل العلماء ورجال الزوايا والطرق الرأي العام الجزائري باعتبارهم المرشد الديني والموجه التربوي والجهادي، لذا حظيت هذه النخبة بالتقدير والاحترام في المدن، والتقديس والطاعة العمياء في الريف بسبب نفوذها الروحي والديني. وكان العلماء يؤدون رسالة هامة في المجتمع الجزائري من تعليم الناس بدينهم

بأحكامه وشريعته الصحيحة، وإصلاح ذات البين، وتحقيق العدل والمساواة وإعادة الحق إلى أصحابه من خلال القضاء.

## أولاً: الاهتمام بالتدريس

كان التّدريسُ أقلّ المناصب تنافسا بين العلماء، باعتبارها من الوظائف العامة لهم، وكان تعيين العلماء والمدرّسين في الوظائف التعليمية لا يخضع لإرادة الحكام، وقد ارتبطت بوظائف أخرى كالمفتي والخطيب، كان المفتي يتولى الإمامة والخطابة والتدريس[٢]، في حين لا يمكن للمدرّس أن يكون مفتيًا ولا خطيبًا، تقتصر مهمته على التدريس فقط[٣]. ويمكن أن نصنف نوعين من المدرسين: معلمو المدن ومعلمو الأرياف، والفرق بينهم في التصنيف والدرجة؛ فمن يدرّس الشباب هو أستاذ وشيخ، ومن يدرّس الفتيان هو معلّم أو مدرّس، ومن يدرّس الأطفال فهو مؤدّب، وهو الذي يتمّ اختياره من قبل سكّان الحي بالمدن، في حين يقوم سكان الريف والدّوّار باختيار مؤدّب الصغار. أمّا في مسألة تعيين المدرس فيتمّ تعيينه من قبل الباشا أو خليفته. أمّا في البايليكات فيتمّ تعيينه من قبل الباي أو حاكم الدار.[٤] أمّا في الريف فيُختار من قبل شيخ القبيلة. كما وجد مَن عرف بالمعلمين الزّائرين وهم الذين لا يتقاضون أجرا، وهذا ما كان يفعله الورتلاني حينما يزور بجاية كلّ عام خلال شهر رمضان بقوله: «ناويا الرباط، وتعليمي للطلبة راجيًا أن يكون لي حظ وافر منهم ونصيب كامل من عندهم...»[٥]. وهناك كثير من علماء الجزائر العثمانية اشتهروا بالتدريس، وفضلوه على باقي الوظائف، فقد عرف أبو رأس الناصري بطريقة تدريسه، وفصاحة لسانه وإلمامه الواسع بالمواضيع التي يعالجها.[٦] مكرّسًا حياته في التأليف والتدريس لمدة تزيد عن ستّ وثلاثين سنة بلا انقطاع، مع تولي مناصب ومهامّ أخرى منها الفتوى والقضاء والخطابة[٧]. وهذا سعيد المقرّي كرّس حياته في التدريس وخَرّج مجموعة من التلاميذ مثل ابن أخيه "أحمد المقرّي" و"سعيد قدورة". واشتهرت أسرة "سعيد قدورة" وأبناؤه بالتّدريس خاصّة محمّد الّذي عرف بفصاحة لسانه وكثرة علومه[٨]. ويعتبر "عمر بن محمد الكماد القسنطينيّ" المعروف بالوزّان و"أحمد بن عمار" من الذين كرّسوا حياتهم للتدريس ورفض تولّي منصب القضاء والتقرّبَ من الحكّام.[٩]

ورغم ضعف الحركة الثقافية وتراجع دور العلم والعلماء، إلا أن حركة التأليف تميزت بكثرتها وديمومتها، بحيث لا نكاد نجد عالما إلا وله مؤلفات كثيرة في شتى العلوم.

## ثانيًا: الاهتمام بالتأليف

ورغم ما قيل عن المجال الثقافي عن الجزائر العثمانية، إلا أن حركة التأليف كانت كثيرة ونشيطة، بحيث لا نكاد نجد عالما إلا وله مصنفات عديدة وفي جميع المجالات، ولم تمنع مهام الوظائف الدينية والثقافية التي تولاها العلماء، من وجود حركة التأليف والنّسخ كوسيلة لانتشار الكتب سواء من خلال جهود العلماء أنفسهم أو بتشجيع من بعض الحكام العثمانيين في بعض الفترات، مثل الباي "صالح" والباي "محمد بن عثمان الكبير" الذي شجع الطلبة والكتبة على نسخ الكتب، واختصار ما طال منها، وكان يكافئهم بسخاء[١٠]. ويذكر الشيخ المهدي البوعبدلي، أن الباي قد عين لها مدرسين أكفاء، وعلماء أجلاء، كالشيخ الطاهر بن حواء، والشيخ محمد المصطفى بن زرفة، والشيخ أبو رأس الناصري الذي تولى التدريس بالمدرسة سنتين[١١]، تركوا لنا ثروة أدبية ودينية وتاريخية، وقد اشتهر العديد من العلماء بالتأليف، منهم "أبو رأس الناصري، الذي وقال عنه أبو القاسم سعد الله: "أكثر أبو رأس من التآليف كثرة لا يضاهيه فيها أحد من الجزائريين حسب علمنا باستثناء أحمد البوني الذي تجاوزت تآليفه المائة".[١٢]

ومنهم "أحمد المقرّي" الذي غلب عنده التأليف على التدريس، وهناك من ترك القليل من المؤلفات منهم "محمد التواتي" و"عمر الوزان" و"سعيد قدورة" الذي كانت كتبه عبارة عن دفاتر الصغيرة وعبارة عن شروح وحواشي، و"علي الأنصاري " الّذي كانت تآليفه عبارة عن منظومات وشروح. ويتضح من ذلك تنوع مؤلفات علماء الجزائر العثمانية الذين كتبوا في كل علوم عصرهم، كعلوم القرآن والتفسير والقراءات والحديث والفقه والتوحيد والتصوف والنحو واللغة والبلاغة والعروض والمنطق والأصول والتراجم والأنساب والتاريخ والشعر مع احتوائها على العديد من الطرائف، والنوادر والأخبار والحكايات والاستطرادات المتنوعة

ولم تكن الأحداث التي عرفتها إيالة الجزائر العثمانية غائبة عن مؤلفات العلماء، سواء بإيعاز ذاتي في إطار تخليد وتمجيد البطولات، أو بإيعاز من الحكام، كما حدث في فتح وهران الثاني ١٢٠٦ه/١٧٩١م الذي كان حدثا هامًا، كلّف الباي محمد الكبير، كاتبه الخاص ابن زرفة الدّحّاوي بتسجيل وقائع الفتح، والتي لخّصها في مؤلفه "الرحلة القمرية في السيرة المحمدية". واشتهر أبو رأس الناصري بتأليف العديد من المؤلّفات معتمدا على النقل والرواية. ويعتبر كتاب "عجائب الأسفار ولطائف الأخبار"-وهو شرح وترجمة لقصيدة طويلة (١١٨ بيتًا) عنوانها "نفيسة الجمان في فتح ثغر وهران على يد المنصور بالله سيدي محمد بن عثمان" والتي وضعها وهو عائدٌ من الحج وبلغته الأخبار وهو (بجربة) التونسية، واحتوى على جزئين- يعتبر (أي عجائب الأسفار) مصدرًا أساسيًا فيما تعلّق بتأسيس المدن وأنساب القبائل ومراحل فتح وهران وبإنجازات محمّد الكبير.[١٣]

كما تحركت عواطف علماء آخرين، فكتبوا يؤرخون للحدث، ومنهم الفقيه "أحمد بن محمد بن علي ابن سحنون" صاحب "الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني"، وهو عبارة عن أرجوزة في فتح وهران الثاني، يدور محورها حول الإشادة بفاتحها "محمد الكبير" لكنها احتوت على أحداث تاريخية من مصادر مختلفة، سجّل روايات معاصريه مما جعله مؤرخًا وكاتبًا، ناقلاً للأحداث ملتزمًا الصدق والحقيقة. فالكتاب يعتبر مصدرًا حول حياة محمد الكبير وإنجازاته وحياةِ الحكام الذين سبقوه- مع تركيزه على

جهودهم في استرجاع وهران- ومِن المصادر الأساسية عن الحياة الثقافية والاجتماعية لبايلك الغرب، مع ذكر تاريخ وهران ومدينة الجزائر.[١٤]

عرف محمد بن هطال بمصنفه "رحلة الباي محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي الذي خَلّد وقائع رحلة الباي على الجنوب الغربي وإخضاعها والحدّ من نفوذ الطريقة التيجانية، وإن كان تسجيل الكثير من الأحداث خلال الحملة أكسبها طابع الرحلة من خلال وصف سير المحلة باليوم والساعة، وتقييد الأماكن والآبار والعيون، وما تحصّل عليه الباي من غنائم وجباية الضرائب، دون أن يهمل علاقة الرعية بسلطة البايليك، بل قدم انتقادًا لسياسة الحكام والجنود ضد السكان في جمع الضرائب.[١٥] بعد انعزال ابن ميمون عن المناصب الدينية بسبب الحاسدين من علماء المعاصرين له لجأ إلى التأليف، واشتهر بمؤلّفه الذي عنونه "التحفة المرضية في الدولة البكداشية"، الذي ألفه في سيرة الداي "محمد بكداش" تقديرًا ومحبة له ورغبة في التقرب إليه، مشيدًا بخصال ومحاسن بكداش، وإرجاع نسبه إلى النّسب الشريف وغير ذلك من عبارات التعظيم والثناء المبالغ فيهما، إضافة إلى احتواء تحفة ابن ميمون على مجموعة من المقامات ذات عناوين مستقلة، والتي تحتوي معلومات تاريخية ذات أهمية عن أوضاع إيالة الجزائر مع مطلع القرن الثامن عشر أبرزها فتح وهران الأول.

هناك بعض تأليف التي ساعدت على رسم الأوضاع الاقتصادية والسياسية والثقافية التي عرفتها الجزائر العثمانية خلال الحكم العثماني، وهناك مؤلفات عبارة عن تراجم لشخصيات سياسية وعلمائية مثل مؤلف "البستان" لابن مريم، و"منشور الهداية" لابن الفكون. فكتاب منشور الهداية للفكون يضمّ معلومات هامّة تتصل بالحياة الثقافية والاجتماعية وبالحياة السياسية خلال القرنين العاشر والحادي عشر الهجري الموافق السادس والسابع عشر لميلادي، إذ نستطيع أن نقف على ما كتبه في هديته عن الواقع الثقافي والحياة الدينية، من أخبار الكتاتيب والزوايا، ونشاط العلماء ومراسلاتهم، وطرق التدريس، والخناق الذي فرضته السلطة على العلماء كما ضمّنه مجموعة من التراجم بلغت خمسة وسبعين شخصية قسنطينية من العلماء، إلا أنّ الهدف من كتابه كان هدفًا إصلاحيّ.[١٦]

ويعتبر الحسين بن محمد الورتلاني (١١٢٥هـ/١٧١٣م) نموذجًا لهؤلاء العلماء، يذكر في رحلته التي انتهى من إملائها ١١٦٢هـ تحت عنوان "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"، تعتبر الرحلة من المصادر الأساسية التي لا يمكن الاستغناء عنها في التعرف على أوضاع البلدان منه الجزائر في القرن الثاني عشر الهجري الموافق للقرن الثامن عشر، سجل الوضع الاقتصادي والاجتماعي، ونقل صورة صادقة عن الوضع الثقافي، خاصة ترجمة للعديد من الأولياء والصالحين والأشراف فيذكرهم بالوقار والعلم والصلاح ويذكر كراماتهم[١٧]، وإن كان قد سبقه الصباغ وابن مريم والبطيوي.[١٨]

وفي الصدد نفسه يأتي أبي سالم عبد الله بن محمد العياشي (١٠٣٧-١٠٩٠هـ)، الذي ترك العديد من التصانيف منها في التصوف بعنوان "تنبيه ذوي لهمم العالية على الزهد في الدنيا والآخرة"، و"تحفة الأخلاء بأسانيد الأجلاء" وعبارة عن فهرسة لشيوخه، وهي تشبه كتاب "فتح الإله منته" لأبي رأس الناصري، غير أن رحلته المعلونة "بماء الموائد" أو الرحلة العياشية، من أبرز مصنفاته، والتي وصف فيها طريق الحج المغربي المعروف بطريق الصحراء الشمالية، عرضا الأوضاع الاقتصادية (الزراعة والصناعة) والاجتماعية (دراسة للمجتمعات من العادات، والتقاليد، والعمران، والأوضاع الصحية) للمناطق التي مر بها، إضافة إلى المعلومات عن الأحداث الجغرافية والتاريخية والأماكن والمعارك، والأبرز من ذلك تعتبر تعبيرًا صادقًا عن الأوضاع الثقافية للعصر، بالحديث عن العلماء والفقهاء والأولياء والدراويش والزوايا والطرق الصوفية، والمكتابات للقرن الحادي عشر الهجري السابع عشرا لميلادي والإجازات.[١٩]

وفي إطار أدب الرحلة والتاريخ دائما، يأتي مصنف "لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال" والمعروف لعبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، والتي جاءت في شكل مذكرة شخصية لما عايشه وشاهده من أحداث لفترة أربع سنوات (١١٥٦-١١٦١هـ/١٧٤٣-١٧٤٨م) من حياته، احتوت أخبار عن الجزائر والمغرب دون المشرق عكس الرحالات الأخرى، تزخر على معلومات تاريخية واجتماعية وثقافية، تميل إلى دقة الوصف والصدق والموضوعية، يذكر الأماكن، والمعاملات عقودها وأحكامها، الأسعار والنقود، المواسم والأعياد، علاقة العلماء ببعضهم البعض ومجالسهم، الإجازات والشهادات، كما ترك ابن حمادوش مصنفًا في علم النبات والتداوي بالأعشاب المعروف "بكشف الرموز في بيان الأعشاب"، وينسب إليه رسالة صغيرة في وظائف واضطرابات الجهاز التناسلي تحت عنوان" تعديل المزاج بسبب قوانين العلاج"[٢٠].

وكذلك مؤلف "أنيس الغريب والمسافر في الطرائف والنوادر" لمسلم بن عبد القادر، حول الأحداث التي عرفها بايليك الغرب وأبرز باياته بداية من محمد الكبير نهاية بحسن بن موسى، مع إبداء رأيه في تصرفاته اتجاه العلماء والرعية؛ وله عدة تصانيف منها شرح في المفردات اللغوية "نظم الجواهر في سلك هل البصائر" والذي شرحه أبو رأس الناصري بطلب من صاحبه، فوضع له عنوان مختصر بعنوان" أسماع الأصم وشفا السقم في الأمثال والحكم".[٢١] أما العطار، فقد ابدى منذ صغره ولوعا بالتاريخ والأخبار، فقد ترك عدة مؤلفات أبرزها "تاريخ قسنطينة" وإن كان المؤلف عرف بعناوين عديدة منها كتاب الأخبار المبينة لاستيلاء الترك على قسنطينة" أو "الأخبار في تاريخ قسنطينة، وفريدة منيسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلاءهم على أوطانها، ومهم يكن يعتبر الكتاب من أوائل الكتب التي عالجت تاريخ قسنطينة بتفصيل وذكر أحداث لم يذكرها غيره، من تاريخ

أخر بايات قسنطينة، أما مؤلفه "سنين القحط والمسبغة، تعرض فيه للأوضاع الاقتصادية وسنين القحط والغلاء.

وهناك مؤلفات تحدثت عن ثورات الشعبية مثل مؤلف: "درأ الشقاوة عن السادات درقاوة" للمشرفي، "درأ الشقاوة في حروب درقاوة" لأبي رأس، ومجاعات قسنطينة، وتاريخ قسنطينة للعنتري. وعرف إسماعيل بن عودة بن الحاج المزاري البحثاوي، بكتابه "طلوع سعد السعود" الذي وضعه عن تاريخ وهران، وباياتها ومخزنها، وعلمائها وأوليائها، واستيلاء الأسبان عليها ومحولة الأتراك استرجاعها، وتطرق إلى ثورة الدرقاوية والتيجانية، سياسة البايات ضد العلماء والسكان في أواخر الحكم العثماني.

## ثالثًا: الاهتمام بالسياسة

عرفت فترة الحكم العثماني بالجزائر أحداثًا تاريخية كثيرة منها أحداث داخلية، وإقليمية، ودولية، لم يكن العلماء والمرابطون بعيدين عنها بحكم معاصرتهم ومعايشتهم لها، فخَصَّصُوا لها حيزًا من كتابتهم ومؤلفاتهم، مما يدل على اهتمامهم بأوضاع البلاد والعالم، وأوضاع المسلمين خاصة، وأوضاع غير المسلمين عامة. لقد اهتم علماء الجزائر العثمانية بالأحداث والتطورات الداخلية والخارجية، اهتم ابن سحنون بأخبار الثورة الفرنسية، وكتب أبو رأس الناصري في أثر الحملة الفرنسية على مصر، وعن الحركة الوهابية، وكتب ابن العنابي عن إصلاح الجند ودعا إلى أخذ بالنظم الغربية.

رغم الشروط التي وضعها حكام الجزائر العثمانية للعلماء والمرابطين في القضايا السياسية، وهي عدم تدخلهم في شؤون السياسة والحكم، وحصر دورهم السياسي في تأييد السلطة[٢٢]، مع فسح المجال الثقافي لهم في تولي المؤسسات الدينية والثقافية.[٢٣] منذ البداية رسم باشاوات الجزائر العثمانية علاقتهم بالعلماء ووضعوا الخطوط الحمراء على أنه رجل الحرب والسياسة، وأن العلماء هم رجال العلم والقلم لا يجوز لهم التدخل في أمور الحرب والسياسة وإن تجاوزوا ذلك لاحقتهم لعنته وسخطه.[٢٤]

كان للعلماء دور سلبي في الحياة السياسية وشؤون الحكم، إذ لم يكن لهم دور في انتخاب أو اختيار أو تنصيب حاكم الجزائر وباقي مجلس أعضاء حكومة الداي، واقتصر دورهم في حضور اجتماعات الديوان بمناسبة مراسيم تعيين الحاكم الجديد، إذ كان للأوجاق الدور الفعال في اختياره وتنصيبه وتحديد مصيره، من خلال العزل أو الاغتيال، في حين كان العلماء والمرابطين ينتظرون انقشاع الضباب والرؤيا بعد ثورة الأوجاق على الباشا بقبول الأمر الواقع بتقديم التبريكات والبيعة والولاء، تجنبا لغضب الباشا أو الداي.[٢٥]

**١/٣- انتقاد الأوضاع الثقافية والدينية:**

ظهر علماء نجباء رفضوا الوضع القائم وحاولوا تحطيم أغلال الجمود والتقليد، فهذا "يحي الشاوي" كان كثير الانتقاد لأهل عصره من العلماء بسبب جمودهم وتقليدهم ورفضهم لكل جديد، أما الشيخ "محمد البوزيدي" حين انتصب للتدريس بجامع القصبة في قسنطينة في علم التوحيد، قال «إن المقلد غير مؤمن وأن العامة مختلف في إيمانها»[٣٦]. إذا كان الكثير من العلماء مجدوا الأولياء وذكروا كراماتهم وكتبوا أقوالهم وأفعالهم من خلال مؤلفاتهم مثل ابن مريم في بستانيته، والآغا المزاري في طلع سعد السعود، في المقابل انتقد آخرون تماما، منهم الشيخ "عبد الكريم الفكون" الذي اتخذ من مؤلفه "منشور الهداية "سيفًا مشهرًا على أهل من ادعى الولاية والعلم من أهل الزندقة والبدع الدجالين بوجه خاص، وجاء انقلابًا على الأوضاع السائدة التي أصبح فيها الجهلة والمشعوذين أدعياء للعلم، والعلماء أصبحوا في الدرجات الدنيا، وبذلك يقول: "كل ذلك والقلب مني يتقطع غيرة على حزب الله العلماء أن ينتسب جماعة الجهلة المعاندين الضالين المضللين لهم، أن يذكروا في معرضهم، وغيرة على جانب السادة الأولياء الصوفية أن تكون أراذل العامة، وأنذال الحمقى المغرورين أن يتسموا بأسمائهم"[٢٧].

لقد كان بعض أدعياء العلم والولاية من الدجالين الكذّابين والمبتدعة الضالين المضلّين يعملون ليل نهار للاستيلاء على أرزاق الناس بمختلف الحيّل، ويذكر الفكون في هذا الصدد أحد هؤلاء، قاسم بن أم هانئ: «... أن هذا الرجل كان في ابتداء أمره ذا سمت حسن بأن جانب جبايا زواياهم يؤدون لهم الأعشار والزّكوات، فكان ذلك الرجل مباعدا لأمورهم مشغولاً عنهم بجعله لنفسه خلوة في أماكن يعدها ويواظب على الصلوات وعلى الصوم، تناول طعام الشّعير ولبس الغرارة والمرقعّة حتى أمال القلوب إليه وأصغى الأذان نحوه، وسببّ ذلك أن رعاياهم امتدت إليها أيدي اللّصوص فلم يبق لها بينهم حرم وصاروا يأخذونهم حيث ما وجدوهم إلا أن يجعلوا غرامة عليهم للصوص وذلك بعد موت جده، وشق العصا بجبال قرب نقاوس، وخرجت إليه عساكر قواد قسنطينة، وافتّضح أمره وهرب إلى بعض نواحيها، سقطوا في أعين الخاص والعام، وصارت الأعّين ترقبهم بما فعل والده»[٢٨].

لكننا نجده أيضًا لم يخرج عن روح العصر الصوفي الذي طغى على ثقافة المجتمع بعلمائها، فقد خصص فصلا من الكتاب لمن عرفه من العلماء والصالحين الذين تأثر بهم، ومن ذكر أحوالهم وصفاتهم ومناقبهم وفي مقدمتهم "عمر الوزان" (ت. ٦٩٥هـ) الذي وصفه بعدة أوصاف منها قوله: "شيخ الزمان" ومنها "العالم العارف بالله الرباني" ومنها "وله في طريق القوم اليد الطولى" ومنها "ويقال إنه دعوة الشيخ الصالح القطب الغوث أبي العباس أحمد زروق" ومنها "، ثم يذكر عددًا من كرامتهم[٢٩] وللإشارة فهو لا ينكر أحوالهم وصفاتهم بل يشيد بها؛ الأمر الذي جعله يتناقض مع أطروحاته وأفكاره، وهناك فصل خصصه لمن صب عليهم غضبه فنعتهم بكل أوصاف الجهل الهرطقة، وجعلهم من المغضوب عليهم[٣٠]، وطائفة حظيت باحترام وتقدير، جعل منهم من رضي الله عنهم[٣١]، فهو ينكر عن الأولى من الأوصاف والمناقب بينما لا

يجد حرج في نعتها ووصفها بالثانية، يقول في هذا الصدد مثلما يذكر "كرامات الأولياء مما يجب الإيمان بها، ورؤية الملائكة جائزة"[٣٢]، ولكنه بالمقابل يعيب على الشيخ محمد ساسي البوني أنه صار في "بلد بونة" "رئيس الباطن والظاهر" ووصفه " وينكر عليه أنه "ادعى مقام الأكابر من الأولياء" ثم يذكر أنه كان شاعرًا، قد ملأ شعره بعبارات "الحانِ والدنانِ" و"يزعم أنه شرب من كأس الصفوة" وأنه "جلس على بساط القرب" وأنه "عرج به إلى السماء وكشف له عن أحوال الملكوت"[٣٣]، وكل هذه وغيرها مما يتهم به الفكون، الشيخ البوني، ويعتبر ذلك من البدع!

ورغم محاولته اتخاذ العقل والحزم في التعامل مع الأمور الغيب، وإنكار ومحاربة من ادعى الكرامات والخوارق والشطحات الصوفية، فإنه لا ينكرها على من يأتي بها أو يرويها عن نفسه وغيره، إذا "كان بالمثابة المثلى من طريق أتباع السنة والمعرفة بالله والحق أبلج والباطل لجلج"[٣٤]، إلا أنه يبدو أنه أخفق في كل ما له علاقة بالتصوف والولاية والكرامة، لكنه أنكر كل من مدعي لها أو ليس أهلا لها. إن الصوفية الذين قصدهم الفكون، هم المتصوفين الحقيقيين حيث خصهم بفصل في تأليفه «منشور الهداية» وليس المتصوفين الدجالين الخارجين عن ملة الدين وثوابت المجتمع حيث سماهم بأدعياء الولاية.

**٢/٣- مبعوثين ومفاوضين ووسطاء:**

لم يقتصر دور العلماء والمرابطين على الوساطة في الأمور الداخلية، بل تجاوزت مهامهم الحدود الخارجية، كمبعوثين وسفراء وسياسيين في وقت السلم والحرب[٣٥]، خاصةً بين تونس والمغرب الأقصى حيث الصراعات دائمة بينهما، فكان للعلماء دور كبير في عملية الصلح بين الطرفين.

كان أول السفراء "محمد بن علي الخروبي الطرابلسي" إلى المغرب الأقصى، ومن أشهر السفارات التي قام بها العلماء، كسفراء ومبعوثين للسلطة، العلامة "محمد بن محمود العنابي "٣٦، الذي كان عالمًا وفقيهًا ودبلوماسيًا ناجحًا[٣٧]، حين فوض من قبل الداي "عمر باشا" (١٢٣١-١٢٣٣هـ/١٨١٥-١٨١٧م) سفيرًا في المغرب الأقصى على إثر حملة (EX-MAOTH) إكس موث (١٢٣٢هـ/١٨١٦م) طالبًا العون العسكري من السلطان المغربي "مولاي سليمان" لتجديد جيشه وأسطوله، وقد أورد الزهار في مذكرته: «أن الباشا كتب إلى السلطان كتابا بعثه مع السيد الحاج محمد بن العنابي قاضي سادة الحنفية رسولاً»[٣٨] وقد نجح في ذلك سفارته؛ ولنفس السبب أرسله الداي في سفارة إلى استانبول (١٢٣٣هـ/١٨١٧م).[٣٩]

من أشهر العلماء الذين تولوا السفارة إلى جانب ابن العنابي، "ابن هطال التلمساني" الذي تولى مناصب سياسية كثيرة في بايليك الغرب أيام الباي "محمد الكبير" حيث كان مستشاره وكاتبه الخاص، ومبعوثا له، وسفيرا له في المهمات الصعبة، عندما بعثه الباي رفقة "ابن سحنون" خلال استعداد لفتح وهران[٤٠]، محملا بالهدايا للسلطان المغربي من أجل السماح له بشراء الأسلحة من بريطانيا، وتوجها إلى مضيق جبل طارق حيث وجدا مائتي قنطار من البارود اشتراها الباي[٤١]. وفي هذا الإطار يقول ابن سحنون الراشيدي: «ثم وجه لملك المغرب هدية من قاضي محلته، وكاتبه وهو الأديب الماهر سيدنا أحمد بن هطال».[٤٢]

كما كان هذا الصلح يتم بمباركة المرابطين، ففي (١١٠٤هـ/ ١٦٩٢م) عهد الداي "شعبان" أرسل جيشا لمواجهة جيش السلطان المغربي "مولاي اسماعيل" عندما وصل مدينة فاس، مما دفع السلطان المغربي لطلب الأمان والعفو، وأرسل ابنه "عبد الملك لإبرام الصلح الذي استقبل في الجزائر من قبل المرابطين قبل أن يتوجه إلى الديوان ولما تم الصلح باركه المرابطون[٤٣]. أما مع تونس فكان الصلح يتم بواسطة العلماء في كثير من الأحوال، فلما أراد الداي"علي باشا" (١٢٢٤-١٢٣٢هـ/ ١٨٠٩-١٨١٦م) عقد الصلح مع تونس أرسل وفدا من بينهم الشيخ "علي بن النقير" الذين وُفِقُوا في مهمتم[٤٤]، ولعب مرابطوا "بني ناصر" دورًا في استقرار العلاقات بين قسنطينة وتونس [٤٥].

## رابعًا: الدعوة إلى إصلاح الجيش

كما عالج ابن العنابي قضية جوهرية وهي تعلم العلوم من الكفرة وما موقف شريعة الإسلامية من ذلك، وأن القضية أخذت جدالا بين علماء العالم الإسلامي عامة والجزائر خاصة، ما حكم تعلم المسلم علوما من غير المسلمين؟ من خلال كتابه "السعي المحمود"، تطرق ابن العنابي إلى هذه المسألة، مستدلا بوقائع من التاريخ الإسلامي ومن السيرة النبوية المطهرة خوصا، ففي غزوة بدر، أسر رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين فردا من قريش، فبدأ بأخذ الفدية منهم على قدر أموالهم، واشترط رسول الله- صلى الله عليه وسلم- على من لا يملك أموالا لفديته، بأن يقوم بتعليم عشرة غلمان، لقاء حريته، بحكم أن أهل مكة يتقنون الكتابة عكس أهل المدينة، كما روى زيد بن ثابت، أن رسول الله (ﷺ) طلب منه تعلم اللغة السريانية لقراءة الرسائل الواردة منهم، فتعلمها في سبعة عشر يومًا.[٤٦]

وانطلاقًا من هذه الوقائع التاريخية رأى ابن العنابي ضرورة تعلم الفرد المسلم لما يجهله ولو من أفراد أو جماعات يناقضونه عقيدة وفكرًا، فيقول في ذلك: «فإنه إذا جاز تعلم الكتابة منهم التي يتوسل بمعرفتها إلى كتابة كلام الله تعالى، وتلاوته وحفظه، فالأولى غيرها كالأمور الحربية التي نحن في بيان الاحتياج، لجواز تعلمها منهم، مع قيام الضرورة إلى ذلك، ودلت الأخبار الباقية على جواز تعلم ما اختص به الكفرة من معارفهم، إذا توقف عليها أمر ديني ... وعن هذا ومثله عد جمع من مشايخنا الحساب والطب في جملة العلوم المفروضة على سبيل الكفاية، مع أنهما من علوم كفار الفلاسفة»[٤٧].

لم يكتف العالم ابن العنابي بإظهار أخطار المشروع الأوروبي الاستعماري، بل بين الطرق لمواجهة هذا المشروع، حيث دعا إلى التقرب من الأوروبيين دون استثناء ونادى بتقليد الأوروبيين في مبتكراتهم وصنائعهم وأسلحتهم وفنونهم العسكرية، «علم الخطب

في تعريف نظامهم...فدعت ضرورة الحال على استعلام ذلك من قبلهم، والتدرب على ما ألفوا من صنائعهم وحيلهم...»(٤٨)، بل دعا إلى فكرة التجديد رافضا الانغلاق مؤكدًا ذلك بقوله: «إذا ابتدعوا من أدوات الحرب وصنائعه أمرا له موقع لا نؤمن من استطالتهم به علينا، لزمنا بذل الوسع في تعلمه وإعداده لهم والاجتهاد في مجاوزتهم فيه»[٤٩]. ويظهر أن ابن العنابي كان يحمل هموم الأمة الإسلامية ومتخوفا على مصيرها في ظل المشروع الاستعماري الأوروبي التوسعي، ورغم موقفه العدائي منهم «خيب الله آمالهم! وأكذب ظنونهم! وأبطل أعمالهم!»[٥٠]، وهذا الحرص وضع له تأليف سماه "السعي المحمود في نظام الجنود"، ومنطلقا ومؤتمرا بأمر الله تعالى على إعداد العد لمواجهة أعداء الإسلام في قوله تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.[٥١]

إضافة إلى ظهور محمد ابن العنابي كعالم متفتح يريد الإصلاح لأمته من بعث روح النهضة في المجتمع الذي بدأ الانحطاط ينخر من جسمه لا بد عليه من تجديد نفسه ومسح غبار التخلف والأخذ بالنهضة من خلال التوفيق بين الأصالة والمعاصرة، وإن كان سابقه في هذا سبيل المفتي المالكي أحمد بن عمار، فقد نادى بحرية الرأي، وتوظيف الإنسان لقدراته العقلية، وعدم الاكتراث من مخالفة السلف من الأوائل، من خلال الابتعاد عن التقليد بل انتهاج منطق التجديد[٥٢].

## خامسًا: الموقف من الثورة الدرقاوية

لقد أحدثت الثورة الدرقاوية اختلافًا في المواقف ووجهات النظر بين العلماء والمرابطين، على غرار سياسة الاستطفافات، بين مؤيد للثورة يحسبون ضد السلطة، وجانب رافض وناقم على الثورة يقف في صف السلطة، ومنهم موقف الشيخ "أبي رأس" من الثورة الدرقاوة (1217هـ/١٨٠٢م)، الذي كان مواليًا للأتراك العثمانيين ومعاديًا ناقمًا على ثورة الدرقاوة التي اعتبرها فئة باغية ظالمة أفسدت في الأرض ولم تراع حرمة ولا مقدسات، وخصها بمؤلف" درأ الشقاوة في حروب درقاوة" وعلى أنها ساهمت في حركة الجمود الفكري والركود الثقافي، قال عنها في سيرته فتح الإله ومنته: «وقد خبطتنا فتنة لم تكن فيها أتقياء بررة، ولا أقوياء فجرة، مع ما داهمنا من الطاعون، الذي تهرب منه الواعون، فاتصلت علينا أواصر النكبات، والبليات، من الخوف والورع، الذي في الفؤاد مودع»[٥٣].

رغم أنه كان من ضحاياها إذ أتهم من قبل خصومه بالوقوف إلى جانبها مما أضطره إلى الهروب؛ يشاطره في ذلك كل من الزياني محمد ابن يوسف ، ومسلم بن عبد القادر، ومحمد الصالح العنتري، وابن فكون الذي وقف مع السلطة العثمانية ضد ثورة ابن الأحرش، وقفت جماعة من العلماء إلى جانب الثورة الدرقاوية وأيدها منهم العربي المشرفي الذي اعتبرها ثورة ضد الظلم والسياسة التي مارسها العثمانيين ضد العلماء والسكان، ويظهر ذلك في ما ورد في كتابه "الذخيرة" حين قال: «وفي حدود العشرين من قرننا هذا، ثار عليهم درقاوة أهل النظافة والنقاوة» كما خصها بتأليف مهم سماه: "درأ الشقاوة عن السادات درقاوة"[٥٤]، والمؤلفين المذكورين يبن مدى تباين في مواقف بين العلماء من السلطة والثورة، إضافة إلى الزبوشي وابن بركات.

## سادسًا: الاهتمام بالجهاد العسكري

كان العلماء في مقدمة من وقف خطر الاحتلال الاسباني، وعلى الخصوص المرابطين، خاصة بعد اِلتِفَاتِ الأهالي حولهم باعتبارهم السلطة القوية والقادرة على حمايتهم والدفاع عنهم، أمام فشل السلطة السياسية آنذاك. فالزوايا والطرق الصوفية كانت قادرة على إثارة الحماس وتجنيد الأتباع وتنظيم المقاومة، باسم الجهاد في سبيل الله ضد التواجد الاسباني.[٥٥] كان العلماء والمرابطون "الحزب الديني" المنادي بالجهاد باستمرار[٥٦]، فالحملات المسيحية المتكررة على السواحل الجزائرية، جعلت العلماء وعلى الدوام يقومون بدورٍ رئيسي في مواجهة الاحتلال الصليبي ورد العدوان الخارجي من خلال تجنيد السكان المحليين وحثّهم على حمل السلاح، أو من خلال أعمال التعبئة التي تتطلبها الحروب والمواجهات العسكرية عبر الفتاوى التي تدعو إلى جهاد الكفار الصليبيين وتحرير الأرض المغتصبة. ولم تقتصر دعوة العلماء على الجهاد والحث عليه بقصائدهم، بل هناك علماء شاركوا بأنفسهم أومن خلال أتباعهم أو مريديهم في الدفاع عن البلاد[٥٧] وعلى أن يكونوا في الصفوف الأمامية أفردًا أو جماعات، مع تذكير الحكام وتشجيعهم على الجهاد، وهذا من خلال شعر "الاستصراخ".

وهذا ما ساعد على ظهور العلماء المجاهدين، فلم تقتصر أعمالهم على العبادة والزهد فقط، ولكنها تعدت ذلك إلى الجهاد في سبيل الله، ومنهم من اختار الرباط للظفر بالشهادة، باعتباره الطريق الأسرع والمضمون إلى الجنة، فقد ورد عن المدني أن "أبا عبد الله محمد الموفق التلمساني" كان أكثر الناس حرصًا على الظفر بالشهادة[٥٨]، ونجد هذه الازدواجية متمثلة في وجود مصلى بجانب الرباط تقابله حجرات صغيرة بغير نوافذ يرابط فيها الجنود الصوفية.[٥٩]

رغّب علماء الجزائر العثمانية في إقامة الرباطات والمشاركة فيها، واستدلّوا على ذلك بالآيات القرآنية والأحاديث النّبوية: قال الله تعالى ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَبِطُواْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون﴾[٦٠]، وقال مصطفى صلى الله عليه وسلم: «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه»[٦١]. وقال أيضًا: «كل ميّت يختم على عمله إلا المرابط، فإنه ينمو عمله إلى يوم القيامة، ويؤمن من فتان القبر".[٦٢] الأمر الذي ساعد على ظهور الرباطات والتي يعرفها الدكتور بلبروات على: «أن الرباط عبارة عن بيوتات الاعتكاف والعبادة، وتعليم الشريعة والشيوخ والطلبة يتعلمون

فيه... وإذا كان الرباط على الثغور، فإن أهم أهداف الطلبة المرابطين هو التسلح الروحي لمجاهدة العدو، والرباط لا يخضع لأي طريقة بعينها إلا أنه متفتح في كثير من الأحوال على التعاليم الصوفية»[٦٣]، وقد اشتهرت إيالة الجزائر بالرباطات وأشهرها رباط وهران بالخصوص من اجل تضييق الخناق على العدو الأسباني. شارك في هذا الرباط عدة علماء منهم طاهر بن حواء، ومحمد المصطفى بن زرفة، ومحمد بن علي بن الشارف المازوني ووالده، حيث كانوا يدرسون ويحاربون[٦٤]، في حين كان الطلبة جنودا وعلماء في آن واحد[٦٥].

يبين الصوفي "عبد بن المبارك "الفرق بين الصوفي العابد والصوفي المرابط:

يَا عَابِدَ الحَرَمَين لَوْ أَبْصَرْتَنَا

لَعَلِمتَ أَنَكَ فِي العِبادَةِ تَلْعَبُ فَنُحُورُنَا بِدِمَائِنَا تَتَخَضَّبُ
أَو كَانَ يَتْعَبُ خَيْلَهُ فِي بَاطَلٍ فَخُيُولُنَا يَوْمَ الصَبِيحَةِ تَتْعَبُ
رِيحِ العَبِيرِ لَكُم نَحْنُ عَبِيرُنَا رَهْجِ السَنَابِك وَالغُبَار الأَطْيَبُ
وَلَقَد أَتَانَا مِن مَقَالِ نَبِيُّنَا قَوْلٌ صَحِيحٌ صَادِقٌ لاَ يَكذِبُ
لاَ يَسْتَوِى غُبَارَ خَيْلِ اللهِ فِي أنفِ امْرِئٍ وَدُخَانَ نَارِ تَلْهَبُ
هَذَا كِتَابُ اللهِ يَنْطِقُ بَينَنَا لَيْسَ الشَهِيدُ بِمَيِتٍ لاَ يَكذَبُ

الرِبَاطُ لِلتَعَبُدِ وَالجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ[٦٦]

وفي رباط وهران تجلّت روح المقاومة والفداء في صفوف الطلبة والعلماء من مختلف مدارس المنطقة وزواياها المنتشرة نواحي غريس"[٦٧]. وكان من أكبر العلماء المحرضين على الجهاد الشاعر ابن عبد الله محمد الملقب "ابن آقوجيل" الذي خاطب "الداي أحمد باشا"(١٦٩٥-١٦٩٨م) وحثّة على استئناف الجهاد والقتال جاء فيها:

وَلْتَفِتِ نَحْوَى الجِهَادِ بِقُوَةٍ وَالكُفرَ اقْطَعِ أَصْلَهُ بِذُكُور
جَهِز جُيُوشًا كَالأُسُودِ وَسَرِحْنَ تِلْكَ الجَوَارِي فِي عُبَابِ بُحُورِ
أَضْرِم عَلَى الكُفَارِ نَارَ الحَرْبِ لاَ تَقْلَعْ وَلاَ تَمْهِلْهُم بِفُتُورِ
وَبِقُرْبِنَا وَهْرَانَ ضَرسٌ مُؤْلِمٌ سَهْلُ اقْتلاَعٌ فِي اعْتِنَاءِ يَسِيرِ
كَم قَد أَذَت مِن مُسْلِمِينَ وَمَا سَبَتْ مِنْهُم بِقَهْرِ أَسَرَةً وَأَسِيرٌ
فَانْهَض بِعَزْمِكَ نَحوَهَا مُسْتَنْصِرًا بِاللهِ فِي جِدٍ وَفِي تَشْمِيرٍ
بِعَسَاكِرٍ مِثْلَ السُيُولِ تَزَاحَمَت لِلسَبْقِ تَحتَ لِوائِكَ المَنْصُورِ
أَو كَالسَحَابِ بِرُوقِهِ وَرُعُودِهِ نَارَ المَكَاحِلِ أَوقَدَت بِزَفِيرِ
بَادِرِ بِنَا نَغْزُو العَدُوَ وَسارِعْن فِي حَسْمِ شَوْكَتُهُم وَفِي التَدْبِيرِ
وَأْمُر جُيُوشَكَ بِالْتِهَابِ لِلْعَدَا وَالحَزمِ حَرِضِ عَزمَهُم بِنَفِيرِ
اقْصِد بِلاَدَ الكُفرِ شَتِت شَمْلَهَا خَربِ بِهَا مَا كَانَ مِن مَعْمُورِ
اقْتُلْهُم قِتَالاً ذَرِيعًا وَاتْرُكَنَ أَشْلاَءَهُم مَرْعَى لِطَعَمِ نُسُورِ[٦٨]

فهذا محمد آقوجيل يحرض العثمانيين على إنقاذ وهران:

فَمَا لِبَنِي عُثْمَانَ فِي سُنَةِ الوَنَا وَوَهْرَانَ تَزهُو نَحْوَهُ بِالمَرَاغِمِ
وَيَا مَعْشَرَ الأَتْرَاكِ مَا بَالِ سَعْيَكُم أَشْرَطهَا هَذِهِ العَلاَئِمُ[٦٩]

وهذا الشاعر أبو العباس أحمد أبي عبد الله يستصرخ لإنقاذ وهران:

يَا مَعْشَرَ الأَتْرَاكِ أَيَا كُلِ عَالِمِ وَكُلَّ وَلِي حَافِظِ الأَوَامِر[٧٠]

وهذا "ابن سحنون" له أبيات في هذا الأمر:

فَكَيفَ بَأرْضِ الشِرْكِ وَهِيَ مَنَازِلُ بَدَا حُسْنُهَا عَن ساَكِينِهَا وَشُومَهَا
فَلاَ تَرهَبُوا مَنْ مَانِعَاتِ حُصُونِهَا فَفِي عَزْمِهَا مَا تُقَاوِمُ رُومَهَا[٧١]

وكذلك العلامة سيدي "محمد عبد المؤمن" يستصرخ الداي "حسن الشريف باشا" على تحرير وهران" الأول:

نَادَتْكَ وَهْرَانُ فَلَبِ نِدَاهَا أَنْزِلْ بِهَا لا تَقْصِدَنَ سَوَاهَا
وَأَحْلُلْ بِهَاتِيكَ الأَبَاطِيحَ وَالرُبَى واستصرح بِدَفِينِهَا الأَوَاهَا
واستدع طَائِفَةَ العَسَاكِرُ نَحْوَهَا يَغْزُونَهَا وَلْيَنْزِلُوا بِفِنَاهَا
مُسْتَصْحِبِينَ لِوَاءكَ المَنْصورَ إذْ يَلْقَاهُمْ الفَتْحُ المُبِينُ وَجَاهًا
صَرَخَتْ بِدَعْوَتِكَ العَلِيَةُ فَإِسْتَجِبْ لِنِدَائِهَا وَلْتَكْمِلَنْ مُنَاهَا
حَاشَاكَ أَنْ تَفْنَى حَشَاشَتَهَا وَقَدْ قَصُرَتْ عَلَيْكَ رَجَاهَا وَنِدَاءهَا
قَدْ طَالَمَا عَبَثَتْ بِهَا أَيْدِي العَدَا حَتى استباحوا أَرْضَهَا وَحَمَاهَا
وَتَصَرَفُوا فِي المُسْلِمِينَ فَأَصْبَحَتِ أُعْجُوبَةً لِمَن اغْتَدَى يَرعَاهَا
أَضْحَى الصَلِيبُ مُؤَيَدًا، وَالدِينُ قَدْ دُرسَت مَعَالِمُهُ فَلَسْتَ تَرَاهَا
جَعَلُوا بِهَا النَاقُوس فِي أَوْقَاتِهِم بَدَلَ الأَذَانِ وَغَيَرُوا مَعْنَاهَا
كَمْ مَن أَسِيرٍ حَوْلَهَا لاَ يُفْتَدَى كَمْ مِنْ فَقِيرٍ حَلَّ فِي مَثْوَاهَا
وادْعُ الغُزَاةَ لِفَتْحِهَا مُسْتَنْجِدًا وَانْهَضْ إِلَيْهَا وَانْزِلَنَ مَرْسَاهَا[٧٢]

ولم تقتصر العملية على التحريض على الجهاد ورفع الهمم، بل امتدت إلى مشاركة العلماء في العملية الجهادية، تصدر العلماء جيش الطلبة، وكانوا يتقدمون الصفوف ويوجهون المعارك، شارك العلامة المالكي عبد القادر بن عبد الله المشرفي في الهجوم على وهران سنة (١١٢٠هـ/ ١٧٠٨م).(٧٣) فأستشهد منهم الكثير يتقدمهم القاضي "الطاهر بن حواء" في أول ليلة من جمادي الأولى (١٢٠٦هـ/١٧٩١م) «... فقدت بفقده محاسن الأخلاق، وعدم معه الحياء من أمثاله على الإطلاق، وذهب الوفاء والإنصاف، ولم يبق أحد مثله مصاف، وبكته العيون الجامدة، والقرائح الخامدة رحمه الله واسكنه فسيح جنانه»[٧٤] كما شرك "أحمد بن سحنون الراشدي"، إلى جانب الباي "مصطفى بن يوسف بوشلاغم" في الهجوم على وهران أثناء عملية تحريرها الأولى عام (١١٢٠هـ/ ١٧٠٨م)، وسجل كل خطوات الفتح بأحداثها ووقائعها ودونها في كتابه «الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني»[٧٥] ومما قاله في الجهاد، سنورد أبياتا شعرية له:

أَلاَ تَذْكُرُوا أَمْرَ الجِهَادِ فَإِنَهُ بِهِ مَلَةُ المُخْتَارِ صَحَ سَقِيمُهَا
مَتى تَرَكَهُ المُسْلِمُونَ تَهَاوُنًا بِهِ كَثُرَتْ أَحْزَانُهَا وَهُمُومُهَا
وَمَن مَاتَ فِي تِلْكَ المَوَاطِنِ مِنْكُم فَجَنَةُ عَدْنٍ دَارُهُ أَوْ نَعِيمُهَا
بِهَذَا أُمِينَ اللَهَ نَبه عَزْمَهُ لِوَهْرَانَ كَيْ تَنكَى عَلَيْهَا كُلُومًا[٧٦]

إن وقوف الشيخ والولي الصالح سيدي "لخضر الأكحل بن خلوف" مداح النبي إلى جانب العثمانيين في مقاومة الأسبان

خلال حملتهم الثالثة الكبيرة على مستغانم حين حاول الكونت دالكادوت" (*Conte Dalcadote*) اغتنام فرصة الاضطرابات التي عرفتها الجزائر وانهزام حسن باشا في المغرب الأقصى في رجب (٩٦٥هـ/ أفريل١٥٥٧م)[٧٧]، فشن حملة كبيرة على مستغانم والوقوف إلى جانب الباشا "حسن باشا" وخاصة في معركة مزغران ٩٦٥هـ في المواقف الأمامية للمعركة والتي قال فيها:

يَا سَيَلْنِي عَنْ طَرْدْ الرُومْ     قَصَةَ مَازَغْرَانْ مَعْلُومَةْ

بينما القصيدة تعبير عن إشادة واعتراف ضمني بالعثمانيين ودورهم الجهادي في تحرير الأرض من الإسبان لذا اعتبر معركة مزغران ثأرا للأندلس(٧٨). ولدورهم طلائعي في مواجهة الإسبان خلال أشرك الباي محمد الكبير العلماء في حربه ضد الإسبان وجعلهم في طليعة قواته، وتشجيعهم على الرباط على الثغور في الرباطات حول وهران يجهدون ويدرسون، لزيادة الخناق والحصار على العدو.[٧٩] إلى جانب السيف والقلم في مواجهة العدو الخارجي، كان للعلماء جبهة ثالثة وهي مواجهة القبائل المتعاملة مع النصارى المسيحيين في وصفهم بالزنادقة، وضرورة التّبرء منهم ومن أعمالهم مستندين في فتواهم إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٨٠]، وقوله تعالى ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.[٨١]

تبلورت فكرة المقاومة التي قادها العلماء ورجال الصوفية في الجزائر من خلال "اللعن والدعوة بالشر" على كل المتعاونين مع الصليبيين الأسبان، كقبائل بني عامر سواء تعلق الأمر بجلب الأخبار لهم، أو مدهم بما يحتاجونه من تبن، وحشيش، ولبن، وخيل، مثلما فعل الشيخ العالم الصوفي سيدي "أحمد الحلفاوي" والعالم "عبد القادر المشرفي" ضد أعراب قبائل قيزة، الونازرة، وأولاد علي، من خلال فتواه «أخزاهم الله ولعنهم وأخلى الأرض منهم وصيرهم حطبا لجهنم»[٨٢]. وإلى جانب الدعوة بالشر واللعن للمتعاونين مع الصليبيين، لجأ العلماء إلى النصح والمعايرة والحط من قيمة المتعاملين مع الإسبان في سبيل النهي عن هذه الأعمال الآثمة، وكذلك فعل العلامة أبي عثمان سيدي "سعيد قدورة" من خلال قصيدته الموجهة لقبيلة بني عامر.

فَمَن مُبَلِّغ عَنِي قَبَائِلَ عَامِرِ     وَلاَ سِيَمَا مَن قَدْ ثَوى تَحْتَ كَافِرِ
أُنَاشِدُكُم بِاللهِ مَا عَذَر كُلُكُم     لَدَى اللهِ فِي وَهْرَانَ أَمْر الخَنَازِيرِ
أَذَلَكُم اللَّهُ كَيفَ رَضَيْتُم بَسَبْيِي     العَذَارَى مَن بَنَاتَ الأَكَابِرِ
فَصِرتُم مِن جُورِ البُغَاةَ كَأَنَكُم يَهُودُ الجَزَائِرِ تَعْطُونَهَا فِي الأَصَاغِرِ[83]

ولم تقتصر مهمة العلماء إلى التصدي للهجمات الصليبية، بل كان لهم دور في الوعظ ونشر الإسلام بين المسيحيين الأسرى الذين تمكّنت البحرية الجزائرية من أسرهم خلال الجهاد البحري، حيث كان يتم توزيعهم على العائلات الإسلامية انتظارا لفديتهم، وكان الكثير من هؤلاء الأسرى يعتنق الإسلام بفضل دور العلماء ورجال الصوفية، إما بتحريرهم، أو اقتناعهم بمبادئ الإسلام وحسن معاملة المسلمين لهم[٨٤]، وقد عرفوا بالمرتدين في الدول الأوروبية، مع العلم أن الكثير من حكام الجزائر العثمانية كانوا من الأعلاج الذين أسلموا مثل: ميزوموتو، ومراد رايس.

أما في بايليك الغرب الذي كان معقل المرابطة ضد الإسبان قبل تحرير وهران، فكانت القبائل والعائلات المرابطية في مقدمة الرباطات تحمل لواء الجهاد والتحرير، مثل عائلة "أو العربي" التي رعت لواء الجهاد والنصر[٨٥]، من خلال تجنيدها للسكان للجهاد وتحويل زواياها إلى مراكز للمجاهدين والإطعام والتدريب، وبعد نهاية تحرير ثاني لوهران وعودتهم إلى نشاطهم التعليمي والإصلاحي لم تنقطع صلتهم بالسكان بل تعزز نشاطهم بسبب تحولهم إلى قوة فكرية ومالية وعسكرية. يبدو أن الجهاد والمرابطة لم يكن يمثل فقط مشروعًا دينيًا، ومشروعًا تحريريًا بل أيضًا كان يحمل قيمًا إنسانية من خلال حسن التعامل مع الأسرى المسيحيين وترغيبهم في اعتناق الإسلام مع العمل على تحرير الأسرى المسلمين من قيود العبودية والرق.

## خَاتِمَةٌ

يمكن أن نخرج الآن بمجموعة من الاستنتاجات:

إن ظهور العلماء في الجزائر العثمانية كطبقة مميزة لدى الحاكم والمحكوم، لم يكن حالة استثنائية لما تمتع به العلماء من حظوة ومكانة في العالم الإسلامي في ظل الفراغ الثقافي للسلطة المركزية. وقد ساهمت الأوضاع السياسية منذ القرن التاسع الهجري الموافق للقرن الخامس عشر ميلادي في ظهور حركة التصوف والمتصوفين وانتشار الزوايا والطرق الصوفية التي توسعت بشكل مفاجئ خلال القرن العاشر الهجري وقادت المقاومة ضد الغزو الإيبيري من خلال الزوايا بالريف وتحولت إلى رباطات يشرف عليها المرابطون الذين كانوا في الصفوف الأمامية للمقاومة، يُلهِبُون حماس الناس والطلبة إلى الجهاد في سبيل الله، بل ويتحالفون مع العثمانيين من أجل ذلك.

واضطلعت جمهرة العلماء بمهام وأعمال مهما اختلف فيها المؤرخون والباحثون، إلا أنها كانت موجودة من إنجازاتها الثقافية والأدبية والجهادية. ومن الصعب أن يتم تحديد عدد العلماء في نيابة الجزائر، وتحديد نوع ثقافتهم، وذكر وظائفهم لأن العلماء لا وطن لهم من حيث المبدأ والعالم الإسلامي رقعة واحدة مما عرف حركة وهجرة واسعة للعلماء من وإلى الجزائر.

إن تكوين العلماء الثقافي دينيًا صوفيًا، يعتمد على ما تركه السابقون من متون وعلوم نقلية، عمل بها حتى العلماء العاملين

والفقهاء، حيث عطلوا العقل وقلدوا الأولين، وهو تكوين وثقافة عرفت بالانحطاط الثقافي والجمود الفكري الذي ميز العالم الإسلامي وليس الجزائر وحدها، إضافة إلى مساهمة الحكام العثمانيين في هذا الوضع إذ كانوا بعيدين كل البعد عن الثقافة، حيث ساعدت سياستهم على هذا الانحطاط، بسبب غياب مشروع ثقافي حقيقي لهم. ومع ذلك كله برزت نخبة من العلماء التي تجاوزت مكانتها ساحة المحلية بل امتدت إلى العالم الإسلامي من خلال إسهاماتها الدينية والأدبية والثقافية والتاريخية، رغم ظروف العصر معتمدة على مجهودها الفردي وتكريس حياتها للعلم والاجتهاد.

لقد اتخذ الجهاد في الجزائر العثمانية مشروع دينيا مقدسا، بتزعم العلماء له من خلال دعوتهم وقيادتهم له، مما جعله يحتل أولوية واهتمام المجتمع بكل شرائحه، حاكمًا ومحكومًا، الأمر الذي ساعد على استعادة وتحرير كل الأراضي المحتلة والمغتصبة.

عرفت إيالة الجزائر فترة هدوء واستقرار في مراحلها الأولى بفضل اعتمادها على العلماء والمرابطين في توطيد العلاقة مع السكان، إلا أن هذا التحالف سرعان ما طرأ عليه تغيرات حالت دون استمرار هذه العلاقة بين الحكام والعلماء، مع اتساع الهوة بين الجانبين، سنحاول التطرق إليها بالتفصيل في الفصل الثالث من خلال التطرق إلى عوامل التقارب بين الطرفين، ومظاهره وأشكاله، ونتائج هذا التقارب. ثم نُعرج على عوامل القطيعة بين الحكام والعلماء خاصة في الريف، ومظاهر القطيعة ونتائجها على السلطة والعلماء.

## الهَوامِشُ:

(١) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (١٦-٢٠م)**، ط٢، مؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٥، الجزء الأول، ص٣٢٦، ٣٢٧.

(٢) المرجع نفسه، ص٣٨٥.

(٣) المرجع نفسه، ص٤٠٣.

(٤) المرجع نفسه، ص ٣٢٥، ٣٢٦.

(٥) حسين بن أحمد الورتلاني، **نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار "الرحلة الورتلانية"**، تصحيح ونشر: محمد بن شنب، مطبعة بيير فونتانا الشرقي، الجزائر، ١٩٥٨م، ص١٨.

(٦) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص٣٦٣- ٣٨٦.

(٧) أبو رأس الناصري محمد، **عجائب الأسفار ولطائف الأخبار**، تقديم وتحقيق: محمد غالم، مركز الوطني للبحث في الانثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران، ٢٠٠٥، ص٢١- ٢٢.

(٨) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص ٣٧٦، ٣٧٧ و٣٨٥.

(٩) عبد الكريم الفكون، **منشور الهداية في حال من أدعى العلم والولاية**، ط١، تقديم وتحقيق وتعليق: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٧، ص٤٤.

(١٠) ابن سحنون الراشيدي، **الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني**، تحقيق وتقديم: البوعبدلي المهدي، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، مطبعة البعث، قسنطينة، ١٩٧٣م، ص١٤٦. - ابن هطال أحمد التلمساني، **رحلة الباي محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي**، تحقيق: محمد بن عبد الكريم، ط1، عالم الكتب، القاهرة، 1969، ص٢٦.

(١١) المهدي بوعبدلي، **"المراكز الثقافية وخزائن الكتب بالجزائر عبر التاريخ"**، مجلة الأصالة، عدد ١١، الجزائر سنة ١٩٧٢، ص٩٤.

(١٢) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص٣٩٤.

(١٣) ناصر الدين سعيدوني، **من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي**، دار الطبع الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠١، ص٤٦٢-٤٦٤.

(١٤) المرجع نفسه، ص٤٣٩-٤٤٢.- للمزيد من الاطلاع انظر: ابن سحنون الرشيدي، المصدر السابق.

(١٥) انظر: ابن هطال التلمساني، المصدر السابق.- بن عتو بلبروات، الباي محمد الكبير ومشروعه الحضاري ١٧٧٩-١٧٩٧)، رسالة ماجستير، جامعة وهران، ٢٠٠٢.

(١٦) العياشي محمد بن عبد الله، **الرحلة العياشية ١٦٦١-١٦٦٣م**، ط١، تحقيق وتقديم: سعيد الفضلي وسليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٦، ج١، ص١٣، ١٤. - ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص٣٥٤، ٣٥٥.

(١٧) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص٤٨٥، ٤٨٤.

(١٨) المرجع نفسه، ص٤٨٢، ٤٨٣.

(١٩) ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص ٣٧٦-٣٧٩.

(٢٠) المرجع نفسه، ٤٣٢-٤٤٣.

(٢١) المرجع نفسه، ص٤٧٠، ٤٧١.

(٢٢) كورين شوفاليه، **الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر (١٥١٠ – ١٥٤١)**، ترجمة: جمال حمادنة، د.م.ج، الجزائر، ٢٠٠٧، ص٨٦.

(23) Pierre Boyer, "Contribution à l'étude de la politique religieuse des Turcs dans la régenced' Alger 16éme-19éme siècle" in R.O.M.M, n°1, 1966, P.28.

(٢٤) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص٤١٦، ٤١٧.

(٢٥) المرجع نفسه، ص٣٩٥.
(٢٦) المرجع نفسه، ص ٤٥٨.
(٢٧) الفكون، المصدر السابق، ص٣٢.
(٢٨) المصدر نفسه، ص١١٨.
(٢٩) المصدر نفسه، ص٣٥-٣٧.
(٣٠) المصدر نفسه، ص١١٧.
(٣١) المصدر نفسه، ص٣٥.
(٣٢) المصدر نفسه، ص١٤٦.
(٣٣) المصدر نفسه، ص١٦٤-١٦٥.
(٣٤) المصدر نفسه، ص١٤٧.
(35) Kamel Fillali, "Sainteté maraboutique et mysticisme, contribution à l'étude du movement maraboutique en Algérie sous la domination ottomane" in Insanyyat n°3, 1997, p127.
(٣٦) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص٤٠٤.
(٣٧) أبو القاسم سعد الله، "**المفتي الجزائري المصري العنابي وكتابه سعي المحمود في نظام الجنود**"، مجلة الأصالة، العدد ٣١، ١٩٧٦، ص٢٣.
(٣٨) الشريف الزهار الحاج أحمد، **مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار - نقيب أشراف-**، تحقيق وتقديم: أحمد توفيق المدني، ط٢، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨٠، ص١٢٧.- أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج١، المرجع السابق، ص٤٠٥.
(٣٩) أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص٤٠٥. وراجع أيضًا:
Tachrifat, Recueil de notes historique sur l'administration de l'ancienne régence d'Alger, publié par Devoulx. A, imprimerie du gouvernement, Alger, 1852, P.78.
(٤٠) أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر**، ط٣، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، الجزء الأول، ص٣٥٨.
(٤١) المرجع نفسه، ج٣، ص ١٩٨.
(٤٢) ابن سحنون الراشيدي، المصدر السابق، ص٢٧٤.- ابن هطال التلمساني، المصدر السابق، ص١٥، ١٦.
(43) Kamel Fillali, Op.cit, P.127.
(٤٤) الزهار، المصدر السابق، ص١٣٨.
(45) Leila Babes, Saints-Tribus et pouvoir politique dans le constantinois sous la domination turque, université d'Oran, S.D, P.18.
(٤٦) محمد بن محمود ابن العنابي، **السعي المحمود في نظام الجنود**، تحقيق محمد بن عبد الكريم، م.و.ك، الجزائر، ١٩٨٣، ص١٩٥.
(٤٧) المصدر نفسه، ص١٩٦، ١٩٧.
(٤٨) المصدر نفسه، ص٦٤.
(٤٩) المصدر نفسه، ص٢٠٣.
(٥٠) المصدر نفسه، ص٤٩.
(٥١) القرآن الكريم، **سورة الأنفال**، الآية ٦٠، برواية حفص.
(٥٢) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج١، المرجع السابق، ص٤٦٠.
(٥٣) أبو راس الناصري، المصدر السابق، ص٢٤.
(٥٤) العربي المشرفي، **الذخيرة**، مخطوط بمكتبة بلدية معسكر، ص١٧.
(٥٥) ناصر الدين سعيدوني والمهدي بوعبدلي، المرجع السابق، ص٣٨. وراجع أيضًا:
Boyer, Contribution religieuse, Op.cit, Pp.36, 37.
(٥٦) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص٢٠.
(٥٧) بسام العسلي، **الجزائر والحملات الصليبية ١٥٤٧-١٧٩١**، ط٣، دار النفائس، بيروت، ١٩٨٦، ص٩.
(٥٨) أحمد توفيق المدني، **حرب ثالثة مائة سنة بين الجزائر(١٤٩٢-١٧٩٢)**، ط٣، م.و.ك، الجزائر، ١٩٨٤، ص٤٥٨.
(٥٩) عبد المنعم الحفني، المرجع السابق، ص٧٦٠.
(٦٠) القرآن الكريم، **سورة آل عمران**، الآية ٢٠٠، برواية حفص.
(٦١) **اختصار صحيح البخاري**، نسخ وضبط وتعليق أحمد فارس السلوم، تقديم عبد الوهاب ابن عبد العزيز الزيد، دار التوحيد ودار أهل السنة، الرياض، ١٤٢٩هـ، ج٣، ص١.
(٦٢) سليمان الأزدي أبي داود، **سنن أبي داود**، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، الجزء الثالث، ص٩.
(٦٣) بن عتو بلبروات، **الباي محمد الكبير ومشروعه الحضاري ١٧٧٩-١٧٩٧**، رسالة ماجستير، جامعة وهران، ٢٠٠٢، ص٣٢٨-٣٢٩.
(٦٤) ابن سحنون الرشيدي، المصدر السابق، ص٢٣٣.- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص٢٧٢.
(٦٥) أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص٢٧٢.
(٦٦) المرجع نفسه، ص٢٧٢.
(٦٧) عدة بن داهة، "**النزعة الجهادية لطلبة العلم وحملة القرآن الكريم في منطقة معسكر خلال العهد العثماني**"، مجلة المواقف، العدد (٣)، جامعة معسكر، ٢٠٠٨، ص٨٧.
(٦٨) ابن ميمون الجزائري، **التحفة المرضية والدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية**، تقديم وتحقيق: محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨١، ص٢٠٥.- جمال قنان، **نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر (١٥٠٠ – ١٨٣٠م)**، مؤسسة الوطنية للطبع، الجزائر، ١٩٨٧، ص١٥٧. توفيق المدني، المرجع السابق، ص٤٣٨.
(٦٩) القصيدة كاملة، توفيق المدني، المرجع نفسه، ص٤٣٨.
(٧٠) عبد القادر المشرفي، المصدر السابق، ص٣٤.- القصيدة كاملة، توفيق المدني، المرجع السابق، ص٤٤٢.
(٧١) الرشيدي ابن سحنون، المصدر السابق، ص١٦٢.
(٧٢) ابن ميمون الجزائري، المصدر السابق، ص٣٠١.- توفيق المدني، المرجع نفسه، ص٤٣٩، ٤٤٠.
(٧٣) يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص٢٣١.
(٧٤) ابن ميمون الجزائري، المصدر السابق، ص٢٣، ص٧.
(٧٥) يحي بوعزيز، **أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة**، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٥، ج٢، ص٢٤٨.
(٧٦) الرشيدي ابن سحنون، المصدر السابق، ١٦٢، ١٦٣.
(٧٧) عمار بلخروف، **العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر لهجري/ السادس عشر الميلادي**، دار الأمل، الجزائر، ٢٠٠٦، ج١، ص١٠٣.
(٧٨) الرشيدي ابن سحنون، المصدر السابق، ص٢٣-٢٧. - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص١٩٧.
(٧٩) أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص٢٠٣.
(٨٠) القرآن الكريم، **سورة المائدة**، الآية ٥١، رواية حفص.
(٨١) القرآن الكريم، **سورة المجادلة**، الآية ٢٢، رواية حفص.
(٨٢) عبد القادر المشرفي، المصدر السابق، ص٣٦.
(٨٣) ابن سحنون الرشيد، المصدر السابق، ص٢٤١.
(٨٤) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص٤٥٤.
(85) Kamel Fillali, Op.Cit, P.133.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].



# واقع التعليم في الجزائر أواخر العهد العثماني



د. حميد أيت حبوش
أستاذ محاضر التاريخ الحديث والمعاصر
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة أبي بكر بلقايد – الجمهورية الجزائرية

**مُلَخّص**

تجمع معظم المصادر المحلية أن التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني منتشرًا انتشارًا واسعًا حتى غطى كل المناطق بما في ذلك القرى والمداشر، رغم أن السلطة العثمانية ركّزت فقط على المحافظة على الاستقرار السياسي والدفاع عن الحدود وجمع الضرائب لبيت المال، كما لم يكن لها سياسة تعليمية ولا خطة أو برنامج رسمي لتشجيع التعليم وتطويره أو العناية بأهله، ولم تتدخل في شؤون التعليم باستثناء بعض البايات مثل: محمد الكبير وصالح باي. فالتعليم إذن كان خاصًا يقوم على جهود الأفراد والمؤسسات الخيرية، فالآباء هم الذين كانوا يسهرون على تعليم أطفالهم. ولم تكن مهنة التعليم من المهن المرغوب فيها أو المربحة خلال العهد العثماني، إلا أنها تجلب إليه عطف الناس وإحسانهم واحترامهم المعنوي.

**بيانات المقال:**

تاريخ استلام المقال: ٢٢ يناير ٢٠١٥
تاريخ قبول النشر: ٢٧ أبريل ٢٠١٥

**كلمات مفتاحية:**

مؤسسات التعليم، العهد العثماني، محمد الكبير، صالح باي، الأوقاف، الشيوخ، المعلمون

**معرّف الوثيقة الرقمي:** DOI 10.12816/0045083

**الاستشهاد المرجعي بالمقال:**

حميد أيت حبوش. "واقع التعليم في الجزائر أواخر العهد العثماني".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد السابع والثلاثون؛ سبتمبر ٢٠١٧. ص٢٦ – ٣١.

## مُقَدِّمَةُ

تجمع معظم المصادر المحلية أن التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني منتشر انتشارًا واسعًا حتى غطى كل المناطق بما في ذلك القرى والمداشر، رغم أن السلطة العثمانية ركّزت فقط على المحافظة على الاستقرار السياسي والدفاع عن الحدود وجمع الضرائب لبيت المال ولم تتدخل في شؤون التعليم باستثناء بعض البايات مثل: محمد الكبير وصالح باي. وموضوع التعليم في الجزائر لم يحظى بالقسط نفسه من التعمق والبحث التاريخي الذي حظيت به الأوضاع العسكرية والسياسية خلال العهد العثماني، باستثناء بعض الإشارات والتلميحات التي أفردها مؤرخو هذه الفترة في مؤلفاتهم، من بينهم الأستاذ أبو القاسم سعد اللّٰه في مؤلفه بعنوان: "تاريخ الجزائر الثقافي"، وحتى هذه الإشارات لا تعطي لنا النظرة الشاملة والعامة حول واقع التعليم في الجزائر من خلال مدى انتشاره في كل ربوع الوطن، ومؤسساته، وسائله ومستواه الذي كان يختلف من جهة إلى أخرى، فكانت تتحكم فيه الأوضاع العامة للبلاد، فالتعليم بصفة عامة كان مزدهرًا نسبيًا قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة ١٨٣٠م، وأن الميل إلى العلم والمعرفة كان متأصلاً في نفوس الجزائريين. لذا فهذا الموضوع يستحق الدراسة باعتباره حلقة ضائعة لاستكمال النظرة الشاملة للفترة العثمانية في الجزائر خاصةً في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي.

## أولاً: مؤسسات التعليم

### ١/١- الأوقاف:[١]

يستعمل الوقف في أغراض كثيرة، منها العناية بالعلم والعلماء والطلبة، والفقراء والعجزة واليتامى وأبناء السبيل، وكذلك العناية بنشر وتدريس المذهب الحنفي العثماني. الوقف بالنسبة للدولة هو بمثابة وزارة الثقافة والتعليم والدين والشؤون الاجتماعية مجتمعة اليوم رغم أنه لم يكن هناك وزارة بهذا العنوان ولا بهذا المحتوى الشامل.[٢] ومن أشهر مؤسسات الوقف الجماعية:

- إدارة سبل الخيرات الحنفية: لقد ساهمت بإنشاء المدارس ودفع مرتبات لحوالي ثمانية وثمانين طالبًا.[٣]
- إدارة أوقاف مكة والمدينة:[٤] هذه المؤسسة لها أهمية اجتماعية وتعليمية واقتصادية وحتى السياسية.

كما ساهمت الأوقاف الأخرى التي هي منتشرة بكثرة في كافة المناطق الجزائرية، في بناء المدارس وتشجيع التعليم. إذا كانت مؤسسة الوقف في الجزائر خلال العهد العثماني قامت بنشر التعليم الديني ورعاية المجتمع، غير أن هناك عوامل أخرى تدخلت فجعلت الأوقاف غير فعالة في خدمة التعليم والنهوض بالمجتمع، كما ساعدت على نشر الغموض والتصوف والشعوذة ومظاهر التخلف الاجتماعي.[٥]

**٢/١- المساجد:**

إن العناية بالمساجد ظاهرة بارزة في المجتمع الجزائري المسلم فلا تكاد تجد قرية أوحيًا في المدينة بدون مسجد. فالمسجد في العهد العثماني كان ملتقى العباد ومجمع الأعيان ومنشط الحياة العلمية والاجتماعية.[٦] وحسب ديفوكس الذي بحث موضوع المؤسسات الدينية في مدينة الجزائر أن عددها عشية الاحتلال وصل إلى مائة وست وسبعون مؤسسة.[٧] في معظم المساجد أو الجوامع توجد المكتبات الموقوفة على القراء والطلبة والأساتذة، تحتوي على كتب في العلوم المختلفة من أدب وطب وفقه وتاريخ ورياضيات وغيرها.[٨] ولقد خصص محمد بن عثمان والد محمد الكبير لجامع العين البيضاء الذي بناه بمعسكر وقفية تضمنت ما يلي: أربعة (٤) سلطانية ذهبًا للطلبة الذين يحضرون درس صحيح البخاري في كل سنة، أربعون (٤٠) ريالاً لمدرّس صحيح البخاري، ستون (٦٠) ريالاً لكل مدرّس في الفقه وغيره.[٩] ولقد اشترك في تأسيس هذه المساجد التي لا تعد ولا تحصى الأهالي والعثمانيون على السواء، وكان اهتمامهم ببناء المساجد لدوافع دينية محضة كما جعلوها لخدمة المذهب الحنفي، بل أن وظيفة المدرس عندهم كانت لا تخرج عن ذلك أيضًا.[١٠]

**٣/١- الزوايا:**

إن أبرز ميزة عرفها العهد العثماني في الجزائر، انتشار الطرق الصوفية وكثرة الزوايا المتخصصة لها. ففي مدينة الجزائر نجد عدد كبير من الزوايا، أهمها زاوية عبد الرحمن الثعالبي وزاوية عبد القادر الجيلالي.[١١] وفي مدينة قسنطينة بلغ عددها ستة عشرة زاوية، أهمها زاوية سيدي عبد المؤمن، سيدي الكتاني وغيرها. كما اشتهرت أيضا تلمسان وضواحيها بزواياها نذكر منها زاوية سيدي الطيب، زاوية بومدين،[١٢] وأشهرها زاوية عين الحوت. بينما منطقة القبائل تعتبر من أغنى مناطق الجزائر بالزوايا، وصل عددها خمسين زاوية، أهمها زاوية تيزي راشد المشهورة يقصدها التلاميذ من النواحي المجاورة والبعيدة، وممَنْ تخرجوا منها محمد الفريرا الذي تولى ولاية التيطري، وأيضًا زاوية الشيخ محمد التواتي ببجاية أخرجت أجيالاً من المعلمين وكانت تضم أكثر من مائتي طالب.[١٣] وكانت للزوايا الريفية دور إيجابي في نشر التعليم، غير أن معظم زوايا المدن كانت معطلة عن التعليم لوجود الكتاتيب من جهة والمساجد والمدارس المتخصصة من جهة أخرى.[١٤]

**٤/١- المدارس والمعاهد العليا:**

كثرت في الجزائر المدارس الابتدائية في المدن وحتى في القرى وهذا ما جعل جميع الذين زاروا الجزائر خلال العهد العثماني يبهرون من كثرة المدارس بها وانتشار التعليم وندرة الأمية بين السكان.[١٥] وخير شاهد على هذا الانتشار كتابات الأوروبيين أنفسهم التي أثبتت أنه غداة الاحتلال كان عدد المتعلمين في الجزائر يفوق عدد المتعلمين في فرنسا، ففي عام ١٨٣٦ كتب بيليسي Pellissier de Rexnard[١٦] يقول: "إن التعليم الأولي منتشر بينهم بقدر انتشاره عندنا. ففي معظم القرى والبلديات مدارس للقراءة والكتابة، ووصل عدد التلاميذ إلى ثلاثة آلاف تلميذ في كل مقاطعة، من بينهم ٨٠٠ تلميذ يصلون إلى دراسة علوم الحقوق (الفقه) والشريعة ويحصلون على لقب علماء[١٧] وكانت تلمسان مشهورة بوفرة المدارس والعلماء، فالفرنسيين قد وجدوا فيها بعد احتلالها خمسين مدرسة ابتدائية ومدرستين للتعليم الثانوي والعالي.

أما في قسنطينة كان عدد المدارس الابتدائية عند دخول الفرنسيين حوالي تسعين مدرسة، أما التعليم الثانوي والعالي هناك سبع مدارس.[١٨] وفي العاصمة، حسب فانتور ديبارادي، هناك ثلاث جامعات لتعليم المذهب المالكي وهي مدارس عليا.[١٩] بينما المدارس الابتدائية والثانوية عددها مائة، إضافة إلى وجود كتاتيب التي خصصت عادة لتحفيظ القرآن الكريم وتعليم مبادئ القراءة والكتابة للأطفال.[٢٠] أما في المدرسة الابتدائية فالتلميذ يتعلم مبادئ العلوم ويتلقى رصيدا من المعارف التي تساعده على شق طريقه في المجتمع بعد خروجه منها عندما يبلغ عادة الرابع عشرة سنة.[٢١] ومن أشهر المدارس في العاصمة، المدرسة القشاشية، التي ساهمت مساهمة كبيرة في نشر التعليم الابتدائي والثانوي وحتى العالي، وبعد احتلال فرنسا للجزائر حولوها إلى مخازن الجيش سنة ١٨٣١ وأيضًا مدرسة الأندلسيين، فالتعليم فيها كان على مستوى راق لأن الأندلسيين يتقنون فن التدريس وحسن التربية ومراعاة التطور العقلي للتلميذ.[٢٢]

ويعتبر الجامع الكبير بالجزائر العاصمة ومدرسته العليا نواة جامعة الجزائر، ففي الجامع كانت الدروس كثيرة يقوم بها أبرز العلماء، أشهرهم سعيد قدورة وعلي الأنصاري وأحمد بن عمار وغيرهم، وقد كلف هذا الجامع خمسة عشرة ألف دينار جزائري بعملة ذلك الوقت.[٢٣] وكانت قسنطينة من أكثر المدن اهتمام بالمؤسسات العلمية وذلك لاستقرارها السياسي نسبيًا ولقربها من

تونس ومن أشهر مدارسها، المدرسة الكتانية التي أنشأها صالح باي التي خصص لها أوقافًا كبيرة، فقد كان المدرس بها يأخذ ثلاثين ريالا والطالب الداخلي يأخذ ستة ريالات، وهذه المدرسة العليا تنشر تعليما في مستوى الثانوي والعالي وهناك من يقارنها بمدارس فرنسا العليا المعاصرة لها، ولعبت دورًا كبيرًا في الحياة الثقافية في الجزائر حتى في العهد الفرنسي، وهي ما تزال فاتحة إلى اليوم تؤدي نفس المهمة مع اختلاف الظروف.[٢٤]

أما مدرسة مازونة، فقد كانت على درجة كبيرة من الأهمية في الجهة الغربية من البلاد وهي من أقدم المدارس التي أسست في العهد العثماني وقد اشتهرت بالخصوص في علم الفقه والحديث وعلم الكلام واستمرت المدرسة حتى بعد انتقال العاصمة الإقليمية من مازونة إلى معسكر ثم إلى وهران، وكانت مقصد طلاب النواحي الغربية، لاسيما ندرومة، مستغانم، تلمسان، سيدي بلعباس، تنس ووهران ومن أبرز خريجيها، أبوراس الناصري[٢٥] الذي تحدث عن شيوخه فيها في رحلته (فتح الإله).[٢٦]

## ثانيًا: وسائل التعليم

لا يمكن أن يقوم التعليم إلا إذا توفرت لديه الشروط والوسائل الضرورية كالعناصر المادية والبشرية.

**١/٢- المعلمون:**

كانت حركة المعلمين داخل الجزائر جد نشيطة ومستمرة، ذلك أن تكوين المعلمين لم يكن له مدرسة أو مدينة معينة، فقد كانت شهرة المعلم أو المدرس هي التي تحدد مكانه وكان الطلاب يقصدون المدرس المشتهر أينما حل وأينما وجد ولو كان ذلك بعيدًا.[٢٧] وكان أولياء التلاميذ هم الذين يختارون مؤدب أطفالهم، وكان من حقهم ومن صلاحياتهم إعفاء المؤدب من وظيفته، إذا اشتبه فيه علميا وأخلاقيا خاصة، واختيار غيره لأنهم هم الذين عينوه ونصبوه للمهمة التربوية والعلمية فالمؤدب يخضع لرقابة أولياء التلاميذ والرأي العام وليس لرقابة الحكومة.[٢٨]

وكان التعليم عند بعض رجال التصوف وخصوصا في الريف نوعا من العبادة والجهاد.[٢٩] أما أجور هؤلاء المعلمين، فكانوا يتلقونها في شكل هدايا وصدقات كالحلوى والملابس في مناسبات معينة ودينية كشهر رمضان، العيدين وعاشوراء.[٣٠] وكانت مصدر هذه الهدايا والأجور هي الأوقاف، بينما الباي محمد الكبير خصص رواتب شهرية للأساتذة بقطع النظر عن الأوقاف، من ميزانية الولاية.[٣١] كما يتولى بعض المدرسين الأساتذة وظائف أخرى كوكالة الوقف والإمامة والخطابة والقضاء ونحوها، وكانوا يجنون من ذلك أموالاً هامة، تتراوح رواتبهم السنوية من الأوقاف بين مائة ومائتي فرنك.[٣٢]

**٢/٢- التلاميذ:**

تتراوح أعمار التلاميذ المترددين على الكتاتيب والمدارس الابتدائية بين السادسة والرابعة عشرة، وفي هذا السن الأخير يكون التلميذ تعلم القراءة والكتابة وقواعد الدين والحساب، وقد يصبح مساعدًا للمؤدب في تعليم الأطفال الأصغر منه سنًا.[٣٣] وكان عدد التلاميذ في كل مدرسة يتراوح بين العشرين والثلاثين، ففي تلمسان هناك خمسين مدرسة تحتوي على نحو ألفي تلميذ.[٣٤] بينما في قسنطينة هناك تسعين مدرسة ابتدائية يزاولها حوالي ١٣٥٠ تلميذ.[٣٥] والعدد نفسه تقريبًا موجود في الجزائر العاصمة. وبهذا نستنتج أن كل الأطفال في سن الدراسة كانوا يجدون مقاعدهم في هذه المدارس. أما البنات حسب شالر الذي عاش في الجزائر يتعلمن في مدارس تشرف على إدارتها نساء.[٣٦] ويشمل تعليم البنات على العموم القراءة والكتابة والقرآن الكريم وقواعد الدين والسلوك. أما في التعليم الثانوي، وصل عدد الطلبة إلى ما بين ألفين وثلاثة آلاف طالب في كل إقليم من الأقاليم الثلاثة، أي بين ستة وتسعة آلاف طالب في القطر كله.[٣٧] وفي التعليم العالي، يتراوح عدد الطلبة بين ستمائة وثمانمائة طالب في كل إقليم، أي بين ألف وثمانمائة وألفين وأربعمائة طالب في كل قطر.[٣٨]

**٣/٢- الكتب والمكتبات:**

لا يكون التعليم نشيطًا ومتطورًا إلا إذا توفرت مجموعة كبيرة من الكتب والمكتبات. فقد كانت في الجزائر في العهد العثماني كتبًا عديدة تحتوي على أغلب الاختصاصات وخاصةً الدينية، وكانت على شكل مخطوطات قديمة ونادرة اهتم أصحابها بجمعها من مناطق مختلفة خاصةً في المشرق العربي والأندلس أثناء رحلاتهم وتنقلاتهم وزياراتهم العلمية وكذلك أثناء حجهم.[٣٩] ويعترف الفرنسيون أنفسهم بوفرة الكتب والمكتبات في الجزائر، فراحوا يجمعون هذه الكتب والمخطوطات من مكتبات المدن الجزائرية التي وقعت في أيدي الاحتلال، وحتى البعيدة منها فقد وصلها الفرنسيون لاقتناء كتبها مقابل أثمان زهيدة أو بعض الهدايا أو نهبها.[٤٠]

وإذا كانت بعض الكتب تستورد من الخارج، فقد كانت تنتج كذلك محليًا أي في الجزائر عن طريق التأليف والنسخ، واشتهرت عدة مدن في الجزائر باهتمامها بجمع الكتب وتصنيفها وإنشاء مكتبات وهذه المدن هي تلمسان، قسنطينة، بجاية، مازونة، الجزائر العاصمة، معسكر كما كانت بعض المدن ذات مكتبات تضم مجموعة من الكتب العلمية والآلات الجهادية كمدينة وهران أي أنها كانت تضم مكتبة ومتحفا في الوقت نفسه.[٤١] وكثرة الكتب والمكتبات دليل على اهتمام وعناية الجزائريين لها لاقتنائها والاستفادة منها. فقد ذكر أحد الكتاب الفرنسيين، لالوي أن المخطوطات التي جمعها بيربروجر من قسنطينة كانت جميلة في الشكل والتجليد وأنها كانت واردة من مصر وتركيا.[٤٢]

وكانت المكتبات تنقسم في الجزائر إلى عامة وخاصةً[٤٣]، وكانت هذه المكتبات مفتوحة للطلبة ولجمع الناس بشتى شرائحهم الاجتماعية بالطريقة نفسها التي تتم بها الأوقاف فكان يوقف الكتاب في سبيل لله على الطلبة وجميع القراء المسلمين.[٤٤] أما محتويات هذه الكتب تشمل كتب التفاسير والقراءات والأحاديث النبوية وشروحها وكتب الفقه والأصول والتوحيد والمصاحف، وغيرها، كما تشمل كذلك على الكتب العقلية واللغوية كالنحو، الأدب، الفلسفة، التاريخ والجغرافيا والمنطق وغيرها، إلا أن الكتب العلمية كانت قليلة مثل الحساب والطب والفلك... ولا غرابة من ذلك لأن طبيعة العهد العثماني كانت فيه السيادة والأولوية للعلوم الدينية.[٤٥]

## ثالثًا: مناهج التعليم

**١/٣- في الابتدائي:**

كان التعليم في المرحلة الابتدائية يقتصر على تعليم القراءة والكتابة وإتقانها تمهيدًا لحفظ القرآن الكريم ثم تعليم المبادئ الأساسية والأولوية للحساب. وكانت طريقة التدريس بسيطة ببساطة التعليم نفسه، فالمؤدب كان يجلس في صدر الكتاب متربعا على حصير مسندًا ظهره إلى الجدار وبيده عصا طويلة يستعين بها لحفظ النظام ولإثارة انتباه الطلبة.[٤٦] وعند الإملاء يملي المؤدب بصوت عال على التلاميذ. وكان هؤلاء التلاميذ يتحلقون حول المؤدب في نصف دائرة وبيد كل واحد لوحة من خشب يمكن الكتابة عليها ومحو ما كُتب بسهولة، وعلى كل لوحة تكتب بوضوح سورة من القرآن الكريم، ثم يقوم بقية التلاميذ بنقلها بعناية كل على لوحته بالتوالي، والتلميذ الذي يتعلم معنى الكلمة وطريقة كتابتها يقوم بتعليم ذلك للتلاميذ الآخرين.[٤٧]

وكانت طرق التعليم جيدة ومناسبة، مع بساطة التعليم ومادته الثقافية، تراعي تطور قدرات التلميذ على القراءة والكتابة لأنها تجعله يتعلم الطريقتين في آن واحد، ويعترف شالر نفسه بجدية هذه الطريقة نظرا لوجود الوحدة فيها وجمال خطها العربي.[٤٨] ولقد أشاد عدد كبير من المؤلفين بالطريقة البيداغوجية الجيدة التي كانت متعبة في هذا المستوى من التعليم، وكانت العلاقة جيدة بين التلميذ والمعلم، وهي تقوم على مبدأ الاحترام الكبير، حتى من طرف المجتمع كله، وتظل هذه العلاقة محفوظة حتى عندما يصبح التلميذ رجلاً مسئولاً فهو دائمًا ينظر إلى مؤدبه نظرة احترام، فهو بمثابة والده الروحي.[٤٩]

**٢/٣- في الثانوي:**

لقد كان التعليم الثانوي والعالي مجانًا، بل يحصل كل طالب على منحة مالية إلى جانب السكن والأكل إن كان بعيدًا، ويتم التعليم في المساجد الكبرى وبعض الزوايا من بينها:

-في الغرب: الجامع الكبير في تلمسان، جامع سيدي العربي.

-في الجزائر العاصمة: زاوية القليعة، زاوية مليانة، زاوية بن محي الدين وزاوية بني سليمان والجامع الأعظم.

-في الشرق: جامع سيدي الأخضر بقسنطينة، زاوية سيدي عقبة ببسكرة، زاوية ابن علي الشريف في القبائل وبعض المساجد بوادي مزاب بالصحراء.[٥٠]

والمدرس حر في وضع البرنامج الدراسي وفي تحديد أوقات التدريس في الغالب، فبعضهم كان يعد دروسه في الصيف ويلقيها في الشتاء، وكانت ميزة الدروس في التعليم الثانوي والعالي هي الشرح والإملاء أما ميزة المدرس أو الأستاذ فهي الحفظ والرواية، فالمدرس الكفء هو الحافظ لعدة علوم مع أسانيدها، وليس المراد حفظ المتون ونحوها بل حفظ بعض الكتب كاملة.[٥١] فقد كانت الإجازة (الشهادة) المكتوبة في البداية محددة ومقننة فلا يتحصل عليها أي طالب، ولكن بمرور الوقت وضعف التعليم والتعلم وتدهور الحياة العقلية بصفة عامة أصبح منح الإجازات سهلاً وشائعًا.[٥٢]

وكما كان مستوى التعليم بين الأساتذة والطلبة في الحواضر أحسن من البوادي، بحكم وفرة الكتب وحركة العلماء، وكثرة الاختلاط والتنافس على الوظائف. فأبوراس الناصري قد عاد من الريف إلى معسكر لأن التعليم فيها كان أقوى منه في الريف الذي لم يجد فيه ضالته، بل كاد يقتل فيه موهبته. ولا شك أن مستوى التعليم في الحاضرة لم يكن في درجة عالية أيضًا، ولكن الأمور تقاس بنسبتها إلى غيرها.[٥٣] أما المواد المدروسة في البرنامج الثانوية والعالمية كانت مقتصرة على العلوم الدينية واللغوية والتاريخ بينما العلوم الأخرى لم تكن متطورة وهي محدودة مثل الحساب، الوثائق، علم الفلك، الطب والصيدلية. ولعل عدم توسع الجزائريين في هذه العلوم هوما جعل بعض الملاحظين الأجانب يهاجمون بشدة التعليم الجزائري في العهد العثماني ولا شك أن هجومهم فيه كثير من الحقيقة.[٥٤]

| مشاهير وأكبر العلماء، والأدباء والمدرسين الجزائريين في العهد العثماني | |
|---|---|
| خلال فترة الدايات | |
| المشاهير | الفترة الزمنية بالهجرية |
| محمد بن أحمد ساسي البوني | ١١١٦ هـ |
| أحمد بن عثمان التلمساني | ١١٥١ هـ |
| محمد بن حواء المستغانمي | ١١٧٩ هـ |
| علي بن محمد الجزائري | ١١٨٥ هـ |
| محمد أمزيان الملياني | ١١٩٩ هـ |
| عبد الرحمن باش تارزي | ١٢٢٢ هـ |
| محمد بن علي الطلحي | ١٢٣٢ هـ |
| أبومنصور عمار الشريف | ١٢٤١ هـ |
| محمد الصالح بن سليماني الزواوي | ١٢٤٢ هـ |
| عمار بن شريط القسنطيني | ١٢٥٠ هـ |
| أحمد الطيب بن محمد الصالح الزواوي | ١٢٥١ هـ |
| أبوطالب الغريسي | ١٢٥٧ هـ |
| أحمد بن عمار الجزائري | ١٢٧٠ هـ |
| أبوعزة التلمساني | ١٢٧٧ هـ |

## خَاتِمَةُ

إن انتشار حركة التعليم وازدهارها في الجزائر أواخر العهد العثماني، معترف به حتى من طرف الفرنسيين أثناء الاحتلال، إلا أنه يبقى تعليمًا دينيًا بسيطًا وأوليًا، يعتمد فقط على القراءة والكتابة ولا يخرج في مجمله عن تعليم القرآن الكريم وحفظه، فهولا يقدم كثيرًا لأمة ولا يحرك آمال الشباب ولا يثير فضولهم على عوالم جديدة وأفكار حرة. كما أن لم يكن للعثمانيين في الجزائر سياسة تعليمية ولا خطة أو برنامج رسمي لتشجيع التعليم وتطويره أو العناية بأهله، وإنما كان تعليما خاصا يخضع للمبادرات الفردية والعائلية والمؤسسات الإسلامية الخيرية ومن ذوي البر والإحسان وكانت تغذيه الأوقاف التي تعتبر مصدر تمويله الأول. والهدف العام من التعليم هو ديني وليس دنيوي ما دام العلم لا يؤهل لأعمال اجتماعية وسياسية واقتصادية بارزة.

## الهَوامِشُ:

(١) هي مؤسسات خيرية تهدف إلى تحسين أوضاع الفقراء والتخفيف من مصائبهم، تسير حسب المذهب المالكي والمذهب الحنفي، أكثر تفاصيل انظر إلى حمدان خوجة، **المرآة** ص٢٦٩/٢٩٣.

(٢) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (١٦، ٢٠م)، ج١، ط٢، المؤسسة الوطنية للكتاب ١٩٨٥ ص ٢٣١.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٣٥.

(٤) يعود تأسيسها إلى ما قبل العهد العثماني، وهي أكثر ثروة تملك ٨٤٠ منزل، ٢٥٨ دكانًا، ٣٣ مخزنًا، ٥٧ بستانًا... تمثل تقريبًا ثلاثة أرباع الأوقاف العامة وتدير بعض الأوقاف المحلية سواء كانت مالكية أو حنفية، لتفاصيل أكثر انظر: أبو القاسم سعد الله، نفس المرجع.

(٥) أبو القاسم سعد الله، نفس المرجع السابق، ص ٢٤٢.

(٦) نفسه ص ٢٤٣.

(7) Davoux fils, les edifices religieux de l'ancienne Alger,in R.A ,T 6, 1862, P. 372.

(8) Brosse lard, les inscriptions arobes de Tlemcen, in. R.A, T5, 1861, P.323.

(٩) أبو القاسم سعد الله، نفس المرجع السابق، ص ٢٥٦.

(١٠) المرجع نفسه، ص ٢٦١.

(١١) المرجع نفسه، ص ٢٦٣.

(١٢) المرجع نفسه، ص٢٦٣، ٢٦٤.

(13) Féraud, L, Note sur Bougie, Lége,des, Tradition, Domination, Turque, in R.A, T3, 1859, P.302.

(١٤) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص٢٦٧، ٢٦٨.

(١٥) المرجع نفسه، ص٢٧٤.

(١٦) كان حاكمًا عامًا للجزائر من نوفمبر ١٨٦٠ إلى ماي ١٨٦٤.

(17) Rinn (L), note sur l'instruction Publique Musulmane en Algérie, Alger 1882, P10

(١٨) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص٢٧٦.

(19) Venture de Paradis, Alger au 18 eme siècle 2eme édition, édition Bouslama, Tunis, P 158

(٢٠) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص٢٧٧.

(٢١) المرجع نفسه، ص٢٧٩.

(٢٢) المرجع نفسه، ص٢٨٢.

(٢٣) المرجع نفسه، ص٢٨٤.

(٢٤) المرجع نفسه، ص٢٨٥.

(٢٥) أبوراس الناصر (فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته) مخطوطة الخزانة العامة بالرباط رقم ٢٢٦٣، ٢٣٣٢.

(٢٦) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص٢٨٦.

(٢٧) المرجع نفسه، ص ٣٢٣.

(٢٨) عبد القادر حلوش، **السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر ١٨٧١-١٩١٤**، رسالة لنيل الماجستير، دمشق ١٩٨٥ ص ٨.

(٢٩) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص٣٢٩.

(30) E, Foumestraux : L'instructuon puplique en Algérie de 1830-1880, P. 31.

(٣١) أبو القاسم سعد الله، نفس الرجع، ص٣٣١.

(٣٢) المرجع نفسه، ص٣٣٣.

(٣٣) عبد القادر حلوش، نفس المرجع، ص٩.

(٣٤) أبو القاسم سعد الله، ص٣٣٦.

(٣٥) محمد العربي الزبيري، **التجارة الخارجية للشرق الجزائري (١٧٩٢-١٨٣٠)**، الطبعة الثانية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٨٤، ص٤٩.

(٣٦) شالر وليام، **مذكرات وليام شالر (قنصل أمريكا في الجزائر)، ١٨١٦-١٨٢٤**، تعريب وتعليق وتقديم إسماعيل العربي ١٩٨٢، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ص٨٢.

(٣٧) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص٣٣٩.

(٣٨) المرجع نفسه، ص٣٤٠.

(٣٩) عبد القادر حلوش، المرجع السابق، ص١١.

(٤٠) المرجع نفسه، ص١٢.

(٤١) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص٢٨٦.

(42) Francie Laloe, les manuscrits Arabes de Constantine in R.A N°66, 1925, P109.

(٤٣) المقصود بالمكتبات العامة هي تلك التي كانت ملحقة بالمدارس والمساجد والزوايا أما الخاصة فهي التي كان يملكها الأفراد والعائلات.

(٤٤) عبد القادر حلوش، المرجع السابق، ص١٣.

(٤٥) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص٢٩٩-٣٠٠.

(٤٦) وليام شالر، المرجع السابق، ص٥٧.

(٤٧) المرجع نفسه، ص٥٨.

(٤٨) المرجع نفسه، ص٥٩.

(٤٩) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص٣٤٦.

(٥٠) عبد القادر حلوش، المرجع السابق، ص٧.

(٥١) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص٣٤٩-٣٥٠-٣٥١.

(٥٢) المرجع نفسه، ص٣٥٣.

(٥٣) المرجع نفسه، ص٣٥٤.

(٥٤) المرجع نفسه، ص٣٥٦-٣٦٠.

# العلاقات الجزائرية الإنـجليزية (١٦٦١ – ١٦٨٢)
# قراءة جديدة في العلاقة بين الطرفين

**بـلقاسم قرباش**
باحث دكتوراه في تاريخ غرب المتوسط
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة معسكر – الجمهورية الجزائرية

**مُلَخّصْ**

إن البحث في دور الجزائر في البحر المتوسط؛ لا يزال يرتكز في فهمه على فهم العلاقة بين فرنسا والجزائر، وهذا أمر غير منطقي باعتبار أن اكتمال فهم الدور الجزائري بالبحر المتوسط، يفرض علينا إدخال الانجليز في هذه المعادلة؛ فأفضل الكتابات المتعلقة بالبحر المتوسط خلال الفترة الحديثة تعود لباحثين إنجليز، ولعل أبرزها ذلك العمل الرائع والموسوم بـ "البحرية الملكية"، والذي حلل لنا فيه صاحبه التواجد الإنجليزي بالمتوسط من خلال خمس مجلدات ضخمة. وتضم العلاقة بين الطرفين كما هائلا من الوثائق؛ تتصدرها الوثائق الرسمية المتمثلة بالمعاهدات ومذكرات القناصل والمراسلات، إضافة إلى الوثائق غير الرسمية التي تتصدرها مذكرات الأسرى الإنجليز في المدينة. لقد شهدت العلاقات الجزائرية الإنجليزية تطورًا غير مسبوق خلال القرن السابع، ففي الفترة الممتدة بين سنتي (١٦٢٠-١٧٠٠) شهد الطرفان توقيع حوالي (١٣) معاهدة، تمحورت أغلبها حول سلامة وأمن التجارة البريطانية. إن دراسة موضوع العلاقة بين الجانبين في العصر الحديث، لا يزال بكرًا في أبحاثنا الجزائرية، حيث نرى أن أغلب الباحثين يتوجهون في الأغلب لدراسة العلاقات الجزائرية الفرنسية والاسبانية والعثمانية، رغم أن فهم تاريخ الجزائر لن يتم إلا بفهم تاريخ العلاقة الانجليزية الجزائرية؛ كطرف مهم في قوى البحر المتوسط خلال الفترة الحديثة. تبدأ فترة دراستنا بسنة ١٦٦١ وهي نفسها السنة التي احتل فيها الانجليز طنجة، وتنتهي بسنة ١٦٨٢ وهي سنة عقد الإنجليز معاهدة مع الجزائر. إن استيلاء الانجليز على طنجة، كرس الهيمنة الانجليزية في البحر المتوسط، وساعد في تطوير العلاقة الانجليزية الجزائرية، من شقها السلمي، إلى استخدام القوة والعنف لإيقاف التهديد الجزائري للمصالح الانجليزية في المتوسط.

**بيانات المقال:**

| | | | |
|---|---|---|---|
| تاريخ استلام المقال: | ١٧ | فبراير | ٢٠١٥ |
| تاريخ قبـول النشـر: | ٠٩ | مايو | ٢٠١٥ |

**كلمات مفتاحية:**
البحر المتوسط، طنجة، إنجلترا، السياسة الإنجليزية، العلاقات الدولية

**معرِّف الوثيقة الرقمي:** DOI 10.12816/0045084

**الاستشهاد المرجعي بالمقال:**
بلقاسم قرباش. "العلاقات الجزائرية الإنجليزية (١٦٦١ – ١٦٨٢) قراءة جديدة في العلاقة بين الطرفين".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد السابع والثلاثون؛ سبتمبر ٢٠١٧. ص٣٢ – ٣٨.

## مُقَدِّمَةٌ

اتسمت العلاقات الجزائرية الإنجليزية (١٥٨١-١٦٦٠) بالتقارب السلمي، كون البريطانيين كانوا في حاجة ماسة لهذا التقارب من أجل الحفاظ على مصالحهم الاستراتيجية في المتوسط، وحماية سفنها ومواطنيها من غارات وهجمات بحارة الجزائر؛ لكن استلاء الانجليز على طنجة سنة ١٦٦١ أنتج تحولاً جذريًا في العلاقة بين الطرفين؛ من شقه السلمي إلى استخدام العنف، لإيقاف الأسطول الجزائري. جاءت هذه الدراسة لإخراج العلاقات الجزائرية الخارجية خلال الفترة الحديثة، من ارتكازها المفرط على العلاقات الفرنسية الجزائرية، وهذا أمر غير منطقي باعتبار أن اكتمال فهم الدور الجزائري بالبحر المتوسط، يفرض علينا إدخال الانجليز في هذه المعادلة؛ فالبحر المتوسط خلال هذه الفترة كان منطقة نفوذ إنجليزي فرنسي، يفرض على الدويلات الصغيرة هيكلة تواجدها على أساسه. إن أفضل الكتابات المتعلقة بالبحر المتوسط خلال الفترة الحديثة تعود لباحثين إنجليز، ولعل أبرزها ذلك العمل الرائع

والموسوم بـ "البحرية الملكية"، والذي حلل لنا فيه صاحبه التواجد الإنجليزي بالمتوسط من خلال خمس مجلدات ضخمة.

## ١- طنجة تحت السيطرة الانجليزية

في سنة ١٦٥٥ أرسلت انجلترا أسطولاً ضد كل من تونس والجزائر، ضمنت من خلاله تجديد معاهدة السلام مع الجزائر. وقاد استخدام الإنجليز للتهديد والقوة ضد طرابلس وتونس سنة ١٦٥٨ لعقد معاهدة سلام مع هاتين الدولتين. وبعد ميثاق الزواج الذي رتبه البرتغاليون مع شارل الثاني العائد من المنفى سنة ١٦٦١، أصبحت انجلترا رسميًا قوة في البحر المتوسط: "حيث أعيد اختيار شارل الثاني كملك لإنجلترا، الذي تزوج من الأميرة البرتغالية كاثرين براغينزا (Catherin of Braganza)، ليمنحه البرتغاليون صداقًا كبيرًا إضافة إلى مدينة طنجة الساحلية".[١]

أصبحت منطقة الشمال الإفريقي مجال جذب لكل القوى الكبرى، فالفرنسيون قاموا بالاستيلاء على مدينة جيجل الجزائرية سنة ١٦٦٤؛ لكن الأمر لم يدم طويلاً حيث طردوا منها. وفي المقابل واصل الفرنسيون دعمهم للبرتغاليين ضد أعدائهم الإسبان واعترفوا باستقلالها سنة ١٦٤٠، كما أنهم دخلوا في صراع مع الهولنديين لإجبارهم التخلي عن البرازيل، التي اغتصبوها من البرتغاليين.[٢]

كانت الملكة البرتغالية لويزا (Luisa) تبدوا فخورة كفاية؛ لأنها ستتخلص من التبعية الاسبانية، وقد أصبح الأمر الآن أكثر تعقيدا من ذي قبل في صراعها للدفاع عن حريتها ضد جيرانها الإسبان، وقد رأت الملكة أن التنازل عن طنجة، لا يعتبر شيئا بالمقارنة مع تجديد التحالف مع الإنجليز؛ رغم أن السكان البرتغاليين في طنجة كانوا غير راضين عن تصرف ملكتهم، بعد تخليها عن المدينة لصالح الإنجليز "الهراقطة"[٣]، والتي تعتبر إحدى آخر المدن البرتغالية المهمة في إفريقيا.[٤]

وطنجة مدينة مغربية، تخلى عنها أهلها لصالح البرتغاليين سنة ١٤٧١، وفي سنة ١٥٨٠ انتقلت المدينة إلى الأيادي الاسبانية، مع ما تبقى من ممتلكات برتغالية في هذه المنطقة. لكن البرتغاليين تمكنوا سنة ١٦٤٠ من طرد الاسبان من بلدهم (البرتغال)؛ أما طنجة وسبتة فقد بقيت تحت السيطرة الاسبانية لمدة ثلاث سنوات، استرجعها البرتغاليون بعد ذلك من أعدائهم الإسبان مجددا. وعند حصول الانجليز عليها سنة ١٦٦١ ظل الإسبان ينظرون إليهم نظرة الغيرة وادعوا أنها المدينة المتمردة. ورفضوا التسليم بأحقية الادعاء الانجليزي في امتلاكهم للمدينة.[٥]

كان الاستيلاء على المدينة يمثل ضربة موجعة للإسبان، فالقراصنة الاسبان المستقرين على سواحل طنجة؛ والذين هددوا البحرية والتجارة الإنجليزية خلال السنوات السابقة تم طردهم من المدينة إضافة إلى أن طنجة كانت تعتبر بمثابة القاعدة البحرية الانجليزية المتقدمة في المتوسط، حيث أصبح يمكن للإنجليز الآن أن يوجهوا حملات بحرية من خلال مدينة طنجة؛ ضد مناطق معينة في المتوسط، وبحصار طويل وهذا ما لم يكن يحدث من قبل، حيث أصبحوا يستطيعون تجنيب أنفسهم هجمات البحارة الجزائريين والتونسيين والطرابلسيين ولو بدرجة أقل من السابق.

كما أصبح في الإمكان منع بحارة المغرب الاسلامي من الوصول إلى سواحل المحيط الأطلنطي. "ففي الفترة الممتدة بين سنتي ١٦٠٩-١٦١٦ تمكن الجزائريون من الاستيلاء على ما لا يقل عن (٤٦٦) سفينة بريطانية، واحتجزوا طواقمها... أما في سنة ١٦٣١ فقد خلف هجوم بحارة الجزائر (قاد هذا الهجوم الرايس مراد) على مدينة بالتيمور (إحدى المدن الإنجليزية الواقعة على الجنوب الساحلي) أكثر من مائتين وستة وثلاثين مواطنا إنجليزيًا، جلبوا إلى الجزائر".[٦] ويذكر ويليام لارد (William Laird) أن ستين بحارًا من الجزائر، نفذوا غارة ناجحة على سواحل بينزينس[٧] (Penzance) سنة ١٦٤٠.[٨]

وجاء في الزهرة النائرة أنه في سنة ١٦٦٠ أخذ الجزائريون للإنجليز ٦٢ سفينة في ستة شهور. وقد يكون الرقم مبالغة لكن تحديد التاريخ هكذا ليس من قبيل المصادفة. فهو تاريخ يتطابق مع دفعة قوية "للقرصنة".[٩] وبعد حصوله على مدينة طنجة قام الملك شارل الثاني، بإعطاء تعليمات إلى اللورد بيتربراو (Peterbrough)، جاء فيها: "إن مشروعنا الرئيسي من وضع أنفسنا في هذا التكليف العظيم هو استغلال هذه الاضافة (طنجة) التي توجد تحت سيطرتنا، لدعم تجارة مواطنينا مع منطقة الساحل البربري وتوسيع سيطرتنا في هذا البحر... ونحن مسرورون لأنه لا توجد ضرائب أو رسوم أو أي نوع آخر من الضرائب تدفع عن حمولاتنا التي تستورد أو تصدر من مدينتنا مدينة طنجة... وبالطبع ستبقى ميناءً حرًا".[١٠]

## ٢-سياسة الإنجليز مع الجزائر بعد الاستيلاء على طنجة

كانت مدينة طنجة تمثل إحدى أكثر المناطق البحرية، تعرضا لغارات مستمرة من قبل بحارة الجزائر؛ باعتبارها كانت تابعة للإسبان وفيما بعد للبرتغاليين، حيث أن كلاّ من الدولتين كانتا في حالة حرب مع الجزائر، ما أعطى شرعية للهجمات الجزائرية على المنطقة، فالبرتغاليون كانوا يعلمون جيدا أن تقديمها هبة للإنجليز وضمان تحالف مع أعظم دولة في العالم آنذاك، أفضل من استمرار المنطقة بأيديهم وتعرضها لهجمات مستمرة من قبل بحارة المغرب الاسلامي والبحارة الإسبان، ما سيكلفها خسائر أكثر إضافة إلى أن الاسبان لن يسكتوا عن بقاء المدينة في أيديهم؛ بعدما كانت في السابق تعتبر مدينة اسبانية.

في ١٩ جوان ١٦٦١، أقلع السير جون لاوسون (John Lawson) مع ثمانين مقاتلاً تقلهم سفينتين من انجلترا؛ وفي ٢٩ جوان ظهروا أمام السواحل الجزائرية، ورغم أن المفاوضات انطلقت بين الطرفين؛ إلا أنها فشلت بعد فترة قصيرة من بدئها... ما جعل الأسطول يتجه مباشرة إلى طنجة بعد استيلاء الانجليز عليها، ومنها أقلع جون لاوسون إلى انجلترا في ١٤ ماي ١٦٦٢. بعد أن قضى مدة في إنجلترا التحق السير لاوسون بقائده، وعادوا إلى البحر المتوسط مرة أخرى لاستئناف المفاوضات مع الجزائر... وقد نجح الإنجليز في تحرير عدد من الأسرى؛ ولكنهم عندما طلبوا استرجاع الممتلكات الانجليزية المأخوذة، قال الداي أنهم لا يملكون أي شيء عنده، وبشجاعة قام بإعلان الحرب ضد الإنجليز.(١١)

وقد استطاع لاوسون الاستيلاء على إحدى سفن "القراصنة" الجزائريين ذات (٣٤) مدفعًا، و(٢٦٠) رجل، ولكن قبل أن يواصل عملياته الناجحة تم استدعائه إلى انجلترا، واستبدل بالكابتن توماس ألين (Thomas Allin)، الذي لم يقدم الشيء الكثير ضد "القراصنة"؛ لكنه بقي بالقرب من مضيق جبل طارق؛ حيث لم يطل المكوث ليتم استدعاؤه بعد ذلك أيضا نظرا لاندلاع الحرب الهولندية الانجليزية الثانية.(١٢) ونجح الإنجليز في تجديد معاهدة السلم مع الجزائريين بتاريخ ١٠ نوفمبر ١٦٦٢، ويبدو أنهم استطاعوا هذه المرة ادراج طنجة كمدينة انجليزية يمنع التعرض لها من قبل بحارة الجزائر. حيث جاء البند (٨) كالآتي: "لا تهاجم أو ترسوا السفن الكبيرة والصغيرة للجزائر في مدينة وحامية طنجة (Tangier)، أو أي من الطرق، المرافئ والموانئ، والمدن والمناطق التي تتبع جلالة الملك البريطاني وليعمل كل طرف ما بوسعه للحفاظ على السلم والتجارة".(١٣)

لكن الانجليز لم يحافظوا على السلم، وذلك عندما أرسى أحد الضباط الانجليز بميناء طنجة ومعه عدد كبير من المسافرين الأتراك والجزائريين، وأجبرهم على العمل وذلك بجعلهم يشحذون الحجارة. ولم تكن الحكومة الانجليزية مهتمة بهذا الحادث. ورغم هذا الحادث إلا أن المؤسسة البحرية الجزائرية كانت لا تزال ضعيفة، وكانت معظم فوهات مدافعها من الحجم الصغير. بل أن سفن الجزائر الحربية الثلاث لم تدخل البحر خلال صيف ١٦٦٣، وقد أرسل شارل رسالة إلى الباشا يخبره فيها أن السيد جون لاونسون (Lownson) متوجه إلى الجزائر ليحصل على ترضيات نتيجة الاخلال بالمعاهدة. ولكي يطمئن شارل الرأي العام الانكليزي بأن هذه البعثة كانت في مكانها... قال: "سيكون من العار الكبير أن الأشخاص الذين يمنحهم الضابط الانجليزي حمايته... يجب تسليمهم إلى أيدي أعدائهم".(١٤)

وفي سنة ١٦٦٤ نجح القائد العام للأسطول الإنجليزي الأميرال "توماس ألين" (Thomas Allin) في تجديد معاهدة السلم والصلح السابقة بين الطرفين، بعد شهر فقط من تعيينه بمركزه. وبعد مدة قصيرة تمكن الفرنسيون وبالضبط في ٢٢ جويلية من دخول جيجل، رغم أن التقارير كانت تؤكد بأن الفرنسيين ينوون مهاجمة ستورا الواقعة على السواحل سكيكدة، وقد خلفت هذه الحملة حوالي أربعمائة قتيل يضاف إليهم الجرحى. استمرت الأخبار في الورود إلى فرنسا عن طريق الطائفة الماركنتيلية برضى كبير؛ لترسل الحكومة قافلة من تولون إلى جيجل تحت قيادة الماركيز دومارتال مع ذخيرة كبيرة، ومجموعتين من الخيول. وكانت الفكرة التي تراود لويس هي وضع قاعدة بحرية دائمة على سواحل المغرب الاسلامي تشبه تلك التي يملكها الإنجليز في طنجة.(١٥) وجاءت معاهدة ١٦٦٤ لتضيف بندًا جديدًا، تمثل في تعيين قنصل انجليزي ثابت في الجزائر، والذي يسمح له بمغادرة الجزائر في حالة تصدع العلاقة بين الطرفين مستقبلا، دون أي عرقلة أو اعتداء من قبل الجزائريين.(١٦)

وكانت أكثر القضايا التي تؤدي إلى توتر العلاقة بين الطرفين، هي قضية تفتيش السفن الإنجليزية والمساس بالرعايا والمواطنين الاسبان والبرتغاليين الموجودين على متن السفن الانجليزية، وقد كان الجزائريون يعتبرون أن هؤلاء الرعايا غنائم شرعية، مادامت دولهم توجد في حالة حرب مع الجزائر. وجاءت معاهدة سنة ١٦٦٨ لتعالج هذه النقطة، فكانت المادة الثامنة كالآتي: "إن كل السفن التابعة للملك الانجليزي أو لرعاياه؛ ونفس الشيء بالنسبة للسفن المملوكة للدولة الجزائرية أو للأفراد الجزائريين، لها حرية المرور بالبحر المتوسط والمتاجرة دون أي تفتيش، أو إعاقة وتحرش؛ وكل الأفراد أو المسافرين الخاضعين لبريطانيا أو الجزائر يعتبرون هم وأموالهم وممتلكاتهم وسلعهم آمنين ومهما يكن لا يتم المساس بمواطني أي دولة أجنبية يكون أفرادها فوق السفن التابعة لجلالة الملك البريطاني، وبالطبع لا يأسر أو يسلب، أو يمس بأي أذى أو تخريب أفراد كلا الطرفين".(١٧)

وأما المادة الأولى: "يسمح للجزائريين إرسال لجنة تفتيش إلى ظهر أي سفينة إنجليزية إذا التقت بها في البحر، شرط أن تكون هذه اللجنة مكونة من رجلين جزائريين. فإذا كان طاقم السفينة يضم مواطنين إنجليز أكثر من المواطنين الأجانب، تغادر السفينة بحرية دون أي عرقلة، وفي حالة وجد المواطنون الأجانب أكثر من نظرائهم الإنجليز، تصبح قانونيا غنيمة للجزائريين، إلا إذا كانت تحمل جواز مرور موقع من الداي". المادة الثانية: " لا يتعرض الجزائريون لأي مركب إسباني محمل بذخائر وممتلكات موجهة لمدينة طنجة الإنجليزية". المادة الثالثة: "لا يسمح لأي سفينة بحرية جزائرية متوجهة إلى مدينة سلا أن تقوم بعمل حربي ضد السفن الانجليزية، وأما السفن المتوجهة إلى مدينة طنجة فيجب عليها أن تحمل جواز سفر يقدمه لها القنصل الإنجليزي بالجزائر".(١٨)

ويذكر السيد بيبيز (Pepys) أن الملك البريطاني قرر تعزيز التواجد الانجليزي في البحر المتوسط لكن في الحقيقة أنه وفي ١٨ جوان ١٦٦٩ أصدر الملك مرسوما يتضمن إرسال بعثة إلى الجزائر، بقيادة السير ألان لتجديد معاهد الصلح والسلم مع الجزائر إن أمكن؛ لكن دون استخدام أي عنف، وقد أصدر الدوق يورك، القائد الأعلى للقوات البحرية الإنجليزية تعليمات صارمة إلى موفده، وطلب منه أن يأخذ على عاتقه قيادة هذه القوة البحرية؛ المكونة من السفن التالية: ريزوليشن (المستوى الثالث)، رافنج (المستوى الثالث)، ماري (المستوى الثالث)؛ بريستول (المستوى الرابع)؛ فورسايت (المستوى الثالث)؛ السير دافيس (المستوى الرابع)، جانتيريون (المستوى الرابع)، التنين (المستوى الرابع)، بورتلاند (المستوى الرابع)، جيرسي (المستوى الرابع)، نانساش (المستوى الرابع)، كونستنس ووروبك (المستوى الرابع)؛ إكليل الزهر (المستوى الخامس)، دارتثموث (المستوى الخامس)، ميلفورد، اللؤلؤة (المستوى الخامس)، البرتقالة (راجمة قنابل)، ليتل فيكتوري (راجمة قنابل)، اليد الذهبية (حاملة ذخائر)؛ دابتفورد (سفينة من نوع الكاتش ذات الصاريين) بورتسموث (من نوع الكاتش)؛ مرحبا (راجمة قنابل).[١٩]

وطلب دوق يورك من توماس ألان قائد الحملة أن يقوم بأسر أي سفينة جزائرية يصادفها في طريقه، بحيث يفاوض بها الجانب الجزائري، وأن يحرص على إطلاق سراح جميع الأسرى الاسبان الذين وجدوا على ظهور السفن الانجليزية، وكذا الانجليز الذين وجدوا على ظهر السفن المعادية للجزائر. أما في حالة فشل المفاوضات فله الحق في قصف المدينة لكن التعليمات كانت تقضي بضرورة التوصل إلى اتفاق دون استعمال العنف. لم يحصل الانجليز على الترضيات المرجوة، ورغم أن توماس آلان عاد إلى الجزائر مرة ثانية في أوت سنة ١٦٦٩، إلا أنه لم يتوصل إلى أي نتائج مرضية، وفي سبتمبر عاد مرة أخرى وقام بقصف المدينة والاستيلاء على مجموعة من الفرقاطات الجزائرية الموجودة بالميناء، وفي نوفمبر من نفس السنة كتبت ثلاث رسائل من قبل القنصل الإنجليزي[٢٠] إلى السيد ويليامسان (Williamson)، أكد له فيها تواجده كأسير في منزله الخاص، لكنه "إذا تدخل الملك وطلب تحريري فسيوافقون على الفور". ويعتبر القنصل صديقًا مقربًا للباشا الذي ساعده بتوفير الحماية له، وفي هذه الفترة كان يتواجد في الجزائر حوالي مائتي مواطن انجليزي كأسرى في المدينة.[٢١]

لم تكن هذه الأحداث لتمر هكذا، دون أي رد فعل إنجليزي متوقع، فالشرف الملكي أصبح عرضة للمساس، والهيبة الإنجليزية يمكن أن تتعرض للاهتزاز، ولهذا أصبح الإنجليز مطالبين برد فعل يحفظ ماء الوجه الإنجليزي على الاقل. وقد شهدت سنة ١٦٧٠ عمليات بحرية ناجحة ضد الأسطول الجزائري استطاعت انجلترا من خلالها أن تضعف الحركة البحرية الجزائرية بشكل واضح. ففي ١٢ أوت ١٦٧٠ شوهدت مجموعة من السفن الجزائرية، وتم مطاردتها من قبل الأسطول الإنجليزي والهولندي، لتجبر على الهروب نحو رأس سبارتل (Cape Spartel). لكن الإنجليز تمكنوا من إحراق سفينتين؛ أما الباقي فقد تمكن العبيد المتواجدون على ظهورها من الاستيلاء عليها، وتقييد طاقمها إلى غاية وصول القائد بيتش، فأحرق سفينتين وقام الهولنديون بإحراق اثنتان. وجاءت أسماء السفن الجزائرية كالآتي: سفينة إناء الزهرة ذات (٤٤) مدفعًا و٤٨٨ رجل، سفينة النمر ذات (٤٤) مدفعًا و(٤٨٨) رجل، سفينة الفهد ذات (٤٤) مدفعًا و(٣٨٠) سفينة، سفينة النخلة ذات (٤٠) مدفعًا و(٣٠٠)، سفينة راعي الغنم ذات (٣٨) مدفعًا و(٣٦٠) رجلاً، والوردة الذهبية ذات (٣٨) مدفعًا و(٣٣٠) رجلاً.

وفي مايو ١٦٧١، وصلت أخبار إلى القائد الانجليزي مفادها أن مجموعة من السفن الحربية الجزائرية ترسو على ساحل بجاية، وبعد هجوم إنجليزي فاشل، وفي الوقت الذي كان يجهز فيه الانجليز أنفسهم لهجمة ثانية؛ استطاع الجزائريون حماية أنفسهم خلف مجموعة من الكتل الخشبية القوية؛ لكن الإنجليز اخترقوها واستطاعوا تدمير سبع بوارج جزائرية ذات الثمانية والعشرين إلى الثلاثين مدفعًا. هذه الأحداث دفعت الرياس إلى الثورة ضد السلطة؛ وتعيين أول داي ذات صلاحيات جديدة ودخول الجزائر مرحلة الدايات، وبهذا تمكن الإنجليز من إجبار الداي على توقيع معاهدة صلح وسلام جديدة.[٢٢]

## ٣-تصدع العلاقات الإنجليزية الجزائرية ١٦٧١-١٦٨٢

في الوقت الذي كانت فيه المفاوضات جارية بين الطرفين الجزائري والانجليز، قام الكابتن جون هولمز (Captain John Holmes)، بتصعيد عملياته على مضيق جبل طارق، أين استطاع احراق إحدى الغنائم الجزائرية، وقاد إحدى البوارج إلى الساحل.[٢٣] لكن تجدد الحرب مع هولندا جعلت الطرفان يتوصلان إلى اتفاق في ٢٩ نوفمبر ١٦٧٢؛ يقضي بتجديد معاهدة الصلح والسلم التي وقعت سابقا بين الجانبين. وفي جوان ١٥٧٤ عين (Samuel Martin) "ساموال مارتين" كقنصل انجليزي في مدينة الجزائر ولسوء حظه فقد سمح له بممارسة التجارة حيث اشترك مع التاجر اللندني الشهير وليام باوتال (Bowtell William)، الذي اعتبر نفسه وكيلاً لافتداء الأسرى، وللأسف فَقَدَ كل ثروته على إثر هذه العملية الفاشلة.[٢٤]

وعند عودته إلى انجلترا شرح الأخير للملك الانجليزي أن القنصل يوجد في خطر بالغ، بعد الثورة التي قادتها الانكشارية. وكما توصي به الأعراف فإنه بعد توقيع أي دولة أوربية السلم مع الجزائر؛ فعليها أن تقوم بافتداء أسراها، وهذا ما لم يكن يستطع

الانجليز القيام به في الوقت الراهن؛ خاصة وأنهم كانوا يحتاجون إلى هذه المبالغ لتدعيم مراكزهم في أوربا. وقدم السير سبارغر وعودًا للديوان؛ بأنه وخلال ثلاثة أشهر إن لم يقم الإنجليز بافتداء أسراهم؛ فللجزائريين الحق بإنهاء العلاقات في نوفمبر ١٦٧٤.

وفي ١٩ سبتمبر من السنة نفسها قرر الملك الانجليزي؛ تعيين لجنة لافتداء الأسرى الإنجليز الغير مهمين، لكن الداي وبخجل أرسل إلى الملك البريطاني يخبره بضرورة افتداء الأسرى لتهدئة ثورة الانكشارية، ولهذا فيجب على الانجليز افتداء خمسة رجال يخصون قادة المدينة، وثلاثين رجلا يخصون الباشا والقادة الكبار في الدولة... وفي ٨ ديسمبر عاد الاسطول الانجليزي السابق إلى الجزائر محملاً بـ (٧٥) ألف قطعة ذات الثمانية لفدية الأسرى الإنجليز، ورغم الصعوبات التي لاقتها البعثة بسبب تزييف اليهود لدليل الأسرى الموجود بقصر الداي؛ إلا أنه وفي جانفي ١٦٧٥ تمكنت البعثة من انهاء مهمتها بافتداء (١٨٩) أسير بمبلغ (٥٦) ألف قطعة ذات الثمانية، وهدايا بقيمة ٦٠٥٢ قطعة ذات الثمانية قدمت للديوان.[٢٥]

وفي الفترة الممتدة بين سنتي ١٦٧٧-١٦٨٠، تمكن بحارة الجزائر من الاستيلاء على ١٥٣ سفينة إنجليزية، كان على ظهرها ١٨٥٠ رجل، وممتلكات قيمتها ١٥٣ ألف إسترليني، من بينها أربعة سفن من ماساشوستس[٢٦] (Massachusetts) هي كالآتي: **(البركة، الوردة، الوحدة، وليام وماري)**. وغادرت هذه السفن من بوستن وشارلستون حيث قتل من طاقمها ما لا يقل عن ستين شخصًا، وعدد غير معروف من المسافرين من بينهم امرأة تسمى (Mary Litchfield) "ماري لشفيلد"، وأسروا تسعين شخصًا كانوا محظوظين جدًا أن تم افتدائهم، وأغلب هؤلاء عادوا إلى منطقة نيو انجلن لعيش حياتهم بصورة طبيعية، أما الباقون في مدينة الجزائر؛ فقد ماتوا سواء من جراء المرض أو الأعمال الشاقة.[٢٧]

وهنا جدول يوضح عدد الأسرى وأسماءهم والسفن الانجليزية المأسورة في الفترة الممتدة بين سنتي ١٦٧٨-١٦٨٤:[٢٨]

| السفينة/ الطاقم | مولد-وفاة | المدينة/المنطقة | السنة | القدر |
|---|---|---|---|---|
| **سفينة البركة** | | | **١٦٧٨** | |
| - بابل روجر | -- | بوسطن | | مجهول |
| - باستر بنجامين | ١٦٥٢-؟ | بوسطن | | مجهول |
| - برانستوم أرثر | -- | بوسطن | | مجهول |
| - توماس كوربين | ١٦٥٦-١٧٠٤ | ميودي ريفر | | افتدي سنة ١٦٨١ |
| - دجرانكر فيليب | -- | شارلستون | | مجهول |
| - الكابتن جيمس إلسون | ١٦٤٣-١٦٨٠ | شارلستون | | افتدي سنة ١٦٧٩ |
| - ريتشارد إلسون | -- | شارلستون | | مجهول |
| - لوفداي لامبسون | -- | -- | | افتدي سنة ١٦٨١ |
| - ويليام مارش | توفي سنة ١٦٩٥ | شارلستون | | مجهول |
| - دانيال ماسون | ١٦٤٠-١٦٨٠ | ووترتاون | | توفي أسيرًا ١٦٨٠/٥ |
| - بينجامين ميريك | ١٦٤٤-١٧٠١ | شارلستون | | افتدي سنة ١٦٨٤ |
| - توماس ميشال | -- | شارلستون | | مجهول |
| - ميشال نيوكومب | -- | شارلستون | | افتدي سنة ١٦٨٩ |
| - جورج سميث | -- | بوسطن | | افتدي سنة ١٦٨١ |
| **سفينة الوردة** | | | **١٦٧٨** | |
| - الكابتن جون فيرنال | ١٦٥٤-١٦٩٩ | بوسطن | | هرب |
| - توماس جينار | ١٦٥٨-١٧٠٦ | شارلستاون | | افتدي سنة ١٦٨١ |
| - توماس ميشال | ١٦٢٨-١٧٠٩ | مالدين | | افتدي سنة ١٦٨١ |

| السفينة/ الطاقم | مولد-وفاة | المدينة/المنطقة | السنة | القدر |
|---|---|---|---|---|
| سفينة الوحدة<br>- الكابتن وليام كوندال<br>- جون شابمن<br>- وليام هاريس<br>- سيمون جونسون<br>- جون واتس | ١٦٨٥-١٦٣٨<br>--<br>١٦٨١-١٦١٠<br>--<br>-- | بوسطن<br>--<br>بروفيدنس<br>--<br>بوسطن | ١٦٨٠ | افتدي سنة ١٦٨١<br>افتدي سنة ١٦٨١<br>افتدي سنة ١٦٨١<br>افتدي سنة ١٦٨١<br>افتدي سنة ١٦٨١ |
| سفينة ويليام وماري<br>- الكابتن ويليام أشلي<br>- جون بامستيد<br>- جوشوا جي<br>- بينجامين هالويل<br>- جورج باركيس | --<br>١٧٢٤-١٦٥٤<br>١٧٥١-١٦٥٦<br>١٦٨٦-؟<br>-- | بوسطن<br>بوسطن<br>بوسطن<br>بوسطن<br>بوسطن | ١٦٨٠ | افتدي سنة ١٦٨٥<br>افتدي سنة ١٦٨١<br>افتدي سنة ١٦٨٧<br>افتدي سنة ١٦٨٩<br>توفي أسيرًا |
| سفينة المغامر جون<br>- الكابتن كريستوف مونك | -- | بوسطن | ١٦٨١ | افتداه أحد الانجليز ١٦٨١ |
| سفن مجهولة<br>- موسس أيريس<br>- باونس<br>- أليكسندر دوميت<br>- ساموال غولد<br>- توماس غولد<br>- جون غرين<br>- جوزيف خوان<br>- ماري ليتشفيلد<br>- روبنس<br>- توماس ثاتشر<br>- تاكر<br>- ويدن | ولد ١٦٦٤<br>--<br>--<br>--<br>--<br>١٦٥٧-؟<br>--<br>١٧٠٣-١٦٤٠<br>--<br>--<br>--<br>-- | دورشيستر<br>روكسبوري<br>بوسطن<br>بوسطن<br>--<br>كامبرج<br>--<br>دروشيستر<br>دروشيستر<br>--<br>بوسطن<br>بوسطن | ١٦٨٠<br>١٦٨٥<br>١٦٨١<br>١٦٨٠<br>١٦٨٠<br>١٦٨١<br>١٦٨٠<br>١٦٨١<br>١٦٨٣<br>١٦٨٠<br>١٦٨٥<br>١٦٨٣ | افتدي بعد ١٦٨٤<br>مجهول<br>مجهول<br>مجهول<br>مجهول<br>مجهول<br>مجهول<br>افتدي سنة ١٦٨٣<br>افتدي سنة ١٦٨٤<br>مجهول<br>مجهول<br>مجهول |

وفي سنة ١٦٨٢ توصل الطرفان الانجليزي والجزائري إلى توقيع معاهدة صلح وسلام[٢٩]، وقد احتوت المعاهدة على اثنين وعشرين بندا، ثبتت سلامة المواطنين الإنجليز، إضافة إلى تأمين التجارة الإنجليزية. ومنعت بحارة الجزائر من التعرض لمدينة طنجة. كما منعت بيع السلع الإنجليزية المأسورة في مدينة الجزائر؛ أو في أي نطاق يخضع لنفوذها.

كما عالجت المعاهدة قضية تفتيش السفن الجزائرية، وذلك في البند (٤): إن صادف والتقت سفينة جزائرية حربية أو أي سفينة أخرى من أي نوع؛ بسفينة تجارية أو أي سفينة أخرى تابعة لرعايا الملك البريطاني في مناطق بحرية لا تخضع للسيطرة البريطانية، يسمح للجزائريين بإرسال قارب واحد يحمل مُرَاقِبيْنِ بحيث لا يتعرضان لأي سلع موجودة على ظهر السفينة، وللمراقبين الحق في الاطلاع على جواز السفر الممنوح من قبل الأدميرال الانجليزي والايرلندي، أو القائد الأعلى للقوات الأيسلندية، وبهذا فإن هذا القارب له الحرية التامة في المغادرة، وتظل هذه المعاهدة طول خمسين شهرًا من توقيعها راسخة ولا تخرق، وإن صادف والتقت أي سفينة تابعة للملك البريطاني أو رعاياه بسفينة جزائرية تغادر بحريّة، لكن وبعد هذا التاريخ (أي بعد الخمسين شهرًا) يتوجب على السفن التجارية المملوكة للدولة أو الأفراد، أو حتى السفن الحربية أن تقدم جواز سفر مختوم من قبل الداي، والذي يمنحه بالنيابة عنه القنصل الانجليزي بالجزائر للمرور؛ أما إذا لم تكن تحمل هذه السفن جواز سفر بعد هذا التاريخ تصبح طواقمها ملكًا للأتراك والمغاربة كأسرى بالجزائر، لكن بعد

وصولهم إلى المدينة ويتم التأكد بأنهم انجليز ثم يطلق سراحهم مباشرة، والأمر نفسه يتعلق بالجزائريين فإنه وبعد مرور خمسين شهرًا من هذا التاريخ، يصبح إلزامًا على الجزائريين إظهار جوازات سفرهم للسفن الحربية البريطانية.

## خَاتِمَةٌ

شهدت الفترة الأخيرة من القرن السادس عشر، تراجع الهيبة العثمانية والإسبانية وصعود دول جديدة تمثلت في فرنسا وانجلترا وحتى هولندا، هذه الدول لم تعد تحارب من أجل الدين، بل طورت بحرياتها لتتلاءم مع مصالحها التجارية والاستراتيجية في البحر المتوسط والمحيط الأطلسي. ورغم أن العلاقات الجزائرية الانجليزية شهد استقرارًا أواخر القرن السادس عشر؛ إلا أنها شهدت تراجعًا مع مطلع القرن السابع عشر، كون الانجليز وقعوا معاهدة سلام مع إسبانيا، العدو الأول بالنسبة للجزائريين، وبهذا أصبح يُنظر إلى انجلترا كدولة معادية، لأنها وقعت على الصلح مع الأعداء. إن العلاقات الجزائرية الإنجليزية اشتدت خلال القرن السابع، ففي الفترة الممتدة بين سنتي (١٦٢٠-١٧٠٠) شهد الطرفان توقيع حوالي (١٣) معاهدة، تمحورت أغلبها حول سلامة وأمن التجارة البريطانية. وإن دراسة موضوع العلاقة بين الجانبين في العصر الحديث، لا يزال بكرًا في أبحاثنا الجزائرية، حيث نرى أن أغلب الباحثين يتوجهون في الأغلب لدراسة العلاقات الجزائرية الفرنسية والاسبانية والعثمانية، رغم أن فهم تاريخ الجزائر لن يتم إلا بفهم تاريخ العلاقة الانجليزية الجزائرية؛ كطرف مهم في قوى البحر المتوسط خلال الفترة الحديثة.

## الهَوامِشُ:

(1) John B. Hattendorf, *Naval Policy and Strategy in the Mediterranean Past, Present and Future,* London: FRANK CASS, 2000, P. 23.

(2) A. Berbrugger, "*Occupation anglaise de Tanger (de 1662 à 1683)*", Revue Africain, Vol 5, 1861, P.337.

(٣) يسمي المسيحيون الكاثوليك كل من خرج عن الكنيسة الرومانية الكاثوليكية هرطقيا، وباعتبار أن الإنجليز كانوا يتبعون المذهب البروتستانتي اللوثري فإن الشعب البرتغالي ظل ينظر إلى الانجليز كأعداء لهم، وهذا عكس السلطة العليا التي لم يعد الدين عندها يعني أي شيء، فالمصالح التجارية والاستراتيجية قد طغت فوق كل هذه الأمور.

(4) Miss Enid Routh, *"The English Occupation of Tangier 1661-1683"*, Transaction of The Royal Historical Society, Vol19, 1905, p62.

(5) Ibid.

(6) William Laird Clowes, T*he royal Navy, A History from the Earliest Times to the Present*, In 5 Vol (Vol2), London: Sampson Low, Marston and Company, 1898, p22-23.

(٧) إحدى المناطق الإنجليزية الساحلية، تقع على الجنوب الساحلي.

(8) William Laird Clowes, op.cit., Vol2, p23.

(٩) مروش المنور، **دراسات عن الجزائر في العهد العثماني (القرصنة، الواقع الأساطير)**، ج٢، دار القصبة للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠٩ ص٣٣١.

(10) Miss Enid Routh, op.cit., p62.

(11) William Laird Clowes, op.cit., Vol2, P 322.

(12) William Laird Clowes, op.cit., Vol2, P 322.

(13) George Chalmers, *A Collection of Treaties, Between Great Britain and Other Powers*, 2Vol (Vol2), London: Printed for John Stockdale, Piccadily, 1790, P.361.

(١٤) جون. ب. وولف، **الجزائر وأروبا**، تر. أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٦، ص٣٢٣.

(15) Jullian S. Corbett, *England in The Mediterranean*, 2Vol (Vol 2), 2(nd) Ed, London: Longmans, Greend and Co 1916, P. 338.

(16) Playfair, E. L, *The scourge of Christendom, Annales of British relations with Algiers prior to the French conquest*, London: Smith, Elder, And Co, 1884, p88.

(17) George Chalmers, op.cit., P.362.

(18) Playfair, E. L, op.cit., P.97-98.

(19) Ibid, p98-99.

(٢٠) هو السيد ساموال مارتين *Samuel Martin*، القنصل الإنجليزي بالجزائر خلال الفترة الممتدة بين سنتي ١٦٧٤-١٦٨٠.

(21) Ibid, p101.

(22) Jullian S. Corbett, op.cit., p359.

(23) William Laird Clowes, op.cit, P441.

(24) Playfair, E. L, op.cit., p114.

(25) Ibid, p116-117.

(٢٦) ولاية أمريكية تقع شمال أمريكا، على المحيط الأطلسي، وواحدة من الولايات الست لنيو انجلن، والتي كانت سابقًا تخضع للنفوذ الإنجليزي.

(27) Beth A. Bower, *"Captivity with ye Barbarous Turks": Seventeenth*-Century *New Englanders Held Hostage*, New England Historic Genealogical Society, spring 2012, Vol 13, No 2, p18-19.

(28) Ibid, P19.

(٢٩) لمزيد من المعلومات:

*Article of Peace and Commerce between the most serene mighty Prince Charles 2, by the grace of God King of Great Britain, France and Ireland, defender of the faith, and the most illustrious Lords, The Bashaw, Dey, Aga, and Governours of the famous City and Kingdom of Algiers in Barbary: concluded by Arthur Herbert, Esquire, Admiral of his Majesties Fleet in The Mediterranean seas: on the Tenth of April, Old Stile*, 1682, Printed by John Bill, Henry Hills, Thomas Newcomb, London, 1682.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].



# الصراع الجيوستراتيجي على قاعدة المرسى الكبير في البحر الأبيض المتوسط
## قراءة تاريخية

**كريم مقنوش**
باحث في التاريخ الحديث والمعاصر
المركز الوطني للدراسات التاريخية
الجمهورية الجزائرية

**مُلَخّص**

تُعَدّ قاعدة المرسى الكبير من أهم القواعد العسكرية بالحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط لمكانته الاستراتيجية، فمن حيث الأهمية يعتبر مناعة طبيعية مميزة من كل الأحوال الجوية، وبموقعه يمكن مراقبة حركة الملاحة البحرية، لهذه الخصائص وغيرها ظل محل صراع على مدى القرون، منذ نشأته على يد الفنيقيين إلى غاية استقلال الجزائر من الاحتلال الفرنسي، مرورًا بعدة مراحل من الاحتلال الوندالي والروماني، ثم الفترة الإسلامية من مرابطين وموحدين، ثم الاحتلال الصليبي من إسبان وبرتغال، إلى أن استرجعت الجزائر استقلالها فعادت القاعدة تحت سيادة الجيش الوطني الشعبي سليل جيش التحرير الوطني في ٢ فيفري ١٩٦٨، ومنذ ذلك الحين استعادت القاعدة مكانتها وأصبحت سدًا منيعًا لحماية مياهها الإقليمية والدفاع على سلامة التراب الوطني.

**بيانات المقال:**
تاريخ استلام المقال: ٢٤ يناير ٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر: ٠١ أبريل ٢٠١٥

**كلمات مفتاحية:**
القواعد العسكرية، الاحتلال الفرنسي، مفاوضات إيفيان، السلطات الجزائرية، الملاحة البحرية

**معرِّف الوثيقة الرقمي:** DOI 10.12816/0045085

**الاستشهاد المرجعي بالمقال:**
كريم مقنوش. "الصراع الجيوستراتيجي على قاعدة المرسى الكبير في البحر الأبيض المتوسط: قراءة تاريخية".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد السابع والثلاثون؛ سبتمبر ٢٠١٧. ص٣٩ – ٤٣.

## مُقَدِّمَة

يعتبر المرسى الكبير من أهم القواعد العسكرية بحوض البحر الأبيض المتوسط نظرا لمكانته الجغرافية وموقعه الجيو-استراتيجي، يقع على بعد ٦ كلم غربي خليج وهران ويمتد على شريط ساحلي يقدر بـ ١٢ كلم. تكمن أهميته الاستراتيجية في مناعته الطبيعية المميزة من سوء الأحوال الجوية، فقد ذكر أكثر من كتاب ومؤرخين حول مزاياه الطبيعية، فيقول في ذلك ابن حوقل ( ق ٤هـ/ ١٠م): "أنه في غاية السلامة والصون من كل ريح"، وعبيد الله البكري( ق٥هـ/ ١١م) يصفه: "أنه آمن ومحمي من كل الرياح"، وأما الشريف الإدريسي( ٦هـ/ ١٢م) فيقول في شأنه:" إن المرسى الكبير به ترسو المراكب والسفن ويستُر من كل ريح وليس له مثال في مراسي حائط البحر من بلاد البربر"، وأما حسن الوزان الملقب بالأسد الإفريقي (١٠هـ/ ١٦م) فيقول: "ليس له نظير بين المراسي الأخرى في العالم، إذ بإمكانه استقبال المئات من السفن، وتوفير الحماية لها من تقلبات الأنواء وعواصف البحر"[١]، ومرساه ممتاز إذ يتوسط جبلين سانتا كروز شرقا وسنتون شمالا، هذا الأخير يحميه من الرياح الغربية، وقد كان قبل استرجاع وهران هو الميناء الرسمي في بايلك الغرب.[٢]

وبموقعه الاستراتيجي يمكن مراقبة حركة الملاحة البحرية من مضيق جبل طارق إلى قناة السويس، وبالتالي أصبح على مدار الأزمنة السابقة محل صراع حضاري واستراتيجي أسال لعاب كثير من الدول في القديم والحديث، حتى ظل من يحتله قد تمكن من السيطرة على البحر الأبيض المتوسط. وبهذا الاستعراض ومحاولة منا تتبع المراحل التاريخية للمرسى الكبير، كيف أصبح محل صراع بين مختلف الدول وعبر حقب زمنية متتالية؟

## أولاً: الصراع الحضاري على المرسى الكبير

يعود تاريخ ميناء المرسى الكبير إلى العهد الفينيقي أين تم تأسيسه سنة ٤٨٠ ق.م، كان الفينيقيون أمة بحرية دفعتها الحاجة الاقتصادية إلى ارتياد البحر لتجلب عن طريقها ذهب السودان وفضة الأندلس، لكن المسافة بين فينيقيا وهذه المناطق بعيدة

جدا، اضطرتهم إلى تأسيس مراكز تموين يقفون عندها للتموين وإصلاح السفن ، ثم تطورت هذه المراكز إلى أسواق تجارية، أسسوا لها عدة مراكز ففي تونس مثلا نجد "حضر موت" بسوسة و"عوتيقة"، أما في الجزائر نجد "هيبون" أو بونة، و"إجيجلي" (جيجل) و"صلداي" (بجاية)، و" مرسى الكبير"، هذا الأخير جعلوا منه محطة تجارية لتصدير منتوجاتهم بعد أن سيطروا على الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط، كما كانت قاعدة تنطلق منها حملاتهم العسكرية لبسط نفوذهم على شعوب المنطقة [٣]. وظل الميناء على هذه المكانة حتى بعد دخول الرومان إلى الجزائر، غير أنه تعرض لخراب ودمار على يد جيوش الوندال القادمين من سواحل البلطيق بأوروبا تحت قيادة جانزريك سنة ٤٢٩ م، وبقي الاحتلال الوندالي للجزائر قرابة قرن، فقل نشاطه التجاري وضعف حركته، وبالتالي فتاريخ الوندال كان حافلاً بوقائع الاضطهاد وأعمال التخريب.[٤]

وخلال الفترة الإسلامية توسع المرابطين في الجهات الوهرانية واستيلائهم على الأندلس كان عاملاً مهمًا في جلب الانتباه إلى أهمية موقع وهران والمرسى الكبير، فأصبحا من القواعد الرئيسة لدولة المرابطين بعد أن استولى عليها محمد بن ينعمر.[٥] ثم استأنف نشاطه وعرف نهضة تجارية كبيرة، خاصة عندما أصبح الميناء مأوى للأسطول الموحدي في عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي الذي أسس دار بناء السفن وإصلاحها.[٦] وقد كان الموحدون يملكون جيشا قويا كما كانوا يملكون أسطولا هاما، إذ أصبح هو أول أسطول في حوض البحر الأبيض المتوسط، واتخذوا من المرسى الكبير قاعدة رئيسية لأسطولهم وأصبح نقطة عبور للأندلس ومنطلق السفن الحاملة للجيوش نحو إفريقيا، وقد بلغ من قوة الموحدين العسكرية، أن سكان الإسكندرية كانوا يتوقعون احتلال مصر من طرف الموحدين.[٧]

واستطاع الموحدون خلال فترة حكمهم في شمال إفريقيا تأسيس مراكز تجارية على طول السواحل اعتبارًا من مرسى تلمسان وطريقها إلى الأندلس، ويليها المرسى الكبير، وهران، أرزيو، مستغانم، تنس، شرشال، الجزائر، بجاية، جيجل، القل، سكيكدة، وعنابة، وكانت بها قناصل للدول التجارية يحفظون حقوق رعاياهم.[٨] وفي الفترة المرينية ثم الزيانية تدعمت مكانة المرسى الكبير حيث أصبح يتوفر على حصن دفاعي، الأمر الذي شجع السفن التجارية من جنوة ومرسيليا وبرشلونة على اتخاذه محطة رئيسية في المتوسط.[٩] وفي القرن الخامس عشر الميلادي تعرض مرسى الكبير لغارات البرتغاليين فاحتُل مرتين، المرة الاولى من ١٤ أوت ١٤١٥ إلى ١٤٣٧ وذلك في عهد الملك جان الاول" Jean le 1er "، والمرة الثانية من عام ١٤٧١ إلى ١٤٧٧ في عهد الملك ألفونسو الخامس "Alphonso 5".[١٠] كما أقام بنو زيان بجانب المرسى الكبير مدينة سكنها مهاجرو الأندلس الفارين من البطش الإسباني بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢، وصاروا ينطلقون منه لردع قرصنة الأوروبيين والإغارة على شواطئ إسبانيا لإنقاذ ماتبقى من المسلمين الذين كانت تطاردهم محاكم التفتيش الإسبانية في الأندلس، وبضعف حكام بني زيان وانحطاط الأوضاع الاقتصادية وسقوط غرناطة تعرض المرسى الكبير إلى الاحتلال الإسباني.

وفي مطلع القرن السادس عشر الميلادي اشتدت غارات الإسبان على المرسى الكبير في إطار الحروب الصليبية بعد أن حققوا هدفهم في طرد المسلمين من الأندلس، بعض الروايات المتداولة التاجر البندقي جيروم فيانال (J. Vianelle) الذي كان يتردد على حصن المرسى الكبير قد تمكن من اقناع رجال البلاط الاسباني وفي مقدمتهم الكاردينال كزيمنيس (Don F. Ximénes) بأن المرسى الكبير هو باب افريقيا وأم وهران من أغنى المدن الساحلية، مما شجع الكاردينال على مواصلة الغزو ضد المسلمين[١١]. ففي أواخر شهر أوت ١٥٠٥ قاد دون رايموند دى قرطبة (Don Raimond de Cordoba) الأسطول الإسباني بجيش قوامه ٥ آلاف رجل، احتل من خلاله المرسى الكبير في ١٤ سبتمبر من نفس السنة بعد معارك طاحنة [١٢]. وبمجرد تمركز الإسبان بالمنطقة فتحوا سوقا تجاريا إلى جانب المدينة من أجل تزويد حاميتها بما يلزمها من المؤن والأغذية الضرورية. وتجدر الإشارة إلى؛ أن المرسى الكبير بقي تحت حكم الإسبان لمدة ثلاثة قرون إلى أن خرجوا منه في سنة ١٧٩٢ ليعود إلى السيادة الجزائرية في ظل الحكم العثماني.

هدّد المد الصليبي الاسباني والبرتغالي المغرب العربي بالاحتلال، نظرًا لضعف الدول الثلاث المرينية والزيانية والحفصية، التي بدل أن تتوحد مثلما كان الحال في عهد الدولة الموحدية، استمرت الحروب فيما بينها أنهكت قواها، فتمكن الصليبيون الاسبان من السيطرة على تيطوان، وسبتة، والمرسى الكبير ووهران، ومستغانم، وبجاية وجيجل وعنابة، ولما استفحل الخطر الاسباني على تلك المنطقة استنجد سكانها بالأخوين عروج وخير الدين العثمانيين[١٣]. كانت قضية تحرير المرسى الكبير من الاهتمامات الكبرى للدولة العثمانية، لذلك صمّم رؤساءها على تصفية الوجود الإسباني الاستعماري في البلاد، فقد بذل كل من حسان بن خير الدين باشا سنة ١٥٦٣[١٤]، ومحمد قوصه سنة ١٦٠٦، والباي إبراهيم سنة ١٦٨٧ عدة محاولات لإنقاذه. وفي عام ١٧٠٨ حشد الباشا محمد بكداش جيشًا كبيرًا حرّر به المرسى الكبير، لكن الإسبان ولأهمية الموقع الاستراتيجي جدّدوا الهجوم عام ١٧٣٢ وقاموا باحتلاله لمدة ٦٠ سنة.[١٥]

فعزمت الدولة الجزائرية بقيادة بطلها محمد بن عثمان باشا على إجلاء المحتلين الإسبان بصفة نهائية سنة ١٧٩٢ [١٦]، بعد معارك متواصلة اقتنعت اسبانيا جدوى الحفاظ على احتلالها

لوهران، فطلبت في أفريل ١٧٩١ من الداي محمد عثمان باشا تطبيق اتفاق الانسحاب، لكن الباشا رفض الطلب بلا قيد ولا شرط وكان على فراش الموت، وتوفي في ١٢ جويلية ١٧٩١، وخلفه الداي حسان باشا، وكانت المعارك دائرة في وهران تضيق الخناق على العدو، وألحت اسبانيا على الداي معلنة قبولها لسائر الشروط التي تمليها الجزائر مقابل السلام، فقبل الداي الصلح بالشروط التالية:

- تنسحب إسبانيا من وهران والمرسى الكبير دون قيد ولا شرط.
- تدفع سنويًا لخزينة الدولة الجزائرية ١٢٠ ألف فرنك.
- ترجع إسبانيا للجزائر كل القنابل والمدافع والذخيرة التي غنمتها عند إعادة احتلالها لوهران والمرسى الكبير.
- تحمل سفينة إسبانية بصفة رسمية مفتاحين ذهابيين إلى إسطنبول رمزًا للاستسلام بتسليم وهران والمرسى الكبير، مع جرتين من ماء عيون وهران إلى الخليفة العثماني كبشرى بالفتح والتأكيد على الرابطة التي تصل الجزائر بدولة الخلافة العثمانية.

**وبالمقابل تقبل الجزائر ما يلي:**

- أن يكون لإسبانيا مركز تجاري في بلدة جامع الغزوات.
- أن تشتري من الجزائر ٣٠٠٠ كيلة من القمح سنويًا.
- أن تباشر صيد المرجان على الساحل الغربي للجزائر.

أبرمت المعاهدة يوم ٩ ديسمبر ١٧٩١، وبذلك انسحبت إسبانيا وتركوا الأسلحة والعتاد المتفق عليه، وسلمت المدينة رسميًا[١٧]. وتمت إزالة آخر قاعدة إسبانية على الساحل الجزائري وبذلك طويت صفحتهم، وبمرور الزمن تغيرت الأوضاع بسرعة فائقة حيث أنه لم يكد يبدأ المرسى الكبير في نمو وازدهار حتى وقع في أيدي الاحتلال الفرنسي في سنة ١٨٣٠.

## ثانيًا: المرسى الكبير تحت نير الاحتلال الفرنسي

كان الفرنسيون يعرفون الكثير عن ميناء المرسى الكبير من تقارير قناصلهم ومن السجلات الإسبانية وخرائطها، كما يعرفون بالخصوص المطامع الإسبانية هناك، وحتى مطامع سلاطين المغرب اللذين لم يكونوا دائما على علاقات طيبة مع باشوات الجزائر، فاحتلالها له يقطع الطريق أمام تلك المطامع من جهة ويعطي لفرنسا فرصة التحكم في تحركات مضيق جبل طارق، بالإضافة إلى كون الفرنسيين يعرفون ضعف أداة الحكم العثماني في إقليم وهران. فالباي حسن بن موسى كان عجوزًا مريضًا في حدود الثمانين سنة، ولم يكن قادرًا على نجدة صديقه حسين باشا إلا بخليفته فقط وبعدد غير كبير من الجنود، ومن جهة أخرى كان الباي حسن في على علاقات سيئة مع سكان إقليمه، ولا سيما زعماء الطرق الصوفية منهم، حيث حدثت ثورات عديدة في إقليمه بقيادة الدرقاوة والتيجانية. فكان يعيش في خوف دائم، وآخر ذلك الخوف كان من الطريقة القادرية ممثلة في شيخها محي الدين بن مصطفى، والد الأمير عبد القادر.[١٨]

فهذه الخلفية السياسية والاستراتيجية لم تكن خافية على دي بورمون (de Bourmont) ومستشاريه في الجزائر، وعندما استكمل في رسم الخطة وجّه حملة يوم ١٣ أوت ١٨٣٠ بقيادة إبنه أميدي الذي حاول احتلال المرسى الكبير وحصون مدينة وهران، ولكن مقاومة السكان جعلت الحملة تعود منهزمة، رغم أن الفرنسيين يقولون إنهم هم الذين تخلوا عنها، كان قائد الحملة اميدي بورمون، قد فقد رأسه في وهران، وهكذا تلقى دي بورمون وهو في الجزائر بشرى النصر في وهران ممزوجة بنعي ابنه.[١٩] وفي عهد الجنرال كلوزيل (Clauzel) بعث بحملة بحرية إلى سواحل وهران على رأسها الجنرال دامريمون (Damrémont) فاحتل المرسى الكبير يوم ١٣ ديسمبر ١٨٣٠، لكنه انسحب منها.[٢٠] وفي عهد الجنرال بيرتزين (Berthezéne) أرسل قوات عسكرية لدعم احتلال وهران والمرسى الكبير في ٦ فيفري ١٨٣١. أما بوييه بقي محاصرًا في وهران وكل ما استطاع فعله هو الحفاظ بالمدينة والمرسى الكبير وربطهما بطريق لدعم جنده، وذلك بسبب عدم قدرته لمحاربة الشيخ محي الدين والد الأمير عبد القادر.[٢١]

لقد أدركت فرنسا أهمية موقع المرسى الكبير على المستوى العسكري، وبعد استقرارها بالمنطقة جعلته ميناء عسكري وذلك سنة ١٩٣٦، ثم حولته إلى قاعدة عسكرية سنة ١٩٣٩ شرعت من خلالها بناء استراتيجيتها في المنطقة. وبموجب مرسوم ١٩٣٩ رقي الميناء إلى قاعدة عسكرية وتصنيفه منطقة بحرية بالدرجة الأولى،[٢٢] فقامت بإنشاء عدة منشآت بها، كما قامت أيضًا بتوسيع حواجزها وحفر الأنفاق بها حتى أصبحت من أهم القواعد البحرية على الإطلاق على مستوى البحر الأبيض المتوسط، وقاعدة مندمجة في مخططات معاهدة حلف شمال الأطلسي مما جعل الاستعمار الفرنسي حريصا كل الحرص على الحفاظ عليها. فالقاعدة لها أهمية من عدة جوانب، أولا من الجانب الجغرافي استراتيجي، وهنا تصبح القاعدة متكاملة مع قاعدتي بنزرت ومالطا حيث أن الكل يشكل مثلثا يسيطر على مراقبة البحر المتوسط.[٢٣]

وفي فترة الحرب العالمية الثانية أصبحت قاعدة المرسى الكبير مسرحًا للمعارك والعمليات العسكرية، إذ تعرض الأسطول الفرنسي إلى القصف البريطاني يوم ٧ جويلية ١٩٤٣.[٢٤] وخلال الثورة الجزائرية لعبت الأساطيل الحربية الفرنسية في ضرب حصار بحري على الجزائر، خاصةً في غرب البحر الأبيض المتوسط، انطلاقًا من قاعدة المرسى الكبير المزود بأحدث

الأسلحة النووية والصواريخ والغواصات، التي كانت تسيطر على البحر لمراقبة سواحل شمال إفريقيا والسواحل الأوروبية، وعلى حد تعبير حسن بوشيبة، أن كل الاستراتيجيين في الغرب يرون أن بنزرت تعتبر البندقية الموجهة إلى أوربا، لكن المرسى الكبير يعتبر المدفع الموجه لأوربا.[٢٥] ففي ١٦ أكتوبر ١٩٥٦ تم حجز الباخرة أطوس (Athos)[٢٦] من طرف البوارج العسكرية الفرنسية، حيث تم تفتيشها بقاعدة المرسى الكبير، وتعتبر واحدة من بين البواخر الأجنبية التي تعرضت للقرصنة الفرنسية في الحجز والإغراق والتفتيش[٢٧]. وللإشارة اعتبرت هذه الحادثة نكسة كبيرة للثورة الجزائرية لإمداد مختلف المناطق بالأسلحة والذخيرة التي كان جيش التحرير الوطني في أمس الحاجة إليها.[٢٨]

## ثالثًا: المرسى الكبير في مفاوضات إيفيان

كانت القاعدة البحرية المرسى الكبير من أهم النقاط التي عرقلت سير مفاوضات إيفيان بين الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية والحكومة الفرنسية شأنها في ذلك شأن مسألة الصحراء، خاصة إذا علمنا أن بنزرت وقاعدة طرابلس ولافاليت بمالطا لا تضاهي في حجمها وقوتها المرسى الكبير.[٢٩] وقد انتهت المباحثات التي جرت في إيفيان من ٧ مارس إلى ١٨ مارس ١٩٦٢ إلى النتيجة وهي السماح لفرنسا باستغلال قاعدة المرسى الكبير لمدة ١٥ عاما قابلة للتجديد، مع السماح لها أيضًا باستعمال المطارات والمنشآت العسكرية.[٣٠] وجاء في نص الاتفاقية في المادة الأولى فيما يخص الاتفاق الخاص والمتعلق بالمسائل العسكرية ما يلي: "تمنح الجزائر فرنسا حق استخدام قاعدة المرسى الكبير البحرية والجوية مدة خمسة عشر عاما ابتداء من تاريخ تقرير المصير. وفي الإمكان تجديد المدة باتفاق بين البلدين، وتعترف بالصفة الجزائرية للأرض المقام عليها قاعدة المرسى الكبير".[٣١]

يذكر أحمد زياد في ذلك أن المرسى الكبير ليس قاعدة بحرية فقط، لأننا نعرف أنها تملك مطارات تابعة لها تقوم بنفس المهمة، وهي المراقبة وحراسة الضفة الجنوبية للبحر المتوسط، وقد طرحت هذه المسألة في محادثات ليروس باعتبار المطارات جزء تابع من القاعدة، وقد حاول الوفد الجزائري فصل هذه المطارات عن قاعدة المرسى الكبير، لأنه ملجأ للسفن والغواصات وفي الوقت نفسه يحتاج إلى حراسة من طرف السلاح الجوي، وهكذا ربطت المطارات دفاعيًا بالمرسى الكبير.[٣٢] فبالإضافة إلى المرسى الكبير والمطارات والمنشآت العسكرية الواقعة حولها، هناك قواعد عسكرية أخرى جرت المحادثات بشأنها، تتمثل في قاعدتي بشار ورقان، وتمسكت بهم رغم وجود قواعد أخرى في الشرق الجزائري وهي قاعدة قسنطينة، لأنها رأت أنها تكون طريق الاتصال بين فرنسا ودول ما وراء الصحراء، وبالفعل جرى الاتفاق على المرسى الكبير وبشار ورقان، التي كانت محطة فنية للسلاح النووي وإطلاق الصواريخ.[٣٣]

## خَاتِمَةُ

تم في هذه الدراسة تتبّع أهم المحطات التاريخية للمرسى الكبير الذي تعرّض إلى صراع حضاري استراتيجي، يدخل في نطاق ما نسميه في تاريخنا المعاصر بالصراع الجيوستراتيجي، في فترات متعاقبة منذ الوجود الفينيقي والروماني والوندالي والبيزنطي، ثم العثماني إلى آخر فترة من الاحتلال الفرنسي للجزائر، بحيث كانت فرنسا تعتبر قاعدة المرسى الكبير الأولى خارج فرنسا من حيث الأهمية، لكن وبعد استقلال الجزائر في ٥ جويلية ١٩٦٢، عملت السلطات الجزائرية على استرجاع قاعدة المرسى الكبير لتكتمل السيادة الوطنية قبل انقضاء فترة الاتفاق والمدة المتفق عليها والتي حددّت بخمسة عشرة سنة قابلة للتجديد، وكان ذلك يوم ٢ فيفري ١٩٦٨، فعادت القاعدة تحت سيادة الجيش الوطني الشعبي سليل جيش التحرير الوطني، ومنذ ذلك الحين استعادت القاعدة مكانتها وأصبحت سدًا منيعًا لحماية مياهها الإقليمية والدفاع على سلامة التراب الوطني.

## الهَوامِشُ:

(١) ناصر الدين سعيدوني، **دراسات أندلسية، مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر**، طبعة ٢، البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠١٣، ص ١٣٩، ١٤٠.

(٢) محمد العربي الزبيري، **التجارة الخارجية للشرق الجزائر**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، بدون تاريخ، ص ٦٧.

(٣) عبد الله شريط، **محمد مبارك الميلي، مختصر تاريخ الجزائر السياسي والثقافي والاجتماعي**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٥، ص ٢٥.

(٤) عثمان سعدي، **الجزائر في التاريخ من العصور القديمة وحتى سنة ١٩٥٤**، ط١، دار الأمة، الجزائر، ٢٠١١، ص ١٥٣، ١٥٤.

(٥) يحي بوعزيز، **مدينة وهران عبر التاريخ**، ط٢، دار الغرب للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢، ص ٤٧.

(٦) ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص ١٤٣.

(٧) عبد الله شريط، محمد مبارك الميلي، المرجع السابق، ص١١١.

(٨) المرجع نفسه، ص١١١.

(٩) ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص١٤٤.

(١٠) يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص٦٦، ٦٧.

(١١) ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص١٤٧.

(١٢) احتلال المرسى الكبير من طرف الإسبان كما أثبتها التقرير الإسباني نقله إلى الفرنسية المؤرخ بيليسي، انظر: أحمد توفيق المدني، **حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا ١٤٩٢-١٧٩٢**، ط٢، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٧٦، ص٩٦- ٩٩.

(١٣) عثمان سعدي، المرجع السابق، ص٣٦٩.

(١٤) وقعت معركة تاريخية كبيرة بين حسان باشا قائد الجيوش الجزائرية و الماركيز دون مارتان قائد الجيوش الإسبانية والتي استغرقت وقتًا طويلاً من ١١ ماي إلى ٥ جوان ١٥٦٣، لمعرفة التفاصيل انظر، توفيق المدني، نفس المرجع، ص ٣٧٩.

(١٥) يحي بوعزيز، **مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٩، ص ٥١، ٥٢.

(١٦) بشير مقيبس، **مدينة وهران، دراسة في جغرافية العمران**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٣، ص ٨٩.

(١٧) عثمان سعدي، المرجع السابق، ص ٤١٥، ٤١٦.

(١٨) أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية الجزائرية ١٨٣٠- ١٩٠٠**، ج١، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٩٢، ص ٣٣، ٣٤.

(١٩) نفسه، ص ٣٥.

(٢٠) الآغا بن عودة المزاري، **طلوع سعد السعود**، تحقيق ودراسة يحي بوعزيز، ج٢، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٩٠، ص٨٧.

(٢١) سعد الله، المرجع السابق، ص ٤٧، ٥٢.

(22)l' Horizon, 03/02/2000, N° 863.

(٢٣) الجنيدي خليفة وآخرون، **حوار حول الثورة**، الجزء ٣، طبعة خاصة وزارة المجاهدين، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، ٢٠٠٨، ص ١٥٥،١٥٦.

(24)le Quotidien d'Oran, 02/02/2000, N° 1536.

(٢٥) الجنيدي خليفة وآخرون، المرجع السابق، ص ١٥٦.

(٢٦) اسم الباخرة الأصلي هو سانت بريفر كان يملكها بريطاني يدعى أليريس (Allaress)، وأما تسميتها "أطوس" أطلقها العسكريون الفرنسيون التي تم حجزها بواسطة طرّاد فرنسي يوم ١٦ أكتوبر، وعملية القرصنة يرويها أحد صانعي الحدث وهو مازال على قيد الحياة، انظر، محمد الهادي حمدادو، **أضواء على حادثة يخت دينا ومركب أتوس، قصة عمليتين لتزويد الثورة بالسلاح**، الطبعة الأولى، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠١٤، ص٥٨ ، ٩٢.

(٢٧) تمّ إحصاء خلال أسبوع واحد حوالي ١٨٤ عملية تفتيش للسفن التجارية والسياحية الأجنبية من طرف البوارج الفرنسية، من بينها ١٣ سفينة تمّ حجزها وتفتيشها، ٤ سفن منها تمّ توقيفها وتحويلها إلى المرسى الكبير بسبب رفضها للانصياع للأوامر العسكرية، انظر،
Mohammed Guentari, Organisation Polico-Administrative Et Militaire de la Révolution Algérienne de 1954-1962, volume 1, Thèse de Doctorat, Centre d'Histoire Militaire et Etudes de Défense Nationale, Montpellier III, France, Mars 1990, p 118.

(٢٨) الجمهورية، "**الثورة الجزائرية ومعارك البحار**"، محمد قنطاري، ٢ فيفري ٢٠٠٠، العدد ٨٧٠.

(٢٩) الجنيدي خليفة وآخرون، المرجع السابق، ص١٥٥.

(٣٠) يقول موريس فايس بخصوص المحاضر المنشورة (تسعُ جلسات والتي تم الاحتفاظ بها بأرشيف الأمانة العامة للدولة الجزائرية أنها غير كاملة، بحيث ليس هناك أي تقرير يغطي الفترة ما بين ١٢ و١٧ مارس ١٩٦٢، وهي العلبة رقم ١١٢، وأما العلبة رقم ١١١ فهي التي تناولت قضايا المرسى الكبير والصحراء والتسهيلات الجوية والتنقلات البحرية والبرية والاتصالات وغيرها، انظر، موريس فايس، نحو السلم في الجزائر، مفاوضات إيفيان في أرشيف الدبلوماسية الفرنسية ١٥ جانفي ١٩٦١- ٢٩ جوان ١٩٦٢، ترجمة: صادق سلام، عالم الأفكار، الجزائر، ٢٠١٣، ص ٤٨٠، ٥٧٠.

(٣١) هناك ملحق خاص بالمرسى الكبير يحتوي على ١٠ مواد، انظر بن يوسف بن خدة، **اتفاقيات إيفيان**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ٢٠٠٢، ص ١٢١.

(٣٢) الجنيدي خليفة وآخرون، المرجع السابق، ص ١٥٦.

(٣٣) المرجع نفسه، ص ١٥٧.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

دراسات

# تأثير الثورة الجزائرية على طبيعة العلاقات الفرنسية التونسية (١٩٥٤ – ١٩٥٨م)

**أ.د. لمياء بوقريوة**



أستاذة التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة باتنة - الجمهورية الجزائرية

## مُلَخّص

إن العلاقات الفرنسية التونسية تطورت حسب تأثير الثورة الجزائرية وتوسعها بتجاوزاتها على الإقليم التونسي وبنجاحها الذي حققته على المستوى الداخلي والخارجي. ولقد ارتأينا أن ندرس من خلال هذا المقال طبيعة العلاقات التونسية الفرنسية من خلال تأثير الثورة الجزائرية على هذه العلاقات خلال فترة هامة من تاريخ الثورة الجزائرية المجيدة، وهي الفترة الممتدة من سنة ١٩٥٤ إلى سنة ١٩٥٨، وفترة حرجة كذلك تمر بها العلاقات الدولية ألا وهي فترة الحرب الباردة. ما إن اندلاع ثورة الفتح نوفمبر١٩٥٤ حتى راحت وسائل الإعلام الفرنسية ومن ورائها السلطات الفرنسية تشن حملة شعواء ضدها وتنعتها بأنها عمل إرهابي قامت به مجموعة قطاع طرق أو"فلاقة" سانده تدخل أجنبي وإمدادات خارجية، وراحت تلوم الجارة تونس في مساعدتها للجزائريين للقيام بهذا العمل المسلح ضد فرنسا. من هنا سوف نقوم بمحاولة الإجابة على عدة تساؤلات يطرحها هذا الموضوع من بينها: كيف كانت العلاقات الفرنسية التونسية قبل اندلاع الثورة الجزائرية؟ كيف كان تأثير الثورة الجزائرية على استقلال تونس؟ كيف تطورت الثورة وكيف كان موقف الحكومة التونسية منها وعلى رأسها الرئيس الحبيب بورقيبة؟ ماهي العقوبات الاقتصادية التي فرضتها الحكومة الفرنسية على تونس بسبب الثورة الجزائرية؟ ماهي الإجراءات التعسفية للقوات الفرنسية على التراب التونسي جراء موقفها من الثورة؟ وكيف كان رد الموقف الرسمي التونسي منها؟ وكيف استطاعت تونس الفتية عن طريق رئيسها-وعلى الرغم من الاحتجاجات الفرنسية المتواصلة -أن تحصل على المساعدات الاقتصادية وبعض من المساعدات العسكرية من الغرب وخاصةً الولايات المتحدة الأمريكية بعد تردد هذه الأخيرة وكيف أثر كل ذلك على العلاقات الفرنسية التونسية؟

**بيانات الدراسة:**

تاريخ استلام البحث: ٢٧ يونيو ٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر: ١٧ أكتوبر ٢٠١٥

**كلمات مفتاحية:**

الثورة الجزائرية، الحبيب بورقيبة، القضية الجزائرية، ساقية سيدي يوسف، الاستعمار الفرنسي

**معرِّف الوثيقة الرقمي:** DOI 10.12816/0045086

**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**

لمياء بوقريوة. "تأثير الثورة الجزائرية على طبيعة العلاقات الفرنسية التونسية (١٩٥٤ - ١٩٥٨م)".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد السابع والثلاثون؛ سبتمبر ٢٠١٧. ص٤٤ – ٥٢.

## مُقَدِّمَةٌ

منذ اندلاع ثورة الفاتح نوفمبر ١٩٥٤م راحت السلطات الفرنسية تحاول تشويهها بنعتها بعدة نعوت منها أنها ثورة شيوعية ومؤامرة خارجية وأنها ثورة فلاقة متمردين وعصاة، مدفوعة من الخارج. ولعلها كانت مضطرة لعمل ذلك على الأقل لحفظ ماء وجهها أمام الرأي العام الدولي، وراحت تلقي اللوم على الجارة تونس وتحملها مسؤولية أحداث الفاتح نوفمبر، وراح جاك شوفالييه – نائب وشيخ بلدية الجزائر-يؤكد ذلك بقوله: "... إن الهدف من العمليات المسلحة التي أعلنت في أول نوفمبر، في منتصف الليل، لهي محاولة تشتيت، بهدف فك الحصار على الفلاقة الموجودين في الحدود التونسية، والذين يتعرضون لضغط الجنرال دولاتور".(1) ولعله كان يقصد بكلمة فلاقة، رجال المقاومة التونسية المسلحة التي انطلقت منذ سنة ١٩٥٢ بالجنوب التونسي وبقيادة المقاوم الكبير الطاهر لسود.

لقد حاولت وسائل الإعلام الفرنسية أن تؤكد على التدخل الأجنبي والإمدادات الخارجية وخاصة التونسية في مساعدتها للجزائريين للقيام بهذا العمل المسلح ضد فرنسا، ومنها المقال الذي أشار إليه الدكتور العربي الزبيري في كتابه "الثورة الجزائرية في عامها الأول"، حيث جاء في الصحافة الفرنسية أن ٥٠٠ إرهابي تونسي قاموا بالالتحاق بجبال الأوراس لتنظيم وحدات القتال، وتدريب الجزائريين على استعمال السلاح وخوض معركة العصابات.[٢] كما كتبت صحيفة "لوموند" الفرنسية في عددها الصادر (يوم ٣ نوفمبر ١٩٥٤) "لابد من تقبل حقيقة أننا أمام تنظيم أجنبي يضم جماعات وطنية". ولم تقف السلطات الفرنسية عند ذلك فقط، بل أنها اتهمت تونس رسميا على لسان روني مايير[٣] (Rene Mayer) أمام الجمعية الفرنسية وذلك بتحميل الرئيس بورقيبة مسؤولية ما يحدث في الجزائر.[٤]

ومن هنا سوف نقوم بمحاولة الإجابة على عدة تساؤلات من بينها: كيف كانت العلاقات الفرنسية التونسية قبل اندلاع الثورة الجزائرية؟ كيف كان تأثير الثورة الجزائرية على استقلال تونس؟ كيف تطورت الثورة وكيف كان موقف الحكومة التونسية منها وعلى رأسها الرئيس الحبيب بورقيبة؟ ماهي العقوبات الاقتصادية التي فرضتها الحكومة الفرنسية على تونس بسبب الثورة الجزائرية؟ ماهي الإجراءات التعسفية للقوات الفرنسية على التراب التونسي جراء موقفها من الثورة؟ وكيف كان رد الموقف الرسمي التونسي منها؟ وكيف استطاعت تونس الفتية عن طريق رئيسها -وعلى الرغم من الاحتجاجات الفرنسية المتواصلة -أن تحصل على المساعدات الاقتصادية وبعض من المساعدات العسكرية من الغرب وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية بعد تردد هذه الأخيرة وكيف أثر كل ذلك على العلاقات الفرنسية التونسية؟

## أولاً: العلاقات الفرنسية التونسية قبل اندلاع الثورة الجزائرية

إن تونس التي كانت تحضر استقلالها لما بعد عهد الحماية لم تستطع أن تجتنب ما يحدث في الجزائر، بحيث كان إيجاد حل للقضية الجزائرية أمرًا محوريًا بالنسبة لحكومتها التي كانت تتطلع إلى بناء دولتها وذلك نظرًا لاعتبارات تاريخية وجغرافية، إذ أن إقليمها امتداد لساحة المعركة في الجزائر، والبلدين يجمعهما مصير واحد ودين واحد، ولغة وثقافة واحدة؛ ومستعمر واحد. ولعل الحديث عن العلاقات الفرنسية التونسية بين البلدين لا يعني -بطبيعة الحال-أنها كانت علاقات طيبة قبل اندلاع ثورة التحرير الجزائرية.

فلقد كانت تونس غارقة في أزمة سياسية عميقة تلتها أزمة اقتصادية واجتماعية كان السبب فيها بالأساس النظام الاستعماري الفرنسي، وقد تزامن ذلك مع بروز حركة تحررية ينقصها التأطير، ولعل ظهور بوادر الكفاح المسلح في تونس بدأت ملامحه تتضح عقب فشل المفاوضات التي تمت في شهر ديسمبر١٩٥١م بين الوفد التونسي بقيادة صالح بن يوسف والوفد الفرنسي برئاسة وزير الخارجية الفرنسي، وقد تعمدت فرنسا إلى عدم اعترافها بمبدأ السيادة لتونس مما أدى إلى حدوث مظاهرات قامت على إثرها السلطات الفرنسية بحملة اعتقالات واسعة مست أعضاء الحزب الدستوري الجديد بما فيهم الحبيب بورقيبة، الأمر الذي زاد في حدة المظاهرات التي ستؤدي إلى تبلور الكفاح المسلح الذي سيكتسي طابعا شعبيا تعرفه العديد من المدن التونسية والمناطق النائية والمعزولة.[٥]

كما واجهت الحكومة الفرنسية ضغوطات كبيرة وذلك خلال الفترة (١٩٥٢ – ١٩٥٤) وذلك بسبب المحاولات العديدة لبلدان الكتلة الأفروأسيوية وجهود كل من صالح بن يوسف وأحمد بدرة والمنجي سليم من أجل رفع القضية التونسية أمام هيئة الأمم المتحدة؛ وكذلك الضغوطات الداخلية الصعبة التي واجهتها السلطات الفرنسية من أجل المحافظة على استتباب الأمن والاستقرار داخل التراب التونسي وذلك لمحاولة وضع حد للمقاومة المسلحة والعمليات العسكرية التي كان يقوم بها رجال المقاومة التونسية انطلاقًا من شهر جانفي ١٩٥٢ إلى شهر ديسمبر١٩٥٤ في أماكن مختلفة من الإقليم التونسي.[٦]

ومع خوف فرنسا من تنامي حركة المقاومة في تونس وارتباطها بحركات المقاومة في بلدان المغرب العربي، وخاصةً الثورة الجزائرية،سارعت ودخلت في مفاوضات مباشرة مع حكومة الباي "محمد الأمين" –الذي خلف والده "محمد المنصف"، واشترطت فرنسا وقف المقاومة التونسية ونزع سلاحها؛ وبعد عناء وتفاوض تمّ التوصل يوم (٣ جوان ١٩٥٥) إلى إمضاء اتفاقية عامة بين تونس وفرنسا للاستقلال الداخلي تجسيدا للسيادة التونسية في معظم شؤون البلاد. وفي غرة جوان ١٩٥٥ عاد الزعيم الحبيب بورقيبة من فرنسا إلى تونس، وأظهرت فرنسا أنها لن تتفاوض إلا معه.

في هذا الصدد، يجب الإشارة إلى سعي الحكومة الفرنسية من أجل اختيار من ستتعامل معه من العناصر التونسية، بورقيبة المتشبع بالأفكار الفرنسية، والذي "أعلن منذ (١٧ ديسمبر ١٩٥٠) بأنه يؤكد انضمام تونس إلى الاتحاد الفرنسي ولكن بعد الإعلان عن استقلالها ومع الاحتفاظ بحق الانسحاب"؛[٧] أم صالح بن يوسف الذي عارض اتفاقية الاستقلال الداخلي، وكان يشكل خطرًا كبيرًا عليها بتصلبه نحوالاستقلال التام لا بالنسبة لتونس فحسب، وإنما لجميع البلدان المغاربية وبعلاقاته مع مصر الناصرية ليقع اختيارها في الأخير على الحبيب بورقيبة، ذوالتوجه الغربي، الذي تعهد لها بإبقاء علاقات اقتصادية وثقافية وثيقة معها.

وبعد مفاوضات مضنية ومحادثات بين بورقيبة ووزير الخارجية الفرنسي بينوتمّ الاتفاق على إعلان الاستقلال التام لتونس دون الإشارة إلى الارتباط بالاتحاد الفرنسي وأعلن عن إلغاء معاهدة باردو التي بدأت منذ عام ١٨٨١[٨] وذلك مع توقيع البروتكول التونسي الفرنسي يوم ٢٠ مارس ١٩٥٦.[٩] ولاشك أن هذا

الاستقلال لم يأتي عشوائيا لولا انعكاسات الثورة الجزائرية التي اندلعت بعد أشهر من تصريح قرطاج.

اعترفت فرنسا بموجب الاتفاقية الجديدة باستقلال تونس التام مع إبقاء قاعدة بنزرت للقوات الفرنسية وحق إبقاء بعض القواعد العسكرية على الأراضي التونسية،[١٠] وفضلاً عن ذلك نصت الاتفاقية على "أن تحدد الدولتان أو تتما في دائرة احترام السيادة تدابير التكافل الذي يتحقق بحرية وذلك بتنظيم تعاونهما في الميادين التي تشترك فيها مصالحهما وخاصةً في مادتي الدفاع والعلاقات الخارجية وستضبط الاتفاقيات بين فرنسا وتونس صيغ الإعانة التي تقدمها فرنسا لتونس بقصد تأليف الجيش الوطني التونسي..".[١١]

## ثانيًا: تطور الثورة الجزائرية وموقف بورقيبة السياسي منها

مع تطور أحداث الثورة الجزائرية، كان بورقيبة ملهمًا بأن يلعب دور الوسيط النشط في إنهائها وإعطائها بعدًا غربيًا مخالفًا للبعد العربي الناصري، بحيث يبقى محافظًا على علاقات جيدة مع فرنسا ومن ورائها البلدان الغربية وفي مقدمتها بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية. ولعل ذلك ما يفسر وقوفه محايدًا أثناء حادث اختطاف طائرة الزعماء الستة للثورة الجزائرية داخل الإقليم الجوي الجزائري التي كانت في رحلتها من الرباط إلى تونس، حيث نددت جميع الدول بتلك القرصنة التي قام بها الجيش الفرنسي واستقال على إثرها السفير الفرنسي بتونس برونودي ليس (De Leusse) احتجاجًا، لكن بورقيبة لم يحرك ساكنًا تجاه ذلك. وكان الموقف نفسه قد اتخذه بالنسبة لحادث العدوان الثلاثي على مصر، ولعل صمته إن دل على شيء فيدل على بغضه الشديد لمنافسه صالح بن يوسف ومن كان من حلفائه أمثال ابن بلة والرئيس عبد الناصر.[١٢]

وليبقى محافظًا على علاقة طيبة مع فرنسا ومع الغرب، اقترح بورقيبة بين سنتي (١٩٥٦-١٩٥٧) انضمام تونس، على الأقل في الميدان الاقتصادي، إلى "حلف بغداد" وكذلك إلى "الحلف الأطلسي". كما أشار إلى تحالف دول البحر الأبيض المتوسط بالاتصال بكل من إيطاليا، اسبانيا. كما أوحى إلى إنشاء حلف فرنسي– شمال إفريقي. وهوالشيء -حسب رأيه-الذي سيسهل حل القضية الجزائرية، التي تعيق كل هذه التحالفات.[١٣] في الوقت نفسه كان بورقيبة حريصًا جًدا على تهيئة مستقبل العلاقات الجزائرية التونسية مع قادة جبهة التحرير الوطني، وعليه كان لابد أن يثبت للرأي العام التونسي ذلك، إذ أنه ورغبة منه في أن يحل الأمن والاستقرار في شمال إفريقيا، واقتناعه بأن استقلال تونس سوف لن يكتمل إلا بوضع حل للقضية الجزائرية.[١٤]

لم يتوان الرئيس بورقيبة في كل مرة عن تأكيد التضامن التام لتونس مع الشعب الجزائري من أجل وحدة شمال إفريقيا، ساعيًا لإقناع جبهة التحرير الوطني بأن تعمل على إيجاد حل سياسي والللجوء إلى المفاوضات مع فرنسا بدلا من الحل العسكري. وانتقد بورقيبة في العديد من المرات وحكومته، النظام الاستعماري الفرنسي في الجزائر والحرب التي يشنها ضد شعب أراد تقرير مصيره.[15] ففي خطابه أمام مجلس الأمة التونسي بتاريخ ١٩ أبريل ١٩٥٦ قال: "إن تونس المستقلة تتألم من الحرب الفاشية المسلطة على الشعب الجزائري الشقيق وتصرح هذه الحكومة بأنها سوف تبذل كل ما في وسعها لتساعد على إيجاد الحلول السلمية التي تضمن للشعب الجزائري الشقيق حقوقه الوطنية ليسود الاطمئنان كامل أقطار شمال إفريقيا ويزول آخر عامل يكدر صفو العلاقات بين الشعبين التونسي والفرنسي".[16]

ولعل هذه المواقف إزاء القضية الجزائرية وقفت عائقًا أمام سياسة التعاون التي أملت الحكومة التونسية إقامتها مع فرنسا بسبب تصلب الموقف الفرنسي، وإصراره على ضرورة إيقاف مساعدة الثوار الجزائريين، والتزام موقف الحياد بخصوص القضية الجزائرية مما سبب فتور العلاقات التونسية –الفرنسية. فعلى الرغم من الاختلافات السياسية، كانت الثورة الجزائرية تعتبر بورقيبة حليفًا لا يمكن الاستغناء عنه من أجل الحرية، وكان قادة جبهة التحرير الجزائرية على يقين أن الجزائر في ثورتها لا يمكن أن تستغني عن تونس والمغرب، فثورتها هي ثورتهم، والبلدان يقودان انتصار الثورة أوفشلها، وعلى كل واحد منهم أن يتيقن من هذا التضامن.

وبسبب موقعها الجغرافي، والعلاقات التاريخية والاجتماعية التي تربط شعوب شمال إفريقيا ببعضها، لا تستطيع أن تكون كلا من تونس والمغرب بعيدتان عن ساحة المعركة. لذلك وجدت الحكومة التونسية وكذلك المغربية نفسها في وضع لا تحسد عليه، بين قوة جيش التحرير الوطني على الحدود التونسية – الجزائرية ومراقبة قوات الجيش الفرنسي لها.

## ثالثًا: تعليق فرنسا لمساعداتها الاقتصادية والعسكرية للحكومة التونسية وجهود تونس للخروج من المأزق

منذ اندلاع الثورة الجزائرية سعت القوات الفرنسية بإجراء عمليات عسكرية على الإقليم التونسي باسم "حق المتابعة" لوحدات جيش التحرير الجزائري. ولهذا الأمر احتجت الحكومة التونسية على ذلك وحذر الباهي الأدغم نائب رئيس المجلس الوطني التونسي من تلك التجاوزات مبينًا بأنها تهدد السيادة التونسية على ترابها، ورفعت تلك الاحتجاجات في تقرير السفير الفرنسي في تونس بتاريخ ٥ سبتمبر ١٩٥٦ إلى الحكومة الفرنسية.[17] ونتيجة لعدة اعتبارات وجدت تونس نفسها مدمجة في نفس الثورة مع الجزائريين وسبب ذلك عرقلة كل تعاون كان محتملا بينها وبين باريس.

فمع تطور الثورة الجزائرية أصبح لجيش التحرير الجزائري مراكز هامة داخل التراب التونسي خاصةً على الحدود منها مركز ملاق، مركز قرن الحلفايا (قرب الكاف)، مركز بيرينوفي نواحي تالة، مركز تاجروين، مركز الشعانبي قرب قصرين وقفصة...إلخ وكانت وحدات جيش التحرير تبدأ هجوماتها على العدوانطلاقًا من هذه المراكز، إضافة إلى ذلك شيدت معسكرات خاصة بقيادة الثورة خاصةً على طول الحدود التونسية الجزائرية وهذا بهدف ربط وحدات جيش التحرير بخلايا جبهة التحرير في كل من: (غار الدماء، الكاف، فريانة، تالة، عين الدراهم، سوق لربعاء، ردايف، تاجروين، ساقية سيدي سويف، قفصة، قصرين، وقابس)، كما كانت أغلب هذه المراكز مخازن أسلحة وذخيرة، ومراكز استشفائية لجرحى جيش التحرير الجزائري،[18] وبهذا أصبح تواجد وحدات جيش التحرير الجزائري بأعداد هائلة على التراب التونسي يشكل خطرًا على السيادة التونسية وعلى نظامها من جهة وعلى موقف تونس تجاه فرنسا من جهة ثانية.

وعلى الرغم من إعلان بورقيبة بتاريخ ٢٤ مارس ١٩٥٧ لاقتراحه على الحكومة الفرنسية عن طريق شارل صوماني، الكاتب العام للحكومة التونسية سابقًا بما يسمى ب"بروتوكول الحياد" بالنسبة للقضية الجزائرية مقابل خروج القوات الفرنسية الباقية في تونس بعد معاهدة الاستقلال،[١٩] إلا أن الحكومة الفرنسية اتخذت وبتاريخ ٢٠ مايو١٩٥٧ قرار تعليق المعونة المالية التي كانت تقدمها لتونس بموجب ما نصت عليه اتفاقية الاستقلال والبالغة ١٥ مليار فرنك فرنسي سنويًا، وأجلت صب (٢) مليار فرنك فرنسي لصالح الحكومة التونسية حسب الاتفاقية المالية ل ٢٠ أبريل ١٩٥٧[20] على الرغم أن موريس فور كاتب الدولة للشؤون المغربية والتونسية كانت له نظرة مغايرة لذلك إذ أنه كان يرى بأن المساعدات الفرنسية للدولة التونسية الناشئة يجب أن تستمر لكن تكون مشروطة بحياد تونس حيال القضية الجزائرية.

فموقف الحكومة الفرنسية كان صريحًا لا يتغير: "فبما أن عيون بورقيبة مغلقة عن تهريب السلاح لداخل الجزائر، فإن المساعدات المالية للحكومة التونسية ستبقى متوقفة..."[21]. ولما ألغت فرنسا تلك المساعدات وقررت تخفيض قيمة الفرنك الفرنسي، رفض بورقيبة على إثر ذلك تخفيض قيمة الدينار التونسي وجعله معتمدًا على الفرنك الفرنسي، حيث أصبح الدينار التونسي في ٣ نوفمبر ١٩٥٧ متداولاً على كامل تراب الجمهورية كعملة رسمية واحدة، ولكن استقلال العملة التونسية لن يحدث إلا بخروج البنك المركزي التونسي عن الوصاية الفرنسية في أكتوبر ١٩٥٨.[22] إن السلطات الفرنسية كانت ترى أن بورقيبة لم يتخذ أي إجراء لإيقاف عملية تمرير السلاح عبر التراب التونسي لصالح الثورة الجزائرية وسكوته يدل على ذلك، وإن لم تستطع فرنسا أن تنتصر في معركتها من أجل عزل الثوار الجزائريين عن القاعدة التونسية فهذا يرجع بالدرجة الأولى إلى مساعدة تونس للثورة الجزائرية وإيمان بورقيبة "بحق الشعب الجزائري في نيل استقلاله" وبأقصى سرعة.

من جهته، بورقيبة لم يتوقف عن محاولة إقناع الحكومة الفرنسية لمنحه المساعدات المالية التي كان يبحث عنها، ولم يتوان في بدأ حملته لشرح موقفه وتبريره أمام ممثلين دبلوماسيين أمريكيين وبريطانيين وألمانيين وإيطاليين في تونس لمساعدته على ذلك. لكن مساعيه ذهبت سدا، إذ أن دولة فتية كتونس لا تملك أي وسيلة للضغط بها على الدول الصديقة لتجبر فرنسا على احترام السيادة التونسية.[23] وعلى خلاف بريطانيا وألمانيا اللتان وقفتا إلى جانب قرارات الحكومة الفرنسية فقد تأسفت الولايات المتحدة الأمريكية عن قرار توقيف المساعدات المالية الفرنسية. وحاول كريستيان بينوتجنب وساطة الولايات المتحدة إلا أن هذه الأخيرة وجدت نفسها داخل هذه المسألة. ورأى لويس جوكس الكاتب العام في الكي دورساي ( Quai D'Orsay) أن "توقيف المساعدات الفرنسية سوف يزيد من السخط..." [24]. لكن موقف الحكومة الفرنسية بقي على حاله. أما بالنسبة للمساعدات العسكرية فقد رفضت السلطات الفرنسية منع وصول أية شحنة من السلاح إلى الجيش التونسي، أيًا كان مصدره، مبررة ذلك بأن جزء منه سيتسرب لجيش التحرير الجزائري.

من جهته، توجه بورقيبة إلى الدول الغربية وخاصة منها الولايات المتحدة الأمريكية، وأوضح بأن استمرار الحرب في الجزائر سوف يسبب أضرارًا في كل الدول المستقلة في شمال إفريقيا، وطلب من الولايات المتحدة الأمريكية على أن لا تساعد فرنسا على ذلك وإلا سوف تفقد شعوب شمال إفريقيا ثقتها في المعسكر الغربي حيث كان يظهر جليًا أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت تولي تونس اهتمامًا خاصًا لا سيما فيما يتعلق بمسألة تقديم المساعدات الاقتصادية والتقنية، لأن ذلك من شأنه أن يعطيها فرصة التغلغل السلمي في منطقة شمال إفريقيا ومن ثمَّ إرساء أسس التحالف الاستراتيجي المعادي للشيوعية. في هذا الإطار كان الرئيس بورقيبة قد زار الولايات المتحدة الأمريكية في (٢١ من شهر نوفمبر سنة ١٩٥٦) حيث التقى مع الرئيس إيزنهاور[٢٥] Dwight D. Eisenhower وأهم موظفي وزارة الخارجية الأمريكية، شكر في هذا اللقاء الرئيس بورقيبة الرئيس الأمريكي إيزنهاور على المساعدة المقدمة لبلاده والمقدرة بـ ٤٥,٠٠٠ طن من القمح. كما سأل الرئيس الأمريكي الرئيس بورقيبة-في اللقاء نفسه-عن تطلعاته لحل القضية الجزائرية، فأجاب الأخير بأنه يفكر في وضع خطوط اتفاقية فرنسية مع الجزائر تستطيع الأخيرة بموجبها أن تحقق الاستقلال وأنه سيبذل كل الجهود من أجل تحقيق تلك الغاية.[٢٦]

وفي إطار ذلك فاتحت السفارة الأمريكية في باريس الحكومة الفرنسية في موضوع تقديم مساعدة اقتصادية إلى تونس للتخفيف من حدة الأزمة الاقتصادية التي كانت تواجهها تونس في تلك المدة، ويبدوأن السبب الذي دفع السفارة إلى عرض الموضوع على الجانب الفرنسي هوأن الولايات المتحدة كانت لا

تريد إحراج الحكومة الفرنسية ، وعلى الرغم من موافقة الأخيرة على هذا العرض الأمريكي من حيث المبدأ إلا أنها كانت ترى أن ذلك من الممكن أن يؤثر سلبًا على موقفها في المفاوضات التي كانت تجريها حينذاك مع تونس بشأن الثورة الجزائرية، وقد عبر المسؤولون الفرنسيون عن ذلك بقول : " إن التونسيين سيشعرون بأنهم يستطيعون أن يحصلوا على دعم مادي أومالي في مكان آخر...".[٢٧]

ولما طلبت تونس رسميًا من الإدارة الأمريكية بعض المساعدات الاقتصادية والتقنية الأمريكية، اشترطت أن يكون ذلك عن طريق التنسيق مع الجانب الفرنسي لأن تونس لا ترغب في إحراج موقف الولايات المتحدة أمام فرنسا وعدم رغبتها في الإضرار بالعلاقات بين الدولتين، وقد كان رد المسؤولين الأمريكيين أنهم من حيث المبدأ مستعدون لتقديم مثل تلك المساعدة وأعلنوا أنهم سوف يقومون بإرسال بعثة رسمية لتحديد احتياجات تونس، ومن جهة ثانية طلبت الخارجية الأمريكية من سفيرها في باريس أن يوضح للمسؤولين الفرنسيين أن الإدارة الأمريكية لا تستطيع أن تتجاهل الطلبات التونسية إلى ما لا نهاية، وهوأمر قد يضر بالمصالح الأمريكية، مع التأكيد بأن واشنطن تعترف بالنفوذ الفرنسي في شمال إفريقيا عمومًا وتونس على وجه الخصوص.

وفي ٤ سبتمبر ١٩٥٧، طلبت تونس رسميًا من الولايات المتحدة الأمريكية السلاح الذي كانت فرنسا قد رفضت بيعه لها بسبب الدعم العسكري التونسي لجبهة التحرير الوطني. إذ صرح صدوق مقدم كاتب الدولة للعلاقات الخارجية التونسية للويس جون السفير الفرنسي في تونس: "أنه وبعد هجوم القوات الفرنسية على حيدرة -وهي قرية تونسية على الحدود الجزائرية- أصبح من الضروري الحصول على المساعدة العسكرية الأمريكية من أجل تعزيز وحداتها ...". وقد عرضت هذه الحجة من أجل طلب المساعدة والحماية الأمريكية[٢٨].

وأسرع الكي دورساي لمحاولة إيقاف هذه المساعدة، لكن كاتب الدولة الأمريكية فوستر دلاس كان مقتنعا بحق تونس في تجهيز جيشها الحديث وتنويع مصادر تموينه، "من أجل تونس قوية ومستقرة". وقال: "لأجل هذا الهدف ستخصص الولايات المتحدة مساعدة اقتصادية معتبرة ووافقت على دراسة المطالب التونسية التي لها علاقة بالمحافظة على أمنها الداخلي". وفي يوم ١٢ سبتمبر ١٩٥٧، كتب دلاس لبينوقائلاً: "لا أريد أن أطور الموضوع بالإيجاب بدون أن أضمن تعهد فرنسا بالرد على المطالب التونسية الخاصة بتجهيز جيشها... ولابد أن نأخذ بعين الاعتبار، في الوقت الراهن حتمية رد الفعل المباشر للدول الشيوعية، إن لم تقبل الدول الغربية بذلك. إن مصلحتنا كما تعلمون محددة بالدفاع عن العالم الحر...".[٢٩]

ويبدوأن أمريكا كانت تراوغ المطلب التونسي، إذ أنها كانت لا تريد أن تتدخل مباشرة لمساعدة تونس إذ كانت تعتبره من الشؤون الفرنسية، وتحاول بذلك الضغط على هذه الأخيرة فقط من أجل منع التدخل الشيوعي في المنطقة، والدليل على ذلك تماطلها في إرسال المساعدة العسكرية التي طلبتها تونس منها، في الوقت الذي أسرعت فيها القاهرة بإرسال هبة تقدر بـ ٣٠٠٠ بندقية، حيث قبل الرئيس بورقيبة ذلك كخطوة لتجميد المعارضة اليوسفية، وتعبيرًا عن التضامن العربي، الشيء الذي خلخل المخطط الأمريكي ودفع به على تسليم تونس وبشكل فوري مجموعة من الأسلحة لسد الباب على المساعدات العربية-المصرية- والشيوعية معًا.[٣٠]

يتضح من كل ذلك؛ أن بورقيبة حاول أن يوضح للأمريكيين سياسته الواقعية فهولم تكن لديه خطط –عدوانية- ضد "إسرائيل"، فضلاً عن رغبته في إيجاد حل نهائي للقضية الجزائرية بوصفها من العوامل المؤدية إلى عدم الاستقرار في شمال إفريقيا، وأخيرًا جاء إعلانه عن رغبته في محاربة الشيوعية منسجمًا مع السياسة الأمريكية آنذاك.

وفي إطار مبدأ إيزنهاور لعام ١٩٥٧ الذي أصدره الرئيس الأمريكي دوايت إيزنهاور المبدأ الذي عرف باسمه "مبدأ أيزنهاور" المشروع الذي يعتبر صورة مصغرة لمشروع مارشال وهدفه إبعاد المنطقة العربية على النفوذ السوفياتي وتضمن عرضًا لاستراتيجية أمريكية جديدة خاصة بمنطقة الشرق الأوسط ومنها وضع مائتي مليون دولار تحت تصرفه كي يستخدمها في الشرق الأوسط لتغطية مساعدات اقتصادية مخصصة لصيانة الاستقلال الوطني ولتقديم المساعدات العسكرية لأية دولة تطلبها، وفضلاً عن ذلك اقترح الرئيس الأمريكي أن تشمل المساعدات استخدام قوات الولايات المتحدة المسلحة لضمان وحماية وحدة الأراضي والاستقلال السياسي للدول التي تطلب مثل ذلك العون ضد الاعتداءات المكشوفة التي قد تقوم بها أية دولة خاضعة للشيوعية الدولية.

في إطار ذلك، رحبت تونس بالمبدأ المذكور واستفادة بمبلغ قدمته الإدارة الأمريكية كمنحه لتونس وقدره ثلاثة مليون دولار أمريكي كرمز للصداقة الأمريكية-التونسية، وعلاوة على ذلك أوضح ريتشارد أنه بإمكان تونس أن تحصل على المساعدات الأمريكية في حالة حدوث عدوان أو تهديد من الشيوعية الدولية، وفي معرض رده تطرق بورقيبة إلى القضية الجزائرية بوصفها بؤرة تجعل المنطقة عرضة وبشكل كبير للنشاط الشيوعي كما أوضح رغبته للعمل مع فرنسا لإيجاد حل لها، ومن جانب آخر طلب بورقيبة أن تمارس الولايات المتحدة وبريطانيا ضغوطًا "ودية" على فرنسا لحملها على منح الاستقلال للجزائر. كما تم توقيع اتفاق بين الحكومتين التونسية والأمريكية في ١٥من مايو من العام نفسه يقضي بمنح تونس معونة مالية قدرها خمسة ملايين دولار تقدم على شكل بضائع أمريكية تبيعها الحكومة التونسية لحسابها الخاص مع فوائدها،[٣١] كما أعلن بورقيبة ردًا على الإجراءات الفرنسية، في الرابع

والعشرين من شهر مايو ١٩٥٧ خروج بلاده من الاتفاق الاقتصادي والمالي والجمركي المعقود بين تونس وفرنسا منذ عام ١٩٥٥.[32]

وكان الرئيس إيزنهاور هو الذي قرر بنفسه كذلك تسليم ٥٠٠ بندقية بذخيرتها باسم رمزي أخذت من مخزن القاعدة و"ليس" (Wheelus) في ليبيا. ولم تجد الحكومة الفرنسية بدًا من وراء ذلك إلا تسهيل عملية دخول الأسلحة، إذ هدد فوستر دالاس بتنفيذ المخطط الأمريكي ابتداء من ١٤ نوفمبر ١٩٥٧، إذا لم تسلم فرنسا السلاح للحكومة التونسية وبشروط محددة من طرف الولايات المتحدة الأمريكية.[33] وعلى الرغم من رمزية هذه المعونة يبدو أن السبب الذي دفع الإدارة الأمريكية إلى تقديمها هو رغبتها في منع تونس من التوجه إلى الكتلة الشرقية الشيوعية وفقدان واحدًا من أبرز الموالين للسياسة الغربية في شمال إفريقيا.

ولما تقدم الرئيس بورقيبة مع سلطان المغرب "بمشروع الوساطة" بتاريخ ٢١ نوفمبر ١٩٥٧، بين جبهة التحرير الوطني وفرنسا من أجل عقد مفاوضات تنتهي إلى حل عادل يعيد إلى الشعب الجزائري سيادته، طبقًا لمبادئ الأمم المتحدة "ويضمن المصالح المشروعة لفرنسا ومواطنيها"،[34] اصطدم فيه بورقيبة بالمعارضة التامة من طرف حكومة لاغيار يوم ٢٩ نوفمبر ١٩٥٧. وصرح بينومن نيويورك بأن "فكرة المساعي الحميدة" التي جاءت بها كلا من تونس والمغرب لن تقبل إلا بالاتفاق مع جبهة التحرير الوطني حول توقيف النار، وليس من أجل حلول سياسية، وبأي حال فإن كلا من تونس والمغرب لا تستطيع أن تكون وسيطة لأنها ليست محايدة".[35]

## رابعًا: قصف ساقية سيدي يوسف وازدياد حدة توتر العلاقات الفرنسية التونسية

لقد عرفت سنة ١٩٥٧ توترات واضحة في العلاقات الفرنسية – التونسية بسبب موقف تونس من الثورة الجزائرية، حيث أراد الطرفان في نهاية هذه السنة التقارب بضغط من الولايات المتحدة الأمريكية وواقع المصلحة المشتركة بين البلدين، إلا أن ذلك لم يتبلور بعد على أرض الواقع بسبب ما أحدثه قصف ساقية سيدي يوسف الذي أزم الوضع وكانت له انعكاسات على المستوى الدولي والوطني على حد سواء إذ أنه ساهم في سقوط الجمهورية الرابعة الفرنسية. لم تتغاض قيادة الجيش الفرنسي بالجزائر عن الدعم التونسي للثورة الجزائرية على الحدود، وقررت أن ترد على العمليات العسكرية المنطلقة من الأراضي التونسية التي أصبحت تشكل قاعدة خلفية خطيرة عن طريقها يتم تمرير الأسلحة، وأصبحت ملجأً حصينًا لإيواء جيش التحرير الجزائري.

ففي ٢ يناير ١٩٥٨ وعلى إثر اشتباكات عنيفة على الحدود التونسية – الجزائرية بالقرب من ساقية سيدي يوسف تمكن خلالها جيش التحرير الجزائري من إلقاء القبض على أربعة جنود فرنسيين نقلوا إلى منطقة الكاف،[36] قام رئيس الحكومة لاغيار بتكليف الجنرال دي شاليه بنقل رسالة إلى الرئيس بورقيبة من أجل التوسط للإفراج على المسجونين الأربعة، إلا أن بورقيبة رفض استقباله بحجة أنه حارب المقاومين التونسيين عام ١٩٥٤. فاستبدل هذا الأخير برئيس ديوان لاغيار، لكن بورقيبة رفضه مرة ثانية وصرح قائلا: "ينبغي أن تدرك فرنسا أن ذلك الوقت الذي كان يكلف فيه قائد جيش رفع احتجاج ما أوبإرسال بارجة حربية لدعم السياسة الاستعمارية قد ولى، وإذ ما تواصلت العمليات الحربية فإنني سوف أطالب بإرسال قوات تابعة لمنظمة الأمم المتحدة للانتصاب على الحدود"[37] وهو الشيء الذي سبب هياج الحكومة الفرنسية.

وفي ١١ يناير من السنة نفسها، اشتبكت وحدات جيش التحرير الجزائري بالقوات الفرنسية أدت إلى مصرع (١٤) جندي في صفوف هذه الأخيرة. فقامت القوات الفرنسية بالجزائر بإبلاغ السلطات في باريس بأن "الطيران قد اكتشف عصابات من المهاجرين الجزائريين يعبرون الحدود انطلاقًا من الأراضي التونسية وينتشرون داخل المزارع والمشاتي الجزائرية(...) وأن عربات الحرس الوطني ترابض على الحدود لمساعدتها".[38] وكانت نتيجة كل ذلك متابعة وحدات جيش التحرير الجزائري من قبل قوات الجيش الفرنسي على الحدود التونسية في كل مرة باسم "حق المتابعة" الذي كان قد قبل رسميا من طرف مجلس الوزراء يوم ٢٩ يناير ١٩٥٨ [39]. والذي أدى في يوم ٨ فيفري ١٩٥٨ إلى قصف قرية ساقية سيدي يوسف بطائرات B26 والتي كانت نتيجتها (٧٢) قتيلاً و(١٥٠) جريحًا.[40]

وقد كان لقصف الساقية نقدًا كبيرًا من طرف الولايات المتحدة الأمريكية وحتى رد الفعل السياسي الفرنسي كان مناقضًا، عكس المواقف المتخذة عند تحويل الطائرة المغربية للزعماء الخمس في أكتوبر ١٩٥٦، وكذلك أثناء عملية اجتياح قناة السويس. وقد جاء على لسان كاتب الدولة الأمريكية جون فوستر دالاس: "إن السياسة المتبعة من طرف فرنسا في الجزائر سوف تجر الحرب إلى الدول المجاورة للجزائر بداية من تونس ثم المغرب وليبيا وستجد فرنسا نفسها داخل حرب مع كل دول المغرب مدعمة من طرف مصر وباقي الدول العربية، معززة عسكريًا وماليًا من طرف الاتحاد السوفياتي والشيوعية العالمية".[41] وأكدت التقارير الأمريكية بأن عملية قصف الساقية لم تكن خطأ عسكريًا اقترفته السلطات الفرنسية وإنما حكومة فليكس غيار كانت على علم بذلك مسبقًا. لقد كانت عملية القصف مسموحة من طرف روبير لاكوست المقيم العام في الجزائر، وحتى من طرف وزير الدفاع الفرنسي جاك شابون دلوما ومن طرف مجلس الوزراء عامة.[42]

## خامسًا: الموقف الرسمي التونسي من التعسفات الفرنسية

لقد أدت الاعتداء الفرنسية إلى وضع الرئيس التونسي في حالة صعبة مما دفعه إلى المزايدة، فتونس بالنسبة للجيش الفرنسي أو جيش التحرير الجزائري تشكل قاعدة استراتيجية والفرنسيون لا يريدون أن تكون تونس قاعدة انطلاق جيش التحرير الجزائري، والجزائريون لا يريدون أن تصبح تونس جزء من استراتيجية تطويقهم. لذلك فبورقيبة لم يكن قادرًا على اتخاذ موقف الحياد وهو يشعر أن تحرير كامل سيادة البلاد قد أصبح مرتبطًا بتطور الحرب في الجزائر، فأعلن مساء يوم قصف الساقية عن بدأ معركة الجلاء وطلب بالإخلاء التام للإقليم التونسي من طرف القوات الفرنسية دون استثناء بنزرت. وفي ١٢ فيفري ١٩٥٨، أعلنت تونس عن منع أية سفينة حربية دخول ميناء بنزرت. وفي ١٤ فيفري من نفس السنة، صادق مجلس النواب بمبادرة من رئيس الدولة على قانون ألغى معاهدة سنة ١٩٤٢ المبرمة في عهد حكومة فيشي والتي تنص بأن "بنزرت ميناء فرنسي لا يشكل جزء من التراب التونسي".[43]

كما قرر بورقيبة إلغاء ٥ مكاتب قنصلية وإخلاء المزارعين الفرنسيين للأراضي المجاورة للحدود (سبيطلة وسوق لربعاء...)، وقرر رفع عريضة احتجاج لمجلس الأمن لاستنكار هذا الهجوم. وطلب من واشنطن أن تقف بجانبه للضغط على فرنسا للدخول في مفاوضات مع الجزائريين لوقف الحرب في الجزائر، إذ قال لمستشار الرئيس إزنهاور لشؤون شمال إفريقيا روبير مورفي: "إن نهاية سريعة لحرب الجزائر ستحمي شمال إفريقيا من فيروس الشيوعية".[٤٤] وبذلك فتح العدوان على الساقية المجال واسعا لواشنطن للتدخل المباشر في حرب الجزائر، فصرح جون فوستر دالاس كاتب الدولة الأمريكي "أن واشنطن سوف تبلغ باريس بأن الولايات المتحدة الأمريكية سوف تفعل كل ما تستطيع من أجل المحافظة على شمال إفريقيا من أجل أمن الغرب".[45]

كانت واشنطن تنوي لعب دور هام في حل القضية الجزائرية - حسب ما اقترحه بورقيبة –وهو إقناع فرنسا بأن تستجيب لوقف إطلاق النار في الجزائر وفتح المفاوضات مع جبهة التحرير الوطني -في إطار مؤتمر دولي تحضره كل من تونس، المغرب، ليبيا، الولايات المتحدة الأمريكية هدفه منح الاستقلال الداخلي للجزائر. وفي حالة رفض فرنسا، فإن أمريكا ستتوقف عن مساعدة فرنسا في هيئة الأمم المتحدة عند احتجاج تونس عن سياستها. كما ستتبنى أمريكا سياسة نشطة من أجل الدعم الاقتصادي والعسكري لكل من تونس والمغرب مما سيعرض المصالح الفرنسية للخطر في هذين البلدين جراء التأثير الأمريكي. كما شرح بورقيبة موقفه لمورفي قائلا: "إنني لست محايدا في هذا الصراع، لأن وقوفي إلى جانب الثورة الجزائرية سيجعلها دائما قريبة من الغرب، أما فيما يتعلق بوجود الجيش الفرنسي بتونس فإنني أطلب انسحابه بلا شروط وفي أقرب وقت".[46]

وبعد لقاء مورفي مع بورقيبة، بعث مورفي برأييه إلى واشنطن حيث يرى بأن تقبل فرنسا بأن تسحب قواتها من تونس ما عدا بنزرت لأن تواجد القوات الفرنسية على التراب التونسي لا يتماشى وسيادة هذه الأخيرة، وفرنسا لا تستطيع أن تحافظ على بنزرت إلا إذا سحبت قواتها من بقية التراب التونسي.[47] وعلى حكومة فيليكس غيار أن تقبل مساعي كل من بريطانيا والولايات المتحدة والتي يمثلها كل من هارولد بيلي وروبير مورفي (Harold Beeley et Robert Murphy) واللذان يريدان أن يتحاشى لجوء تونس إلى مجلس الأمن، كما اقترحا تشكيل لجنة دولية لمراقبة الحدود الجزائرية التونسية.[48]

لقد عارضت حكومة فيليكس غيار التخلي عن مواقع الطيران في جنوب البلاد بحجة أنها جد مهمة وهي تشكل قلب مشكل المساعدة التونسية لجيش التحرير الجزائري، وإذا انسحبت فرنسا من تونس وشمال إفريقيا ككل فسوف يفقد هذا الأخير لصالح المعسكر الشيوعي.[49] من جهته رفض الرئيس التونسي ما جاء به بيلي ومورفي، والذي يقوم على وجود لجنة مراقبة موجودة في الجزائر بإمكانها أن تتوج إلى تونس في حالة وجود أي طارئ، وذلك لأنه لا يريد أن يضع نفسه في أي موقف يجعله يظهر فيه واقفًا إلى جانب فرنسا ضد جبهة التحرير الوطني.[50] كما أن دعم تونس للثورة الجزائرية يمثل خيارًا استراتيجيًا ليس فقط بسبب إيديولوجية رجل قضى معظم حياته الثورية من أجل استقلال بلاده ولا يستطيع أن يكون محايدا أمام ثورة يخوضها شعب شقيق وجار، بل أنه كان كذلك خيارًا مملى عليه من طرف اعتبارات سياسية لاقتناعه بأن استقلال تونس غير كامل مادامت الجزائر تحت بطش الاستعمار الفرنسي، خاصةً إذا كانت السياسة الفرنسية تعتبر أن الجزائر جزءا لا يتجزأ من فرنسا.[51]

إن قصف الساقية قد سرع وضعية التطور نحو القطيعة في العلاقات الفرنسية-التونسية، كما أدى إلى إسقاط حكومة فيليكس غيار يوم ١٥ أبريل ١٩٥٨، الشيء الذي أدى بدوره إلى فشل المساعي الحميدة لكل من الولايات المتحدة الأمريكية وحتى بريطانيا بين فرنسا وتونس، كما أن القرارات المتخذة في ندوة طنجة حول توحيد المغرب العربي من ٢٧ إلى ٣٠ أبريل ١٩٥٨ طبعت بتراصف كل من تونس والمغرب بعيدتين عن جبهة التحرير الوطني. وكان من غير الممكن إجراء مفاوضات من أجل الاتفاق حول الارتباط ما بين فرنسا وفدرالية الدول المغاربية، ولكن كانت بالأساس حول إنشاء الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية التي اعترفت بها تونس منذ إنشائها في ١٩ سبتمبر ١٩٥٨، وصيغة الاعتراف بها رسميا جاءت على لسان الرئيس التونسي الذي اعترف بها في مؤتمر صحفي يوم ١٨ فيفري ١٩٥٩ مصرحًا ما يلي: "لقد اعترفنا بالحكومة الجزائرية بوصفها ممثلاً للشعب وللوطن

وللدولة الجزائرية"[52]. ولعل هذا ما زاد من حدة التوتر في العلاقات الفرنسية التونسية.

وكان شيئًا منطقيًا أن تعترف الحكومة التونسية بذلك من أجل ألا تدفع بالحكومة المؤقتة الجزائرية إلى الارتماء في أحضان عبد الناصر والمعسكر الشيوعي. ولم تخف كل من تونس والمغرب أن السبب الرئيس وراء إنشاء الحكومة الجزائرية هو التفاوض مع فرنسا من أجل إيقاف الحرب في الجزائر، وإخلاء القواعد العسكرية الفرنسية في كل من تونس والمغرب.[53]

## خَاتِمَةٌ

- لم تستطع تونس التي كانت تحضر استقلالها أن تجتنب ما يحدث في الجزائر ووجدت نفسها مقحمة ضمن تطورات القضية الجزائرية، ولم تثن سياسة البطش التي مارستها القوات الفرنسية بفعل إيقاف المساعدات الاقتصادية والعسكرية الفرنسية ولا الإجراءات التعسفية من خلال قصف ساقية سيدي يوسف بحجة ملاحقة الثوار، عزم التونسيين على تقديم العون للثورة الجزائرية.
- لم يتوان الرئيس بورقيبة في إيجاد حل لمشكلة توقيف المساعدات الاقتصادية والعسكرية لبلاده من طرف الحكومة الفرنسية وسعى جاهدًا إلى إيجاد حل عن طريق الدول الغربية.
- لقد كانت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية تتعامل مع مسألة المساعدات لتونس ولاسيما العسكرية منها بحذر وتحفظ شديدين خشية أن يؤثر ذلك على علاقاتها مع فرنسا ويبدو أن ذلك يرجع إلى موقع فرنسا في ترتيبات الحرب الباردة التي كانت في أوجها آنذاك إذ كان صناع القرار في واشنطن يخشون من حدوث "تصدعات" في الكتلة الغربية عمومًا وفي حلف الناتو على وجه الخصوص.
- ولعل السياسة المعتمدة من طرف الرئيس بورقيبة، والمعادية للاحتلال وللمعسكر الشيوعي هي التي جعلت تونس تشكل بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية موضوعًا لمصلحتها الخاصة وآمالاً لمشاريع أمريكية في بلدان العالم الثالث.

## الهَوامِشُ

(١) جريدة المقاومة، ١٩٥٦/١٢/٣م

(٢) محمد العربي الزبيري، **الثورة الجزائرية في عامها الأول**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤، ص٩٩.

(٣) رجل سياسي فرنسي، ولد في باريس في ٤ ماي١٨٩٥ وتوفي في ١٣ ديسمبر١٩٧٢، عضو في الحزب الاشتراكي الراديكالي بعد الحرب العالمية الثانية. تقلد عدة مناصب من بينها نائب راديكالي بعمالة قسنطينة في ١٩٤٦، وفي الفترة الممتدة من ١٩٤٧ إلى ١٩٥٢ تقلد فيها منصب وزير المالية والعلاقات الاقتصادية من سنة ١٩٤٧ إلى ٢٦ جويلية ١٩٤٨ ووزيرًا للدفاع الوطني من ٢٦ جويلية إلى ١١ سبتمبر ١٩٤٨. ثم وزير العدل من ٩٢ أكتوبر ١٩٤٩ إلى ١١ أوت ١٩٥١. ونائب رئيس الحكومة وزير المالية والعلاقات الاقتصادية من ١١ أوت ١٩٥١ إلى ٢٠ جانفي ١٩٥٢. رئيس الحكومة من ٨ جانفي إلى ٢٨ جوان ١٩٥٣. نائبًا ورئيس السلطة العُليا في المجموعة الأوروبية للفحم والصلب من سنة ١٩٥٥ إلى سنة ١٩٥٨. انظر: ويكيبيديا الموسوعة الحرة على شبكة الإنترنت.

(4) La Dépêche de Constantine 3/11/1954

(٥) للتفصيل أكثر حول موضوع العلاقات الجزائرية-التونسية انظر: لمياء بوقريوة، **العلاقات الجزائرية التونسية ١٩٥٤-١٩٦٢**، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر (غير منشورة)، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، الجزائر،٢٠٠٥-٢٠٠٦.

(٦) المرجع نفسه، ص ٨٢،٨٨ وللاطلاع أكثر حول الموضوع طالع: **أعمال الملتقى الدولي التاسع حول تصفية الاستعمار بتونس**: الأطوار والأبعاد (١٩٥٢-١٩٦٤)، مايو ١٩٩٨، سلسلة تاريخ الحركة الوطنية، عدد ٩، تونس، ١٩٩٨.

(٧) السعيد الصافي، بورقيبة: **سيرة شبه محرمة**، ط١، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠، ص٢٠٥.

(٨) في الثاني عشر من آيار ١٨٨١ وقعت فرنسا مع الباي التونسي محمد الصادق على معاهدة باردو Bardo التي نصت على أن تحتل القوات الفرنسية المراكز التي تراها صالحة لاستتباب النظام والأمن بالحدود والسواحل، وفي شهر جوان عام ١٨٨٣ وقع الباي التونسي على معاهدة المرسي التي منحت فرنسا السلطة الكاملة في تونس وهكذا دخلت الأخيرة في الحماية الفرنسية المباشرة. يُنظر: عبد الله عبد الرزاق إبراهيم وشوقي الجمل، **تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر**، دار الثقافة للنشر والتوزيع، (القاهرة، ٢٠٠١)، ص٣٥٨.

(٩) جاء في بنوده: (الاعتراف الفرنسي باستقلال تونس -إلغاء فرنسا معاهدة الحماية -مباشرة تونس لمسؤولياتها في الشؤون الخارجية والأمن والدفاع وتكوين جيش وطني تونسي).

(١٠) رياض الصمد، **العلاقات الدولية في القرن العشرين**، ج٢، ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ١٩٨٣، ص٢٦٥.

(١١) صلاح العقاد، **المغرب العربي: الجزائر-تونس-المغرب الأقصى دراسة في تاريخه الحديث وأحواله المعاصرة**، ط٣، مكتبة الأنجلو مصرية، (مصر،١٩٦٩)، ص٤٩٥.

(12) Samia El Machat, "Les Relations Franco-Tunisiennes dans la tourmente Algérienne (1957-1961)", Acte du VIIIe colloque international sur histoire Orale et relations Tuniso-Françaises de 1954 à 1962, la parole aux témoins (tenu le 10 et 11 mais 1996 à Tunis), Institue Supérieur d'Histoire du Mouvement Nationale, Tunis, 1998, Pp. 203, 204.

(١٣) انظر:

**Archives National Tunisiens**: Mouvement Nationale, Politique Tunisienne, Date 26/04/1956, Carton 68, Dossier1.

(١٤) انظر:

**A.N.T** : M.N, Note de renseignements, Date 12/02/1956, C68, D1.

وكذلك:

**A.N.T** : M.N -Commentaires sur le discours du président du conseil à l'Assemblée nationale constituante, Date 31/05/1956, A.N.T, M.N, C68, D1.

وكذلك:

**A.N.T**, M.N -Politique franco-tunisienne, Date 07/05/1956, C68, D01.

(15) Gian Polo Calchi Novati, «Le bombardement de sakiat-sidi-Youssef et les péripéties de la politique tunisienne face a la guerre d'Algérie», in .Actes du Ixe colloque international sur processus et enjeux de la décolonisation en Tunisie (1952-1964), I.S.H.M.V, Tunis, 1999, P.61.

(١٦) الحبيب بورقيبة: **من أقوال المجاهد الأكبر لحبيب بورقيبة**، ط١، شركة فنون الرسم والنشر والصحافة، تونس، ١٩٨٤، ص١٨٣.

(17) El Machat, Op.cit, Pp. 204-205

(١٨) للتفصيل أكثر حول موضوع العلاقات العسكرية الجزائرية-التونسية، انظر: لمياء بوقريوة، مرجع سابق، ص ١٤١،١٧٨.

(١٩) الصافي، مرجع سابق، ص٢٣٠.

(20) El Machat, Op.cit, P.205.

(٢١) الصافي، مرجع سابق، ص ص٢٠٣.

(22) El Machat, Op.cit, Pp. 205-206.

(٢٣) سليمان الشيخ، **الجزائر تحمل السلاح، دراسة في تاريخ الحركة الوطنية والثورة المسلحة**، ت: محمد حافظ الجمامي، الجزائر،٢٠٠٢، ص٥٠٠. ففي ١٧ سبتمبر ١٩٥٧ عرض ملك المغرب في خاطب ألقاه في طنجة حلاً للمشكل الجزائري عن طريق التفاوض وفي ٧ أكتوبر ١٩٥٧، قدم الباهي الأدغم نائب رئيس المجلس التونسي اقتراحًا في الأمم المتحدة صاغه بورقيبة من أجل تسوية للقضية الجزائرية بعقد ندوة من أربعة أطراف فرنسا، جبهة التحرير الوطني، تونس، المغرب.

(24) El Machat, Op.Cit, P.206.

(٢٥) **دوايت ايزنهاور**: الرئيس الرابع والثلاثون للولايات المتحدة الأمريكية، ولدَ في ولاية تكساس عام ١٨٩٠، وفي أثناء الحرب العالمية الثانية تقدم في سلك الخدمة العسكرية بسرعة بالغة حتى وصل إلى رتبة جنرال، وفي عام ١٩٥٠، عين القائد الأعلى للقوات الحليفة في أوربا بعد أن كان قد ترك الجيش، وفي عام ١٩٥٣ انتخب رئيسًا للجمهورية كمرشح للحزب الجمهوري وجدد انتخابه في عام ١٩٥٦، طرح في عام ١٩٥٧ مشروعه الذي عرف باسمه "مشروع ايزنهاور"، استمر في الرئاسة إلى عام ١٩٦١، وتوفي سنة ١٩٦٩.

(٢٦) للاطلاع أكثر حول موضوع العلاقات التونسية الأمريكية في هذه الفترة من خلال أرشيف وزارة الخارجية الأمريكية المنشور، انظر: مقال الدكتور ناظم رشم معتوق الأمارة، "**تونس والولايات المتحدة الأمريكية (١٩٥٦-١٩٥٨) دراسة في العلاقات السياسية**"، دورية كان التاريخية، العدد الرابع عشر، ديسمبر ٢٠١١، ص١٦-٢٩.

(٢٧) المرجع نفسه.

(28) El Machat ,Op.cit. , P.207.
(29) IBID. P.208.
(30) IBID.

(٣١) ناظم رشم معتوق، مرجع سابق.

(٣٢) المرجع نفسه.

(33) El Machat, Op.cit. Pp. 208-209.

(٣٤) الصافي، مرجع سابق، ص٢٣١.

(٣٥) نفسه.

(٣٦) ويذكر الصافي سعيد في مرجعه المشار إليه سابقًا أنهم كانوا ثلاثة جنود.

(٣٧) الطاهر بلخوجة، **لحبيب بورقيبة: سيرة زعيم**، علامات للطباعة والنشر، الشرقية، تونس، (ب س ط)، ص43.

(٣٨) المرجع نفسه، ص٤٤.

(39) El Machat, Op.cit. P.210.

(٤٠) حسب الإحصاءات التي وجدت في جل المراجع التي تتحدث عن قصف الساقية ومنها بلخوجة، مرجع سابق، ص٤٤.

(41) Irwin M. wall, Traduit par ph.E.Roviart,"Les États-Unis la Grande Bretagne et l'affaire de Sakiet Sidi youssef" in: Actes du VIIIe colloque International sur histoire orale et relations tuniso-françaises de 1945 à 1962 la parole aux témoins, tenu le 10 et 11 mais 1996 à Tunis, I.S.H. M. N, Tunis, 1998, P.217.

لقد تلقى الجيش الفرنسي ضربات موجعة عديدة، من طرف فرق جيش التحرير الجزائري، ضد قواعده العسكرية الموجودة على الشريط الحدودي، المتاخم للأراضي التونسية، حيث استطاعت الكتيبة الثالثة لجيش التحرير الوطني يوم 20 اكتوبر1957 ، بالقاعدة الشرقية تحت قيادة لعياشي حواسنية وعبد الوهاب صوالحية، من شن هجمات متلاحقة على ثلاث قواعد عسكرية فرنسية، وحطمتها نهائيًا، وتم خلالها تحرير الجزائريين المحتجزين والتحق جميع أفراد الكتيبة، بالمنطقة الحدودية قرية ساقية سيدي يوسف، للمزيد من التفاصيل انظر: المنصف بن فرج، **ملحمة النضال التونسي الجزائري من خلال حوادث ساقية سيدي يوسف**، المغرب للنشر، تونس، 2002. ص 22 وانظر أيضًا:

Henri le Mire, **Histoire militaire de la guerre d'Algérie**, Ed, Albin Michel, paris, 1982, p195

(42) Irwin M.Wall, Op.cit, P.218.

(٤٣) بلخوجة، مرجع سابق، ص٤٥.

(٤٤) الصافي، مرجع سابق، ص٢٣٣.

(45) M.Wall, Op.cit. pp 222-223.

(٤٦) الصافي، مرجع سابق، ص٢٣٣.

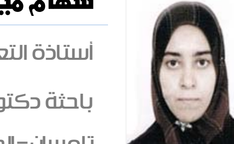
(47) Irwin M.Wall, Op.cit. p. 226.
(48) El Machat, Op.cit. p. 210.
(49) M.Wall, Op.cit, p.227.
(50) El Machat ,Op.cit, p. 211.
(51) Noureddine Boujellabia, **La bataille de Bizerte ,telle que je l' ai vécu**,Sud Edition,Tunis, 2004, P.38.
(52) El Machat, Op.cit .P. 212.
(53) IBID.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

دراسات

# المواقف العربية والدولية من تأسيس الحكومة المؤقتة الجزائرية

## خلال الثورة التحريرية ١٩ سبتمبر ١٩٥٨ - يناير ١٩٦٠



**سهام ميلودي**
أستاذة التعليم المتوسط
باحثة دكتوراه تاريخ حديث ومعاصر
تلمسان – الجمهورية الجزائرية

### مُلَخّصْ

بمجرد الإعلان عن تشكيل الحكومة المؤقتة الجزائرية في ١٩ سبتمبر ١٩٥٨ سارعت أغلب الدول العربية والدولية للاعتراف بها، هذه المواقف كانت بمثابة دعم قوي لها فباشرت نشاطها السياسي المتمثل في سلسلة الزيارات التي قام بها وفد الحكومة المؤقتة وبالموازاة لم تغفل أيضًا على المجال العسكري، حيث أصبحت بعض الدول تتعامل معها كهيئة شرعية وتبرم معها صفقات من أجل تموين قادة الثورة التحريرية بالداخل (الجزائر) بالسلاح والذخيرة إلا أن الاستعمار الفرنسي أوجد عدة معيقات لمنع دخول الأسلحة، لكن هذا لم يمنع الحكومة المؤقتة من مواصلة نشاطها خاصةً في زيادة كسب العديد من التأييدات العربية والدولية للقضية الجزائرية، إذ أصبح لها صدى واسع بفضل مشاركتها في العديد من المؤتمرات وكذلك عندما كانت الأمم المتحدة تعقد دوراتها اعتمدت على الثقل الذي تمثله الدول الإفريقية والآسيوية في المحافل الدولية، حيث ساهمت في الانتقال بالقضية الجزائرية من الحيز الفرنسي إلى التدويل. كما كانت تطالب باستمرار بضرورة الحل السلمي التفاوضي من أجل إنهاء حرب الجزائر، وبهذا كان لها دور كبير في تمهيد طريق المفاوضات مع الحكومة الفرنسية، وهذا الأمر يعتبر في حد ذاته انجازًا عظيمًا للقضية الجزائرية.

**بيانات الدراسة:**

| | | | |
|---|---|---|---|
| تاريخ استلام البحث: | ٠٦ | يناير | ٢٠١٥ |
| تاريخ قبـول النشـر: | ١٢ | أبريل | ٢٠١٥ |

**كلمات مفتاحية:**
تاريخ الجزائر الحديث، الثورة التحريرية، جبهة التحرير الوطني، الثورة الجزائرية، الاستعمار الفرنسي

**معرِّف الوثيقة الرقمي:** DOI 10.12816/0045087

**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**
سهام ميلودي. "المواقف العربية والدولية من تأسيس الحكومة المؤقتة الجزائرية خلال الثورة التحريرية ١٩ سبتمبر ١٩٥٨-يناير ١٩٦٠".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد السابع والثلاثون؛ سبتمبر ٢٠١٧. ص٥٣ – ٦١.

### مُقَدِّمَةُ

لقد كان هناك دعم كبير للثورة الجزائرية وتمت مساندتها حتى في المحافل الدولية ونلمس هذا عندما قدم مندوبو أربع وعشرين دولة من الدول الإفريقية والآسيوية طلبا من أجل إدراج القضية الجزائرية في جدول أعمال الدورة العاشرة لهيئة الأمم المتحدة سنة ١٩٥٥ حتى أن جبهة التحرير الوطني فكرت في تشكيل حكومة مؤقتة جزائرية لكسب المزيد من التأييد لها خاصة وأن مقر هذه الأخيرة كان بالخارج بداية في القاهرة ثم تونس وبالتالي ستكون هناك علاقة مع الدول الشقيقة أو بالأحرى العربية وحتى الدول الغربية فحاولنا أن نركز على طبيعة هذه العلاقة، من خلال توضيح مواقف هذه الدول من تأسيس الحكومة المؤقتة حيث تكمن أهمية هذا الموضوع في تشكيل هذه القيادة في ١٩ سبتمبر ١٩٥٨ ثم تواصل نشاطها حتى استقلال الجزائر في ٥ جويلية ١٩٦٢ وبالتالي مرت عدة أحداث وتطورات مست القضية الجزائرية ومن دواعي إجراء هذا البحث أيضا هو التعرف على مدى مساندة ودعم الدول العربية والدولية للحكومة المؤقتة حيث كان هدف هذه الأخيرة هو التعريف بالقضية الجزائرية من أجل مواجهة الاستعمار الفرنسي فكيف كانت مواقف الدول العربية والدولية من هذه القيادة الجديدة ؟ وهل تحقق هدف جبهة التحرير الوطني في كسب المزيد من التأييد للثورة الجزائرية؟

## أولاً: ظروف وأوضاع الثورة التحريرية (١٩٥٦– ١٩٥٨)

تعددت مؤسسات القيادة خلال الثورة التحريرية فلما اندلعت في الفاتح من نوفمبر ١٩٥٤، لم تشهد تنظيما شاملا وواسعا إلا بعد انعقاد مؤتمر الصومام في ٢٠ أوت ١٩٥٦، وهذا عن طريق إحداث مؤسسات سياسية وعسكرية لدعم النشاط الثوري، فتم تشكيل المجلس الوطني للثورة الجزائرية (**CNRA**) ولجنة التنسيق والتنفيذ (**CCE**) التي تتولى تطبيق القرارات المنبثقة عن هذا المجلس.

لكن قبيل تشكيل الحكومة المؤقتة عرفت الثورة التحريرية عدة أحداث وتطورات أثرت على مسارها، فعلى المستوى الداخلي: نتيجة عقد مؤتمر الصومام في ٢٠ أوت ١٩٥٦ اتخذت السلطات الفرنسية عدة إجراءات كرد فعل على هذا المؤتمر، حيث لجأت إلى اختطاف الطائرة التي كانت تقل الزعماء الأربعة بالإضافة إلى مصطفى الأشرف كصحفي في ٢٢ أكتوبر ١٩٥٦[١] وهي في طريقها من المغرب الأقصى إلى تونس لحضور مؤتمر من أجل تأسيس اتحاد فدرالي بين تونس والجزائر والمغرب الأقصى لحل المشكل الجزائري [٢]، من خلال مناورة الاختطاف نستطيع أن نفسر غرض فرنسا هو إضعاف الثورة عن طريق القضاء على زعمائها، غير أن هذا لم يمنع الثورة من مواصلة مسارها وخاصة بعد نقلها إلى المدن وكان الهدف من وراء ذلك هو التأكيد للعالم أن الثورة يقوم بها كل الشعب وليس مجموعات منعزلة، كما كانت تدعي فرنسا وقد تمثلت في العمليات الفدائية حيث نفذت بمدينة الجزائر، واختيرت هذه الأخيرة لأنها تمثل القلب النابض للسياسة الاستعمارية [٣]، وتدخل هذه العمليات في إطار " معركة الجزائر"، إذ كان يشرف عليها العربي بن مهيدي[٤]، وتعود بدايتها إلى سنة ١٩٥٦ فكانت هناك أربع عمليات في جانفي ١٩٥٦ و٥٠ في جوان و٩٥ في أكتوبر و١٢٢ عملية في ديسمبر ١٩٥٦[٥]، فبدأ القلق ينتاب السلطات الاستعمارية، ونلمس هذا من خلال تحويل السلطة الأمنية إلى الجنرال Massu[٦]، بتاريخ ٧ جانفي ١٩٥٧، حيث أسندت إليه كامل الصلاحيات للحفاظ على الأمن[٧]، وقد تزامن مع معركة الجزائر إضراب الثمانية أيام الذي كان من ٢٨ جانفي إلى ٤ فيفري ١٩٥٧.

وتعود فكرة هذا الإضراب إلى العربي بن مهيدي[٨]، والغاية منه هي إبراز دور الجماهير الشعبية داخل المدينة ومدى تعلقه بقيادة الثورة، فتم توجيه نداء من طرف جبهة التحرير الوطني إلى الشعب الجزائري، فاستجاب لها النداء مختلف شرائحه[٩]، وقد كانت له نتائج إيجابية وسلبية، فمن الناحية الإيجابية حقق صدى كبير في أوساط الصحافة العالمية إذ حسب وكالة رويتر البريطانية: "ما يقارب ٨٠% من الحوانيت في المدن الرئيسية بالجزائر مغلقة وحوالي ٨٠% من الموظفين الجزائريين لم يلتحقوا بمناصب عملهم "، وكما كان هناك تضامن من طرف الدول العربية فمثلا القاهرة أذاعت محطة صوت العرب بلاغا موجها من جبهة التحرير الوطني بالقاهرة إلى الشعب الجزائري يمجد موقفه البطولي في تنفيذ نداء الإضراب أما في الرباط فقد أعلنت المنظمات القومية في المغرب الأقصى إضرابًا عامًا لمدة ساعة [١١].

ومن هنا ندرك مدى نجاح الإضراب وأكدت جبهة التحرير الوطني أنها الممثل الشرعي للشعب الجزائري.

أما بخصوص النتائج السلبية؛ نتيجة لسياسة العنف التي انتهجها ماسو(**Massu**)، تم تفكيك شبكة العمليات الفدائية وإلقاء القبض على العربي بن مهيدي في ٢٣ فيفري ١٩٥٧، الذي تعرض للتعذيب لمدة ١٠ أيام وفي مارس ١٩٥٧ صرحت السلطات الفرنسية أنه انتحر[١٢]، ومما زاد الطينة بلة هو اكتشاف مقر لجنة التنسيق والتنفيذ وخروجها من العاصمة وبهذا أصبحت الثورة تسير من الخارج[١٣]، وهذا يعد مخالفا لقرارات مؤتمر الصومام التي أكدت أولوية الداخل على الخارج، وإضافة إلى ما سبق كان هناك انعزال ولايات الداخل عن الخارج بسبب إنجاز خط موريس في ١٥ سبتمبر ١٩٥٧ الذي عرقل عملية تمرير السلاح إلى الداخل غير أن كريم بلقاسم [١٤]، استعان بخبراء عسكريين من المشرق العربي لقطع الأسلاك المكهربة وتمرير السلاح إلى الداخل[١٥]، لكن السلطات الفرنسية اكتشفت الأمر وكرد فعل منها قامت بشن هجوم جوي على ساقية سيدي يوسف بتونس في ٨ فيفري ١٩٥٨ بحجة استهداف فرق جيش التحرير الوطني داخل الأرض التونسية[١٦]، ويمكن أن نفسر هذا بأنها أرادت أن توتر العلاقات بين الجزائر وتونس وخاصة بعد أن استقر أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ بها.

أما على مستوى الخارجي فبعد اكتشاف مقر لجنة التنسيق والتنفيذ والفرار إلى الخارج كان لا بد من اجتماع للمجلس الوطني للثورة في ٢٠ أوت ١٩٥٧ بالقاهرة وأصدرت عدة قرارات ومنها: إلغاء أولوية السياسي على العسكري وكذلك الداخل على الخارج[١٧]، وتم توسيع لجنة التنسيق من خمسة إلى تسعة أعضاء والمجلس الوطني للثورة من ٣٤ إلى ٥٤ عضوًا ومن أهم قراراته إنشاء حكومة مؤقتة للجمهورية الجزائرية[١٨]، كما كان لاستقلال تونس والمغرب أثر بارز في نشاط الثورة التحريرية حيث لقيت دعما كبيرا في المجال العسكري والدبلوماسي. ففي المغرب انعقد مؤتمر طنجة من ٢٧ إلى ٣٠ أبريل ١٩٥٨ وجاءت المبادرة من حزب الاستقلال المغربي والحزب الدستوري التونسي[١٩].

من الملاحظ أن هذا المؤتمر جاء بعد شهرين من الهجوم الفرنسي على قرية سيدي يوسف بتونس كتأكيد للسلطات الاستعمارية بوحدة المغرب العربي، وقد قبلت جبهة التحرير الوطني المشاركة في المؤتمر لعدة أهداف منها:

- تمتين تضامن الشعب التونسي والمغربي مع الثورة الجزائرية[٢٠].
- اعتبار الوحدة المغاربية مشروطة باستقلال الجزائر ومساعدة هذه الأخيرة في كفاحها ضد المستعمر.

- التوصية بضرورة تكوين حكومة مؤقتة جزائرية[٢١].

في ظل هذه الظروف التي عرفتها الثورة سواء على المستوى الداخلي أو الخارجي، كان من الضروري إذن تكوين حكومة مؤقتة كتنفيذ لقرار المجلس الوطني للثورة ومؤتمر طنجة وأيضا من أجل إبلاغ القضية الجزائرية وحقيقة ما يحدث في الجزائر للرأي العام العالمي.

## ثانيًا: الإعلان عن الحكومة المؤقتة

تعتبر فكرة تكوين حكومة مؤقتة حدثا بارزا وهاما بالنسبة للثورة الجزائرية، فبعد أن فوّض المجلس الوطني للثورة الجزائرية لجنة التنسيق والتنفيذ لإنشائها، قررت عقد اجتماعها يوم ٩ سبتمبر ١٩٥٨ من أجل دراسة هذه القضية حيث تم وضع خطة لتشكيلها وتحديد وظائف الوزراء[٢٢]، فقد كانت تتكون من طبقتين: الطبقة الأولى هي صاحبة القرار وتضم الثلاثي كريم بلقاسم، لخضر بن طوبال [٢٣]، وعبد الحفيظ بوصوف [٢٤]، وباقي الأعضاء مسؤولون أمامها، وكانت برئاسة فرحات عباس[٢٥].

واختيار هذا الأخير كرئيس للحكومة: بحكم أنه كان زعيما لحزب البيان للاتحاد الديمقراطي (UDMA) سابقا وكذلك لأنه يملك القدرة السياسية للتفاوض مع فرنسا(٢٦)، وقد أرجع سعد دحلب في كتابه المهمة المنجزة أن سبب هدا الاختيار يعود إلى ظهور معطيات تطلبت بروز رجل سياسي يؤمن بالحل التفاوضي[٢٧].

لكن سبب الاختيار برأينا يرجع، في المقام الأول إلى تعامله مع الفرنسيين إذ كان حزبه اندماجيا وبهذا تكون له علاقات مع سياسيين فرنسيين ومهارة دبلوماسية أثناء الحديث معهم، حتى سياسة كانت قائمة على التفاوض من أجل الحصول على الاستقلال، فمن المعلوم أنه سابقا دخلت جبهة التحرير الوطني في لقاءات واتصالات سرية مع الحكومة الفرنسية وكلها كانت فاشلة لأن فرنسا لم تعترف بجبهة التحرير الوطني كممثل شرعي للشعب الجزائري، وشيء آخر كانت فقط تريد جس نبض قادة الثورة وإطالة الحزب بالجزائر، لهذا تطلّب الأمر تشكيل حكومة مؤقتة لتكون هناك مفاوضات فعلية ورسمية مع فرنسا.

وفي يوم ٤ ربيع الأول ١٣٧٨ الموافق ل ١٩ سبتمبر ١٩٥٨ على الساعة الواحدة بعد الظهر[٢٨]، في القاهرة وبحضور رجال الصحافة ومختلف ممثلي وكالات الصحف الأجنبية تولى فرحات عباس باعتباره رئيس الحكومة تلاوة بيان التأليف[٢٩]، وقد صدر في وقت واحد بالقاهرة وتونس والرباط ونم فيه إعلان إنشاء الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية[٣٠]. الشيء الملفت للنظر؛ أن الاهتمام بهذا الحدث يبدو واضحًا من خلال حضور الصحافة من مختلف الدول وإعلانها ميلاد الحكومة المؤقتة حيث أصبحت هذه الأخيرة مسؤولة عن قيادة الثورة، لكن بطبيعة الحال تتلقى مختلف القرارات من طرف المجلس الوطني للثورة، حيث كان هذا الإعلان تنفيذا لقراراته أثناء اجتماعه بالقاهرة في ٢٠ أوت ١٩٥٧، وبالتالي المهمة الأساسية لها هي تحقيق الاستقلال.

## ثالثًا: الاعترافات العربية والدولية لها

كان صدى إعلان تشكيل أول حكومة مؤقتة جزائرية في الخارج كبيرا جدا وهذا من خلال توالي الاعترافات بها خاصة بعد انتهاء فرحات عباس من تلاوة البيان يعني في اليوم نفسه نجد أن العراق هي أول دولة اعترفت بها، ثم تليها الجمهورية العربية المتحدة، وجاء بعد ذلك سفير ليبيا معترفا رسميا بالحكومة المؤقتة وسفير دولة الباكستان، وفي مساء ذلك اليوم جاء اعتراف دولة اليمن[٣١].

والملاحظ أن أشكال الاعتراف[٣٢]، اختلفت من دولة لأخرى، فمثلا المغرب كانت تتواجد بها بعثة أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ مهمتها التوصل إلى الاعتراف الرسمي لمحمد الخامس بالحكومة الجزائرية فأعطى الملك دعمه للحكومة[٣٣]، أما تونس فقد بعثت برسالة من كتابة الدولة للشؤون الخارجية التونسية إلى وزارة خارجية حكومة الجمهورية الجزائرية تقر فيها بالاعتراف رسميا [٣٤]، بهذه الحكومة بعد أن أذاعت بلاغا في ١٩ سبتمبر ١٩٥٨ يؤكد ذلك[٣٥]. وقد أعطت هذه الاعترافات دفعا قويا للقضية الجزائرية إذ عملت على مساندتها ماديا ومعنويا، حيث أن الحكومة المؤقتة واصلت جهودها من أجل الاعتراف بها.

هذا بالنسبة لأهم الدول العربية أما الدول الغير العربية فقد جاء اعتراف الصين بعد ثلاثة أيام من الإعلان عنها حيث قال الرئيس هوشي تونغ:" إن تشكيل الحكومة الجزائرية المؤقتة يعد تعبيرا عن إرادة الشعب الجزائري الذي لا يقبل المساومة مع الاستعمار"[٣٦]. كما جاء اعتراف كوريا الشمالية في ٢٠ سبتمبر ١٩٥٨ والفيتنام في ٢٦ سبتمبر ١٩٥٨ وإندونيسيا في ٢٧ سبتمبر ١٩٥٨ [٣٧].

من خلال عرض هذه الاعترافات يتضح لنا، أنه كانت هناك مساندة دولية، أما من جهة فرنسا فنجد أنه بعد الإعلان عن تشكيل حكومة مؤقتة اهتدى الجنرال ديغول الذي تولى رئاسة الجمهورية الفرنسية الخامسة في ١ جوان ١٩٥٨ على تطبيق سياسة الإدماج وتحقيق المساواة[٣٨] ومن أجل تحقيق هذا الأمر اتخذ إجراءات عسكرية وسياسية واقتصادية بداية بإجراء استفتاء ٢٨ سبتمبر ١٩٥٨ وهذا من أجل التصويت على دستور فرنسا الجديد وقد لعب الجيش دور وكالة الإشهار إذ كان مكلف بحملة نعم خلال الاستفتاء من خلال معلقات ثلاثية الألوان في المدن، الجدران، المزارع، المشاتي ممثلة العلم الفرنسي وتراكم صور الجنرال ديغول في جميع الشوارع فحواها نعم للدستور الجديد، نعم لديغول، حيث بلغت نسبة التصويت ٩٦% وهذا ما جعله يغير ويوهم الرأي العام العالمي أن الجزائر بين رافضين للحكومة المؤقتة كممثل شرعي [٣٩] لهم غير أن هذه النسبة مبالغ فيها فديغول كان يريد أن يهز مكانة الحكومة المؤقتة ورغم اعتراف معظم دول العالم بها لم يتوقف ديغول عن مشاريعه

الاستعمارية فمن أجل الدفاع عن فكرة الجزائر فرنسية قام بإعلان يوم ٣ أكتوبر ١٩٥٨ من خلال خطاب ألقاه بمدينة قسنطينة بالجزائر عن مشروع قسنطينة الذي كان يهدف من خلاله غرس فكرة الإدماج عن طريق إفساح العمل للجزائريين وكان يتضمن ما يلي: إنشاء مساكن لمليون نسمة، منح ٢٥٠ ألف هكتار من الأراضي للجزائريين أحداث ٤٠٠ ألف وظيفة جديدة[٤٠]، وهنا نلمس أن ديغول كان يحاول إغراء الشعب الجزائري بالعمل وبالتالي يعزله عن الثورة وتكوين طبقة مرتبطة بفرنسا أو ما يسمى بالقوة الثالثة".

لكن هذا المشروع لقي معارضة شديدة من طرف المعمرين والجزائريين على حد سواء، فالمعمرون لا يسمحون أبدا أن يصبحوا في درجة المساواة مع الجزائريين لشعورهم بأنهم هم السادة، وطبعا حتى الجزائريين رفضوا المشروع[٤١]، لكن ديغول لم يستسلم فجاء بمشروع سلم الشجعان حيث وجه نداء إلى جيش التحرير الوطني بكل فئاته وقد جاء بتاريخ ٢٣ أكتوبر ١٩٥٨ ومما جاء في النداء " على الذين بدأوا القتال أن يوقفوه وعليهم أن يعودوا إلى منازلهم وذويهم وعلى قادتهم أن يتصلوا بقادتنا العسكريين بواسطة العلم الأبيض، أما أعضاء الوفد الخارجي للثورة فما عليهم إلا أن يتوجهوا إلى سفارة فرنسا في تونس أو الرباط كي تضمن نقلهم إلى فرنسا لكي يبحثوا شروط الاستلام في النطاق الفرنسي وأما المستقبل السياسي للجزائر فلا مجال للتعرض له لأن[٤٢]، ينصح لنا أن ديغول كان يطلب من قادة الثورة الاستسلام والشيء الملاحظ أيضا على هذا النداء أن الهدف المراد الوصول إليه هو إحداث شقاق وخلاف بين قادة الثورة عن طريق عزل الداخل عن الخارج غير أن هذا المشروع فشل، فقد رفض من طرف الحكومة المؤقتة الجزائرية وأعلنت عن يقينها بأن السلام لا يمكن أن يتحقق إلا عن طريق التفاوض وجددت ترخيصها بدعوة الحكومة الفرنسية للتفاوض بصورة جدية ولبلد محايد[٤٣] . ورغم فشل مشاريع ديغول التعسفية إلا أنها واصلت نشاطها.

## رابعًا: بداية نشاطها والدعم الإفريقي الآسيوي لها

بعد أن استطاعت الحكومة المؤقتة الحصول على التأييد من عدة دول بدأت نشاطها السياسي وبالأحرى الديبلوماسي من خلال سفر الوفد الوزاري إلى الصين والذي دام من ٠٣ إلى ١٣ ديسمبر ١٩٥٨ وأيضا من ١٦ إلى ٢٠ ديسمبر ١٩٥٨ وأثناء المحادثات التي جرت مع ماوتسي تونغ رئيس الجمهورية الشعبية للصين وشوان لاي رئيس مجلس الوزراء تم تأييد الشعب الجزائري في كفاحه من أجل الاستقلال[٤٤]، وبالتالي نجد أن هذه الزيارة أثارت حماس الشعب الجزائري وأيضا الوفد الوزاري في مواصلة مهامه، خاصة أنه في الأسابيع نفسها التي تمت فيها الزيارة رافقتها عدة أحداث بداية من عرض القضية الجزائرية في الأمم المتحدة[٤٥] خلال دورتها الثالثة عشر، فقد أراد الوفد الجزائري أن يحقق عدة أهداف كانت الحكومة المؤقتة قد سطرتها ومن بينها: العمل على الاعتراف بحق الشعب الجزائري في الاستقلال ووجوب التفاوض بين الطرفين[٤٦]، فقد كان هناك دعم للقضية الجزائرية لأول مرة في الدورة العاشرة للأمم المتحدة سنة ١٩٥٥ إذ قدم مندوبو أربع وعشرين دولة من الدول الإفريقية والآسيوية بهيئة الأمم المتحدة رسالة إلى الأمين العام يوم ٢٩ جويلية طلبوا منه فيها إدراج قضية الجزائر في جدول أعمال الدورة العاشرة للجمعية العامة يوم ٢٩ جويلية ثم تجدد الطلب في الدورة الحادية عشرة سنة ١٩٥٦ والثانية عشر سنة ١٩٥٧ وفي الدورة الثالثة عشر ١٩٥٨ تقدمت كتلة الدول الإفريقية الآسيوية بمذكرة توضيحية ومرفقة بطلب الكتلة ومما جاء فيها أن الحرب ظلت مستمرة في الجزائر بدون هوادة متسببة في زيادة الخسائر المادية والأرواح ألبشرية وليس هناك أية بادرة لوجود حل يتفق مع مبادئ وأهداف ميثاق الأمم المتحدة [٤٧]، وكانت أهم نتيجة لهذه الدورة هي تصويت الجمعية بأغلبية الثلثين فمن بين ٨٢ دولة لم نجد إل ١٨ دولة ساندت فرنسا[٤٨]، ورغم بقاء القضية الجزائرية كما هي دون حل، ولكن حصل تطور كبير في اتجاه كثير من الوفود وأصبحت تتفهم المشكلة وتعطف عليها.[٤٩]

نلمس هنا أن الحكومة المؤقتة استطاعت أن تتحصل على دعم الدول الإفريقية والآسيوية في المحافل الدولية ويظهر جليا من خلال الطلبات التي قدمتها للأمم المتحدة من أجل مناقشة القضية الجزائرية. كما تلا مباشرة هذه الدورة مؤتمر أكرا الذي انعقد في ٨ ديسمبر ١٩٥٨ إذ ضم الأقطار الإفريقية حيث نوه هذا المؤتمر تمسك الشعب الجزائري بتقرير مصيره وأن تجرى مفاوضات مع الحكومة المؤقتة[٥٠].

لكن لا يعني أن الحكومة المؤقتة أولت جل اهتماماتها للنشاط السياسي بل كان هناك أيضا اهتمام بالميدان العسكري فتشكيلها كان له أثر ايجابي على صعيد التسليح والتموين، فأصبحت بعض الدول الشقيقة تتعامل معها كهيئة شرعية وتبرم معها صفقات مثل مصر والعراق وسوريا والأردن، كما التحقت بقائمة الدول المتبرعة بالسلاح[٥١] دول كبرى مثل الصين والاتحاد السوفياتي، حيث كان يتم تهريبها عبر الطريق البري لليبيا وتونس ونظرا لتزايد كميات الأسلحة وكبر حجمها، كانت بحاجة إلى سيارات ثقيلة وبالفعل تم شراؤها من مصر أوائل عام ١٩٥٨ وهي عبارة عن لوريات مرسيدس بالمقطورة حمولة كل واحدة ٢٠٢٠ طن وتم شحنها بعد أن كلف المسؤول عن التسليح والنقل بتوفير اثنى عشر سائقا من الشباب الجزائري ووصلت في ٢٤ أكتوبر ١٩٥٨، لتساهم بقدر كبير في عملية إمداد الجزائر بالسلاح[٥٢]، كما تم تسليم كمية من الأسلحة يوم ١٣ نوفمبر ١٩٥٨ واتخذت طريقها إلى تونس وهي عبارة عن متفجرات وألغام، مثلا نجد ١٦ لغما مضادا للدبابات ٥،١٣٥٠ لغما مضادا للدبابات ٧،٢٠٠٠ فتيل متفجر، ١٠٠٠ متر فتيل متفجر[٥٣].

بالفعل الحكومة المؤقتة قامت بتوفير الأسلحة غير أنها لم تصل إلى الداخل، نتيجة إنجاز خط شال الذي يميد بالتوازي على بعد ٧٠ كلم مع خط موريس في الجهتين الشرقية والغربية من البلاد وبقوة كهربائية ٣٠ ألف فولط حيث رأى موريس شال ضرورة تشديد الخناق وتدعيم المراقبة على الحدود الجزائرية الشرقية والغربية عن طريق غلقها بالأسلاك الشائكة المكهربة فالهدف الرئيسي من إنشاء خطي موريس وشال هو منع دخول الأسلحة والذخيرة بالتالي أصبحت فكرة تموين الداخل مهمة صعبة جدا رغم هذا العائق الذي أوجدته الحكومة الفرنسية أمام الحكومة المؤقتة لم يمنعها من مواصلة نشاطها خاصة فيما يتعلق بكسب العديد من التأييدات العربية والدولية للقضية الجزائرية فقد قام وفد الحكومة المؤقتة بالعديد من الزيارات مثل زيارة ١٣ فيفري ١٩٥٩ إلى ليبيا متكونة من فرحات عباس رئيس الحكومة وأحمد التوفيق المدني وزير المعارض وابراهيم مزهودي مدير مكتب رئيس الحكومة المؤقتة بليبيا وعبد الحفيظ بوصوف وزير المواصلات حيث تم استقبالهم بحفاوة كبيرة. وحرصت ليبيا على مساندة الجزائر [٥٤]، وفي ٦ فيفري ١٩٥٩ توجه وفد الحكومة المؤقتة من مدينة القاهرة إلى المملكة السعودية حيث حصلت على تأييده للقضية الجزائرية، كما زار الرئيس فرحات عباس وبن يوسف بن خدة وزير الشؤون الاجتماعية الهند والباكيستان التي عبرت عن دعمها للقضية الجزائرية [٥٥]، حتى أنه لما انعقد مؤتمر الدار البيضاء في إطار الدورات التي كانت تعقدها جامعة الدول العربية وقد حضر الوفد الجزائري كوفد ملاحظ في سبتمبر ١٩٥٩ حيث صودقت فيها على دعم المادي والمعنوي للقضية الجزائرية[٥٦].

ونتيجة لهذه التطورات الدولية، إذ لم تعد القضية الجزائرية قضية فرنسية بل خرجت إلى الصعيد الدولي، لأول مرة اعترف الجنرال ديغول بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره بنفسه لكنه أحلا ذلك بقيود وشروط كادت تجعله مستحيلا[٥٧]، من خلال خطاب ألقاه في ١٦ سبتمبر ١٩٥٩ ويتضمن ثلاثة حلول للقضية الجزائرية وهي "الإدماج الانفصالي" الاتحاد الفيدرالي: فالإدماج يعني المساواة في الحقوق والواجبات بين جميع سكان الجزائريين والمسلمين، أما الاتحاد الفدرالي وهي أن يحكم الجزائريون من طرف جزائريين بمساعدة فرنسا في إطار اتحاد وثيق معها وقد صرح ديغول بخصوص هذه النقطة أنه يجب على الجزائريين أن يبتعدوا عن هذه الفكرة فقد تؤدي إلى فوضى وتتيح الفرصة للتنكيل والتعذيب والذبح والشنق[٥٨].

إن هذه المبادرة من طرف ديغول أحدثت حالة استنفار في صفوف الحكومة المؤقتة فقامت باستشارات داخلية وخارجية فعلى الصعيد الداخلي فوضعية الحكومة المؤقتة لم تسمح لها باتخاذ القرارات الحاسمة في القضايا الجوهرية، مما أدى إلى اتخاذ قرار إشراك القادة العسكريين - قادة الولايات - في ثلاث اجتماعات أيام ٢٠، ٢١، ٢٧ سبتمبر ١٩٥٩ وهذا لإعطاء المصداقية للقرارات التي ستتخذ[٥٩].

أما على الصعيد الخارجي: أجرت اتصالات مع الدول الصديقة والشقيقة خاصة مع دولتي الجوار والتي لهما علاقة مباشرة بالصراع الجزائري الفرنسي تونس والمغرب الأقصى، ففي اتصال لرئيس الحكومة المؤقتة بالرئيس التونسي لحبيب بورقيبة نصح هذا الأخير قادة الثورة بإتباع السياسة المعروفة بالمراحل أوخذ وطالب، وذلك بقبول حق تقرير المصير ثم وضع الشروط التي تراها الحكومة ضرورية كما أكد جمال عبد الناصر عن دعمه للثورة في حال رفضها لمبادرة ديغول.

كما أجريت اتصالات مع دول عربية أخرى مثل: ليبيا، المملكة العربية السعودية ولبنان وبدول صديقة مثل: الصين الشعبية عن طريق سفيرها في تونس والذي أكد على ضرورة وضع شروط سياسية مثل الاعتراف بالحكومة المؤقتة وشروط عسكرية مثل جلاء القوات الفرنسية[٦٠]. وبعد استشارات داخلية وخارجية ونقاشات دامت حوالي أسبوعين، صاغت الحكومة المؤقتة بيانها ردا على إعلان ديغول وأذيع بتونس يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٥٩ وقد تضمن هذا البيان نقاط عديدة يمكن إيجازها كالآتي:

- إن ربط حرية اختيار الشعب الجزائري باستشارة الشعب الفرنسي يتعارض مع مبدأ حق تقرير المصير ويتعارض أيضا مع الديمقراطية.
- الاستقلال الذي ينتج عن حرية استشارة الشعب الجزائري، لن يكون مصدر فوضى ومعانات، بل أن الاستقلال شرط لتحقيق الرقي الحقيقي الذي سيضمن حرية الأفراد وأمنهم، ويسهل توحيد المغرب العربي.
- إن الحكومة المؤقتة المعترف بها من قبل العديد من الدول هي الوصي الضامن لمصالح الشعب الجزائري إلى أن يحقق حريته، إنها تقود مقاومة الشعب الجزائري والكفاح التحرري لجيش التحرير، ولن يتسبب الأمن بدون موافقتها[٦١].
- استعدادها للدخول في مفاوضات مع الحكومة الفرنسية من أجل مناقشة الشروط السياسية والعسكرية لوقف إطلاق النار[٦٢].
- إن هذا البيان خلص الثورة الجزائرية من الحرج الذي كان سيلحق بها دوليا خاصة في هيئة الأمم المتحدة في حال رفضها لمبادرة فرنسا خاصة وأنها كانت تحضر لمناقشة القضية الجزائرية في دورتها الرابعة عشر فقد ظهرت متمسكة بالحل السلمي ومطالبة بالمفاوضات.
- انطلاقًا من هذا العرض نجد أن الحكومة المؤقتة اعتمدت على عدة ركائز من أجل إيصال القضية الجزائرية إلى العالم.
- بداية سعت إلى إبطال وتكذيب الادعاءات والإشاعات الفرنسية بخصوص طبيعة الثورة الجزائرية، سواء من حيث انتمائها (شيوعية، عالمية أو قومية، متعصبة) أو طبيعة قادتها (معتدلون، متطرفون، سياسيون أو عسكريون).

- لمسنا أنه حصلت على أكبر قدر من دعم دول العالم من أجل الاستفادة من تضامنهم مع القضية العادلة للشعب الجزائري.
- اعتمدت على دعم الدول العربية خاصة الجمهورية العربية المتحدة، العراق، تونس والمغرب لكسب مواقع جديدة على الساحة الدولية، سواء على مستوى الكتل والمنظمات في إطار جامعة الدول العربية أو الكتلة الإفريقية والآسيوية ويظهر جليا من خلال مساندة هذه الأخيرة للثورة الجزائرية في الدورات التي عقدتها الأمم المتحدة فقد اعتمدت الحكومة المؤقتة على الثقل الذي يمثله دعم الدول الإفريقية والأسيوية في المحافل الدولية، إذ ساهمت في الانتقال بالمشكل الجزائري الحيز الفرنسي إلى مستوى التدويل.
- أيضا نقطة أخرى نشير إليها: إن الحكومة المؤقتة كانت تطالب باستمرار بضرورة الحل السلمي التفاوضي، من أجل إنهاء حرب الجزائر، حتى تبرهن بأنها لا تمارس الحرب من أجل الحرب مثلما كانت تدعيه الحكومة الفرنسية والإعلام الفرنسي.[٦٣]
- عززت تواجدها في الساحة الدولية وذلك بتكثيف حضورها في المؤتمرات والندوات الدولية، مثل مؤتمر أكرا والدار البيضاء، إنشاء مكاتب خارجية عبر مختلف دول العالم، كل هذا بهدف كسب الدعم المادي والمعنوي لفائدة القضية الجزائرية.[٦٤]

## خَاتِمَةٌ

يتبين لنا أنه كان هناك دعم كبير للحكومة المؤقتة الجزائرية من طرف الدول العربية والدولية منذ الإعلان عن تشكيلها، ويظهر جليا من خلال الاعترافات التي تحصلت عليها بمجرد الإعلان عنها في ١٩ سبتمبر ١٩٥٨، أما من جهة فرنسا فلم تعترف أبدا بها بل حاولت التضييق عليها، ورغم ذلك تحصلت على المزيد من التأييدات بفضل سلسلة الزيارات التي قام بها كل من فرحات عباس رئيس الحكومة وأعضائه عبر مختلف الدول، ونتيجة للحنكة الدبلوماسية التي تميزت بها استطاعت أن توصل القضية الجزائرية إلى العالم عبر المحافل الدولية وأصبح لها صدى واسع بفضل مشاركتها في العديد من المؤتمرات كمؤتمر أكرا والدار البيضاء، وكذا اعتمدت على ثقل الكتلة الآفروآسيوية ونقصد هنا المجموعة الإفريقية والآسيوية في المحافل الدولية فهذه الأخيرة قدمت طلبات للأمم المتحدة من أجل مناقشة القضية الجزائرية وبهذا لم تعد مشكلة الجزائر قضية فرنسية بل خرجت عن نطاقها وتصدرت القضايا العالمية .

إن دعم الدول العربية وكتلة الآفروآسيوية أكسب الحكومة المؤقتة مواقع جديدة على الساحة الدولية، لكن لا ننف أنه كان لها دور كبير في تمهيد طريق المفاوضات الجزائرية الفرنسية، إضافة إلى ذلك تحقق هدف جبهة التحرير الوطني في كسب المزيد من التأييد للثورة الجزائرية بفضل هذه القيادة التي أوجدتها.

## الملاحق

الملحق رقم (١)

أعضاء الحكومة المؤقتة الأولى ١٩ سبتمبر ١٩٥٨

| الأعضاء | المهام |
|---|---|
| عباس فرحات | رئيس الحكومة |
| كريم بلقاسم | نائب الرئيس ووزير القوات المسلحة |
| بن بلة أحمد | نائب الرئيس |
| أيت أحمد حسين | وزير الدولة |
| بيطاط رابح | وزير الدولة |
| بوضياف محمد | وزير الدولة |
| خيضر محمد | وزير الدولة |
| دباغين محمد لمين | وزير الشؤون الخارجية |
| شريف محمود | وزير التسليح والتموين |
| بن طوبال لخضر | وزير الداخلية |
| بوصوف عبد الحفيظ | وزير الاتصالات والاستخبارات |
| مهري عبد الحميد | وزير شؤون شمال إفريقيا |
| فرانسيس أحمد | وزير الشؤون الاقتصادية والمالية |
| أمحمد يزيد | وزير الإعلام |
| بن خدة بن يوسف | وزير الشؤون الاجتماعية |
| المدني توفيق | وزير الشؤون الثقافية |
| الأمين خان | كاتب الدولة |
| أوصديق عمر | كاتب الدولة |
| سطنبولي مصطفى | كاتب الدولة |

Mohammed Harbi, Les archives de la révolution Algérienne,op.cit. , p. 544

الملحق رقم (٢)

**البيان الذي تلاه فرحات عباس للإعلان عن تشكيل الحكومة المؤقتة**

باسم الشعب الجزائري المجاهد ، اعلنت جبهة التحرير الوطني - بعد اربع سنوات من النضال اليومي الدائم - حكومة ثورية تتوج هذا النضال ·

في اول نوفمبر ١٩٥٤ في منتصف الليل انطلقت نخبة قليلة من ابناء الشعب الجزائري لتخط مصيره الجديد · وشنت هجومها الاول على مراكز الاستعمار الفرنسي في مختلف انحاء القطر، وهي لا تملك من وسائل الهجوم او النضال الا حماس الشعب وايمانها الصامد ·

وفي يوم ١٩ سبتمبر في منتصف النهار اعلنت هذه الثورة اول حكومة رسمية لها في مختلف الولايات الجزائرية التي شنت فيها تلك الثورة منذ اربع سنوات وفي الرباط وتونس والقاهرة ، والعواصم العربية ·

وفيما بين هذين التاريخين العظيمين تكون شعب ، ونهضت امة ، وتاسست دولة في الكفاح والآلام وفي العمل والامل ·

وفيما بين هذين التاريخين العظيمين اصبحت تلك النخبة القليلة جيشا من اعظم جيوش العالم العربي التي يعتز بها ، تساعده في الداخل منظمات سياسية وادارية مبثة في كل انحاء القطر المجاهد الذي اصبح حرا · وتساعده من الخارج كل الانسانية الصاعدة والعروبة المتوثبة · وتحتضنه من اليمين والشمال مغرب مستقل يسير نحو الوحدة المخلصة ·

وهكذا كانت الثورة هي التي كونت حكومتها ولم تتشكل الحكومة لتقوم بالثورة ·

لقد جاءت الحكومة الجزائرية الحرة سقفا وضع على جدران سميكة من النضال ، ولم تكن سقفا معلقا في الهواء او وضع على فراغ ·

لقد كان في امكاننا ان نشكل هذه الحكومة منذ اللحظة الاولى للثورة او حتى قبلها · ولكن ماذا كانت تكون قيمتها ؟·

ان الثورة التي دامت اربع سنوات هي التي اعطت حكومتنا الحرة ، منذ الساعات الاولى لاعلانها صداه الجبار في العالم ·

· ان الثورة لم تكن تمهيدا للحكومة، وانما كانت بناءها الشامخ واساسها العميق ·

وهكذا ينظر العالم اليوم الى الثورة والى الحكومة معا نظرة الجد والاحترام · ذلك ان الثورة لم تقم لتطلب الاستقلال للشعب الجزائري وتنتظر فرنسا ان « تمنحها » اياه ، وانما قامت « لتاخذ » الاستقلال ، وتعلنه ، بعد ان حققته في النضال وبالنضال ·

**حكومة الثورة**

واعلان الحكومة الجزائرية المستقلة نفسه ليس الا خاتمة لمرحلة من هذا النضال ، وبداية لمرحلة اخرى منه ·

وان اعتراف اخواننا من اقطار العروبة واقطار اسيا وافريقيا بالحكومة الجزائرية المستقلة سيكون تجنيدا لثلثي الانسانية من الخارج ينضم الى قوة شعبنا المناضل في الداخل لمواصلة المعركة · المعركة التي لم تنته بعد ، وستبقى الدول « الكبرى » تجامل فرنسا وتنتظر نهاية الجولة · ولكنها لن توقف تيار الزحف· ان مكانتنا في العالم يجب ان نحتلها ، لاننا اهل لها · وان العدو سيقف في هذه المرحلة الجديدة من النضال ، في وجه عاصفة من الضغط العالمي يحاول مغالبتها ، ولكنها ستكون وقفة البلاهة والعجز

وبعد : في هذا اليوم التاريخي الذي يدخل فيه الشعب الجزائري بثورته العظمى عتبة تاريخ جديد ، ويصل فيه حاضره النضالي بماضيه الحر، كما يربطه بمستقبله المتفتح - يشعر كل واحد من ابنائه الاحياء بالاجلال لكل واحد من ابنائه الشهداء : اولئك الذين لا تنساهم الجزائر · اولئك الذين ضحوا في سبيل هذا اليوم وفي سبيل ايام اخرى ستاتي بعده اكثر عظمة واصح اشراقا · واولئك الذين يضحون كل يوم في الكوخ وفي الجبل ، وفي القرية البعيدة، وفي المدينة الصاخبة، ولا يعرفهم احد ·

ان كل شهيد - رجلا او امراة او طفلا ، وكل مناضل - جنديا او فدائيا او مسؤولا - قد شارك في تحقيق هذا اليوم وما بعده ، بقطعة من لحمه ، او دفقة من دمه او شطر من حياته ·

وان كل رجل في الحكومة الجزائرية يعرف انها الثمن على التضحيات وتظللها ارواح الشهداء · انها حكومة غالية الثمن ، عزيزة القيمة ·

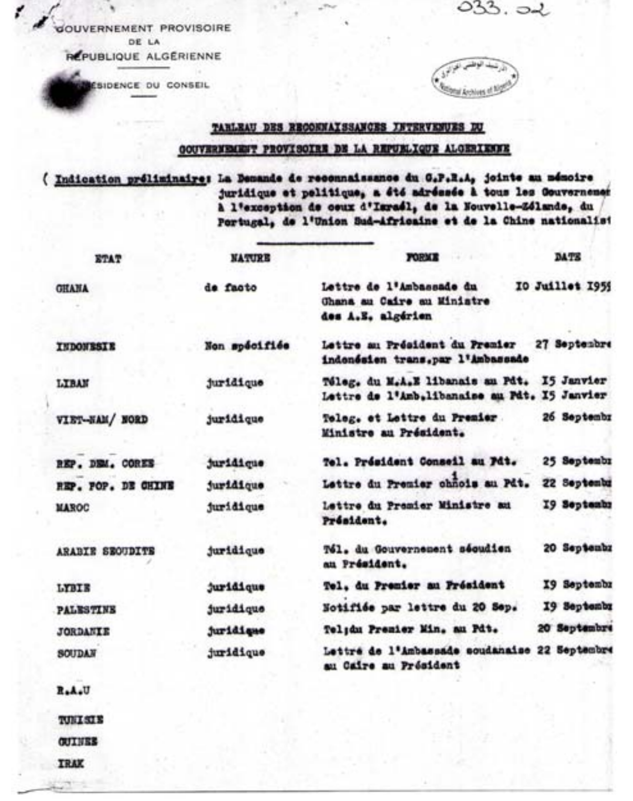
ان كل واحد منهم سيعكف في الحكومة - كما كان في لجنة التنسيق والتنفيذ او في اية مسؤولية اخرى - على تحقيق الامل الاقصى الذي يحمله الشعب لثورته ، وهو التحرير الكامل · التحرير من احتلال فرنسا النهائي · ومن تاخر قرون الانحطاط ورواسبها ·

ان الجزائر قد مشت على قدميها ولم تعد تخشى ان تعثر · ولكن رشدها نفسه مسؤولية ستعرف كيف تحملها · والله ولي التوفيق ·

المجاهد، ع ٣٧، ١٩ سبتمبر ١٩٥٨، ص ٠٤.

الملحق رقم (٣)

**قائمة الاعترافات التي وصلت الحكومة المؤقتة**



033.02

GOUVERNEMENT PROVISOIRE
DE LA
RÉPUBLIQUE ALGÉRIENNE

PRÉSIDENCE DU CONSEIL

TABLEAU DES RECONNAISSANCES INTERVENUES DU
GOUVERNEMENT PROVISOIRE DE LA REPUBLIQUE ALGERIENNE

( Indication préliminaire: La Demande de reconnaissance du G.P.R.A, jointe au mémoire juridique et politique, a été adréssée à tous les Gouvernemen[ts] à l'exception de ceux d'Israël, de la Nouvelle-Zélande, du Portugal, de l'Union Sud-Africaine et de la Chine nationalis[te]

| ETAT | NATURE | FORME | DATE |
|---|---|---|---|
| GHANA | de facto | Lettre de l'Ambassade du Ghana au Caire au Ministre des A.E. algérien | I0 Juillet I95[9] |
| INDONESIE | Non spécifiée | Lettre au Président du Premier indonésien trans.par l'Ambassade | 27 Septembre |
| LIBAN | juridique | Télég. du M.A.E libanais au Pdt.<br>Lettre de l'Amb.libanaise au Pdt. | I5 Janvier<br>I5 Janvier |
| VIET-NAM/ NORD | juridique | Teleg. et Lettre du Premier Ministre au Président. | 26 Septemb[re] |
| REP. DEM. COREE | juridique | Tel. Président Conseil au Pdt. | 25 Septemb[re] |
| REP. POP. DE CHINE | juridique | Lettre du Premier chinois au Pdt. | 22 Septemb[re] |
| MAROC | juridique | Lettre du Premier Ministre au Président. | I9 Septemb[re] |
| ARABIE SEOUDITE | juridique | Tél. du Gouvernement séoudien au Président. | 20 Septemb[re] |
| LYBIE | juridique | Tel. du Premier au Président | I9 Septemb[re] |
| PALESTINE | juridique | Notifiée par lettre du 20 Sep. | I9 Septemb[re] |
| JORDANIE | juridique | Tel;du Premier Min. au Pdt. | 20 Septembre |
| SOUDAN | juridique | Lettre de l'Ambassade soudanaise au Caire au Président | 22 Septembre |
| R.A.U | | | |
| TUNISIE | | | |
| GUINEE | | | |
| IRAK | | | |

C.A.N.A ,Boite : 033, tableau des reconnaissances du GPRA .

الملحق رقم (٤)

**الرسالة التي بعثتها دولة تونس إلى وزارة خارجية الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية**

الجمهورية التونسية

كتابة الدولة للشؤون الخارجية

14659

٢٢ سبتمبر ١٩٥٨

تهدي كتابة الدولة للشؤون الخارجية اطيب تحياتها الى وزارة خارجية حكومة الجمهورية الجزائرية الموقتة - وبالاشارة الى بلاغ جبهة التحرير الوطني الجزائري المذاع بتاريخ ١٩ سبتمبر ١٩٥٨ والمتعلق بالاعلام بقيام حكومة جزائرية في بلاد المهجر تتشرف بان تحيطها علما ان حكومة الجمهورية التونسية قد قررت الاعتراف رسميا بحكومة الجمهورية الجزائرية واذاعت في ١٩ سبتمبر الجاري بلاغا يفيد ذلك

هذا ويسر كتابة الدولة للشؤون الخارجية أن تغتنم هذه الفرصة السعيدة فتقدم صادق تهانيها وخالص تمنياتها لحكومة الجمهورية الجزائرية سائلة الله تعالى ان يجعل النصر والتوفيق حليف اعمالها وان يمد الشعب الجزائري الشقيق بعون منه لتحقيق رغائبه الوطنية المقدسة .

وتنتهز كتابة الدولة للشؤون الخارجية هذه الفرصة لتعبر لوزارة الخارجية الجزائرية

علبة رقم ٦، رسالة من كتابة الدولة للشؤون الخارجية بتونس إلى وزارة خارجية حكومة الجمهورية الجزائرية، ٢٢ سبتمبر ١٩٥٨، ص١، مركز الأرشيف الوطني للجزائر.



عن فائق تقديرها وعظيم احترامها.

حرر بتونس في ٧ ربيع الاول سنة ١٣٧٨ الموافق ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٥٨

الى =

وزارة خارجية حكومة الجمهورية الجزائرية

علبة رقم ٦، المصدر السابق، ص٢.

الملحق رقم (٥)

**النص الكامل لبيان ٢٨ سبتمبر ١٩٥٩**

المجاهد، ع ٥٢، ٠٥ أكتوبر ١٩٥٩، ص . ٠٦.

## الهَوامِشُ:

(١) الزعماء الأربعة هم: أحمد بن بلة، محمد بوضياف، محمد خيضر، حسين آيت أحمد وهم أعضاء الوفد الخارجي لجبهة التحرير الوطني انظر:
Benyoucef Bendehedda ,la fin de la guerre d'Algérie les Accords d'Evian ;2 eme éd .D.P.U, Alger ,1998,p.15 .

(٢) أورغندي محمد لحسن، **مؤتمر الصومام وتطور ثورة التحرير الوطني الجزائرية ١٩٥٦-١٩٦٢**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٨٩، ص.١٤٤

(3) Gilbert Meynier ,histoire intérieure du FLN(1954-1962) éd. casbah ;Alger.2003 pp 322.323.

(٤) العربي بن مهيدي: ولد سنة ١٩٢٣ بدوار الكواهي ولاية أم البواقي – الجزائر، مناضل بحزب الشعب الجزائري، أول مسؤول ولائي للغرب الوهراني لجبهة التحرير الوطني يعني الولاية الخامسة لأن الجزائر غداة الاستعمار الفرنسي كانت مقسمة إلى ست ولايات انظر:
Achour cheurfi ,la classe politique Algérienne de 1900 à nos jours dictionnaire bibliographique ;éd .casbah .2001,pp 91-92.

(5) Gilbert Meynier ;op ;cit ;p.323.

(٦) الجنرال ماسو: Jacques Massu ولد في ٠٥ ماي ١٩٠٨ شيلان سير مارن Chalons sur Marne هوقائد الفرقة العاشرة للمظليين انظر : القرص المضغوط، **تاريخ الجزائر،١٨٣٠-١٩٦٢**، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، الجزائر،٢٠٠٢.

(7) Messaoud Maadad ;guerre d'Algérie chronologie et commentaires , éd .ENAG ,Algér ; 1992 ,p81.

(٨) "إذ تقررت مدته في البداية بشهر ثم حددت بثمانية أيام نظرا لعدم تحمل الشعب الجزائري مدة شهر لأنها طويلة جدا" انظر قدور كريمة،معركة الجزائر فيفري ١٩٥٧ من ثورة الريف إلى حرب المدن، الراصد، ع ١، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، الجزائر ٢٠٠٢ ص١٠-١١. أيضًا المقاومة، ع٦، ٢٨ جانفي ١٩٥٧، ص١٢.

(9) Archive wilaya Orane, Boite BP 198,Bulletin de la presse d'Algérie la grève du FLN et les syndicats musulmans ,N°690 ,1957 , p63

(١٠) المقاومة الجزائرية، ع١٦،٧ فيفري ١٩٥٧، ص١١.

(١١) نفس المصدر، ص١١.

(12) A.W.O Boite BP198 , Bulletin de la presse d'Algérie , le suicide de ben Mhidi , N° 690,1957, P.59.

(١٣) أحسن بوما لي، **إضراب ٢٨ جانفي ١٩٥٧ الإجماع والتحدي**، الذاكرة، ع٤ المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، ١٩٩٦، ص٩٠.

(١٤) كريم بلقاسم ولد في ١٤ ديسمبر ١٩٢٢ بذراع الميزان بمنطقة القبائل، انخرط في حزب الشعب الجزائر، عين عضو في لجنة التنسيق والتنفيذ، ثم وزير للقوات المسلحة عند تشكيل أول حكومة مؤقتة انظر
Benjamin Stora, Dictionnaire Bibliographique de militants nationalises Algériens, 1926 -1954,éd l'Harmathan ,paris,1985.p.329.

(١٥) فتحي الديب، **عبد الناصر وثورة الجزائر**، ط٢، دار المستقبل العربي للنشر والتوزيع القاهرة، ١٩٩٠، ص ٣٨٨.

(١٦) معمر العايب، **حادثة ساقية سيدي يوسف فيفري ١٩٥٨ وبداية الاهتمام الأمريكي بمنطقة المغرب العربي**، حولية المؤرخ، ع٣-٤ يصدرها اتحاد المؤرخين الجزائريين الجزائر،٢٠٠٥، ص ٤٧٦.

(١٧) مصطفى هشماوي، **جذور نوفمبر ١٩٥٤ في الجزائر**، دار هومة، الجزائر (د.ت)، ص١٣٣، وأيضًا انظر: محمد عباس، القيادة العليا للثورة من التاريخيين التسعة إلى الباءات الثلاثة، الخبر، عدد ٥٠٦٩،١٩ جويلية،٢٠٠٧، ص١٩.

(١٨) أوزغيدي محمد لحسن، المرجع السابق، ص.١٨١.

(19) Mohamed Harbi ,le FLN mirage et réalité , des origines à la prise du pouvoir 1945-1962 ,NAQE,ENAL ,Alger,1993,p.205.

(٢٠) معمر العايب: **مؤتمر طنجة المحطة الأخيرة لتصفية الاستعمار الفرنسي من المغرب العربي**، الراصد، ع٢ المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤-٢٠٠٢،، ص٤١.

(٢١) عامر رخيلة، "**الثورة الجزائرية والمغرب العربي**"، المصادر، ع١، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، ١٩٩٩، ص ١٦٢.

(٢٢) جمال بلفردي، **هيكلة وتنظيم جيش التحرير الوطني الجزائري على الحدود الشرقية والغربية ١٩٥٨-١٩٦٢**، مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر، ٢٠٠٤ -٢٠٠٥، ص٧٤. بالنسبة لتشكيلة الحكومة المؤقتة، انظر الملحق رقم -١-.

(٢٣) بن طوبال ولد في ١٩٢٣ بميلة، كان ضمن حزب الشعب الجزائري، عضو في المجلس الوطني للثورة، انظر:

Benjamin Stora ,op .cit.p.324

(٢٤) عبد الحفيظ بوصوف، ولد في ١٩٢٦ بميلة، كان ضمن لجنة ٢٢ للتحضير للثورة، عضو بالمجلس الوطني للثورة ١٩٥٦

Achour Cheurfi ,op,cit ,p 123.

(٢٥) فرحات عباس: ولد سنة ١٨٨٩ بالطاهير ولاية جيجل وهومن عائلة مشهورة من الناحية العسكرية كان رئيس حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري انضم إلى جبهة التحرير الوطني سنة ١٩٥٥ انظر،

Benjamin Stora,op,cit,pp377-338

(26) Yves courrière , la guerre d'Algérie ,les Fils de la toussaint, tome I, éd ;Fayard ,France ;1970 ;p49.

(27) Saad Dahlab ,Mission accomplie ,éd Dahleb ;Alger ;1990 ;p96.

(٢٨) المجاهد،ع٣٧،طبعة خاصة، الجمعة ١٩ سبتمبر ١٩٥٨،ص١وأيضًا l'Echo d'Alger ,N°16-887,samedi 20 septembre 1958.pp.1-3 .

(٢٩) أحمد توفيق المدني، حياة كفاح مع ركب الثورة التحريرية، الجزء الثالث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،١٩٨٢، ص٤٠٠، فحوى هذا القرار بالملحق رقم(٢).

(٣٠) عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البداية لغاية ١٩٦٢ دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٧، ص ٤٧٥.

(٣١) أحمد توفيق المدني، المصدر السابق، ص٤٠٠ وأيضًا.

Farhat Abbas ,Autopsie d'une guerre(l'aurore) éd ;Alger-livres 2001.p238.

(٣٢) انظر الملحق رقم(٣)

(33) l'Echo d'Oran ,N° 31-271,vendredi 19 septembre 1958,p.02.

(٣٤) لمعرفة محتوى الرسالة انظر الملحق رقم (٤).

(٣٥) عمار بوحوش المرجع السابق، ص ٤٧٥.

(٣٦) إسماعيل دبش، **السياسة العربية والمواقف الدولية اتجاه الثورة الجزائرية ١٩٥٤-١٩٦٢**، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر، ٢٠٠٥، ص١٤٦.

(٣٧) للاطلاع على قائمة الدول التي اعترفت بالحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية حسب الترتيب الزمني. انظر الملحق رقم (٣)

(٣٨) أوزغيدي محمد لحسن، المرجع السابق، ص١٨٧-١٨٨.

(39) Yves Courrière, la guerre d'Algérie T3, l'heure des colonels ,éd ,la société générale, paris ;٢000,p1256-1257.

(٤٠) جريدة المجاهد، ع٢٥،٩٤/٠٤/١٩٦١، ص ٨.

(٤١) أوزغيدي محمد لحسن، المرجع، ص١٩٥.

(٤٢) القرص المضغوط، المرجع السابق.

(٤٣) عمر بوضربة، النشاط الدبلوماسي للحكومة المؤقتة الجزائرية سبتمبر ١٩٥٨ – جانفي١٩٦٠، دار الحكمة للنشر الجزائر، ٢٠١٠، ص ٨٨-٩١.

(٤٤) المجاهد، ع٣٥، ١٥-٠١-١٩٥٩، ص٣.

(٤٥) فوزية بوسباك، **الثورة الجزائرية في المحافل الدولية**، الذاكرة، ع٣، المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر،١٩٩٥، ص ١٦٧.

(٤٦) المجاهد، ع٣٤،٢٤-١٢-١٩٥٨، ص ٥.

(٤٧) يحي بوعزيز، **ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين**، ثورات القرن العشرين طبعة خاصة، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر،٢٠٠٩، ص ٢٩٣-٢٩٤.

(٤٨) المجاهد، ع٣٤،٢٤-١٢-١٩٥٨، ص٤.

(٤٩) يحي بوعزيز المرجع السابق، ص٢٩٥.

(٥٠) المجاهد، ع ٣٤، ٢٠ ديسمبر ١٩٥٨، ص ٥.

(٥١) جمال يحياوي، **تطور جيش التحرير الوطني ١٩٥٦-١٩٦٢**، أطروحة دكتوراه، قسم تاريخ، جامعة وهران،٢٠٠٦-٢٠٠٧، ص١١٤.

(٥٢) فتحي الديب، المصدر السابق، ص٣٩٧.

(٥٣) المصدر نفسه، ص٣٠٢-٣٠٣.

(٥٤) المجاهد، ع ٣٧، ٢٥ فيفري ١٩٥٩، ص٣.

(٥٥) المجاهد، ع ٣٩، ٢ أفريل ١٩٥٩، ص ٨.

(٥٦) المجاهد، ع ٤٣، ١ جوان ١٩٥٩، ص١٢.

(٥٧) أوزغيدي محمد لحسن، المرجع السابق، ص٢١٧.

(٥٨) عمر بوضربة، المرجع السابق، ص٩٣-٩٤.

(٥٩) نفس المرجع، ص ٩٦.

(٦٠) نفس المرجع، ص ٩٩.

(٦١) لمزيد من المعلومات حول محتوى البيان انظر الملحق (٥)

(62) Benyoucef ben khedda , op.cit,18.

(٦٣) عمر بوضربة، المرجع السابق، ص ١٣٣-١٣٦.

(٦٤) المرجع نفسه، ص١٣٦ ومحمد عباس، **نصر بلا ثمن – الثورة الجزائرية (١٩٥٤-١٩٦٢)**، دار القصبة للنشر الجزائر و٢٠٠٧، ص ٥٥٦-٥٥٨.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

دراسات

# الأدوار الجديدة لمؤسسات المعرفة وأشكالها في مغرب الحماية

**د. أنس الصنهاجي**
دكتوراه في التاريخ المعاصر
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
فاس – المملكة المغربية

## مُلَخّص

لا يختلف اثنان عن مدى التغير الاجتماعي الذي حصل بمغرب الحماية، محدثًا فيه رجات عميقة كتجلي من تجليات الصدمة الاستعمارية، وكنتيجة مباشرة للعقل الكولونيالي على الأرض الذي يدرك بشكل واضح، من خلال السياسة الأهلية التي ارتكزت في تموجاتها على استعمال أساليب وآليات، شكلت مداخل لاختراق المجتمع، عبر استنبات العديد من المؤسسات والآليات للتحكم في الشبكة الاجتماعية ومراقبة العناصر الفاعلة فيها، مما مكنها من مراقبة عملية تحول المجتمع من كل أبعاده. وتعتبر السياسة التعليمية من بين أبرز هذه الأسس التي اعتمدتها الإدارة الفرنسية في المغرب، لتجاوز حالة الاصطدام التي يمكن أن يشوش على المشروع الكولونيالي، بل نجحت في إنتاج أجيال مغربية متأثرة بالنموذج الفرنسي ومشروعه الحضاري في العمل والتخطيط والإنتاج.

**بيانات الدراسة:**
تاريخ استلام البحث: ٠٢ يناير ٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر: ١٤ أبريل ٢٠١٥

**كلمات مفتاحية:**
مؤسسات المعرفة، مغرب الحماية، الاستعمار الفرنسي، المدارس القروية، المعهد العلمي الشريفي

**معرِّف الوثيقة الرقمي:** DOI 10.12816/0045088

**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**
أنس الصنهاجي. "الأدوار الجديدة لمؤسسات المعرفة وأشكالها في مغرب الحماية".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد السابع والثلاثون؛ سبتمبر ٢٠١٧. ص٦٢ – ٧٢.

## مُقَدِّمَةٌ

شهدت مؤسسات المعرفة بمغرب الحماية تحولات عميقة، خاصة على مستوى البرامج والهياكل والتنظيمات، حيث غدا لها فضاءات مرتبة بحجرات خاصة للتدريس، ومكاتب إدارية تسهر على تطبيق السياسة التعليمية والسير العام للمؤسسة، وبرامج دراسية محددة، وأوقات حضور وانصراف منتظمة، وأطر تربوية وإدارية تتقاضى أجرا شهريا، وقوانين منظمة للقطاع...، غير أن المغرب ظل يعاني من ضعف المؤسسات التعليمية العصرية بالمدن وغيابها في القرى، وتصور استراتيجي إجرائي، قادر على استلهام أسباب التقدم، حيث بقي هذا الحقل قابعا في غياهب التخلف والميز الإثني والطبقي، بسبب انشغال إدارة التعليم، بتأهيل شريحة مغربية واسعة من المتعلمين تأهيلا مهنيا بسيطا، يوظف في تأمين حاجيات الكولونيالي من اليد العاملة، ونخبة منبهرة بالمدنية الفرنسية ومنجزاتها تكون ظلاً وامتدادًا لفرنسا في المغرب، تدافع عن مصالحها الاقتصادية وتبرجز صورتها في الأوساط الثقافية والاجتماعية، أي فئة بارّة بالنموذج الفرنسي، متفانية في سحبه على كل مناحي الحياة، وبما أن المغرب هو منطقة فلاحية منفتحة على واجهتين بحريتين متوسطية وأطلسية، فقد اهتمت هذه الإدارة بفتح أوراش مهنية تعنى بتعليم أساليب الفلاحة التسويقية بالقرى، وأساليب الملاحة والصيد البحري بالمدن في كل المدارس القائمة به، وهذا ما يؤكد مدى براغماتية السياسة التعليمية، التي بغيت توجيه هذا الإنتاج التعليمي لخدمة المصالح الكولونيالية. فما هي إذن طبيعة مؤسسات المعرفة بمغرب ما قبل الحماية الفرنسية؟ وما التحولات البنيوية العميقة التي طالت هذه المؤسسات إبان فترة الحماية الفرنسية؟

## أولاً: وضعية التعليم في مغرب ما قبل الحماية

اصطبغت طبيعة البنية التعليمية في مغرب ما قبل الحماية ببنية تقليدية، تؤطرها بيداغوجيا الحفظ وتلقين العلوم الشرعية وعلوم اللغة العربية، وقد كان تعليم المستوى الأول يبدأ من سلك الكتاب المعروف بالوسطين الحضري والقروي المغربي "بالمسيد"، حيث كانت المادة المدرّسة تشمل حفظ القرآن عن ظهر قلب.[١] ولم يقتصر "المسيد" على دوره التعليمي، بل كان وعاء للتنشئة الاجتماعية الوفية لرموز المجتمع ومقدساته الدينية، أما هيئة التدريس في هذه المرحلة فتألفت من الفقهاء أو الطلبة الراسخين في حفظ القرآن، الذين كانوا يتقاضون مقابل خدماتهم أجرًا نقديًا أو عينيًا.[٢]

وكان اليوم الدراسي يبدأ في الصباح الباكر بعد صلاة الفجر، حتى ساعة متأخرة بعد الزوال، تتخللها استراحة لتناول الغذاء في المنازل، وعند انتقال المتعلم إلى سلك التعليم الثانوي بعد حفظه للقرآن، يجلس لاستكمال دراسته في العلوم الدينية واللغوية، بصحبة الحساب والجغرافية اللذين كانا يدرسان بشكل سطحي،[٣] وكان المنهاج الدراسي في هذا السلك يرتكز على حفظ بعض المتون والنصوص المنظومة، مثل منظومة ألفية بن مالك والأجرومية في النحو ومختصر خليل في الفقه، وفي هذا السياق انتقدت المديرية العامة للتعليم العمومي بالمغرب في نشرتها الصادرة سنة ١٩٥٤، هذا الأسلوب التعليمي في هذه الفترة، مفيدة أن تعليم ما قبل الحماية كان في مرحلته الابتدائية يعتمد على حفظ القرآن عن ظهر قلب، أما في المرحلتين الثانوية والجامعية فكانت المناهج وفية لصيغ تعليمية استظهارية، متقوقعة حول مركزية العلوم الشرعية وعلوم اللغة بطريقة دوغمائية.[٤]

وقد اشتهرت هذه المدارس في بعض الحواضر (فاس، مراكش، مكناس، وجدة...) والقرى (سوس، جبالة...)، حيث ضمت منطقة سوس لوحدها ما يقارب مائتي مدرسة ثانوية. وكانت المادة العلمية المدرسة تلقن عن طريق محاضرات بعد صلاة العصر من قبل أحد علماء المدينة، وبعد ثلاث سنوات من الدراسة والتحصيل، يصبح الطالب بعد إجازته من قبل أساتذته، أهلا لمزاولة الصيدلية أو القضاء أو التدريس...، [٥] أما الراغبون في تعميق دراستهم بالسلك العالي، فقد كانوا يتوجهون في الغالب إلى جامعة القرويين التي كانت مناهجها تشتمل على ثلاث عشرة مادة دراسية وهي: الفقه، الفرائض، الأصول، التوحيد، الحديث، التصوف، الأمداح النبوية، النحو، الصرف، البلاغة، العروض، المنطق[٦] والحساب، وكان هذا الأخير يدرس صباح الخميس والجمعة وأيام العطل، أما علم الكمياء والفلك والهندسة فلم يعد لهم أي أثر في مناهجها الدراسية منذ القرن السادس عشر الميلادي، كما شكلت جامعة ابن يوسف بمراكش قبلة للراغبين في إتمام دراستهم في السلك العالي، بجانب بعض مساجد المراكز الحضرية مثل الرباط وسلا وتطوان، وبعد إتمام هذا السلك كان الطالب الناجح يتوج بشهادة العالمية، التي كانت تكسب صاحبها مهابة ورفعة داخل المجتمع، وتؤهله لتقلد مناصب إدارية وحكومية سامية.[٧]

مجمل القول، إن قطاع التعليم قبل عهد الحماية كان قطاعا غير مهيكل، يفتقر إلى ميزانية رسمية ورواتب قارة ومناهج استراتيجية ذات أهداف محددة، وفي المقابل انتشرت عبر مختلف ربوع المغرب مؤسسات تعليمية ذات طبيعة دينية من قبيل المساجد والزوايا، التي أسهمت بقوة في تأمين مصاريف المتعلمين وأجور المدرسين، عبر الأوقاف والمساهمات الخيرية الجماعية منها والفردية...، وهكذا ظل تعليم مغرب قبل الحماية تدبره عقليات تراثية جامدة، بمناهج عتيقة متقادمة تغيب عنها العلوم الحقة كمواد أساسية، الأمر الذي أدى إلى إنتاج تعليم عقيم، كانت مرآته تعكس عمق الأزمة التي تتخبط فيها القطاعات الاقتصادية والسياسية والفكرية...، وبالتالي ظل تعليم مغرب قبل الحماية تعليما عتيقا تحكمه آليات متخلفة، جعلته عالقًا في مشجب الأصالة الراكدة، وقد زاد من انتكاسة الوضع وتفاقمه، غياب إرادة سياسية جادة في استيراد برامج تنظيمية وعلمية من شأنها نقل المغرب من غياهب العتاقة والتخلف إلى رحاب الحداثة والتطور، الأمر الذي جره عنوة إلى الحتمية التاريخية.

## ثانيًا: أوجه السياسة التعليمية السائدة في مغرب الحماية

مرت السياسة التعليمية الكولونيالية بمغرب الحماية بمرحلتين أساسيتين، المرحلة الأولى وهي مرحلة التجارب التي امتدت من ١٩١٢ إلى ١٩٢٠، حيث غاب فيها تعليم رسمي بالقرى والقبائل الجبلية، فمنذ الشهور الأولى لنظام الحماية، انشغل المقيم العام "اليوطي" بتطوير التعليم الأهالي، فكلف في شتنبر ١٩١٢ بعثة خاصة لدراسة الاحتياجات الدراسية والمدرسية، وبعد أربعة أشهر أمنت مصلحة التعليم مستلزمات الساكنة الأوروبية في هذا المضمار، كما تم إحداث مدارس فرنسية- عربية تضم قسما لحفظ القرآن ودراسة اللغة العربية، وقسما لدراسة الفرنسية، وكانت المؤسسات التعليمية خلال هذه الفترة في ملكية المخزن أو مكتراة أو مهداة من طرف الأهالي، وابتداء من سنة ١٩١٦ تم تمييز مدارس أبناء الأعيان المؤدى عنها عن المدارس الإسلامية والمدارس المهنية العمومية.[٨] وكانت الإنجازات التي حققت خلال هذه الفترة هي:

- إنشاء المدرسة العليا للغة العربية واللهجات الأمازيغية من أجل تكوين موظفين مترجمين.
- إرساء المشروع الإجرائي للتعليم الأهلي.
- تأسيس ثانويتين إسلاميتين هما "كوليج" مولاي إدريس بفاس و"كوليج" مولاي يوسف بالرباط.
- تحديد أشكال وشروط الحصول على شهادات ودبلومات التعليم الثانوي الأساسي.

والواقع أن هذه المبادرات رغم أهميتها، فإنها كانت تتم بشكل ينقصه عنصر الاندماج، ضمن تصور واضح ومحدد للمشروع التعليمي المطروح إبان تلك الفترة.[٩]

أما المرحلة الثانية، فكانت مرحلة التنظير والتطبيق على أساس منح الأهالي الوسائل الضرورية لتكييف عيشهم في شروط الوضع الجديد، وذلك من خلال تطوير نشاطهم الاقتصادي وتزويده بصيغ وأدوات تزيد من مردوديته، مع الحرص على بقاء أفكارهم العتيقة، واستمرار عاداتهم الأصيلة، أي إنجاز تطوير دون اقتلاع الجذور أو التسبب في الاغتراب عن الذات، وترك الانطباع لدى الأهالي بأن فرنسا تريد ما فيه خيرهم. وعليه تم فرض منهج تطبيقي صارم يميز بين تعليم موجه للنخبة وآخر شعبي، فالأول أرستقراطي له موروث تعليمي، يمتلك عادات رقيقة ومهذبة، ولكنها توقفت عن النمو بسبب هيمنة الفكر التراثي، بل صارت مهددة في وجودها المادي من جراء المنافسة الاقتصادية الجديدة، الأمر الذي اقتضى تمييز هذه الطبقة بأساليب حديثة في الإدارة والتجارة التي خبروا مبادئها، أما الثاني فموجه لشريحة فقيرة وجاهلة تختلف في أنماطها وأطوارها حسب الوسط الاقتصادي القائم، الأمر الذي اقتضى توجيه تلاميذ المدن نحو المهن اليدوية الجديدة، والصناعات التقليدية اللازمة إنعاشها من قبيل البناء، النجارة، الحدادة...، وتلاميذ السواحل نحو الملاحة والصيد، وتلاميذ القرى نحو الفلاحة والغراسة وتربية الماشية.[١٠]

ولم تقم السلطات الكولونيالية في البداية، بأي تمييز بين المدارس الموجودة في المناطق العربية وتلك الموجودة في المناطق البربرية، لكن ابتداء من سنة ١٩٢٣م، أصبحت للسلطات الاستعمارية سياسية بربرية خاصة في مجال التعليم، بيد أن هذه السياسة كتب لها الإجهاض بعد الظهير البربري الصادر سنة ١٩٣٠،[١١] وفي ضوء ذلك أحدثت السلطات الكولونيالية ثلاثة أصناف تعليمية ذات أبعاد دينية، فالأول كان خاصا بالمسلمين، والثاني خص المسيحيين الأوروبيين، والثالث خاص باليهود. وفيما يخص تعليم المسلمين فقد انتظم في ثلاثة مستويات هي:

**١/٢- التعليم الابتدائي**

وهو نوعان تعليم تقليدي فضاؤه الكتاتيب القرآنية، وتعليم عصري وعاؤه المدارس الفرنسية، وقد قسمت السلطات الكولونيالية هذا الصنف التعليمي إلى ثلاثة أصناف تعليمية تراعي الاختلاف في الطبقات الاجتماعية والفئات الإثنية.[١٢]

**(١/٢) ١- مدارس أبناء الأعيان**

أحدثت هذه المدارس بموجب ظهير شريف صادر في الثامن والعشرين من فبراير سنة ١٩١٦م، وقد تقرر طبقا لما نص عليه الفصل الثاني من الظهير المذكور، فتح مدارس ابتدائية لأبناء الأعيان المسلمين في كل مدينة من المدن الرئيسة بالإيالة الشريفة، وحسب ما نص عليه الظهير نفسه، فإن الغاية من تلك المدارس هي إعداد الشباب المغاربة لولوج المدارس الثانوية المخصصة لهم،[١٣] وقد كان هذا النوع من المدارس حكرا على الطبقات الميسورة أو النجباء من المدارس الأخرى في حالات استثنائية، وقد رامت سلطة الحماية من هذه المدارس إنتاج موظفين يرثون أباءهم في الوظائف العمومية السامية أو يخلفونهم في متاجرهم أو أوراشهم الصناعية، وذلك بغية الحفاظ على نفس التمايزات الاجتماعية السائدة، وقد تشكلت مدرسة أبناء الأعيان من مدرسين فرنسيين وفقيه وأستاذ مغربي مكلف بتدريس اللغة العربية، أما البرنامج الدراسي للمدرسة فتكون من أربع مواد:

- **مادة لتعليم القرآن**: ويلقن طبقا للمناهج التقليدية الموجودة بالكتاتيب القرآنية، من قبل فقيه.
- **مادة لتعليم الأخلاق الدينية الإسلامية**، يدرسها فقيه.
- **مادة لتعليم اللغة العربية**، يدرسها أستاذ مغربي.

أما الثقافة الفرنسية، فكانت موكولة لمدرسين فرنسيين، يدرّسون اللغة الفرنسية والحساب والتاريخ والجغرافية والرسم، هذا بالإضافة إلى تدريب المتعلمين على أعمال يدوية في الصناعة التقليدية، ومبادئ بسيطة في الصناعة الأوروبية، وكانت تستغرق الدراسة بهذه المدرسة أربع سنوات، يسلم بعدها للتلميذ المجتاز للامتحانات بنجاح شهادة الدروس الابتدائية، التي تخول لحاملها التسجيل بإحدى الثانويتين الإسلاميتين المحدثتين بكل من الرباط وفاس.[١٤] وهكذا جاء تأسيس هذا النوع من المدارس، استجابة للموقف الجديد الذي اتخذته البورجوازية الحضرية المغربية، التي أصبحت مصالحها الاقتصادية ترتبط تدريجيًا بالوضع الجديد، وبالتالي أصبح مفروضًا عليها تطوير أساليبها وقواعدها الإنتاجية إن هي أرادت الاحتفاظ بمكانتها التي باتت مهددة، ليس فقط بالأنماط الاقتصادية العصرية التي حملها معه الكولونيالي، ولكن لمنافسة جيرانهم اليهود الذين استفادوا بشكل كبير من معرفتهم باللغة الفرنسية ولغات أجنبية أخرى، إذ نسجوا علاقات وطيدة مع كبريات الدور التجارية في أوروبا، واحتلوا العديد من المناصب الهامة في كبريات المؤسسات الاقتصادية التي تمركزت بالمغرب إبان عهد الحماية وقبلها، لذلك أقبل العديد من المغاربة على تسجيل أبنائهم في مختلف المدارس الفرنسية في بداية عقد العشرينيات، وقد شكلت سنة ١٩٢٧ أهم سنة في تاريخ التعليم الفرنسي- الإسلامي بالمغرب، ذلك بسبب بداية ثقة المغاربة وزوال ترددهم من المدرسة العصرية. وقد هيمنت اللغة الفرنسية على معظم الحصص الدراسية، ولم تراع برامج ١٩٣٠ أي اهتمام بتاريخ المغرب وجغرافيته، واقتصر تدريسهما فقط على الأقسام المتوسطة في هذا التعليم.[١٥] وهكذا كان أربعة أو خمسة مدرسين فرنسيين يدرّسون كل مواد البرنامج التعليمي باللغة الفرنسية، ماعدا العلوم العربية والدينية التي كانت تدرّس على يد مغاربة باللغة العربية، وعلاوة على ذلك، تقرر إحداث دروس وأوراش خاصة بالأعمال اليدوية وأقسام لتعلم الصناعة.[١٦] وقد كانت الدراسة بمدرسة أبناء الأعيان تستغرق أربع سنوات، ثم

ينتقل الحامل فيها لشهادة التفوق في الدروس الابتدائية إلى الثانوية الإسلامية بالرباط أو بفاس.

**(١/٢) ٢- المدارس القروية**

لم تكن لهذه المدارس برامج تربوية محددة، ولا تجهيزات مدرسية، ولا معلمون مؤهلون، ولا تنظيم زمني معين، فأبوابها تبقى مفتوحة طوال السنة.[١٧] ففي سنة 1947 – على سبيل المثال - فتحت بمنطقة سيدي بنور مدرستين قرويتين الأولى بخميس الزمامرة، والثانية بأولاد بوزرارة، حيث تشكل الطاقم التربوي لهذه الأخيرة على معلم للغة الفرنسية هو في الأصل كاتب بالمراقبة المدنية، ومعلم للغة العربية يعمل كاتبا بمحكمة القبيلة،[١٨] أما برامجها التعليمية فانصبت على الطرق والأساليب التقنية الكفيلة بتطوير الإنتاج الفلاحي.[١٩] وقد كانت مدة الدراسة التي يستغرقها التلاميذ المتراوحة أعمارهم ما بين ثمانية واثنتي عشرة سنة تنحصر في سنتين، حيث كان التلميذ خلالها يدرس اللغة الفرنسية والعربية ويحفظ القرآن، أما تقنيات وأساليب الفلاحة فكان يدرسها باللغة الفرنسية،[٢٠] أما المتفوقون منهم فكانوا ينتقلون إلى مدارس فلاحية جهوية، التي تعدهم لامتحان نيل شهادة الدروس الابتدائية.[٢١]

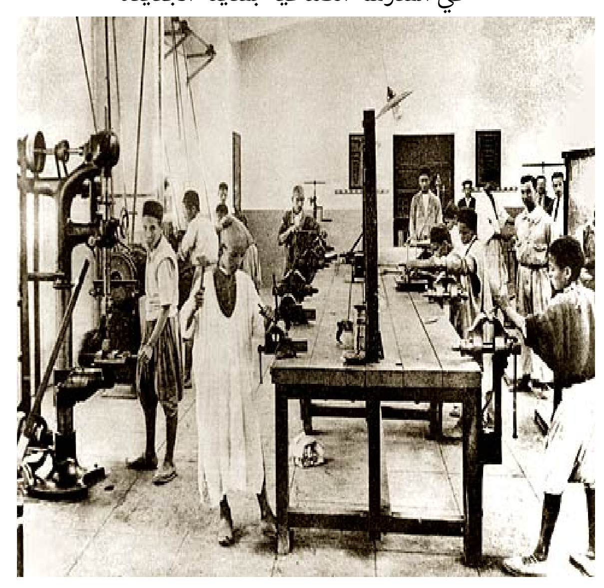
وقد كان الهدف من التعليم الفلاحي هو تحسين الإنتاج الفلاحي، والتعوّد على نمط التجربة، لذلك كانت جل المدارس تتوفر على ضيعات فلاحية يكون كل قسم منها مخصصا لمنبت،[٢٢] أو لضيعة تجريبية وتمريض بيطري.[٢٣] هذا عدا تهذيب التلاميذ وإعدادهم لفهم الإرشادات المقدمة لهم من قبل مفتشي المديرية العامة للفلاحة وتربية المواشي. أما من الناحية السياسة والاجتماعية فكانت الغاية من هذا التعليم، هو إبقاء الأطفال بالبادية والحيلولة بينهم وبين الهجرة نحو المدينة، فبقاؤهم- كانت ترى فيه إدارة الحماية- خزانا لليد العاملة الفلاحية، وأمانا من تفاقم ظاهرة التمدين وطبقة البروليتاريا، وعلى هذا الأساس كان التعليم الفلاحي الكولونيالي يتألف من مؤسسات من الدرجة الأولى وأخرى من الدرجة الثانية، فالمستوى الأول، وجه للتلاميذ الذين لا يتعدى سنهم السادس عشرة، ويتطلب تكوينهم التوفر على تعليم عام، ولذلك كانت مديرية التعليم العمومي هي المكلفة بتنظيمه سواء في مستوياته الأولية بالمدارس الابتدائية المحدثة لهذا الغرض في المناطق القروية، أوفي مستوياته العليا في الشعب الفلاحية المحدثة في الثانويات التقنية، في كل من القنيطرة والدار البيضاء وفاس.

أما التعليم الفلاحي من المستوى الثاني، فوجه لشبان يتمتعون بتعليم جيد، لا تتعدى أعمارهم السادس عشرة، وقد وضع هذا الصنف من التعليم تحت الإشراف والإدارة المباشرة لمديرية الفلاحة، التي أحدثت لهذا الغرض ثلاث مدارس تطبيقية ذات تخصصات مختلفة وهي: مدرسة "كزافيي بيرنار" ( Xavier Bernard)، ومدرسة البستنة بمكناس، والمدرسة الفلاحية بمنطقة السويهلة، التي تبعد بعشرين كيلومترا عن مدينة مراكش.[٢٤] وفيما يلي جدول يبين المدارس الفلاحية بدائرة دكالة، والحائزين فيها على الشهادة الابتدائية أواخر عهد الحماية. وهكذا نستنتج أن المدارس الفلاحية حددت أدوارها في، تأمين يد عاملة مؤهلة في المجال، تسهم بقوة في استغلال أكثر مردودية، وتحويل نمط الإنتاج من إنتاج معيشي إلى إنتاج تسويقي.

**(١/٢) ٣- المدارس الصناعية**

يهدف هذا الصنف من المدارس إلى تأمين يد عاملة بسواعد ماهرة ومصقولة، وقد تكون تعليمه من شقين أساسيين: شق نظري وآخر تطبيقي،[٢٥] أما الشق النظري فكان تدريسه ينصب على الحساب واللغة الفرنسية والرسم. وقد اشترط في المتمدرس أن يكون عمره أقل من اثنتي عشرة سنة، ولديه بعض المبادئ الأولية في اللغة الفرنسية، وبعد أن يحصل التلميذ على الشهادة الابتدائية، يمكنه الالتحاق بالمدرسة التجارية والصناعية بالدار البيضاء[٢٦] لمتابعة دراسته الثانوية، وقد احتضنت مدينة الجديدة مدرسة مهنية للأطفال المسلمين المنحدرين من طبقات شعبية، ومدرسة للبنات مختصة في تعليم الأشغال المنزلية.[٢٧]

صورة ورش الميكانيكة
في المدرسة الصناعية بمدينة الجديدة[٢٨]



صورة: ورش النجارة في المدرسة الصناعية بالجديدة[٢٩]



صورة: المدرسة الصناعية في الأشغال المنزلية في مدينة الجديدة خلال عهد الحماية[٣٠]



وقد احتضنت هذه المدرسة سنويا أربعين تلميذا، أعمارهم تراوحت ما بين عشر وسبع عشرة سنة، فبعضهم انكب على تعلم النجارة، والبعض الآخر اختار تعلم الميكانيك،[٣١] بتأطير من معلم فرنسي وآخر مغربي، أما معدات الاشتغال فكانت أدوات عتيقة ومتهالكة. هذا الوضع أدى إلى تراجع الإقبال على المدرسة المهنية، والدليل هو تخرج تلميذين لا غير في الصناعة الميكانيكية، وثلاثة في صناعة الخشب سنة ١٩٣٤.[٣٢] كما أسهم التصور الذي كان لدى المغاربة عن المدرسة المهنية ووظيفتها، في ضعف التمدرس بها، حيث كانت أهداف الأهالي تختلف تماما عن الأهداف التي كانت مديرية التعليم العمومي ترمي تحقيقه، من خلال هذا النمط من التعلم، فالمغاربة اعتبروا المدرسة أداة للترقي الاجتماعي، لذلك لم يستسيغوا أن يتلقى أبناؤهم تعليما يؤدي بهم في النهاية لأن يصبحوا عمالا، فالحرفي المغربي لا يرسل ابنه إلى المدرسة إلا ليعفيه من مشقة المهنة التي يزاولها.[٣٣]

وهكذا؛ تم تأسيس مدارس مهنية على قاعدة نظرية وتقنية جديدة، غايتها استقطاب أبناء الشرائح الشعبية لتعليم الحرف بأسلوب حديث، لكن بفلسفة تكوين متعلم أهلي صالح لكل شيء وغير صالح لأي شيء، مع المحافظة على بنيات الوضع القائم، في إطار إعادة إنتاجها وفق منظور تحسيني،[٣٤] غير أن درجة التكيف الضعيف للأطفال في المدارس المهنية وسوء التدبير السياسي لهذا الحقل، وقلة انسجامه مع الحركية الاقتصادية الكولونيالية بمغرب الحماية، كانت تسقطه في مشاكل المسايرة والقدرة على التطور.[٣٥] ومجمل القول؛ إن ترسيخ وجود المدرسة الكولونيالية في الوسط الأهلي، كان يقتضي تمكين التعليم من عناصر النمو التي تستوجبها الوضعية الاقتصادية والسياسية للبلاد، وفي الوقت نفسه فتح جبهات جديدة للغزو الفكري في المدن والوسط القروي،[٣٦] فالاستراتيجية التعليمية الكولونيالية ارتكزت أهدافها على خلق طبقات اجتماعية متوسطة حاملة وحامية لقيم الحداثة، وطبقة عاملة ترمز وتجسد الحضور الكولونيالي وتناهض فئة المثقفين والبورجوازية التقليدية.[٣٧]

**(١/٢) ٤- المدارس الفرنسية- البربرية**

وهي مدارس خاصة بالمناطق البربرية، يتعلم فيها التلميذ تعليما فرنسيا محضا، خال من مواد اللغة العربية والدين الإسلامي.[٣٨]

**(١/٢) ٥- المدارس الفرنسية- الإسرائيلية**

فتحت التعليم الإسرائيلي أبوابه في المغرب منذ ١٨٧٢ بمدينة تطوان، حيث كان اليهود يدرسون موادها باللغة الفرنسية، أما اللغة العبرية فقد استعملت في دراسة العلوم الدينية لمدة خمس ساعات في الأسبوع، وقد أصبحت هذه المدارس تابعة لمصلحة التعليم الابتدائي الأوروبي إبان عهد الحماية.[٣٩]حيث استخدمت السياسة الكولونيالية في هذه المرحلة، التعليم الإسرائيلي من أجل إعادة الترتيب الاجتماعي لليهود داخل البنية الوطنية، وقد أوجدت السلطة الكولونيالية تعليما إسرائيليا، كانت تشرف عليه وتموله الرابطة اليهودية العالمية منذ أواسط القرن ١٩، وازداد ارتباط اليهود بالمخطط الثقافي والسياسي الكولونيالي، عبر المعاهدة المبرمة سنة ١٩١٥، بين مديرية التعليم العمومي والرابطة اليهودية، حيث حافظت هذه الأخيرة على مكاسبها القديمة، وخاصةً إشرافها الديني على مدارسها، وحصلت سلطة الحماية على مكسب إنشاء المدارس الفرنسية - الإسرائيلية، والإشراف السياسي والتربوي الكامل عليها.

وقد تصاعد عدد المتعلمين اليهود وخاصة في المدارس الحكومية مع توالي سنوات الحماية،[٤٠] وكانت أول مدرسة إسرائيلية للذكور والإناث في مدينة الجديدة سنة ١٩٠٦، حيث فتحت أبوابها تحت إدارة عمران المالح وزوجته سنة ١٩١٢،[٤١] وفي سنة ١٩١٤ سجلت مدرسة الاتحاد اليهودي مائة وثمانية وعشرين تلميذا ومثلها إناثا،[٤٢] وحوالي سنة ١٩١٩ فتحت مدرسة أخرى للذكور تحت إدارة السيد إسرائيل، ومدرسة للإناث تحت إدارة

السيدة بن رسية (Madam Benarceya) والسيدة "ميل السفديي" (Melle Safadié)، أما سنة ١٩٣٣م فتم إنشاء مجموعة مدرسية جديدة، من تصميم مهندسين يهوديين جزائريين هما إلياس وجوزيف السراقي. أما مدينة أزمور فقد تأسست بها مدرسة يهودية سنة ١٩٢١م، لتعوض تلك التي تأسست سنة ١٩٠٨م من طرف الإتحاد الإسرائيلي، وقد تألفت هذه المدرسة من طاقم إداري وتربوي، هم مدير المؤسسة، ومساعدان إداريان،[٤٣] وثلاثة أساتذة أبرزهم:

- السيد "بوشي" (Bouchet) مدير المؤسسة.
- السيد "لوبنو"(Lebino) معلم للفرنسية.
- السيد "كوهن"(Cohen) مدرب مهني.
- السيد "كوهن ريبي" (Cohen Rubi) مدرس للغة العبرية والدين اليهودي.[٤٤]

أما المتمدرسون، فوصل عددهم إلى مائة وإثنين وستين تلميذًا سنة ١٩٢١م، وهذا رقم مرتفع نسبيا إذا ما قورن بعدد الساكنة الموجودة آنذاك بأزمور[٤٥] التي بلغت ٣١٩٠ نسمة.[٤٦]

وقد سجل التعليم الإسرائيلي بمدينة الجديدة خلال الفترة المدروسة، تطورًا ملحوظًا مع توالي سنوات الحماية، حيث بلغ متمدرسوها (٢١٨) تلميذًا سنة ١٩١٢م، ليشهد هذا العدد تراجعا طفيفا بسبب اندلاع الحرب العالمية الأولى إلى ١٥٤ تلميذا بأزمور، و(١٥١) تلميذًا بالجديدة سنة ١٩١٥م،[٤٧] غير أن هذا العدد انتقل إلى ٥٢٩ تلميذا وتلميذة سنة ١٩٣٣م، منها (٢٧٧) متمدرسًا، و(٢٥٢) متمدرسة، أما الهيئة التدريسية فقد بلغ عددها أربعة عشر أستاذا، سبعة منهم يدرسون الذكور، وسبعة يدرسون الإناث، وفي سنة ١٩٥٠م قفزت معدلات المتمدرسين اليهود إلى ألف متمدرس، منهم ستمائة يتلقون دراستهم في مدارس الاتحاد الإسرائيلي، والباقون يدرسون في المدارس الفرنسية، وقد توفرت في كل هذه المدارس أوراش تطبيقية لمختلف الحرف والمهن التقليدية والعصرية، حيث ركزت أوراش مدارس البنات على تعليم الأعمال المنزلية من قبيل الخياطة والتطريز.[٤٨]

**(١/٢) ٦- التعليم الابتدائي الأوروبي**

كان التلميذ الأوروبي يتلقى فيه تعليمًا عامًا، يشمل مبادئ في اللغات الأوروبية وآدابها والعلوم الحقة، هذا إضافة إلى مبادئ تطبيقية في الرسم...، وقد تميزت المرافق الدراسية بهذه المؤسسات بفضاءاتها المرونقة وتجهيزاتها الكهربائية ووسائطها التعليمية الحديثة.[٤٩] وقد أولى المقيم العام "اليوطي" اهتمامًا بالغًا بتعليم أبناء الأوربيين، حيث عمل على استقدام أستاذين من جامعة بوردو لتنظيم أولى امتحانات البكالوريا بالمغرب سنة ١٩١٥، كما حرصت إدارة التعليم من جهتها على توفير أجود الأطر الفرنسية لتلقين صغار الأوربيين دروسًا في التاريخ والجغرافية والتنظيم الإداري.[٥٠]

ولم تكن هذه المدارس الفرنسية حكرًا على التلاميذ الأوربيين، بل كان التلاميذ المسلمون واليهود يدرسون فيها، لكن بصفة استثنائية، حيث كان أبناء الأعيان يستفيدون من هذا الامتياز، رجاء في حصول أبنائهم على شهادة بكالوريا تؤهلهم لمتابعة دراستهم في كليات الطب والهندسة ...، أو الحصول على شواهد تسمح لهم بمزاولة المحاماة...، وقد بلغ عدد المغاربة المتمدرسين بمؤسسات التعليم الفرنسي إلى سبعة وثلاثين متمدرسًا مسلمًا، وثلاثمائة وسبعة وخمسين يهوديًا سنة ١٩١٦م في المستوى الابتدائي، ليرتفع هذا المعدل إلى مائة وأربعة وأربعين مسلمًا، وثمانمائة وسبعة وخمسين يهوديًا سنة ١٩٣١.

**٢/٢- التعليم الثانوي**

**(٢/٢) ١- المدارس الإسلامية الثانوية**

هدفت الحماية من تأسيس هذه الثانويات، خلق تعليم هجين يمتزج فيه النموذجان التقليدي والعصري، بغية إنتاج نخبة مغربية أصيلة متشبعة بالثقافة الفرنسية، ومؤهلة لشغل مناصب مخزنية وازنة، وفي الوقت ذاته تعمل بشكل عفوي على ردم هوة ثقافة الاجتناب، التي ظلت عقبة في مد جسور التأثير في المجتمع المغربي بالشكل المرجو.[٥١] وهذا ما أشار إليه "أندري أدم" حين بين دور التعليم في تكوين طبقة مغربية متوسطة مشحونة بقيم الحداثة في شكلها الغربي،[٥٢] تدافع عن المرأة وتنتقد التقاليد، والنتيجة تأثير هذه الطبقة على مرافق الحياة الاجتماعية على مستوى الملبس والمسكن والتطبيب...حتى في المدن الأكثر محافظة مثل مدينة فاس.[٥٣]

وقد امتد زمن التعليم بهذا السلك مدة ست سنوات مقسمة على دورتين: الأولى مدتها أربع سنوات، والثانية مدتها سنتان، ويستوفي التلميذ في دروس الدور الأول عدة علوم متجانسة مستكملة باللغتين العربية والفرسية، أما دروس الدور الثاني فتنقسم إلى قسمين، قسم يختص في دراسة التدبير التجاري الاقتصادي، وقسم يختص في دراسة الأدب، وللتلميذ الحق في اختيار إحدى الشعبتين، وتمنح في نهاية الدور الأول شهادة الدروس الثانوية، وفي نهاية الدور الثاني إجازة الدروس الثانوية.[٥٤] وقد احتوت برامجه التعليمية على دراسة العلوم الدينية (فقه، أصول، توحيد...) التي من أبرزها مقدمة سيدي عبد القادر الفاسي في السنة الأولى، ورسالة ابن أبي زيد القيرواني في السنة الثانية، وكتاب ابن عاشر في السنة الثالثة، وتحفة ابن عاصم في السنة الرابعة، أما السنتان الخامسة والسادسة فيدرس فيهما التلميذ الإرث، وكل ما يتعلق بالبيع والسلف والهبة وتحرير الرسوم العدلية، أما العلوم اللغوية فقد كان التلميذ مطالبا في السنة الأولى بحفظ ودراسة الأجرومية في النحو، مصحوبة بنصوص نثرية مختارة يتم شرحها وتفسيرها من الناحية اللغوية والنحوية، بينما في السنة الثانية يبدأ التلميذ بحفظ وضبط قواعد الألفية، ودراسة بعض النصوص النثرية والشعرية المختارة، وفي

السنة الثالثة يستكمل التلميذ حفظ ما تبقى من الألفية وقواعد الإعراب، مع بعض النصوص الشعرية والنثرية.

أما السنوات الثلاث المتبقية (الرابعة والخامسة والسادسة)، فتفرد لعلوم البلاغة والفصاحة والعروض، وتاريخ الأدب العربي منذ العصر الجاهلي، وقد أدرج في هذا المنوال دراسة لدواوين العرب والمعلقات السبع، ومؤلفات بعض الكتاب المغاربة والأندلسيين. أما فيما يخص التعليم الفرنسي فقد كانت اللغة الفرنسية هي المادة التي تم التركيز عليها أكثر من غيرها في هذه الشعبة، حيث كان الهدف من تدريسها هو إتقانها والإلمام بثقافتها.[٥٥] ولتعميق معرفتها كانت العلوم الحقة (الحساب، الجبر، الهندسة)، وعلوم التاريخ والجغرافية (الطبيعية، السياسية، الاقتصادية)،[٥٦] والتجارة والتنظيم الإداري المغربي والرسم يدرس باللغة الفرنسية، وإلى جانب ذلك أحدثت مادة الترجمة بهذه الشعبة، التي كانت أنشطتها تركز على الترجمة من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية، والعكس صحيح.[٥٧] وقد أشرف على الفعل التعليمي والتربوي بهذه الشعبة، أطر كان "اليوطي" يقوم بنفسه على اختيار مديريها وأساتذتها ممن تتوسم فيهم الكفاءة العلمية والأخلاقية والسلوكية، وفي الوقت نفسه يساندون نظام الحماية أو محايدون.[٥٨]

**(٢/٢) ٢- المدارس الفرنسية- الإسرائيلية الثانوية**

تأسست بموجب الاتفاقية التي أبرمت بين الرابطة الإسرائيلية الثانوية والإقامة العامة سنة ١٩١٥، حيث تحملت هذه الأخيرة مصاريف بناء مدارس خاصة باليهود في المدن الكبرى، مقابل تكفل الرابطة بصيانتها وتجهيزها بالوسائط الدراسة اللازمة، وقد كان موظفو هذه المدارس يعينون من قبل وزارة المعارف،[٥٩] وفي سنة ١٩٥٢م وصل عدد المتمدرسين في هذا السلك إلى ١٢٥٠ تلميذًا.[٦٠]

**(٢/٢) ٣- المدارس الفرنسية- البربرية الثانوية**

وهي مدارس تركزت في مناطق الأطلس المتوسط مثل أزرو،[٦١] بمناهج دراسية اقتصرت على اللغة الفرنسية وثقافتها، حيث كانت برامجها عارية من أي تعليم ديني أو عربي أو بربري.

**(٢/٢) ٤- المدارس الأوروبية الثانوية**

ولعل أشهرها ثانوية "بويمير" والواقعة بمدينة مكناس، وقد تميزت هذه المدارس بكثرة طواقمها التربوية والإدارية، ورونقة في مرافقها الدراسية، وحداثة في وسائطها وبرامجها التعليمية، التي ضمت موادها دراسة مختلف اللغات الأوروبية وآدابها (الفرنسية- الإنجليزية- الألمانية- الإسبانية- العربية- الرسم- التربية البدنية- التربية اليدوية- التاريخ والجغرافية).[٦٢]

**٣/٢- التعليم العالي والبحث العلمي**

كانت أقسام التهييء للتعليم العالي منتظمة في ثانوية "اليوطي" بالدار البيضاء بالنسبة للرياضيات، وثانوية "كورو"(Gouraud) بالرباط بالنسبة للأدب، وقد تمثلت نواة التعليم العالي في معهد الدراسات العليا بالرباط الذي عوض عام ١٩٢١م بالمدرسة العليا للغات العربية والبربرية، وكان من أهداف المعهد، تشجيع البحوث المتعلقة بمعرفة المغرب، من خلال الاهتمام باللهجات المغربية (العربية، البربرية، البدوية، الحضرية)، واللغة والأدب العربيين، والسوسيولوجيا، والإثنولوجيا، والشريعة الإسلامية، والقانون العرفي البربري، وجغرافية المغرب وتاريخه. كما أنشئ بجانب معهد الدراسات العليا، المعهد العلمي الشريفي، ومصلحة الجغرافية، ومصلحة الجيولوجيا، ومصلحة المناجم المعدنية، ومصلحة فيزياء الكرة الأرضية والأرصاد الجوية.[٦٣]

وفيما يلي جدول وخطاطة يبرزان الشعب التي كان كل من معهد الدراسات العُليا المغربية والمعهد العلمي الشريفي يحتضنهما.[٦٤]

## معهد الدراسات العليا المغربية

جدول رقم (١)

**شعب معهد الدراسات العليا المغربية واهتماماتها**

| المجالات | العناصر اللاحقة بها | |
|---|---|---|
| **البحث العلمي** | **التخصصات:**<br>لسانيات الشمال الإفريقي<br>اللهجات العربية بالمغرب<br>الأدب العربي<br>علم اللغة العربية<br>الأدب العربي المعاصر<br>اللهجات البربرية بالمغرب<br>سوسيولوجيا الشمال الإفريقي<br>القانون الإسلامي<br>الأركيولوجيا والفن الإسلاميان<br>التاريخ الدبلوماسي للمغرب<br>الأركيولوجيا الما قبل إسلامية<br>جغرافية المغرب<br>جغرافية البلدان الإسلامية<br>التشريع المغربي<br>إثنولوجيا الشمال الإفريقي<br>الإقتصاد الإجتماعي المغربي | **القائمون عليها**<br>G.S.Colin<br>L.Brunot<br>I.S.Allouche<br>L.Di Giacomo<br>P.Counillon<br>A.Roux<br>R.Montagne<br>F.Arin<br>H.Terrasse<br>J.Caillé<br>R.Thouvenot<br>R.Raynal<br>J.Célérier<br>P.Decroux<br>A.Adam<br>A.Berque |
| **أصناف التعليم بالمعهد** | - اللغة العربية واللهجات البربرية<br>- شواهد الإجازة في تخصصات مختلفة<br>- تكوين المترجمين المدنيين<br>- دراسات في العلوم الإنسانية | |
| **المراكز الجهوية** | بعض المراكز | مقراتها |

| المجالات | العناصر اللاحقة بها | |
|---|---|---|
| التابعة للمعهد (كانت مقراتها موزعة على مؤسسات مختلفة) | - أزرو<br>- أكادير<br>- كلميمة<br>- خنيفرة<br>- الحاجب | الثانوية<br>المدرسة الأوروبية<br>مكتب الشؤون الأهلية<br>المحكمة العرفية<br>المدرسة الأهلية للبنين |
| الشواهد التي يخولها مجدع | - شهادة اللغة العربية واللهجات البربرية (بأصنافها الثلاث)<br>- الإجازة في اللغة العربية.<br>- شهادة الدراسات المغربية.<br>- شهادة الترجمة الفورية. | |

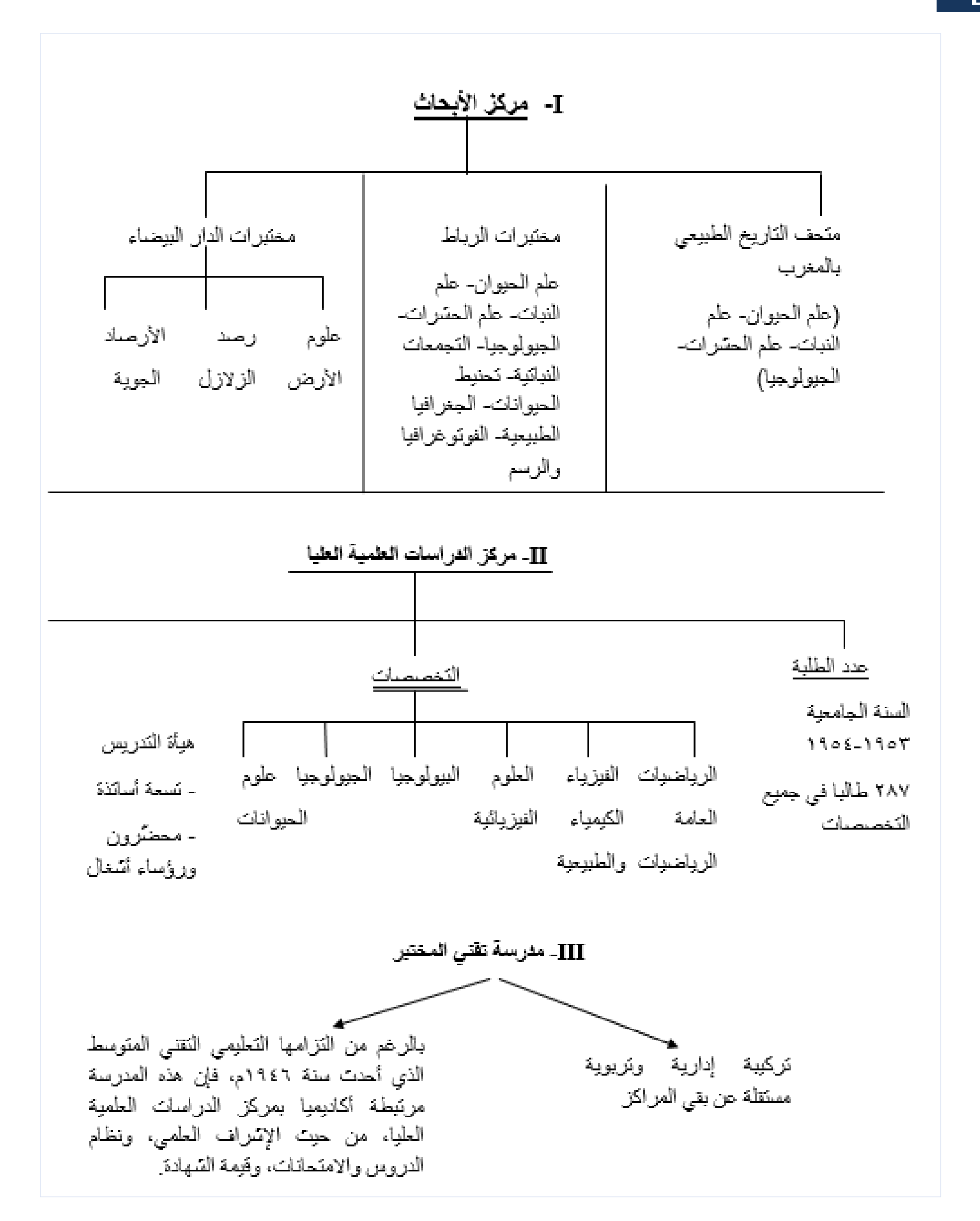
جدول رقم (٢)

**المراكز العلمية التابعة للمعهد**[٦٥]

| | |
|---|---|
| **I- مركز الدراسات القانونية الرباط-الدار البيضاء** | **الوظيفة: تهيئ الطلبة للحصول على الإجازة أو الكفاءة في الحقوق**<br>**طريقة التدريس: يرتبط المعهد علميا بثلاث كليات للحقوق هي: الجزائر- بوردو- تولوز- وهي التي كانت تتولى إرسال الأساتذة وإعداد الامتحانات بصفة دورية.**<br>**عدد الطلبة: السنة الجامعية ٥٣-١٩٥٤**<br>**١٢١٠ طالبا في مختلف التخصصات.**<br>**هيئة التدريس: ثلاث مبرزين، ومدبرين للدروس.**<br>**المحاضرون: أربعة وثلاثون محاضرا** |
| **II- مفتشية المآثر التاريخية بالمدن العتيقة** | **الوظيفة:** تصنيف المآثر والعناصر القديمة ما قبل الإسلامية بالمغرب<br>**التركيبة الإدارية:**<br>أ- مفتشية مركزية بالرباط<br>ب- ثلاث مفتشيات جهوية لتتبع وضعية المآثر (فاس، مراكش، الرباط، مكناس) |
| **III- مفتشية العصور القديمة بالمغرب** | **الوظيفة:** تصنيف المآثر والعناصر القديمة ما قبل الإسلامية بالمغرب<br>- تصنيف مآثر ما قبل التاريخ، والمنتمية إلى تاريخ العصر القديم.<br>- الكشف عن الآثار الرومانية والبيزنطية بالمغرب.<br>- تنظيم أوراش أركيولوجية ورعاية المتاحف المركزية والجهوية (مثلا: متحف الرباط، وليلي...)<br>**التركيبة الإدارية:**<br>أ- مفتشية مركزية<br>ب-مقرات إدارية في مناطق الكشف والآثار والمتاحف. |

## المعهد العلمي الشريفي

أنشئ هذا المعهد سنة ١٩٢٠م، تحت إشراف ثلاث مؤسسات، مهمتها الربط والتنسيق بين مختلف المراكز والدراسات، في مجال علوم الطبيعة وتنميتها كما تبين هذه الخطاطة:[٦٦]




يكشف لنا هذا المسح الخاص بمؤسسات التعليم العالي والبحث العلمي، أن حقل الممارسة العلمية الكولونيالية انفتح على وظيفة التعدد العلمي في التنظير والنشاط الميداني والممارسة التجريبية، وكذا الاستفادة من خبرات معاهد أخرى. صفوة القول؛ نجحت السياسة التعليمية الاستعمارية في المغرب إلى حد بعيد في تغيير أشكال مؤسسات المعرفة وأدوارها النمطية، وفي إنتاج أجيال متأثرة بالنموذج الفرنسي ومشروعه الحضاري في العمل والتخطيط والبرمجة والإنتاج… وذلك من خلال استنبات العديد من المؤسسات والنظم والبرامج الحديثة التي تحكمت عبرها في الشبكة الاجتماعية والعناصر الفاعلة فيها، وحدت بنزر من ممارسات الفعل الاجتنابي والنظرة الأهلية الشزراء اتجاه الكولون.

## خَاتِمَةٌ

نجحت السياسة التعليمية الاستعمارية في المغرب إلى حد بعيد في تغيير أشكال مؤسسات المعرفة وأدوارها النمطية، وفي إنتاج أجيال متأثرة بالنموذج الفرنسي ومشروعه الحضاري في العمل والتخطيط والبرمجة والإنتاج، وذلك من خلال استنبات العديد من المؤسسات والنظم والبرامج الحديثة التي تحكمت عبرها في الشبكة الاجتماعية والعناصر الفاعلة فيها، وحدت بنزر من ممارسات الفعل الاجتنابي والنظرة الأهلية الشزراء اتجاه المستوطن الأجنبي. فمسألة التعليم لم تنظر إليها الإدارة الاستعمارية من منظور إنساني، أو باعتباره رسالة حضارية كما روجت لذلك، بل باعتباره آلية استراتيجية يمكن من خلالها تكوين يد عاملة تقنية تعمل من دون وعي على تقوية الحضور الكولونيالي ومحاصرة البورجوازية التقليدية، وتسهم من جهة أخرى في تغطية النقص الحاصل في مستعمرتها على المستوى الفلاحي والصناعي والخدماتي، وتحد من جانب آخر من ظاهرة التمدين وتعاظم سيل الطبقة البروليتارية المتنامية في المدن، هذا علاوة على صناعة نخب منبهرة بالحداثة، ومبادئها، تضمن ولاءها والتبشير بقيمها في الأوساط الشعبية والمنابر الإعلامية، وتدعم امتدادها في الدوائر والمؤسسات المغربية. ولأن المدارس الوطنية الحرة كانت تقاوم من أجل المحافظة على الشخصية الثقافية والحضارية للمملكة المغربية من الاستلاب، وبما أن ذلك كان يشوش على المشروع الاستعماري التعليمي في المغرب وينذر بالإجهاز على مخططه، فقد جدّت إدارة الحماية في توظيف كل الوسائل التي من شأوها القضاء على هذه المدارس وكبت طموحها، وذلك عبر مجموعة من الممارسات التعسفية، مثل سحب الرخص القانونية، ووضع الناشط منها تحت المراقبة الصارمة لسلطتها.

## الهَوامِشُ:

(١) حسن (كمال)، **البحث والتعليم بالمغرب خلال فترة الحماية "مقاربة تاريخية"**، بحث لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، جامعة محمد الخامس،٢٠٠١-٢٠٠٢، ص. ٢٩٤.

(٢) ياسين (محمد)، **سوسيولوجيا الخطاب الكولونيالي**،ج ١، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في علم الاجتماع، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز، جامعة سيدي محمد بن عبد الله فاس، ١٩٩٢-١٩٩٣، ص.٤٦٢.

(٣) نفسه، ص. ٤٦٣

(4) Direction générale de l'instruction publique au Maroc, pub l'enseignement public au Maroc, 1954, p. 1.

(٥) أوهلال (بدر)، **"السياسة التعليمية الاستعمارية الفرنسية بالمغرب (١٩١٢-١٩٣٠)"**، مجلة النداء التربوي، العدد الرابع، ١٩٩٨، ص. ٢٠-٢١.

(٦) حسن (كمال)، **مؤسسات البحث**...، م. س، ص. ٣١١.

(٧) أوهلال (بدر)،" **السياسة التعليمية**..."، م. س، ص. ٢١.

(٨) أوهلال (بدر)، "**السياسة التعليمية**..."، م. س، ص. ٢٠

(٩) أشقرا (عثمان)، **"التعليم الاستعماري في المغرب والتباس الوضعية الاستعمارية"**، مجلة المناهل، العدد ٨٧، يناير٢٠٠٠، ص. ١٧٦.

(١٠) نفسه، ص. ١٧٨- ١٧٩.

(١١) أوهلال (بدر)،" **السياسة التعليمية**..."، م. س، ص. ٣٥- ٣٦.

(١٢) أوهلال (بدر)،" **السياسة التعليمية**..."، م. س ، ص. 41.

(١٣) الجريدة الرسمية المغربية، العدد ١٤٨، ٢٨ فبراير١٩١٦، ص. ١٥٢- 153.

(١٤) حسن (كمال)، **مؤسسات البحث** ...، م. س، ص. ٣٨٦-٣٨٨.

(١٥) اليزيدي (محمد)، **التعليم بالمغرب على عهد الحماية مدينة فاس نموذجا ١٩١٢-١٩٥٦**، بحث لنيل الدكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز فاس، جامعة سيدي محمد بن عبد الله فاس، ٢٠٠٢-٢٠٠٣، ص. ٦٢.

(١٦) الجريدة الرسمية المغربية، العدد ١٤٨، 28 فبراير١٩١٦، م.س، ص. ١٥٢-153.

(١٧) المكي (المروكي)، **الإصلاح التعليمي بالمغرب ١٩٥٦ – ١٩٩٤**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم ١٧، مطبعة النجاح البيضاء، ١٩٩٦، ص. ١٦.

(١٨) جريدة السعادة، **إنشاء مدرستين قرويتين لمحاربة الأمية والجهالة**، العدد 6709، الإثنين 17 يونيو 1946 ، ص.2.

(١٩) المكي (المروكي)، **الإصلاح**...، م.س، ص. ١٦.

(20) Demourloynes (L) et autres, **L'œuvre française en matière d'enseignement au Maroc**, Ed Gentruer, Paris, 1928, p. 111.

(٢١) المكي (المروكي)، **الإصلاح**...، م.س، ص. ١٦.

(22) Archive national de Rabat, Carton n°P137, **Etablissements d'instruction publique de l'annexe des Doukkala sud**, p. 7.

(٢٣) حسن (كمال)، **مؤسسات البحث** ...، م. س، ص. ٤٠٣.

(٢٤) نفسه، ص. ٤٠٢- ٤٠٣.

(٢٥) جريدة السعادة، **المدارس الصناعية**، العدد ١٨٨٧، الإثنين ٢٤ فبراير ١٩١٩، ص. ١.

(26) Adam (A), **Casablanca Essai sur la transformation de la société marocaine en contact de l'occident**, t II, Ed C.N.R.S, 1972, p. 491.

(27) Feucher (Ch), **Mazagan (1514-1956)**, l'Harmattan, Paris, 2011, p. 198.

(28) www.marocAntan.com, op.cit.

(29) Idem.

(٣٠) أخذت هذه الصورة من معرض الصور الذي نصب بالمكتبة الوطنية في الرباط من (٨-١٢-٢٠١٢) إلى (٩-٢-٢٠١٢).

(31)Bulletin économique du Maroc, «**L'enseignement professionnel des indigènes musulmans au Maroc**», vol II, n°10, Octobre 1935, P. 281.

(32) Bulletin de l'enseignement public du Maroc, «**Les vocations de nos élèves**», n°72, Février 1926, Pp. 89- 90.

(٣٣) حسن (كمال)، **مؤسسات البحث** ...، م. س، ص. ٣٩٩.

(٣٤) أشقرا (عثمان)، **التعليم الاستعماري**...، م.س، ص. ١٧٩- ١٨٠.

(٣٥) محمد ياسين، **سوسيولوجيا الخطاب**...، م.س، ص. ٤٧٤ .

(٣٦) نفسه، ص. ٤٨٠.

(٣٧) الديالمي (عبد الصمد)، **القضية السوسيولوجية نموذج الوطن العربي**، مطابع إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1989، ص. 45.

(٣٨) أوهلال (بدر)، "**السياسة التعليمية**..."، م. س، ص. ٤١.

(٣٩) عياش (ألبير)، **المغرب والاستعمار حصيلة السيطرة الفرنسية**، ترجمة عبد القادر الشاوي ونور الدين السعودي، مواجعة وتقديم إدريس بنسعيد وعبد الأحد السبتي، دار الخطابي، الدار البيضاء، 1985 ، م.س، ص. ٣٦٢.

(٤٠) ياسين (محمد)، **سوسيولوجيا** ...، م. س، ص. ٤٧٩.

(41) Feucher (Ch), **Mazagan (1514-1956)**,op.cit., p. 198.

(42) A.N.R, Carton n°F 90, **Statistiques des écoles**, p. 10.

(43) A.N.R, Carton n°P 11, **Effectif au 1 Juin 1913**, p. 15.

(44) A.N.R, Carton n°P 94, **Etablissements d'instruction**, p. 3.

(45) Idem.

(46) A.N.R, Carton n°P 131, **Renseignements demandés par la mission scientifique**, p. 4.

(47) A.N.R, Carton n°P 91, **Rapport politique du mois de Mars 1915**, p. 3.

(48) Jmahri (M), **La communauté juive de la ville d'El Jadida», les cahiers d'El Jadida**1(ère) édition, Mars 2OO5.p. 57.

(49) Idem

(٥٠) اليزيدي (محمد)، **التعليم بالمغرب**...، م. س ، ص ٧٠-٧١.

(٥١) حسن (كمال)، **مؤسسات البحث** ...، م. س، ص. ٣٨٤-٣٩٠.

(52) B.E.S.M, «**Naissance et développement d'une classe moyenne au Maroc**», vol XIX, n°68, 4(ème) trimestre 1955, P. 489-492.

(٥٣) الديالمي (عبد الصمد)، **القضية...**، م.س، ص.54.

(٥٤) جريدة السعادة، **حول التعليم بالمدارس الإسلامية الثانوية**، العدد ١٩٨٢، السبت ٢٧ شتنبر١٩١٩، ص.1-2.

(٥٥) حسن (كمال)، **مؤسسات البحث**...، ص. ٣٩٠.

(٥٦) جريدة السعادة، **المدارس الثانوية وما يدرس بها من العلوم**، العدد ١٨٥٦، الاثنين ٣٠ دجنبر ١٩١٨، ص.1.

(٥٧) حسن (كمال)، **مؤسسات البحث**...، ص. ٣٩١.

(٥٨) نفسه، ص. ٣٩٣.

(٥٩) نفسه، ص. ٣٧١.

(٦٠) عياش (ألبير)، **المغرب والاستعمار** ...، م.س، ص. ٣٦٣.

(٦١) أوهلال (بدر)، "**السياسة التعليمية**..."، م.س، ص.٤١ .

(٦٢) ياسين (محمد)، **سوسيولوجيا**...، ج ١، م.س، ص. ٤٩٠.

(٦٣) عياش (ألبير)، **المغرب والاستعمار** ...، م. س ، ص. ٣٧٣.

(٦٤) ياسين (محمد)، **سوسيولوجيا**... ، ج١، م. س، ص. ٤٨٣.

(٦٥) ياسين (محمد)، **سوسيولوجيا**...، ج١، م. س، ص. ٤٨٤.

(٦٦) نفسه، ص. ٤٨٥.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

مقالات

# التضامن بين المغاربة
# من خلال وثيقة ١١ يناير ١٩٤٤م

**خالد صقلي**
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
ظهر المهراز - فاس - المملكة المغربية

## مُلَخّصْ

إن التضامن راسخ في الهوية الاسلامية المغربية، وقد شكلت وثيقة المطالبة بالاستقلال نموذجًا حيًا للحراك السياسي الذي خلقه المغاربة بتفاعلاتهم وتمازجهم واتحادهم تتويجًا لمساراتهم النضالية. وإن القراءة في حدث تقديم الوثيقة وما تمخض عنه من خلخلة للسياسة الاستعمارية-التي اعترفت أن المغاربة يحافظون على أصولهم وثوابتهم وتضامنهم ووحدتهم بجانب ترسيخ مقوماتهم الحضارية - في الهيمنة والاستغلال، علاوة على ما اعطته المقاومة المغربية المتنوعة والشاملة من دروس في التضحية والتضامن والتكامل ليساهم بكل تأكيد إلى جانب العمل والعلم في خلق تنمية المجتمع وضمان الحفاظ على صمام الأمان في درأ كل عدوان خارجي يستهدف البلاد والعباد. إن هدفي من هذا العمل نابع بالأساس من اهتمامي العلمي بالتاريخ المغربي وحضارته وتحقيق الانتاجات الفكرية المخطوطة لعلمائه ومتصوفته، وإعادة الامجاد لرواد صنعوا هذا التاريخ وكان لهم قدم السبق في دفع عجلة العلم والثقافة بالمغرب.

**بيانات المقال:**

تاريخ استلام المقال: ٢٥ يونيو ٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر: ٢٨ أغسطس ٢٠١٥

**كلمات مفتاحية:**

الحركة الوطنية المغربية، المقاومة المغربية، وثيقة ١١ يناير ١٩٤٤، وثيقة الاستقلال، منزل مكوار

**معرِّف الوثيقة الرقمي:** DOI 10.12816/0045089

**الاستشهاد المرجعي بالمقال:**

خالد صقلي. "التضامن بين المغاربة من خلال وثيقة ١١ يناير ١٩٤٤م".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد السابع والثلاثون؛ سبتمبر ٢٠١٧. ص٧٣ – ٧٩.

## مُقَدِّمَةُ

إن إحياء ذكرى ١١ يناير ١٩٤٤ يندرج ضمن مبدأ عام وهو جعل تاريخ الأمة المغربية حيًا في النفوس، وإحياء هذه الذكرى هو تقديم المثال للذين أخلصوا لهذه الأمة، وبذلوا الغالي والنفيس من أجل عزتها ورفعة شأنها، وهو كذلك اعتناء وحفظ لأصالة أمتنا ووفاء للتاريخ وأداء للأمانة في أعناقنا، وهذا يتفق مع روح ونصوص وأهداف القرآن الكريم، إذ نجد آياته الكريمة تحدثنا عن الأمم السابقة حتى يتفكر فيها الناس وحتى يأخذوا منها العبرة والعظة:{(...) ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}،[1] ولعل من أهم القضايا التي يعتمد عليها في مفهوم التاريخ المعاصر هذا المسار الخطي لأحداث التاريخ، وهذا يعني عدم تكرار تلك الأحداث عبر التاريخ لأن الذي يمضي لا يعود، وهذا يعطي القيمة والأهمية التاريخية المتفردة لكل حدث تاريخي لأنه لا يتكرر، فالتاريخ لا يعيد نفسه بدليل قوله سبحانه وتعالى: {كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ}[2] لذلك فإن قراءتنا لأحداث ذكرى وثيقة الاستقلال هي قراءة في الواقعية التاريخية المغربية المتفردة والمنغرسة الجذور في ذاكرتنا الوطنية.[3]

## أولاً: الوضعية في المغرب قبل تقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال

إن الحديث هنا يأخذنا للوقوف عند مرحلة مهمة من تاريخ المغرب المعاصر، والمتمثلة في تقديم وثيقة الاستقلال في ١١ يناير ١٩٤٤، وهو الأمر الذي يستوجب بالضرورة أخذ فكرة عن حالة المغرب آنذاك. فقد عملت جميع القوى الأوربية على إضعاف البلاد

ونخر جسدها عن طريق الاتفاقيات الثنائية والمساومات الدبلوماسية التي عقدتها فرنسا مع مختلف منافسيها، ابتداءً من بداية القرن العشرين مرورًا بمؤتمر الجزيرة الخضراء في العام ١٩٠٦، حيث تم فيها إطلاق يد كل من فرنسا وإسبانيا للتحكم في مصير المغرب. بعد أن تمت قنبلة مدينة الدار البيضاء واحتلال وجدة في العام ١٩٠٧ .

لقد شكل فرض توقيع عقد الحماية على السلطان مولاي عبد الحفيظ في ٣٠ مارس ١٩١٢، نهاية مرحلة طويلة من تاريخ المغرب المستقل، لأنه دخل مرحلة لم تكن هزيمة في معركة أو حرب أو احتلال ثغر، بل مرحلة فقدان استقلال البلاد كلها، وقد ولد هذا الإحساس لدى المغاربة، شعورًا قويًا بالانتماء إلى هذا الوطن فهبت كل شرائح المجتمع المغربي قاطبة للمقاومة، اذ قدم الشيخ ماء العينين بالصحراء المغربية وموحا أو حمو الزياني وباسلام بالأطلس المتوسط في معركة الهري عام ١٩١٤ وعبد الكريم الخطابي في معركة أنوال عام ١٩٢١ بالريف(٤)، أعظم صور من صور المقاومة المغربية الشريفة التي أعطت دروسا بليغة في معنى التشبث بالوطن، وقد استمرت تلك المقاومة المسلحة في مجموع التراب المغربي من جبال الريف في الشمال والأطلس المتوسط والأطلس الكبير، التي استمرت فيه المقاومة إلى حدود ١٩٣٥ وناحية تافيلالت والصحراء المغربية، وقد واكب هذه المقاومة، انتفاضات وإضرابات داخل المدن كالرباط وسلا والجديدة والصويرة في العام ١٩٢٠.

لقد عرفت فترة منتصف عشرينات القرن الماضي نشأة الحركة الوطنية، والتي تبلورت كحركة في بداية الثلاثينيات واكب ذلك تطور في طرق عملها وفي مطالبها، وقد ساهمت مساهمة فعالة في تحقيق المغرب لاستقلاله، وقد تكونت الحركة الوطنية في البداية من شباب مغاربة متحمسين من مختلف المناطق المغربية، درس بعضهم في المدارس المغربية كجامعة القرويين، والبعض الآخر في جامعات غربية. واتسمت الوضعية السياسية بالمغرب والتي أفرزت تأسيس الحركة الوطنية بتراجع المقاومة المسلحة، والاستغلال الاستعماري البشع للمغرب وأثره على المجتمع المغربي، وظهور الحركة السلفية ودورها في تأطير الحركة الوطنية، باعتبارها نهضة فكرية عملت على تحرير العقل المغربي من التخلف الفكري وسيطرة الخرافة والعودة إلى المنابع والأصول الأولى للدين الإسلامي الحنيف، وكان من بين روادها محمد بن العربي العلوي (١٨٨٠-١٩٦٤)، وأبو شعيب الدكالي( ١٨٧٨-١٩٣٧)، وقد كان دور الحركة السلفية كبيرًا في زرع دم جديد لدى المغاربة بمختلف شعابهم، بعد الانكسارات التي منيت بها المقاومة المغربية خصوصًا في الأطلس والريف.

فقد أعادت لهم هذه الحركة الثقة بالنفس باعتبار أن الإسلام هو المنبع الأصيل الذي نهل منه المغاربة قاطبة قدرتهم على مواجهة التحديات التي كانت تجابههم عبر التاريخ، وفي هذا الاطار يقول علال الفاسي: "ليس من الممكن لمؤرخ الحركة الاستقلالية في المغرب أن يتجاهل هذه المرحلة العظيمة ذات الاثر الفعال في تطوير العقلية الشعبية بلادنا".(٥) إضافة إلى الظهير البربري الذي تم إصداره من قبل سلطات الحماية يوم ١٦ مايو١٩٣٠، والذي كان يهدف إلى التفريق بين المغاربة وذلك بخلق شرخ بينهم في محاولة لضرب وتفتيت أسس وحدة المغاربة التي تشبثوا بها منذ قرون خلت، لكن المغاربة بربرًا وعربًا... افشلوه باتحادهم وتضامنهم، ويتبين ذلك لنا بوضح من خلال ما رد في الكتابات الوطنية التي أرخت للحدث، وفي هذا الإطار يقول عبد الكريم غلاب: "... عاد معنى الأمة الواحدة والشعب الواحد ليحتل تفكير الطبقة المتحركة في البلاد من مثقفين وطلبة وتجار وصناع، ولأول مرة في التاريخ – بعد الدعوة الاسلامية - توحد حركة وطنية فكرية الأمة، وتبعث الوحدة الوطنية لا بالقوة والسيف كما كان الامر شعار الحكم الذي يواجه القبائل الثائرة، ولكن بالفكرة الوطنية وبذلك حل الوطن مكان القبيلة وحلت الوطنية مكان العرف، ولأول مرة تجرا الوطنيون ليقوموا بعمل جماعي ضد الادارة الفرنسية وليواجهوها بالعصيان والمظاهرة والاضراب في مدن مقفلة مطوقة، ولأول مرة تلتقي الجماعات العاملة في المدن حول فكرة واحدة تجهر بها وكأنها اكتشفت ما كانت تبحث عنه طول مدة التعبئة النفسية التي كان يشعر بها الشباب في المدن اثناء العشرينات( ...)".(٦)

لقد عمل المغاربة جميعهم على التصدي لهذا الظهير في كتلة واحدة فجهروا باللطيف في صيغته المعروفة: "اللهم يا لطيف نسألك اللطف فيما جرت به المقادير وألا تفرق بيننا وبين إخواننا البرابر". بداية في مدينة سلا لتنطلق المظاهرات والاحتجاجات إلى باقي المدن والقرى المغربية التي خرجت لتعبر عن الوحدة الوطنية المغربية، فتكون وفد سافر في ٢٦ غشت ١٩٣٠ إلى الرباط حاملاً معه مجموعة من المطالب. وقد تم استقباله من قبل السلطان سيدي محمد بن يوسف طيب الله ثراه، الذي عبر عن أسفه ودعمه لجميع مطالب الشعب المغربي. وهكذا اعتبرت الحركة البربرية بداية النهاية للاستعمار بالمغرب، كما انها كانت دعامة للحركة الوطنية لتتخذ شكلها النهائي كحركة سياسية تستند على قاعدة شعبية متحدة متضامنة قادرة على الوقوف وجها لوجه ضد الاستعمار ومواصلة عملها.(٧)

وعمومًا فقد كان للظهير البربري، دور مهم في جمع شمل المغاربة واتحادهم وتضامنهم، وأعطى صورة نموذجية من صور التلاحم والتضامن المغربي، فكان ذلك الدرس بمثابة إنذار لسلطات الحماية التي زادت من قوتها القمعية، خصوصًا أنها كانت تدرك أن مطالبة المغاربة بالإصلاحات لم تكن سوى بداية للمطالبة بالاستقلال، علمًا أن رواد الحركة الوطنية بدأوا في ٨ مايو1934،

بالاتصال بالسلطان للتنسيق معه، خصوصًا أن دورهم كان مهمًا في الاحتفال بأول عيد عرش في تاريخ المغرب في ١٨ نونبر ١٩٣٣. ولا يمكن نسيان ما قام بها المغاربة في الشمال من ردود فعل قوية تبلورت في عمل سياسي ضد الاستعمار الإسباني،[٨] وزاد ذلك من التمازج والانسجام والاتحاد بين شمال المغرب وجنوبه، وبين جميع شرائح الشعب المغربي. حيث عملت الكتلة الوطنية على تقديم عريضة لحكومة الجمهورية الإسبانية، ضمنتها مجموعة من المطالب، لكن الجمهوريين الذين كانوا قد وصلوا إلى الحكم آنذاك ولكنهم ردوا على تلك المطالب المغربية بالعنف، خصوصًا في مدينة تطوان.

إن النضج الذي وصلت إليه الحركة الوطنية المغربية عبر مجموع التراب الوطني دفع المغاربة عامة بكل مشاربهم بالانتقال من مجرد المطالبة بالإصلاحات إلى المطالبة بالاستقلال، حيث ساهمت مجموعة من الظروف المؤثرة في تطوير تلك المطالب والتي يمكن تلخيصها في:

- تعرض بعض قادة الحركة الوطنية في نهاية الثلاثينات للاعتقال أو النفي، وخاصةً بعد أحداث بوفكران سنة١٩٣٧ والتي نتجت عن تحويل المعمرين لمياه النهر لأراضيهم .
- تأسيس أحزاب جديدة منها حزب الاستقلال وحزب الشورى والاستقلال و"حزب الوحدة المغربية" و"حزب الإصلاح الوطني" و"الحزب الشيوعي"، كما تم إصدار العديد من الجرائد والمجلات أبرزها: جريدة "عمل الشعب" والتي كان يديرها الوزاني و"المغرب" لأحمد بلافريج و"الحياة" للطريس...، فضلاً عن إنشاء المدارس الحرة وتأسيس الجمعيات الثقافية والعلمية.[٩]
- عقد لقاء آنفا في يناير١٩٤٣، الذي كان فرصة للقاء بين السلطان سيدي محمد بن يوسف والرئيس الأمريكي روزفلت حيث عرض السلطان مطالب المغرب المشروعة .
- تقديم أعضاء الحركة الوطنية وثيقة يوم ١١ يناير١٩٤٤، التي طالبوا فيها باستقلال المغرب ووحدة ترابه، علمًا أن السلطان سيدي محمد بن يوسف كان مطلعا على مضامين الوثيقة، بعد الاتصالات السرية التي كانت بينه وبين الوطنيين، وقد عبر جلالته عن حماسه وموافقته عليها، وتم تحديد موعد تقديمها صباح يوم ١١ يناير ١٩٤٤. وكان رد سلطات الحماية الفرنسية بشن حملة اعتقالات بعد أيام من تقديم الوثيقة.[١٠]

هكذا إذا مُهدت الطريق أمام حزب الاستقلال، لتقديم "عريضة المطالبة بالاستقلال" يوم ١١ يناير ١٩٤٤، بعد عشر سنوات من تقديم "مطالب الشعب المغربي"، لتكرس هذه الوثيقة التاريخية نهج المساواة بآفاقها وملامحها لا محدودة ومبدأ التضامن بين العرش والشعب، والشعب فيما بينه، وظل التأكيد قائمًا في كل وقت على أنه لا فرق بين المغاربة وذلك مرتبط بعقلية المغاربة المترسخة في وحدته وكينونته واتحاده وتضامنه من شماله لجنوبه ومن شرقه إلى غربه.

## ثانيًا: تقديم الوثيقة

إنها محطة تاريخية من تاريخ المغرب الحديث، تلك التي جسدت على أرض الواقع طموحات جيل الحركة الوطنية الذي توج نضاله بـ "وثيقة المطالبة بالاستقلال "التي قدمت يوم الثلاثاء ١٤ محرم (١٣٦٣هـ/١١ يناير ١٩٤٤) على الشكل التالي:

- وفد قدم الوثيقة إلى السلطان جلالة المغفور له محمد الخامس "طيب الله ثراه" هم السادة: أحمد بلا فريج، ومحمد اليزيدي، وعبد العزيز بن ادريس، والهاشمي الفيلالي، وعبد الله إبراهيم، وإدريس المحمدي، وعبد الكريم بنجلون، وأحمد الحمياني، وعبد الحميد الزموري.[١١]
- وفد قدم الوثيقة إلى القنصلية الأمريكية هم السادة: المهدي بنبركة،[١٢] وعبد الرحيم بو عبيد.[١٣]
- وفد قدم الوثيقة إلى المقيم العام الفرنسي وهم السادة: الحاج عمر بن عبد الجليل، ومحمد غازي، ومحمد الزغاري،[١٤] ومحمد الديوري.[١٥]
- وفد قدم الوثيقة إلى القنصلية الإنجليزية وهم: الحاج أحمد مكوار، وأحمد باحنيني.[١٦]

وكما لا يخفى على أحد، فقد حررت الوثيقة في بيت الحاج محمد مكوار بفاس، وهندس انشاءها محمد اليزيدي وأحمد بلافريج، ووقعها ستة وستون شخصية وطنية مغربية كانت منتمية لمختلف الأوساط الاجتماعية، فمنهم الموظفون مع المخزن والعلماء والأطباء والمحامون والأساتذة والإداريون والتجار والصناع والحرفيين... ومثلوا (١٤) مدينة مغربية. وفي هذا الإطار ورد في إحدى الصحف المغربية: "بين ردهاته حرروا عقدا أعلنوا فيه حبهم الكبير لوطنهم الذي لا يقاس بثمن ولم يفرطوا في أي شبر منه. وأطلقوا وثيقة طالبوا فيها باستقلال المغرب ووحدة ترابه تحت ظل صاحب الجلالة ملك البلاد المرحوم محمد بن يوسف، الذي التمسوا منه السعي لدى الدول التي يهمها الأمر الاعتراف بهذا البلد .وثيقة ومنزل يشهدان على منعرج رائد في تحديد السيادة المغربية، وإعطاء انطلاقة إصلاح ترقبه المغاربة من داخل وطنهم دون حاجة إلى مستعمر نهب الأرض واستعبد العباد، اختاره موقعو العريضة، أن يكون نظامًا سياسيًا شوريًا شبيهًا بنظام الحكم في البلاد العربية الإسلامية في الشرق . نظام توخى موقعو العريضة ممَنْ سعوا إلى تمتع الدولة المغربية بحريتها وسيادتها الوطنية، (توخوا) أن يحفظ حقوق سائر عناصر الشعب المغربي وطبقاته، ويحدد واجبات الجميع، بغض النظر عن

تداعيات القرار السياسي الجريء الذي أعلنه أكثر من(60) وطنيًا وقع العريضة في منزل أحمد مكوار.

تلك العريضة التي انطلقت شرارتها من هذا المنزل الواقع في موقع استراتيجي قرب ساحة البطحاء، تعززت بعرائض التأييد من مختلف جهات الوطن التي من آثارها اندلاع انتفاضة ٢٩ يناير ١٩٤٤ وما رافقها من مظاهرات عارمة سقط إثرها عشرات الشهداء والضحايا بالرباط وفاس وأزرو وسلا. لم يقتصر إشعاع وثيقة المطالبة بالاستقلال التي تعتبر مليكة الفاسي المرأة المغربية الوحيدة التي وقعتها، على الوطن بما كان لها من أثر عميق في نفوس وأوساط المغاربة على اختلاف مشاربهم وانتماءاتهم، بل أرسلت نسخ منها إلى ممثليات الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا والاتحاد السوفياتي .إن غالبية الموقعين على وثيقة المطالبة بالاستقلال، كانوا يمتهنون التجارة بالمدينة العتيقة بفاس، ممَنْ لم يستسيغوا الحريق الانتقامي الذي طال مصدر عيشهم، بمتاجر قيسارية الكفاح في سنة ١٩٥٥ الذي أدى إلى تشريد أسر العشرات من المقاومين وموقعي وثيقة المطالبة بالاستقلال .هذا الحريق كان مصدرا لتأجيج غضب الوطنيين المغاربة، ممن اجتمع بعضهم في منزل مكوار لتحرير وتوقيع الوثيقة المذكورة، ردًا على ما تعرضوا إليه من استمرار نهب وإقبار ودفن معالم تاريخ الوطن، على غرار اجتماعات تنسيقية أخرى احتضنتها منازل ومحلات تجارية أخرى، لم تنل حظها من الاهتمام".[١٧]

وقد ركزت هذه الوثيقة على مجموعة من المرتكزات نذكر منها :

- استقلال المغرب في ظل الوحدة الترابية للمملكة.
- إرساء ملكية دستورية وديمقراطية، تضمن الحريات الفردية والجماعية.
- المساهمة في الحياة الدولية بشكل يحترم سيادة المغرب.
- إحداث نظام سياسي شورى شبيه بنظام الحكم في البلاد العربية والإسلامية في الشرق، تحفظ فيه حقوق وواجبات جميع عناصر الشعب المغربي.
- الدفاع عن الوحدة الاجتماعية والعقدية للمغاربة لإفشال كل المخططات الاستعمارية .

وإن القراءة الأولية في وثيقة المطالبة بالاستقلال التي قدمت في يوم ١٤ محرم ١٣٦٣هـ/١١ يناير ١٩٤٤م تبرز لنا مجموعة من الملاحظات نذكر منها فقط:

- الملاحظة الأولى: إن الوثيقة قدمها عدد من أعضاء حزب الاستقلال كما ورد في أول جملة من تصدير الوثيقة: "إن حزب الاستقلال الذي يضم أعضاء الحزب الوطني السابق وشخصيات حرة(....)"، وكذلك جملة وردت في ديباجة الوثيقة: "(...)عن فروع حزب الاستقلال بسائر نواحي المغرب".
- الملاحظة الثانية: الوثيقة ضمت توقيع امراة مغربية واحدة هي مليكة الفاسي زوجة الأستاذ محمد الفاسي.[١٨]
- الملاحظة الثالثة: إن الأعضاء الموقعين على الوثيقة هم من جلّ المدن المغربية وهي كما يلي:

| المدينة اوالقرية | عدد الموقعين حسب عبد السلام البكاري[١٩] | عدد الموقعين حسب أبوبكر القادري[٢٠] |
|---|---|---|
| فاس | ٢٧ | ٢٣ |
| الرباط | ١١ | ١١ |
| سلا | ٦ | ٧ |
| مكناس | ٥ | ٦ |
| مراكش | ٤ | ٥ |
| الخميسات | ٣ | ٣ |
| اسفي | ٣ | ٣ |
| قرية اولاد جامع | ١ | — |
| سيدي قاسم | ١ | ١ |
| مدينة ابن احمد | ١ | — |
| وجدة | ١ | ١ |
| سطات | ١ | — |
| القنيطرة | ١ | ٤ |
| مانشستر في انجلترا | ١ | — |
| الدار البيضاء | — | ٢ |
| **المجموع** | **مجموع الموقعين (٦٦) ينوبون عن (١٤) مدينة مغربية** | **مجموع الموقعين (٦٦) ينوبون عن (١١) مدينة مغربية** |

إن هذه الوثيقة حسب العديد من الدارسين والباحثين جاءت مؤكدة في ديباجتها على استقلال المغرب والوحدة الترابية للمملكة، وإرساء ملكية دستورية وديمقراطية، وتطبيق سياسة إصلاحية حقيقية في كافة الميادين تضمن الحريات الفردية والجماعية، والمساهمة في الحياة الدولية عبر توقيع اتفاقيات مع الدول تضمن السيادة المغربية سياسيًا واقتصاديًا . إن هذا الحراك الذي عاشه الشعب المغربي في هذه الفترة لم يكن سوى تتويجًا لمسارات كفاحية تحررية، متنوعة ومتجددة، أشعلتها أضواء مقاومة في كل ربوع الوطن. وإن التاريخ السياسي المغربي كتاب مفتوح على قراءات لا تنتهي وبتعدد زوايا القراءة والتفاعل، تتعدد العبر والدروس. وإن هذه الفترة المهمة من تاريخنا السياسي والاجتماعي لا زالت تطالبنا بالبحث العميق والتنقيب عن الحقائق، ولا زالت تحثنا لاستخلاص المبادئ من التاريخ الدياليكتيكي،[٢١] وضمنيًا تدفعنا لطرح عدة تساؤلات من بينها مسألة التضامن بين المغاربة والعرش والمغاربة فيما بينهم.

**١/٢- ردود الفعل الرسمية والشعبية على تقديم الوثيقة :**

لقيت الوثيقة تجاوبًا كبيرًا وتلقائيًا معها بحكم تعطش المغاربة عامة بكل مشاربهم وطبقاتهم لنيل سيادتهم على بلادهم والظفر بثرواتهم خاصةً في ظل معاناتهم من بطش وجشع الاستعمار الذي كان همه الوحيد هو الاستحواذ على أكبر قدر ممكن من الثروات وسحق أي محاولة تنم عن الرغبة في الاستقلال من خلال التضييق على الحقوق والحريات والتجمعات، وأيضًا محاصرة النخبة المغربية التي كانت تتنامى كل يوم . وما من شك في أن إعلان وثيقة المطالبة بالاستقلال كان تعبيرًا عن الرغبة التي يحس بها الشعب المغربي قاطبة، وقد تقبلها المغاربة رسميًا وشعبيًا وأيدوها بعرائض أخرى مماثلة وقعتها جميع الفئات والأجناس في اتحاد وتضامن تام، إذ كان خطوة تقديم الوثيقة بمثابة جمع شمل المغاربة وتوحيد كلمتهم وصفهم. وعن هذا التأييد يقول علال الفاسي كنموذج لرجال الحركة الوطنية ما نصه: "توالت الوفود الشعبية من كل نواحي المغرب ترفع لجلالة الملك عرائض التأييد لطلب الاستقلال المرفوع من الحزب، وقد شارك في هذا التأييد من كل الطبقات الاجتماعية ومن أكبر قضاة الشرع الإسلامي إلى أبسط رجال البوليس السري الذين لم تمنعهم ظروفهم من الاشتراك في هذا التضامن الشعبي العام، وعمت البلاد نشوة الحديث عن الاستقلال واليوم الذي يحتفل فيه بإنجازه"،[٢٢] فقد آمن قادة الحزب بأنهم قاموا بخطوة تاريخية إذا لم تتحقق نتائجها في الحين فقد تتحقق بعد نهاية الحرب.[٢٣]

كما تم تأييد عريضة ١٩٤٤ حسب الأستاذ عبد الله الجيراري من طرف أعضاء المجلس العلمي بفاس الذين حملوا عريضة الاستقلال إلى السلطان جلالة المغفور له محمد الخامس بحضور قضاة فاس وعدولها منهم محمد بن عبد السلام السائح الرباطي وإسماعيل الإدريسي،[٢٤] ولم تبد المنطقة الخليفية أي تردد في تأييد الفكرة، وتجسد هذا التأييد وروح التضامن بوضوح في الرسالة التي وجهها حزب الاصلاح الوطني إلى جلالة المغفور له محمد الخامس طيب اللّٰه ثراه وذلك في ٢٩ فبراير ومما جاء فيها: "مولانا لقد اطلعنا على القرارات السامية التي رفعتها إلى جلالتكم تلك النخبة الطاهرة من المغاربة الاقحاح والوطنيين المجاهدين الأبرار هيأة حزب الاستقلال المغربي، وإنها لمطالب الامة بأكملها والشعب بأجمعه، لا يعارضها ولا يخرج عنها مَنْ نزع من قلبه الإيمان وأودع فيه الكفر والشقاق والخيانة والنفاق، وأن حزب الاستقلال اذ يرفع الصوت اليوم ويرسلها صرخة داوية في الافاق فإنما يرفعها بذلك باسم المغرب عاليًا بين الامم الحية والشعوب اليقظة، ويثبت للعالم أن المغاربة أحرار لا يرضون بالذل والاستعباد ولا يصبرون على الضيم ولا يستكينون ولا يستسلمون لقوة الحديد والنار".[٢٥]

إذن فالوثيقة لقيت تأييدًا شاملاً وتضامنًا تامًا من طرف المغاربة على مختلف مستواهم الطبقي والفكري.

**٢/٢- ردود فعل المستعمر:**

لقد شكلت وثيقة المطالبة بالاستقلال صدمة قوية للإقامة العامة وبرز ذلك بشكل جلي وقوي من خلال محاصرتها للموقعين على وثيقة المطالبة بالاستقلال واعتقالهم بمعية أهم القيادات السياسية والحزبية والحقوقية بتهم واهية كالإعداد لانتفاضة مسلحة في المغرب،[٢٦] وأثر هذه الاعتقالات بدأت المظاهرات في مختلف المدن والقرى المغربية، فأغلقت المدارس وجامع القرويين والثانويات الإسلامية أبوابها، تم اعتقال المئات من هؤلاء المتظاهرين وصدور أحكام بإدانتهم. وهكذا سيشكل فيما بعد الموقعون على وثيقة المطالبة بالاستقلال رموزًا للكفاح والنضال من أجل نيل الاستقلال ورموزًا للمغرب الحر، ورجال الغد الذين سيعتمد عليهم في قيادة وبناء المغرب الجديد. فقد اتضح للإقامة العامة الفرنسية أن هناك إجماعًا كليًا وتأييدًا قويًا، وتضامنًا رسميًا وشعبيًا على المطالبة بالاستقلال.

## خَاتِمَةٌ

وصفوة القول؛ أن وثيقة المطالبة بالاستقلال في مقصديتها وتوجهها يجب التعامل معها باعتبارها نصًا ثمينًا وفريدًا في الفكر المغربي الحديث والمعاصر، لأنها تعكس وعي النخبة السياسية الوطنية المغربية في مرحلة هامة من مراحل تطورها، وقد صيغت في شكل وثيقة لا مذكرة، فكرتها المحورية تنص على ثلاث مطالب: الاستقلال، الوحدة، والدستور.[٢٧] وتعتبر هذه الوثيقة نقطة تحول بارزة في تاريخ كفاح الشعب المغربي ونضاله المستميت من أجل نقل المغرب من دولة محمية إلى دولة ذات سيادة، تتمتع باستقلالها وحريتها ووحدتها.

إن التضامن الذي عرفه المجتمع المغربي والذي تجلى في هذا الحراك الذي عاشته كل فئات المجتمع المغربي في هذه الفترة والذي لم يكن سوى تتويجًا لمسارات كفاحية تحررية، متنوعة ومتجددة، اشعلتها أضواء مقاومة. وإذ يحتفل الشعب المغربي بهذه الذكرى، فللتعريف بمضامين الحركة الوطنية وأعلامها وأمجاد الأمة المغربية وتاريخها النضالي المجيد، حفاظًا على الذاكرة الوطنية وتذكيرًا للأجيال بضرورة قدسية وحدتنا، وضرورة تضامننا واتحادنا، والحفاظ على تراثنا، والإشادة بأبطاله من أجل الاقتداء بهم للدفاع عن المقدسات الدينية والوطنية للبلاد، ومواصلة الكفاح من أجل تحقيق الوحدة الترابية لوطننا.

وان ما أنتجته هذه المرحلة المهمة من تاريخ المغرب من ممارسة مقاوماتية وسياسية وفكرية وثقافية ونضالية، لازالت تحتاج إلى تأطير زمني وفكري للمرحلة الكلونيالية بصداماتها وإصلاحاتها واحتكاك نظام وبنيات تقليدية مع حضارة غربية متميزة بأدواتها وبنظرتها للمجتمعات الغيرية. وإن هذه الفترة من عمر مغربنا ما زالت تطالبنا بتحريرها من العصبية، وما زالت تحفزنا لاستخلاص بعض المبادئ من التاريخ المغربي، وضمنيًا: طرح مسألة التضامن والتعايش والتلاحم بين فئات المجتمع المغربي من خلال وثيقة ١١ يناير ١٩٤٤ على اعتبار أن هذه الوثيقة شكلت نقطة تحول في تاريخ المغرب السياسي والاجتماعي. وأختم هذ المقال بذكر مقولة لأستاذنا المرحوم سيدي محمد زنيبر: "(...) وأن الحركة الوطنية هي تراثنا جميعًا من حقنا أن نهتم به كلنا وندافع عنه(...)".[٢٨]

## الهَوامِشُ:

(١) **سورة الأعراف**، الآية: ١٧٦.

(٢) **سورة يس**، الآية: ٣٠.

(٣) انظر: عبد الله هيتوت، **في ذكرى تقديم وثيقة الاستقلال**، ميثاق الرابطة، العدد٣٢،٤/١/٢٠١١.-"الذكرى الـ٦٥ لتقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال" نشر في جريدة العلم (المغربية) ١٢ - ٠١ – ٢٠٠٩.

(٤) انظر: جرمان عياش، **أصول حرب الريف**، مطبعة النجاح الجديدة، ١٩٩٢.- محمد العلمي، **زعيم الريف محمد عبد الكريم الخطابي**، نشر الشركة العالمية للكتاب، ١٩٠٠.

(٥) انظر: علال الفاسي، **الحركات الاستقلالية بالمغرب العربي**، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ١٩٩٢، ص١٥٣.

(٦) انظر: عبد الكريم غلاب، **تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب من نهاية الحرب الريفية حتى إعلان الاستقلال**، مطبعة النشر، البيضاء، ج١، ص١٩٤-١٩٥.

(٧) انظر: الحاج الحسن بوعياد، **الحركة الوطنية والظهير البربري لون أخر من نشاط الحركة الوطنية**، الدار البيضاء، ١٩٧٩، ص١٣-١٦ وما بعدها.

(٨) انظر: ميكل مارتن، **الاستعمار الاسباني في المغرب**، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ١٩٨٨.

(٩) انظر: عبد الكريم غلاب، **تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب من نهاية الحرب الريفية حتى اعلان الاستقلال**، م.س،ج١، ص٣٥.

(١٠) انظر: محمد السلوي أبو عزام، **المقاومة والوجدان: عن الشعب والذات**، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ١٩٩٠، ص١٨ وما بعدها.

(١١) انظر: عبد الحق المريني، **محمد الخامس**، الرباط، ١٩٨٨، ص١٩٦-١٩٨. رشيد ملين محمد، **نضال ملك**، المطبعة الملكية، الرباط، ط٢، ص٢٥٢. – محمد بن يوسف، **تاريخ استقلال المغرب**، دار الكتاب، الرباط، ١٩٧٥، ص١٣٥. – أبو بكر القادري، **مذكراتي في الحركة المغربية**، ج٢، ص١٨٣.

(١٢) كان رئيس جمعية قدماء تلامذة كوليج مولاي يوسف بالرباط، وقد وأورد أبو بكر القادري أنه كانت هناك ثلاث وفود فقط وتراس الوفد الثالث المهدي بن بركة الذي قدم الوثيقة إلى قنصل إنجلترا وقنصل الولايات المتحدة الأمريكية في الرباط، وانظر: أبو بكر القادري، **مذكراتي في الحركة الوطنية**، مطبعة النجاح الجديدة، ١٩٩٧، ج٢، ص١٨١- ١٨٦.

(١٣) انظر: وثيقة ١١ يناير ١٩٤٤، عبد السلام البكاري، البوكيلي للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٥، ص٣٤١.

(١٤) الذي كان رئيسًا لجمعية قدماء تلامذة ثانوية مولاي إدريس بفاس، وانظر: أبو بكر القادري، **مذكراتي في الحركة الوطنية**، ج٢، ص١٨١-١٨٥.

(١٥) انظر: عبد السلام البكاري، م.س، ص٣٤١.

(١٦) انظر: محمد خليل بوخريص، **وثيقة التحدي**، دار الثقافة، البيضاء، ١٩٩٥، ص١٣١. عبد الكريم غلاب، **تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب**، م.س، ص٢٧٦-٢٧٧.

(١٧) لقد قامت الجهات المعنية المغربية بتحويل هذا المنزل، إلى متحف للمقاومة وجيش التحرير، اعتبارًا للدور الذي لعبه مالكه في إخراج الوثيقة إلى حيز الوجود وتوقيعها من قبل ثلة من الوطنيين ممن

غادر غالبيتهم إلى دار البقاء، تاركين وراءهم بصمة تاريخية مهمة سيذكرهم بها جميع المغاربة وكل الأجيال ورغم المشكلات والعراقيل التي تقف حجر عثرة في وجه إخراج مشروع متحف المقاومة إلى الوجود. لكن هذا المنزل الحامل لرقم ٤ بالزنقة المذكورة، قيد رسميًا في عداد الآثار، اعتبارًا لكونه شهد توقيع وثيقة ١١ يناير ١٩٤٤، باعتبارها منعطفًا مهمًا في تاريخ الحركة الوطنية من أجل استقلال المغرب وفي ٨ يناير ٢٠٠٧ تقدم المندوب السامي لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، بطلب لتقييد المنزل ضمن الآثار، ما استجيب إليه ونشر في الجريدة الرسمية . وانظر جريدة الصباح (المغربية)، "منزل مكوار بفاس شاهد عصر على وثيقة الاستقلال"، الاثنين, ١٤ يناير ٢٠١٣.

(١٨) انظر: ادريس ابايا، "**وثيقة الاستقلال -عهد وفاء- بين ملك مخلص لوطنه وحزب قام بواجبه**"، جريدة العلم المغربية، ١٤-٢-٢٠١١.

(١٩) انظر: وثيقة ١١ يناير١٩٤٤،م.س، ص٢٣٧-٢٣٨.

(٢٠) انظر: مذكراتي في الحركة الوطنية، ج٢،م.س، ص١٩٠.

(٢١) **ديالكتيك في الفلسفة الكلاسيكية** هو الجدل أو المحاورة وتبادل الحجج والجدال بين طرفين دفاعًا عن وجهة نظر معينة. ويعتبر الديالكتيك الأساس الذي تبنى عليه الشيوعية بمعنى الجدل الذي يوصل إلى النظريات والقواعد التي تحكم الناس وتسير حياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية (أي الحاجة لمصدر). والمادية الديالكتيكية هي النظرة العالمية للحزب الماركسي اللينيني. وهي تدعى مادية ديالكتيكية لأن نهجها للظواهر الطبيعية، وأسلوبها في دراسة هذه الظواهر وتفهمها ديالكتيكي بينما تفسيرها للظواهر الطبيعية، وفكرتها عن هذه الظواهر، نظريتها مادية. والمادية التاريخية هي امتداد مبادئ المادية الديالكتيكية على دراسة الحياة الاجتماعية، تطبيق مبادئ المادية الديالكتيكية على ظواهر الحياة الاجتماعية وعلى دراسة المجتمع وتاريخه، والمادية التاريخية تأتي نظرية علمية حقًا في المجتمع وذلك تحديدًا لأنها تكشف عن الأساس الموضوعي المادي لمجمل الحياة الاجتماعية وتبين جوهر المجتمع البشري وتدرس قانونيات التاريخ العالمي... والديالكتيك عمومًا هو وحدة ونضال المتضادات عبر التاريخ؛ أي علم درس التناقضات في ماهية الأشياء نفسها.

(٢٢) انظر: علال الفاسي، **الحركات الاستقلالية في المغربي العربي**، م.س، ص٢٩٨.

(٢٣) انظر: عبد الكريم غلاب، **تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب**، م.س، ص٢٩١.

(٢٤) انظر: عبد الله الجراري، **شذرات تاريخية من ١٩٠٠ إلى ١٩٥٠**، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ١٩٨٦، ص١٤٠.

(٢٥) انظر: محمد بن عزوز حكيم، **وثائق تشهد**، مطبعة الساحل الرباط، ١٩٨٠، ص١١١.

(٢٦) انظر: عبد السلام البكاري، م.س، ص٣٤١.

(٢٧) انظر: جماعة من الدارسين، **في النهضة والتراكم**، دار توبقال، ١٩٨٦، ص١٠٠.

(٢٨) انظر: **صفحات من الوطنية المغربية: من الثورة الريفية إلى الحركة الوطنية**، طبع دار النشر المغربية، ١٩٩٠، ص١٤٩.

مقالات

# إسهام الحسبة في مراقبة وتنظيم النشاط الحرفي في المغرب زمن العلويين الأوائل

**د. محمد أعطيطي**
باحث في تاريخ المغرب الحديث
عضو هيئة التدريس بالثانوية التأهيلية الإمام الغزالي
نيابة سيدي بنور – المملكة المغربية

**مُلَخّصْ**

ارتبط تنظيم النشاط الحرفي ومراقبة منتجاته في المغرب زمن العلويين الأوائل بالدور الحيوي الذي اضطلعت به خطة الحسبة في الاشراف على الانشطة الاقتصادية. فقد حرص المحتسب على النظر في أعمال الحرف الصناعية وأصحابها عبر القيام بجولات يومية؛ لضمان جودة الانتاج ومحاربة جميع أصناف الغش التي تضر بمصالح المسلمين. ولا شك أن أهمية اسهام خطة الحسبة في تنظيم المجال الحرفي ومراقبته تستمد قوتها من حجم مهام المحتسب وطبيعة اختصاصاته ومكانته الوظيفية في صيانة الاقتصاد الاسلامي بوجه عام. فإلى جانب حمل الصناع والحرفيين على تحسين مستويات الإنتاجية الفردية والجماعية، استفاد الاقتصاد المغربي من تعزيز تنافسية الإنتاج الحرفي لفترة غير قصيرة من زمن العلويين الأوائل، ليصبح بعد ذلك عرضة لمختلف التهديدات الاجنبية، ومنها الاختراق التجاري الاجنبي، الذي زاحم الانتاج المحلي وتسبب في تراجع وكساد بعض المنتوجات الحرفية، منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي.

**بيانات المقال:**

تاريخ استلام المقال: ٢٠ فبراير ٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر: ٠٨ يونيو ٢٠١٥

**كلمات مفتاحية:**
تاريخ المغرب الحديث، التاريخ الاجتماعي والاقتصادي، تاريخ الفنون والحرف الصناعية

**معرِّف الوثيقة الرقمي:** DOI 10.12816/0045090

**الاستشهاد المرجعي بالمقال:**
محمد أعطيطي. "إسهام الحسبة في مراقبة وتنظيم النشاط الحرفي في المغرب زمن العلويين الأوائل".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد السابع والثلاثون؛ سبتمبر ٢٠١٧. ص ٨٠ – ٨٥.

## مُقَدِّمَةُ

ظلت خطة الحسبة على امتداد الفترة الحديثة من تاريخ الدولة العلوية ملازمة لنشاط الحرف في الحواضر المغربية، من خلال الأدوار التي كان يضطلع بها المحتسب في المجال الاقتصادي والاجتماعي. ونظرًا لمكانة هذا المنصب من حيث ارتباط أعماله بمراعاة مصالح المسلمين ودفع الضرر عنهم، كان قرار التعيين في شأنه يصدر عن أعلى سلطة في البلاد، بواسطة ظهير شريف بعد أن تتوفر في الشخص الذي أنيطت به تلك المهمة جملة من الشروط تجمع بين العلم والدين والمعرفة بسياسة الجمهور، فضلاً عن تمثل مجموعة من الخصال الحميدة التي تستجيب لطبيعة هذا المنصب. والواضح أن هذه العناية تعزى بالأساس إلى جسامة المهام المنوطة بصاحب الحسبة، ومنها على وجه الخصوص مراقبة الإنتاج الحرفي. وإذا ثبت اسهام هذا العمل الأخير في الحفاظ على جودة وسلامة المنتوجات الحرفية من تجاوزات بعض الحرفيين، فهل ذلك يعني أن المحتسب كان يقوم بدوره على أحسن وجه، أم أن غفلته في حالات مختلفة وضعف سلطته أحيانًا أخرى حالت دون ضبط مجال اختصاصه وسمحت بظهور بعض المخالفات على مستوى أعلى؟ ومهما كان الأمر، فقد برزت مسألة التحكيم في الوسط الحرفي لحسم مادة الخلاف بين المتنازعين، ومعاقبة الغشاشين بعقوبات تعزيرية مختلفة، كانت للمخزن مساهمة في إصدار وتنفيذ بعض أحكامها. تلك هي أهم القضايا التي نود الاسهام في تجليتها عبر عناصر هذه الدراسة.

## ١- تحديدات مفاهيمية

### ١/١- في مفهوم خطة الحسبة:

تُعَدّ خطة الحسبة ضمن أهم الخطط الدينية، التي لقيت اهتماما بالغًا، ليس فقط لدى العلماء والفقهاء قدامى كانوا أو

محدثين، وإنما أيضًا لدى ملوك الدولة المغربية على امتداد تاريخها الطويل، ولا يتسع المجال هنا لاستعراض ما أورده كل هؤلاء بخصوص هذا المصطلح، بما يحمله من دلالات عميقة وجليلة[١]، غير أن هذا لا يمنعنا من محاولة بسط هذا المفهوم بنوع من الاختصار والتركيز. وعليه، فأول ما يطالعنا في هذا الباب، ما تعنيه هذه الخطة من: أمر بالمعروف إذا ظهر تركه، ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله[٢]، ولمزيد من التوضيح والتدقيق، حسبنا ما جاء في تعريف أحمد المجيلدي، حيث قال: "اِعلم أن الحسبة من أعظم الخطط الدينية، وهي بين خطة القضاء وخطة الشرطة، جامعة بين نظر شرعي ديني، وزجر سياسي سلطاني، فلعموم مصلحتها، وعظيم منفعتها، تولى أمرها الخلفاء الراشدون والأمراء المهتدون لم يوكلوا أمرها إلى غيرهم مع ما كانوا فيه من شغل الجهاد، وتجهيز الجيوش للمكافحة والجلاد."[٣]

هذا، وقد بلغ من أهميتها في عصر الدولة العلوية، ومنذ عهد السلطان مولاي إسماعيل أن "انتدب المحتسب في مدينة مكناس للإشراف على أخطر صناعة في الدولة الشريفة، وهي صناعة البارود نيابة عن السلطة المخزنية الحكومية."[٤] ولا غرو، فإن الجهة التي تصدر قرار تعيين المحتسب، والشروط المتحكمة في ذلك، والآداب التي يتعين على المحتسب التحلي بها جديرة لأن تبوئه تلك المكانة السامقة، وهذا ما سنتعرف عليه في سياق هذا المقال.

**٢/١- في تعريف النشاط الحرفي:**

يحيل هذا التعبير على مجموع الانشطة الصناعية والحرفية بتعدد مناحيها وتنوع سبلها واختلاف أغراضها، لدرجة يصعب استقصاؤها وحصرها في إطار مستوعب، فهي تعبير جامع كثيف التركيز فيما يدل عليه. وبقدر ما تشير إليه من معالم اقتصادية واجتماعية ميزت المغرب خلال فترة الدراسة، بقدر ما تعكس بعض ملامحه الثقافية والفكرية والفنية. وبالجملة، فإنها تدخل ضمن دائرة الابداع الإنساني الذي يستحق كل الرعاية ضمانا لاستمرارية اشعاعه وتحقيقًا لوظيفته التي تجمع بين أبعاد اقتصادية واجتماعية وثقافية وفنية وتربوية. ولعل الخاصية التي ميزت هذه الانشطة كونها يدوية في الغالب الأعم، منها ما ارتبط بمعايش الناس بشكل مباشر خاصة الصناعات الحرفية النفعية كالنسيج والدباغة والخرازة والرحوية، ومنها ما اكتسى طابعا فنيا كالتزيين والزخرفة، ثم منها ما أخذ طابعًا خدماتيًا كالنقل والفندقة والوراقة.

## ٢- في طريقة وشروط تعيين المحتسب

يتم تعيين المحتسب بواسطة ظهير سلطاني، بعد أن يتم اختياره من بين التجار والحرفيين الأكثر ثراء وتجربة ونزاهة[٥]، لأن المصلحة العامة اقتضت ذلك، "ولأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (موضوع الحسبة) لو أطلق لكل واحد وسوغ له لاختلط المرعى بالهمل وظن كل واحد من نفسه أنه أهل لذلك فأدخل نفسه فيما ليس له الدخول فيه وترتب على ذلك من المفاسد أكثر مما أريد تغييره، ولذا قال العلماء: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له شروط لا يقدم عليه إلا بعد توفرها، فلهذا قصر الملوك والأمراء خطة الحسبة على شخص متأهل لها ولم يتركها لسائر الناس."[٦] تُرى، ما هي هذه الشروط التي تجعل من الفرد أهلا لأن يتقلد هذا المنصب، لما ينطوي عليه من مسؤولية جسيمة أمام العباد وأمام رب العباد ؟

يمكن التمييز بهذا الخصوص بين شروط عامة وأخرى خاصة ملزمة، فأما العامة فتتمثل فيما يلي: أن يكون ذكرًا، ومسلمًا وبالغًا[٧]. وأما الشروط الخاصة، فإنها تتلخص في جملة من الآداب يستحيل بدونها النهوض بأعباء وظيفة الحسبة، وبهذا يجب على من ولي النظر فيها أن يكون "فقيهًا في الدين، قائمًا مع الحق، نزيه النفس، عالي الهمة، معلوم العدالة، ذا أناة وحلم وتيقظ وفهم، عارفًا بجزيئات الأمور، وسياسة الجمهور، لا يستخفه طمع، ولا تلحقه هوادة، ولا تأخذه في اللّه لومة لائم، مع مهابة تمنع من الإذلال عليه، وترهب الجاني لديه."[٨] وليس ثمة شك في أن طبيعة المهام المنوطة بهذه الخطة هي التي فرضت هذا النوع من الشروط، فما هي أهم الاختصاصات المنبثقة عن هذه الوظيفة الدينية ؟

## ٣- في مهام المحتسب ومراقبته للحرف

كثيرة هي المهام التي أنيطت بالمحتسب إلى درجة يصعب حصرها، ومرجع ذلك بالأساس إلى ما يترتب عن مفهوم خطة الحسبة من التزامات ومقتضيات، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يطال مجالات الحياة باختلاف موضوعاتها، وتبعًا لذلك تعددت وتفرعت اختصاصات صاحب الحسبة من الإشراف على أخطر صناعة في الدولة العلوية، وهي صناعة البارود، إلى معاقبة مَنْ يدخل الحمام بدون مئزر، بيد أننا سنركز في حديثنا عن هذه المسألة على ما له علاقة بالحرف تحديدًا. ولعل القاعدة التي كانت تؤطر عمل المحتسب في جميع الأحوال هي: "أن يحتسب في كل ما يراه مصلحة للمسلمين، وأن ينظر في جميع الأمور الجليلة والحقيرة"[٩]، تحقيقًا لمبدأ "رفع الضرر على المسلمين."[١٠]

يمكن القول إذن؛ إن مهام المحتسب تشمل ما يلي:

- النظر "في المنكرات العامة في الأسواق، من غش وتدليس ومماطلة ومشاجرة، وفي المساجد وما يحصل لها من امتهان، وعدم قيام بحق أئمتها ومؤذنيها ومدرسيها، ونحو ذلك."[١١]
- النظر "في منكرات الحمامات، وحانات الدخان، ومجامع السفهاء والمجاهرين بها في الأسواق والشوارع."[١٢]

- السهر على أن يسود شيء من الاستقرار على أسعار الصرف من خلال تسعير المواد الضرورية.[١٣]
- النظر في الحرف والصنائع وأصحابها ومنتجاتهم.[١٤]
- النظر في القضايا التي ترفع إليه والتحكيم بين المتنازعين وإصدار الأوامر لمعاقبة الغشاشين في كل حرفة.[١٥]

هذا، وتظل مهمة مراقبة الحرف والصنائع، ضمن أبرز وأخطر المهام التي تتطلب قدرًا عاليًا من اليقظة والفطنة درءً لما قد يترتب عن ذلك من عواقب وخيمة نتيجة غفلة المحتسب عن هذا الدور. وبذا، فقد كان لزامًا عليه أن يقوم بجولات كل يوم، يتفقد ويراقب فيها أهل الحرف، ففي رباط الفتح مثلاً، كان المحتسب الجيلالي العدلاني "يدخل إلى الدكاكين ويتذوق طعم السمن والعسل والخبز والإسفنج وكان يمشي أمامه عونان واحد يحمل العصي والآخر يحمل أزفل (السوط)، فإذا ألقى غشا، قبض على الغشاش، وأمر بتمغيطه على الأرض وجلده جهارًا".[١٦] وفي مدينة فاس، كان المحتسب هو الذي "يلي البحث في مناسج الدرازين والحرارين، ويمنع مَنْ يحدث دخولاً وإفراغًا في النسيج أو نقصانًا في الحايك...".[١٧]

فهذا:

محتسب وجد حمل حطب
فوق حمار واقفا في مذهب
وربه يفطر في حانوت
وقف حتى تم في ثبوت
حمله طاقته واوقفا
حماره كذاك حتى علفا[١٨]

بهذا النوع من المراقبة والصرامة التي وفرت الحماية حتى للحيوان كان المحتسب يحول إلى حد كبير، دون استفحال ظاهرة التجاوزات التي تصدر عن الحرفيين، ومع ذلك لا بد من الإشارة إلى الدور الحاسم الذي كان يضطلع به السلطان نفسه من خلال تدخلاته العديدة لزجر المتلاعبين بمصالح المسلمين، ومن ذلك مثلاً: أن مولاي إسماعيل كان "يراقب بنفسه صناعة الخبز...يأخذ عينات من أفران متعددة فإذا وجدها من نوعية رديئة، أودون الوزن الذي ينص عليه القانون، ضرب رقبة صاحب المخبزة عقابًا له، وكان يتخذ نفس الإجراء مع تجار الفواكه، غير أن المحتسب هو الذي كان يتعرض لعقوبة الإعدام، أو يفقد وظيفته وأملاكه، إذا كانت نوعية البضائع رديئة..."[١٩].

وإذا كانت غفلة المحتسب عن مراقبة الحرف والصنائع تكلفه حياته في بعض الأحيان، فلأن تفريطه فيما أسند إليه تنتج عنه عواقب جسيمة ترتبط بمعايش الناس، ومنها بالخصوص المواد الغذائية، لهذا لا نستغرب في طريقة معاقبة أهل الجرائم في هذا الباب، إذ لما علم العاهل مولاي إسماعيل بفعلة طحاني مدينة مكناس، الذين عمدوا إلى مزج الدقيق بالجير "أحضر في الحين أمين الحنطة مع باقي الطحانين، فاعترفوا بجريمتهم الشنعاء بعد تهديدهم بالإعدام...(و) أمر السلطان بجرجرتهم بواسطة البغال عبر المدينة، البعض منهم لأنهم مذنبون، والبعض الآخر لأنهم لم يبلغوا بهم".[٢٠] يظهر من هذا النص حضور شخصية الأمين، وهو أمر طبيعي، لأن من جملة اختصاصاته مراقبة جودة الإنتاج الحرفي.

والظاهر، أن غفلة المحتسب لم ترتبط بالمجال المذكور فقط، بل نجد لها أثرًا كذلك في بعض الصنائع كقطاع النسيج وسك النقود، جاء عند صاحب نشر المثاني حول عاقبة غفلة المحتسب الطيب الريحاني عن مراقبة مناسج الدرازين، والحدادين بفاس، قوله: "... فأحدث الحرارون الفراغ في المناسج...وأحدث الدرازون الدخول في المناسج... فإذا نسج الحايك تجد طرفه في غاية الحسن... وصحة ورطوبة وبياضا ووسطه مثل الشبكة وكان الحجاج يشترون تلك الثياب ويبيعونها في طريقهم إلى طرابلس وفي أعمالها، ويحملون الدراهم والدنانير ويشترون ما يتقوتون به في الطريق فظهر النحاس في طرابلس في الدنانير والدراهم العام بعد العام وصارت الثياب تتقطع في وسطها، فشكا عامة الناس ما نزل بهم إلى التركي والي طرابلس وأعمالها، فأراد القبض على الحجاج، فكلمه في ذلك بعض فقهاء طرابلس وقال له: الحجاج لم يصنعوا الثياب بأيديهم وإنما هم اشتروها ممن صنعها، والدنانير والدراهم المنحسة ليسوا هم الذين ضربوها وإنما قبضوها في أمتعتهم، فاعلم سلطانهم بذلك فترك الحجاج وكتب رسالة تضمنت خبر ذلك إلى أمير المؤمنين مولانا عبد الله".[٢١] وبعد وصول الرسالة المذكورة "قرئت على العموم بفاس فاجتمع فقهاء المدينة وأمروا بتغيير المنكر، وعقاب الغشاشين وتحطيم الطرازات الفاسدة، وتعقب المكلف بضرب السكة".[٢٢]

يتضح من النص أعلاه؛ جسامة الموقف، حيث كادت غفلة المحتسب أن تؤدي إلى إفساد علاقة المغرب مع غيره من الدول التي تربطه معها علائق دبلوماسية وتجارية هامة، والحري بالذكر أن ما حدث كان خلال فترة أزمة الثلاثين سنة، بما انطوت عليه من فوضى واضطرابات، وما خلفته من انعكاسات على الأنشطة الاقتصادية، وبذا، يمكن القول: إنه بقدر ما يهيب الاستقرار بالتجار والحرفيين على إنماء تجارتهم وصناعتهم، مع الحفاظ على الجودة وسلامة المعاملات، يشجع اختلال الأمن على ظهور وانتشار تجاوزات الحرفيين بحدة أكثر. وقبل التعرف على نماذج من هذه التجاوزات، لا بد من الإشارة إلى أن المحتسب في مقابل وظائفه المهنية، كان يحصل من الأحباس على راتب شهري، فمن ذلك مثلا: أجرة محتسب تطوان، التي حددها السلطان مولاي سليمان بتسعة مثقال في الشهر،[٢٣] وهو الأمر الذي يناقض زعم

الكتابات الاستعمارية، حيث لم تكن ترى أن المخزن يؤاجر المحتسب على وظيفته، ففسرت بذلك تجاوزه في اقتطاع مبالغ مالية من مختلف الطوائف الحرفية.[٢٤]

## ٤- في ذكر تجاوزات بعض الحرفيين ومسألة التحكيم

عرفت الحياة الصناعية خلال فترة الدراسة تجاوزات بعض الحرفيين، الذين لا يرون إلا مصلحتهم ويستهترون بالمصالح العامة والقواعد والإجراءات التي تنظم الطوائف الحرفية، رغم صرامة القواعد الفقهية والإجراءات الرسمية التي تتراوح بين التهديد والزجر[٢٥] والطرد من المهنة[٢٦]، بل والإعدام أحيانا أخرى، كما مر بنا مع السلطان مولاي إسماعيل. على أن استعراض كل التجاوزات التي عرفتها فترة الدراسة ليس هو المراد، لأن ذلك يكاد يشكل في تقديرنا موضوعا قائما بذاته، وعليه سنكتفي بمحاولة إعطاء بعض النماذج التي تقربنا من حقيقة هذه الظاهرة، التي لم تسلم منها غالبية الطوائف الحرفية. فما المقصود إذن بتلك التجاوزات؟ وما هي الجهات المسؤولة عن محاكمة مَنْ يكون وراءها؟ وإلى أي مدى كانت قضية التحكيم تحد من خطورة وانتشار تلك الظاهرة؟

نقصد بتجاوزات بعض الحرفيين، مجموع المخالفات التي يقترفونها من تزوير وتدليس وتحريف (...) يمكن اختزالها في عبارة جرائم الغش. ومن الأمثلة على ذلك: ما تغش به صناعة الأطعمة، ويطلعنا صاحب الأقنوم عن هذه الظاهرة تحت عناوين منها: "ما يغش به الحوت "، و "ما يغش به الإسفنج والجبن"، ثم "عمل الكعك وما يغش به"[٢٧]، فضلاً عن صناعة الخبز التي حظيت على عهد مولاي إسماعيل بمراقبته لها شخصيًا، وإنزاله أقسى العقوبات في حق الذين نقصوا من الوزن القانوني المعمول به في هذه الصنعة، والذين خلطوا الدقيق مع الجير[٢٨]، كما قد يبيع أحدهم بسعر مرتفع[٢٩]، وفي حالة ثبوت ذلك على أحدهم، يلقى عقوبة صارمة حيث يطاف به في أرجاء المدينة وتنهال عليه الضربات والأحجار.[٣٠]

ومن نماذج التجاوز أيضًا، أولئك الذين يغشون في الكيل والميزان، وبخاصة الجزارين وبائعي الزيت والسمن، وغالبًا ما تكون الأحكام في حق هؤلاء قاسية، لبشاعة الجرم الذي يرتكبونه، حيث "يأمر (المحتسب) بأن يعلق في عنقهم قطعة من سلعتهم وبعد أن يجرد المجرم من الثياب إلا من السراويل، يسير مكتوف اليدين إلى ظهره متبوع بجلاد يطوفه عبر أزقة المدينة، وهو يعلن عن جريمته في جميع مفترقات الطرق، والأزقة التجارية الهامة، وينهال على كتفه بعدة ضربات من عصي شجر الرمان والسفرجل أو بأسواط من الجلد ثم يأتي به إلى الحاكم (المحتسب) فيرسل إلى مصادرة كل ما في دكانه لفائدة الملك ويزج به في السجن حيث يمكث ثلاثة أشهر أو أربعة حسب إرادة القاضي، لا يسمح له بالخروج إلا بعد أداء غرامة هامة... ولا شك أنه عقاب حسن يردع الآخرين عن خداع الجمهور".[٣١]

وإذا كانت المخالفات المذكورة وما يماثلها، يرجع فيها التحكيم إلى المحتسب بالدرجة الأولى ثم إلى الأمين، وفي بعض الأحيان إلى الحرفيين أنفسهم،[٣٢] فإن هناك نوعًا من التجاوزات التي يتدخل فيها السلطان فيعطي تعليماته، بناء على الفتاوى التي تصدر عن هيئة العلماء إزاء نازلة معينة، أو بناء على تقارير ترفع إليه من طرف من قلد النظر في أحوال أهل الحرف والصنائع، ونادرًا ما تأخذ تلك التوجيهات السلطانية شكل مرسوم توضح فيه قرارات السلطان والإجراءات التي يجب اتخاذها ضد المخالفين. هذا، وتطلعنا دراسة حديثة، عن أوضح وأقدم وثيقة تشخص التجاوزات، التي كان وراءها مجموعة من ذوي النفوذ بمدينة فاس، حيث عمدوا إلى إحدى السواقي التي يمر منها الماء فأحدث بعضهم فرطة وبعضهم الآخر قادوسا ومشارب، وكان غرضهم من كل ذلك استغلال المياه لفائدتهم الخاصة على حساب الجمهور.[٣٣]

ويبدو أن قضية التجاوزات، طالت جوانب كثيرة، منها ما يرتبط مباشرة بالحقل الحرفي، ومنها مجالات أخرى مارست تأثيرها على القطاع المذكور. ومن الميادين الحيوية التي لم تسلم من التجاوزات: مجال سك النقود، وظهر ذلك على وجه الخصوص خلال فترة الأزمة وانعدام الاستقرار، فلوحظ ذلك مع بداية الدولة العلوية، غير أن العاهل مولاي رشيد تدخل شخصيًا بعد تفرغه للنظر في أحوال المسلمين، فوضع حدا لظاهرة الغش التي عرفتها العملة المغربية عن طريق الضرب على أيدي المتلاعبين بها، وتغريق ذمتهم[٣٤]، كما تجدد ظهورها في أواخر عهد مولاي إسماعيل وما بعده.[٣٥] ومهما كان الأمر، فإن الحضور القوي للمحتسب في الحياة الاقتصادية كان هو الطابع الغالب خلال فترة الدراسة، مما أسهم في دعم تنافسية القطاعات الانتاجية بما في ذلك القطاع الحرفي.

## خَاتِمَةٌ

يمكن تسجيل أهم خلاصات واستنتاجات هذه الدراسة في جملة النقاط التالية:

- اختص ملوك الدولة العلوية على امتداد فترة الدراسة بجميع القضايا المتعلقة بالمحتسبين، سواء من حيث التعيين أو التوجيه أو المراقبة؛ لما يحمله اصطلاح الحسبة من أبعاد تربوية وإصلاحية هامة، إضافة إلى الاختصاصات المنبثقة عن مدلوله المهني.
- يمكن اعتبار الحقل الحرفي في تداخله بالمجال التجاري، أول وأخطر ميدان يشغل اهتمامات المحتسب، وإذا كنا لا نستطيع إنكار جهود صاحب الحسبة في السهر والنهوض بهذا القطاع، فثمة بعض القضايا السلبية التي شهدتها الحياة الحرفية، وكان من أهم الأسباب في ظهورها غفلة المحتسب عن دوره.

- اضطلع المخزن العلوي بدور تكميلي فيما يرتبط بمراقبة الحرف ومحاكمة الغشاشين، في الوقت الذي ظهر فيه عجز المحتسب عن متابعة جميع مهامه، ليس فقط لأنه كان يغفل عن رسالته في بعض الأحيان، وإنما أيضًا لضعف سلطته أمام بعض التجاوزات، التي كان بمقدور المخزن التصدي لها، كلما استتب الامن والاستقرار، أما في حالة الانفلات وضعف الجهاز المخزني، فإن الباب غالبًا ما يفتح على مصراعيه أمام المخالفين لارتكاب أبشع الجرائم، وهذا ما حدث خلال فترة أزمة الثلاثين سنة مباشرة بعد وفاة السلطان مولاي اسماعيل سنة ١٧٢٧م.
- تفاوتت خطورة التجاوزات التي عرفتها الحياة الحرفية، ونظرًا لانعكاساتها المباشرة على معايش الناس، كانت قضية التحكيم تستجيب لضرورة التدخل لوضع حد لكل تلاعب بالمصالح العامة، عن طريق عقاب المتجاوزين بعقوبات شملت الجلد والتشهير والحبس والغرامة والطرد من المهنة والنفي.[٣٦]
- أسهم الحضور القوي للحسبة في الحياة الحرفية في دفع الحرفيين والصناع لرعاية إنتاجهم من كل أصناف الغش، أما حالات التجاوزات التي سجلت خلال فترة الدراسة، فليس لها اعتبار كبير، كونها لا تطفو على السطح سوى في فترات الازمة.
- أهمية إعادة الاعتبار للمضامين الاخلاقية والحضارية التي تنطوي عليها خطة الحسبة، عوض الابقاء عليها كجهاز أو مكتب في إدارة، مجرد من الصلاحيات الحقيقية.

## الهَوامِشُ:

(١) تخلفت آثار عديدة حول موضوع الحسبة عبر تاريخها الطويل، نذكر من ذلك ما يأتي: -أبي الحسن الماوردي: **الأحكام السلطانية والولايات الدينية**، مكتبة الحلبي، القاهرة ١٩٦٦.- أحمد بن عبد الحليم بن تيمية: **الحسبة في الإسلام**، تحقيق صلاح عزام، دار الشعب، القاهرة ١٩٧٦.- محمد بن الأخوة بن أحمد القرشي: **معالم القربة في أحكام الحسبة**، تحقيق: محمد شعبان وصديق أحمد المطيعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٦.- عبد الرحمان بن نصر الشيزري: **نهاية الرتبة في طلب الحسبة**، تحقيق: السيد الباز العريني، دار الثقافة بيروت ن ط ٢ ١٩٨١.- ليفي بروفنسال: ثلاث **رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسبين**، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٥٥.- أحمد بن سعيد المجيلدي: **التيسير في أحكام التسعير**، تقديم وتحقيق موسى لقبال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ( د.ت).- عبد الرحمان أبوزيد بن عبد القادر الفاسي: **الأقنوم في مبادئ العلوم**، مخطوط خ.س ٦٥٨٥.- عبد السلام الناصري السلاوي: **التمييز والفرق بين موضوع خطة القضاء وخطة الولاية وخطة الحسبة**، مخطوط خ.ع D٢٢٩٥.

(٢) أبي الحسن الماوردي: **الأحكام السلطانية والولايات الدينية**، مصدر سابق، ص: ٢٤.

(٣) أحمد بن سعيد المجيلدي: **التيسير في أحكام التسعير**، مصدر سابق، ص: ٤٢.

(٤) المرجع نفسه ص: ٦.

(5) L. Mercier: "L`administration Marocaine a Rabat" A.M , V. VII 1906, PP: 392-393.

(٦) عبد السلام الناصري السلاوي: **التمييز والفرق بين موضوع خطة القضاء وخطة الولاية وخطة الحسبة**، مصدر سابق، ص: ٨.

(٧) انظر: **التيسير في أحكام التسعير**، مصدر سابق، ص: ٤٢ وما بعدها

(٨) شوقي أبو خليل: **الحضارة العربية الإسلامية، كلية الدعوة الإسلامية**، طرابلس ١٩٨٧، ص: ١٦٧.

(٩) أحمد بن سعيد المجيلدي: مصدر سابق، ص: ٤٤.

(١٠) المصدر نفسه، ص: ٧٢.

(١١) يمكن الرجوع أيضًا إلى: مصطفى بوشعراء: **الاستيطان والحماية بالمغرب (١٨٦٣-١٨٩٤)** ط١، المطبعة الملكية، الرباط ١٩٨٤، ١: ٢٦٥.

(١٢) المصدر السابق، ص: ٨.

(١٣) روجي لوتورنو: **فاس قبل الحماية**، ترجمة محمد حجي_ محمد الأخضر، دار الغرب **الإسلامي**، بيروت١٩٨٦،: ٤٢٦.

-Mercier (L.): L`administration..., op. cit, P: 393.

(١٤) محمد داوود: **"من قضاة تطوان وعدولها ووثائقها في القرنين ١٠ و١١ هـ"** مجلة تطوان ع/٢ ١٩٥٧، دار كريماديس للطباعة، تطوان، ص: ٨٣.

(١٥) مصطفى بوشعراء: **الاستيطان والحماية بالمغرب**، مرجع سابق، ١: ٢٦٨.

(١٦) المرجع نفسه، ١: ٢٦٨.

(١٧) محمد بن الطيب القادري: **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني عشر**، تحقيق: محمد حجي _أحمد توفيق، مكتبة الطالب، الرباط ١٩٨٦، ٤: ١٠٦.

(١٨) عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي: **الأقنوم في مبادئ العلوم**، مصدر سابق، ورقة: ٢٢٨/أ.

(١٩) جوزف دي ليون، نقلا عن محمد الأمين البزاز: **تاريخ الأوبئة والمجاعات في المغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٢، ص:٣٦٥.

(٢٠) المرجع نفسه، ص: ٣٦٦.

(٢١) محمد بن الطيب القادري: **نشر المثاني**، مصدر سابق، ٤: ١٠٦-١٠٧.

(٢٢) مصطفى بوشعراء: **الاستيطان والحماية بالمغرب**، مرجع سابق، ١: ٢٧٠

(٢٣) انظر: محمد داود: **تاريخ تطوان** ، المطبعة الملكية، الرباط، ٨: ٤١.

(24) Eugène Aubin**: le Maroc d`aujourd`hui**, Paris 1905, P: 304.

(٢٥) عبد الرحمان ملولي إدريسي: **النسق المائي لمدينة فاس الى نهاية القرن (١٣هـ/ ١٩)**، دراسة تاريخية ميدانية وثائقية (د.د.ع، كلية الآداب، فاس١٩٩٨)، ٢: ٣٣٦.

(٢٦) انظر: **الاستيطان والحماية بالمغرب**، مرجع سابق، ١: ٢٣٥

(٢٧) عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي: **الأقنوم في مبادئ العلوم**، مصدر سابق، الورقتان: ٢٢٤/ب، ٢٢٥/أ.

(٢٨) إدريس أبو إدريس: **المغرب في النصف الأول من القرن ١٨** (د.د.ع، كلية الآداب فاس ١٩٨٧)، ص: ٧٣-٧٤.

(٢٩) راجع حول مسألة: "**رفع سعر الواحد والاثنين لسعر الجماعة**" عند أحمد بن سعيد المجيلدي: التيسير في أحكام التسعير..، مصدر سابق، ص: ٦١ وما بعدها.

(30) D. Busnot: Histoire du règne de Moulay Ismail, Rouen 1731, P:155.

(٣١) ج. مويط: **رحلة الأسير مويط**، ترجمه إلى العربية: محمد حجي، محمد الأخضر، مركز الدراسات والبحوث العلوية الريصاني، دار المناهل للطباعة والنشر ١٩٩٠، ص: ١٢٧-١٢٨.

(٣٢) انظر: **الاستيطان والحماية بالمغرب**، مرجع سابق، ١: ٢٣٥.

(٣٣) حول تفاصيل وتوضيحات المخالفات المذكورة، انظر: عبد الرحمان ملولي إدريسي: النسق المائي بمدينة فاس..، مرجع سابق، ٣: ٤٦٩.

(٣٤) محمد الكردودي (ت.١٢٦٨هـ/١٨٥٢): **الدر المنضد الفاخر، بما لأنباء مولانا علي الشريف من المحاسن والمفاخر**، مخطوط خ.س ١١٦٧٦، ورقة ٢٩/أ.

(٣٥) لمزيد من التفصيل يمكن العودة إلى مقالتنا: **نموذج لظاهرة الغش في الحرف والصنائع المخزنية خلال النصف الأول من القرن ١٨م**، دورية كان التاريخية العدد ١٨، ٢٠١٢، ص:٨١-٨٥.

(٣٦) ورد مثل هذا الكلام عند جواد الغماري: **جرائم الغش في البضائع**، دراسة-شرح-نصوص، مطبعة النجاح الجديدة، ط.٢. ٢٠٠٢، ص: ٤٠ -٤١. وهذا صاحب **الأقنوم**، يعرض بطريقته الخاصة جانبا من العقوبات التي تنفذ في حق الغشاشين بقوله:

أيضًا فللمحتسب التمزيق — والكسر والإراقة التحريف

والضرب والطواف بالمضروب — ويتلف الشيء الذي يعيب

عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي، ورقة: ٢٢٨/ب.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].



# التاريخ السياسي لمملكة كوموخ الحيثية الحديثة

**محمد رشاد جبر المقدم**
مدرس التاريخ القديم المساعد
كلية الآداب
جامعة دمنهور – جمهورية مصر العربية

## مُلَخّصْ

يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على التاريخ السياسي لمملكة كوموخ منذ القرن التاسع ق.م، وحتى سقوطها على أيدي الآشوريين في عام ٧٠٨ ق.م، حيث يعد محاولة لفهم طبيعية العلاقات السياسية والعسكرية التي سادت بين مملكة كوموخ والدويلات الحيثية الأخرى، كما يهدف في الوقت ذاته إلى رصد علاقة مملكة كوموخ بالقوى الكبرى المجاورة لاسيما آشور، حيث تبين من البحث أن كوموخ قد سلكت مسلكًا رمي إلى مهادنة الآشوريين في سياستها الخارجية، فبقيت بمعزل عن كثير من المحن، وجنت فوائد التجارة، كما كسبت بهذه السياسة الدعم العسكري الآشوري في صراعاتها الإقليمية مع الدويلات الحيثية المجاورة، ويستدل على ذلك من قيام الملك الآشوري أداد نيراري الثالث في عام ٨٠٥ ق.م بترسيم الحدود بين مملكتي كوموخ وجورجوم لصالح كوموخ في عهد ملكها شوبيلوليوما، وتكرر الشيء نفسه في عام ٧٧٣ ق.م على يد الملك الآشوري شلمنصر الرابع. وفي المقابل كان التحالف الآشوري مع كوموخ في غاية الأهمية أيضًا بالنسبة للآشوريين، ويعزي ذلك إلى سيطرة كوموخ على مخاضة بازارجيك، حيث اتاحت للآشوريين الوصول إلى الطرق الشمالية الغربية نحو جورجوم وجبال طوروس الغنية بالموارد المعدنية، زد على ذلك أن التحالف مع كوموخ كان بمثابة كبح جماح لقوة كركميش، حيث أصبحت الأخيرة بين الحليف الآشوري في الشمال والحضور العسكري الآشوري في تل برسيب في الجنوب. ثم ما لبث أن تغيرت الأوضاع الإقليمية بعد نجاح الملك الأورارتي ساردوري الثاني في فرض السيادة الأورارتية على مملكة كوموخ في عام ٧٤٦ ق.م، غير أن الملك الآشوري تجلات بلاسر الثالث سرعان ما استعاد سيادة بلاده على كوموخ، وذلك بعدما تمكن من هزيمة الأورارتيين في كشتان في عام ٧٤٣ ق.م، وبموجب هذه الهزيمة استردت كوموخ صفتها بوصفها العميل الآشوري المفضل، لدرجة أن سرجون الثاني أضاف إلي حاكمها موتاللي مملكة ميليد- عندما تم تقطيع أوصالها على أيدي الآشوريين في عام ٧١٢ق.م- كما منحه بعض أراضي سمعال، بيد أن هذه التبعية انتهت فجأة وبصورة وحشية، وذلك عندما امتنع موتاللي عن دفع الجزية للآشوريين، وأرتمى في أحضان الأورارتيين، الأمر الذي دفع سرجون الثاني للإطاحة بموتاللي، وتحويل كوموخ إلى مقاطعة آشورية في عام ٧٠٨ق.م.

**بيانات الدراسة:**
تاريخ استلام البحث: ١٠ يونيو ٢٠١٦
تاريخ قبـول النشـر: ٢٧ نوفمبر ٢٠١٦

**كلمات مفتاحية:**
مملكة كوموخ، الدولة الآشورية، عصر الحديد ، الدولة الحيثية

**معرّف الوثيقة الرقمي:** DOI 10.12816/0045091

**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**
محمد رشاد جبر المقدم. "التاريخ السياسي لمملكة كوموخ الحيثية الحديثة".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد السابع والثلاثون؛ سبتمبر ٢٠١٧. ص٨٦ – ٩٦.

## مُقَدِّمَةُ

تشغل مملكة كوموخ في الوقت الحاضر مدينة أديامان الواقعة في جنوب شرق تركيا.[١] وكان يحدها من الشمال مملكة ميليد، في حين حدها من الجنوب مملكة كركميش، ومن الغرب مملكة جورجوم الحيثية، حيث كانت هناك حدود مشتركة بين كوموخ وجورجوم عند بازارجيك، وربما كان يحدها من الغرب أيضًا مملكة سمعأل وأرباد[٢]، ومن الشرق نهر الفرات، وبذلك تكون المملكة قد سيطرت على امتداد لا يُستهان به على طول الضفة الغربية لنهر الفرات.[٣] هذا وتذكر لنا المصادر المحلية والأجنبية المعاصرة بعض المدن التي تتألف منها مملكة كوموخ، حيث ذكرت المصادر المحلية المدن النهرية التي تعرف باسم ساريتا (Sarita)

وسوكيتا (Sukita)، في حين ذُكرت أويتا (Uita)، وبارالا (Parala)، وحلبا (Halpa) من قبل ساردوري الثاني ملك أورارتو (٧٥٦-٧٣٠ق.م)، بينما ذُكرت خلبا وكشتان من قبل تجلات بلاسر الثالث (٧٤٥-٧٢٧ق.م)، ولم يتم تحديد موقع أي منهما بشكل قاطع حتى الآن.[٤]

هناك مَنْ يرى أن كوموخ تُحدد بمدينة كوموها (Kummaha) المذكورة في النصوص الحيثية التي ترجع إلى العصر الحيثي الوسيط (١٤٥٠-١٣٥٠ ق.م)، لاسيما وأن الارتباط اللاحق مع ألذي (Alzi) وباخوا (Paḫḫuwa)[٥] وإيشوا (Išuwa)[٦] يجعل من التحديد أمرًا مقبولاً، ويُدعم هذه الفرضية أيضًا الإشارات الآشورية التي تعود إلى عهد توكلتي نينورتا الأول (١٢٤٤-١٢٠٨ ق.م)، والتي تظهر فيها أرض كوموخ عوضًا عن مدينة ألذي المعتادة، وهذا يعني ببساطة إنها كانت معروفة للآشوريين زمن الإمبراطورية الحيثية.[٧] في حين ذُكرت كوموخ في العصر الآشوري الحديث بصيغة (KUR/URU)،

kum/ku(-um)-muḫ/mu(-uḫ)-ḫa/ḫi

بينما جاءت في المصادر الأورارتية بصيغة كوموها (KUR -qu ma-ḫa)، وهي الصيغة التي تُطلق عليها في المصادر المحلية، أما في النصوص البابلية فقد ورد اسمها بصيغة كيموخي(Kimuḫi)،[٨] وفي العصرين اليوناني والروماني عُرفت المملكة باسم كوماجين (Commagene).[٩]

أما عاصمة المملكة، فكانت تُعرف أيضًا باسم كوموخ، والتي تُحدد في العصرين اليوناني والروماني بمدينة (Samosata) ساموساتا (Samsat سمسات المعاصرة).[١٠] وينبغي عدم الالتباس بين كوموخ وكومي (Kumme) الواقعة بالقرب من زاخو (Zakho) المعاصرة، كما ينبغي أيضًا عدم الخلط بينها وبين كتموخي (Katmuhu) الواقعة على الضفة الغربية لنهر دجلة بالقرب من سهل سيزر.[١١]

## ملوك مملكة كوموخ في الفترة الحيثية الحديثة

ليس هناك شيءٌ معروف عن كوموخ في عصر البرونز المتأخر (١٥٥٠-١٢٠٠ ق.م) سوى أن موقعها بين الأراضي الحيثية والميتانية في النصف الأول من هذه الفترة، لابد أنه أعطاها بعض الأهمية الاستراتيجية في النزاعات السياسية بين المملكتين.[١٢] ولا تبين الأدلة الأثرية أو النصية بشكل قاطع ما إذا كانت المملكة قد تأسست في بداية عصر الحديد[١٣] أم لا؟،[١٤] حيث جاءت الإشارات الأولى لكوموخ بوصفها مملكة في السجلات الآشورية التي تعود إلى عام ٨٦٦ ق.م.[١٥] لكن من المحتمل أن تاريخها بدأ كمملكة فرعية تابعة لكركميش، حيث كانت كركميش تستحوذ على المنطقة الممتدة من إيمار في الجنوب، وحتى ملاطية في الشمال أثناء حكم كوزي تيشوب في بدايات القرن الثاني عشر ق.م، وبالتالي كانت تشكل جزءًا من مملكة كركميش خلال هذا العهد، واستمرت تابعة لمملكة كركميش حتى انفصلت عنها في بداية القرن التاسع ق.م.[١٦]

والجدير ذكره؛ أن أربعة من ملوك كوموخ الستة حملوا الأسماء نفسها، التي كان يحملها الملوك الحيثيون في عصر البرونز المتأخر، لذا فهناك مَنْ يفترض أن الملك المعروف باسم تودهاليا في نقش كيليكلي (Kelekli)،[١٧] والذي تزوج من ابنة ملك كركميش هو أحد حكام كوموخ، وإذ كان الحال على هذا النحو، فلا غرو أن أقرر بأن تاريخ كوموخ - كمملكة مستقلة - بدأ في القرن العاشر ق.م وليس القرن التاسع ق.م، حيث نقش كيليكلي يعود إلى القرن العاشر ق.م. وعلى أية حال، فيمكن رصد تاريخ كوموخ السياسي من السجلات الآشورية التي ترجع إلى عام ٨٦٦ وحتى عام ٦٠٥ ق.م، ومن حوليات ساردوري الثاني ملك أورارتو (٧٥٦-٧٣٠ق.م)، ومن النقوش الهيروغليفية اللوية[١٨]، ويمكن تتبع حكام كوموخ المعروفين من السجلات الآشورية والأورارتية والنصوص الهيروغليفية اللوية على النحو التالي:

### ١- هاتوشيلي أو قاتازايلي في المصادر الآشورية ( ٨٦٦-٨٥٤ق.م)

يُعَدّ أول ملوك كوموخ المعروفين في المصادر الأجنبية المعاصرة والمحلية على حد سواء، وتعود الإشارات الأولى لهذا الملك إلى عام ٨٦٦ ق.م، وذلك عندما عبر الملك الآشوري آشور ناصر بال الثاني (٨٨٣-٨٥٨ق.م) نهر البليخ في طريقه إلى (Khuzirina) خوزيرينا (Sultantepe سلطان تبه الحالية)، حيث تلقى الإتاوة والتبعية من مناطق متعددة، بما في ذلك كوموخ في ظل زعامة ملكها هاتوشيلي. وتشير الإتاوة التي قدمها هاتوشيلي للآشوريين إلى أن كوموخ كانت ثرية بأخشاب الأرز والمعادن لاسيما الفضة والحديد،[١٩] وهو ثراء ظل معروفًا عن المنطقة التي كانت قابعة على أرضها مملكة كوموخ حتى عهد قريب، غير أن الإنسان المعاصر بدأ في تقطيع هذه الأخشاب واستخدمها كوقود.[٢٠]

ولم تتغير سياسة هاتوشيلي تجاه الدولة الآشورية بمجرد أن اعتلى عرشها ملك جديد، بل ظل محافظًا على ولائه للملك الآشوري الجديد شلمنصر الثالث (٨٥٨-٨٢٤ ق.م)، حيث خضع له دون قتال في عام ٨٥٨ ق.م، وذلك عندما عبر شلمنصر الثالث نهر الفرات في طريقه إلى باقرخوبونو[٢١] ( /Paqirahubuna Paqaraḫubunu) وجورجوم.[٢٢] وفي العام التالي قدم للدولة الآشورية إتاوة من الأخشاب والفضة، حيث تذكر المصادر الآشورية أن كوموخ زودت آشور في ذلك العام ب ٢٠ مينا من الفضة، إلى جانب (٣٠٠) قطعة من خشب الأرز،[٢٣] وعلاوة على ذلك لم تظهر كوموخ أي نشاط معادٍ للآشوريين، بل على العكس من ذلك، كانت لها ميول واضحة نحو سياسة الآشوريين في المنطقة.[٢٤]

## ٢- كونداشبي

تولى كونداشبي حكم كوموخ بعد هاتوشيلي، ومن غير المعروف عما إذا كان ينتمي إلى أسرة هاتوشيلي أم لا، حيث لم ينسب له أية نقوش توضح العلاقة بينهما، ولكن يمكن القول أنه في حالة عدم وجود وريث للعرش من الدم الملكي، فإن السلطة قد تم تمريرها إلى صهر من خارج العائلة المالكة، والذي أقر عن طريق الزواج منها.[٢٥] وكيفما كان الأمر، فمن المرجح جدًا أن ارتقاءه إلى العرش حدث في الفترة الممتدة بين عامي (٨٥٧- ٨٥٣) ق.م، حيث تعود الإشارة الأخيرة للملك هاتوشيلي إلى عام ٨٥٧ ق.م،[٢٦] ولم يُذكر كونداشبي إلا في عام ٨٥٣ ق.م، وذلك عندما بدأ شلمنصر الثالث تأكيد سيطرته على شمال سوريا، من خلال حملة عسكرية، لم تكن هي الأولى من نوعها، بل سبقها عددٌ من الحملات الأخرى في شمال سوريا، وكان من ثمار هذه الحملة أن تلقى الملك الآشوري الضرائب في مدينته الجديدة "أنا - آشور- اوتر-اصبات"[٢٧] من بعض حكام الدويلات الحيثية الحديثة[٢٨] بما في ذلك حاكم كوموخ المدعو كونداشبي الذي قدم الضرائب له بمحض إرادته. [٢٩]

ومن الجلي البين؛ أن كوموخ قد سلكت مسلكًا رمى إلى مهادنة الآشوريين، فبقيت بمعزل عن كثير من المحن، وجنت فوائد التجارة، وحافظت على استقلالها، على عكس عدد من الدويلات الحيثية والآرامية، التي انتهجت سياسة مناهضة للدولة الآشورية في ذلك الوقت، على سبيل المثال لا الحصر بيت عديني التي فقدت استقلالها في عام ٨٥٦ ق.م من جراء سياستها المناهضة للمصالح الآشورية في المنطقة.[٣٠] وبالمثل كان التحالف الآشوري مع كوموخ في غاية الأهمية أيضًا بالنسبة للآشوريين وقتذاك، ويعزي ذلك إلى سببين، أولهما: سيطرة كوموخ على مخاضة بازارجيك، حيث اتاحت للآشوريين الوصول إلى الطرق الشمالية الغربية نحو جورجوم وجبال طوروس الغنية بالموارد المعدنية، أما ثانيهما: فهو أن التحالف مع كوموخ كان بمثابة كبح جماح لقوة كركميش، حيث أصبحت كركميش بين الحليف الآشوري في الشمال والحضور العسكري الآشوري في تل برسيب في الجنوب.[٣١]

## ٣- شوبيلوليوما أو أوشبيلولوما في المصادر الآشورية (٨٠٥-٧٧٣ق.م)

ليس هناك نقوش تشير إلى الفارق الزمني بين نهاية عهد كونداشبي واعتلاء شوبيلوليوما للعرش الكوموخي، ولكن إذا نمى إلى علم القارئ أن شوبيلوليوما قد شغل عرش كوموخ حتى عام ٧٧٣ق.م، فإن ذلك ربما يشير إلى أن ملك واحد يجب أن يكون قد سبقه على الأقل بعد وفاة كونداشبي.[٣٢] وعلى أية حال، فقد استمرت كوموخ على ولائها للآشوريين في هذا العهد، ويُستدل على ذلك من مسلة بازارجيك،[٣٣] والتي تشير إلى أن ملك كوموخ المدعو شوبيلوليوما استدعى الملك الآشوري أداد نيراري الثالث ووالدته[٣٤] لدعمه ضد أتارشومكي حاكم أرباد وثمانية من حلفائه في عام ٨٠٥ ق.م،[٣٥] حيث يذكر النص ما يلي:

"عندما حمل أوشبيلولوما، ملك الكوموخيين أدد-نيراري ملك آشور، (و) سميراميس سيدة القصر، على عبور الفرات، خضتُ معركة ضارية ضدهم-ضد أتارشومكي ابن أدرامو(حاكم) مدينة أرباد، فضلاً عن ثمانية ملوك كانوا معه في مدينة باقاراخوبونو، واستوليتُ على معسكرهم، ولكي ينجوا بأرواحهم اختفوا.(و) في هذا العام (ذاته) أقاموا هذا الحد الحجري بين أوشبيلولوما ملك الكوموخيين وقالبارودا (Qalparuda) ابن بالالام (Palalam) ملك الجرجوميين"[٣٦]

وهناك نص[٣٧] آخر يؤكد على سيطرته على ملك أرباد: "[بأمر من آشور] حشدت معسكري (ثم) [أمرت بالزحف] نحو أرض حاتي. عبرت الفرات أثناء الفيضان (ثم) نزلت [إلى ....] بونا . أتارشومكي، [ابن أدارمو(...) فضلاً عن] ملوك أرض حاتي الذين تمردوا و [احتفظوا بالاتاوة (...) ] ... خلال عام واحد أخضعت أرض حاتي برمتها ...". [٣٨]

ويُعَدّ هذا دلالة واضحة على التدخل الآشوري في الصراع الإقليمي لصالح الموالين لسياسة الآشوريين، حيث رفض ملك كوموخ في ذلك الوقت الانضمام لأي تحالف مناهض للآشوريين،[٣٩] واختار أن يبقى مخلصًا لآشور، فما كان من الملك الآشوري أداد نيراري الثالث، إلا أن قام بترسيم الحدود بين كوموخ وجورجوم لصالح كوموخ.[٤٠] ويبدو أن التسوية التي فرضها أداد نيراري الثالث لم تنهِ هذا الصراع بشكل حاسم، وإنما كانت بمثابة ردع مؤقت، حيث تدخل شلمنصر الرابع نجل أداد نيراري الثالث مرة ثانية لصالح كوموخ في عام ٧٧٣ق.م، وذلك حينما أرسل التورتان شمشي إيلو لإعادة تأكيد التسوية الأولى، بعد حملته ضد Hadiani ملك دمشق، فقد جاء في المصادر الآشورية ما يلي: "في أثناء عودتي (من دمشق) منحت هذا الحد الحجري لأوشبيلولوما ملك الكوموخيين".[٤١]

ويشير ذلك إلى استنتاج مفاده أن الادعاءات الإقليمية لمملكة جورجوم لم تتوقف بعد تسوية عام ٨٠٥ ق.م، وربما استمرت أيضًا بعد تسوية عام ٧٧٣ق.م، [٤٢] كما يشير في الوقت ذاته إلى أن التورتان شمشي إيلو أظهر دورًا دبلوماسيًا بارزًا حينذاك، حيث توضح إعادة ترسيم الحدود بين كوموخ وجورجوم إدراكه للسياسات المحلية، وتأثيرها على المصالح الآشورية.[٤٣] أما عن سياسة شوبيلوليوما الداخلية، فليس هناك نقوش تروي أعماله الداخلية سوى النقش الذي يُنسب لزوجته اهتمامها بالآلهة والمعابد، حيث يخبرنا نقش بوي بِيَناري،[٤٤] أن باناموواتي (Panamuwati) زوجة شوبيلوليوما قامت بإنشاء عرش ومنضدة للإلهة كوبابا،[٤٥] وربما كان هذا بتشجيع ورعاية زوجها الملك شوبيلوليوما.

## ٤- هاتوشيلي الثاني

اعتلى عرش كوموخ بعد الملك شوبيلوليوما نجله هاتوشيلي الثاني، ويظهر ذلك واضحًا في النقش الذي كتبه رجلٌ يُدعى أتايازا (Atayaza)، والذي يصف نفسه بخادم هاتوشيلي.[٤٦] وعلى الرغم من قلة النقوش التي تُنسب إلى عهد هذا الملك، غير أنها تنفرد بذكر اسم المملكة للمرة الأولى في النقوش اللوية الهيروغليفية، وعلاوة على ذلك، تروي هذه النقوش أن مملكة كوموخ كانت تضم مدينتين تُعرفان باسم ساريتا وسوكيتا، والتي يمكن تحديد موقعهما بالقرب من مالبينار Malpinar الواقعة عند إلتقاء نهر الفرات بنهر جوكسو.[٤٧] أما فيما يتعلق بمأثر عهده، فلم يعثر المنقبون حتى الآن على أية نقوش تتحدث عن سياسته الداخلية أو الخارجية.

## ٥- كوشتاشبيلى

تولى عرش كوموخ بعد هاتوشيلي الثاني، وأُجبر على التخلي عن الدولة الآشورية، والانضمام إلى ساردوري الثاني ملك أورارتو،[٤٨]عندما تحركت القوات الأورارتية في عام ٧٤٦ أو ٧٤٤ قبل الميلاد إلى مملكة كوموخ، ونجحت في إحراز نصر عسكري دفع كوشتاشبيلى للإذعان للملك الأورارتي، و تقديم فروض الولاء والطاعة،[٤٩] فقد جاء في النص ما يلي: "لقد خرج المعبود خالدي (في حملة) بسلاحه؟ وانتصر على بلاد كوماخالخي، وأسقطها أمام ساردورى ابن أرجيستي: خالدي قوى، أسلحة الإله خالدي قوية، خرج ساردورى ابن أرجيستي (فى حملة). يقول ساردورى: كوشتاشبيلى ملك بلاد كوماخا كان مستقلاً، ولا أحد من ملوك (أورارتو) كان هناك. يقول ساردورى ابن أرجيستي: تضرعت إلى المعبود خالدي، الرب، وإلى المعبود تيشبا، وإلى كل آلهة بلاد بيانائيلى، بما أردت فعله في البلاد المعادية، استمعت الآلهة إلى طلبي، و فتحت الطريق أمامي، فخرجت (في حملة) ضد بلاد كوماخا، مدينة أويتا[٥٠]، المدينة الملكية أخذتها حربًا، استوليتُ على مدينة حلبا،[٥١] المدينة الملكية الواقعة في منطقة بحيرات، استوليتُ على مدينه بارالاني.[٥٢] جاء كوشتاشبيلي أمامي راكعًا، منحته الحياة وأعطى لي جزية من ٤٠ مينا من الذهب النقي، ٨٠٠ مينا من الفضة، ٣٠٠٠ (قطعة) ثياب و٢٠٠٠ من الألواح النحاسية، و١٥٣٥ من الأوعية النحاسية...".[٥٣]

ويلاحظ؛ أن النص يتضمن إشارات ذات مغزى تتفق وما نحن بصدد الحديث عنه، فهو يشير بوضوح إلى ثراء كوموخ، والذي كان حافزًا للأورارتيين للقيام بهذه الحملة، كما يمكن للمرء أن يفترض أن هذه الحملة كانت حصيلة سياسة كوموخ الدائمة الموالية لآشور، والتي بسببها اضطر كوشتاشبيلى إلي الانضواء تحت لواء الدولة الأورارتية،[٥٤] لاسيما وأن القائد الآشوري شمشي إيلو لم يُحَرِّكْ سَاكِنًا أمام الغزاة الأورارتيين؛ بسبب حالة الضعف[٥٥] التي كانت تدب في أوصال الدولة الآشورية وقتذاك.[٥٦] ويرى بعض الباحثين أن ساردورى لم يكن يرمى من وراء هذه الحملة إلى تأسيس حكم عسكري أورارتى في المنطقة، وإنما عمد إلى خلق تغيير في التركيبة القبلية والعصبية للمنطقة، من خلال السياسة التي عُرفت باسم سياسة التهجير والتوطين القسرية، والتي بتطبيقها نجح في تحقيق استفادة اقتصادية كبيرة في تلك المنطقة، وبفرض السيطرة الأورارتية على كوموخ، نجحت أورارتو في فرض سيطرتها على مسافة كبيرة من الطريق التجاري إلى البحر الأبيض المتوسط.[٥٧] غير أن أورارتو لم تحاول إقامة عناصر التحكم في شمال سوريا، بما في ذلك المستوطنات الآشورية التي تُركت على حالها، والنتيجة المتوقعة لمثل هذه السياسة هي أنه بمجرد أن يرتقي حاكم قوى على عرش آشور، فإن ذلك سيدفع ميزان القوى إلى اتجاه مغاير لصالح الآشوريين.[٥٨]

وفي عام ٧٤٥ قبل الميلاد ارتقى تجلات بلاسر الثالث (٧٤٥-٧٢٧ق.م) إلى العرش الآشوري بعد مقتل آشور نيراري الخامس من جراء ثورة القصر،[٥٩] وقد عمل الملك على إعادة الإمبراطورية الآشورية إلي سابق عهدها، ليس فقط لمواكبة المد التوسعي الأورارتي، وإنما لاستعادة تواجدها التاريخي في شمال سوريا لاسيما كوموخ، حيث نظر تجلات بلاسر إلى ممالك شمال سوريا وشعوبها، على أنها جزءٌ لا يتجزأ من إمبراطورية الآشوريين.[٦٠] وفي الواقع، إن الأمر كان جد صعبًا على الآشوريين، بعد أن نجحت أورارتو في خلق عدد من التكتلات والتحالفات المناهضة لهم، وبعد أن صارت الحاميات الأورارتية تتمركز قاب قوسين أو أدنى من العاصمة الآشورية، إذ كانت تتمركز في أقصى جنوب جبال طوروس فيما يعرف اليوم باسم كودي داغ.[٦١]

وقد كان لزامًا على تجلات بلاسر الثالث من أجل إحياء دولته أن يعمل على إعادة تنظيم البيت من الداخل أولاً، حيث عمل على إعادة تنظيم الجيش والإدارة، وعمد تجلات بلاسر إلى تقوية السلطة المركزية، وذلك بربط المقاطعات المختلفة مع العاصمة بنظام بريد سريع وفعال، وطلب من الموظفين في هذه المقاطعات إرسال تقارير عن أعمالهم وأحوال مقاطعاتهم، وفي المناطق التي كانت تحكمها أسر محلية، عين تجلات بلاسر الثالث ممثلاً له يشرف على كيفية إدارة هذه الأسر لمناطقها، ومدى التزامها بتنفيذ توجيهات السلطة المركزية.

وفي مجال الجيش، اعتمد تجلات بلاسر الثالث على جيش يخضع للملك مباشرة، ويتلقى أفراده أجورهم من الخزانة الملكية مباشرة، وهذا الأمر عدا عن أنه رفع بالمستوي القتالي للجيش، فقد جعل من الملك أكثر استقلالاً تجاه المدن والمقاطعات التي كانت تقوم بتقديم الجند حين يطلب منها ذلك. أما من ناحية التسليح، فقد بدأ الآشوريون في الاعتماد أكثر على الأسلحة الحديدية وأصبح سلاح الخيالة هو الأساس، وحل هذا السلاح تدريجيًا محل سلاح العربات؛ لسهولة حركته وقدرته على إلحاق ضربات مفاجئة وقاضية بالأعداء. والأمر المهم الآخر هو إقامة جهاز للاستطلاع والتجسس على الأعداء.[٦٢]

وقبل أن يتوجه تجلات بلاسر الثالث لمواجهة الأورارتين حاول تقوية جناحه الشرقي، وذلك بإعادة إخضاع بلاد المانيين للسيادة الآشورية، بعد فترة غياب عنها وحملات متكررة من قبل الأورارتين ضدها، فأرسل إلى منطقة زاجروس حملات خلال العامين الأولين من حكمه، أعاد بنتيجتها فرض السيادة الآشورية على هذه المناطق.[٦٣] بعد ذلك عمد تجلات بلاسر الثالث إلى مواجهة التحالف الأورارتي السوري المناهض للدولة الآشورية، والتي كانت كوموخ عضوًا فيه، حيث تشير النصوص الآشورية إلى أن الملك الأورارتي ساروردي الثاني نجح في تكوين تحالف مناهض للآشوريين، مؤلف من متيع إيلو من بيت أجوشي، وسولومال الميليدي وطازخولار الجورجومي، وكوشتاشبيلي الكوموخي [٦٤]، بيد أن هناك ثمة سؤال يثيره منطق الأحداث وهو: كيف تمكنت أورارتو من خلق هذا التحالف ؟ أو لماذا زحف ساروردي لمنازلة الآشوريين في أرفاد البعيدة جدًا عن بلاده، وذلك في عهد آشور نيراري الخامس، ثم أعاد الكرة ثانية في عهد تجلات بلاسر الثالث؟ علمًا بأنه لم تكن له ثمة علاقة تربطه بدولة أرفاد، لا قبل حملاته على جيرانه الكوموخيين والميليتينين ولا بعدها.

للإجابة على هذين السؤالين، لابد أن تتجه الأبصار إلى كركميش، فساروردي لا يشير إليها في كتاباته، والآشوريون لا يتحدثون عنها من قريب أو بعيد، علمًا بأن هذه المدينة كانت واقعة في خضم الأحداث، ويأتي على ذكرها نص حيثي عُثر عليه في "جكة" حيث يؤكد كاتب النص أن كاماناس ملك كركميش لم يكن حاكما تابعًا لساروردي مثل حاكم "جكة" وكأن الكاتب أراد أن يقول في هذا النص، أن كاماناس وساروردي كانا ندين قويين تربط بينهما صداقة ويتعاملان على هذا الأساس.[٦٥]

وفيما يتعلق بتمكن ساروردي من فتح كوركوم (مراش) المجاورة لبلاد مليتنه (ملاطية) في الجنوب الغربي ومدينة سمأل (زنجرلي الحالية)[٦٦] فإن ذلك غير معروف، إذ لم يسبق أن افتخر الأورارتيون بإحراز مثل هذا النصر، ويشكك بعض الباحثين في حدوثه، وإذا كان المليتنيون والكوموخيون قد انضموا إلي ساروردي لمساعدته في حربه ضد الآشوريين في أرفاد، فإن كوركوم وسمعأل "قد انضمتا بمحض إرادتيهما لهذا التحالف[٦٧] تحت تأثير شخصية ساروردي الفذة التي استقطبت حولها زعماء الشعوب الأخرى،[٦٨] أو ربما هذه الدويلات قد شعرت بشيء من صلات الجنس والثقافة مع أورارتو.[٦٩]

وعلى أية حال؛ فقد كانت استراتيجية تجلات بلاسر لضرب خصومه تتراوح بين اختيارين لا ثالث لهما، فإما أن يعبر الجبال ويضرب أورارتو في عقر دارها، وإما أن يضربها في مناطق نفوذها في شمال سوريا، وفي الواقع كان تجلات بلاسر بعيد النظر، عندما قرر عدم مواجهة أورارتو في البداية، رغم كونها الرأس المدبر لهذه التحالفات، و ذلك لسببين: أولهما، إنه إذا نجح في طرد الغزاة فإنه سيصبح في إمكانه إجبار تلك الدويلات المتمردة على تقديم فروض الولاء والطاعة لصاحبة السيادة الجديدة آشور ونبذ ولائها لأورارتو، وثانيهما، أنه بهذه الوسيلة سيقطع الصلة[٧٠] بالدويلات الواقعة في شمال سوريا ومركز الدعم أورارتو، وقد أصبحت هذه الإستراتيجية من أهم الإستراتيجيات المفضلة لدى خلفاء تجلات بلاسر الثالث.[٧١]

ووقعت أول مواجهة بين الطرفين على ما يُعتقد في العام الثالث من حكم تجلات بلاسر الثالث حوالي عام ٧٤٣ قبل الميلاد[٧٢]، وقد بدأ تجلات بلاسر هجومه في شمال سوريا بحصار أرباد التي استغاثت بالملك الأورارتي ساروردي الثاني، وكما هو معروف سارع ساروردي لنجدة أرباد، وخرج على رأس قوته من الطريق نفسه الذي سلكه في حملة عام ٧٤٦ قبل الميلاد؛ لسبب بسيط هو أن هذا الطريق هو الوحيد المتاح، ومن قلعة توميشكي عبر نهر الفرات حيث كان النهر ضيقًا نسبيًا، وكانت هناك نقطة عبور من سوفيني (Sophene) إلي ميليتنه التي انضمت قواتها إليه أثناء زحفه، ثم ذهب عبر ممرات طوروس إلي داخل كوموخ، حيث انضم إلي قوات جورجوم وكوموخ. ويوضح الصدام الأول الذي دارت رحاه بين ساروردي الثاني وتجلات بلاسر الثالث داخل كوموخ، أن تجلات بلاسر الثالث كان حذرًا من التقدم الأورارتي، فبمجرد أن نمى إلى علمه خبر عبور الأورارتين نهر الفرات، حتى قطع حصار أرباد، وقاد جيشه إلى كوموخ.[٧٣]

حدثت المعركة الحاسمة بين كشتان وخلبا في أرض كوموخ، وهناك مَنْ يرى أن كشتان يجب أن تقع بالقرب من أرباد، ولو أن بيسني(Besni)[٧٤] تتماثل مع باِرالا، فإن الموقع المحتمل لكشتان هو كيسَنْ (keysun) على بعد ١٤ كيلومترا من بيسني، والسبب في ذلك يعزي ليس إلى السجع الطفيف في الأسماء فحسب، وإنما لكون كيسَنْ تقف على تلة كبيرة تشهد على وجود مدينة كبيرة هناك.[٧٥] ويفترض بعض الباحثين أن القوات الأورارتية والآشورية صنعت أول لقاء لهما في كيسَنْ في نقطة تقاطع طريقين قديمين، أحدهما الذي استخدمه تجلات بلاسر أثناء حملته شمالا ولعب دورًا مهمًا في الحروب العربية البيزنطية في أوائل العصور الوسطي.

وإنه من الأهمية بمكان أن نشير إلى أن المسافة التي قطعها الجيش الأورارتي من هاييبوشاغى إلى كيسَنْ حُددت بنحو 210 كيلو متر تقريبًا، وبسبب الطبيعة الوعرة لهذا الطريق فإن متوسط السير يوميًا لم يتجاوز 20 كيلو متر، لذلك تطلبت المسيرة نحو 10 أو 11 يوم، أما بالنسبة لجيش تجلات بلاسر فقد اجتاز نحو 150 كيلو متر من أرباد إلى كيسَنْ، في ظل ظروف جغرافية غير معقدة، لذا فإن الطريق تم اجتيازه في غضون ستة أيام.[٧٦]

هذا وقد انتهت هذه المعركة بهزيمة منكرة أودت بزهرة فرسان الحلفاء، وكان وقوعها وقع الصاعقة فوق رؤوس الأورارتين، ولطمة قاسية لأمالهم وأحلامهم وأطماعهم في المنطقة، وإذلالا لهيبتهم وكرامتهم، وتعزي الهزيمة هنا إلى عدة أسباب، منها (أولاً) نقص التعاون بين أعضاء التحالف، ومنها (ثانيًا)

الأورارتيون كانوا عديمي الخبرة بمعركة في ميدان مفتوح؛ لأنهم كثيرا ما اعتادوا القتال في المناطق الجبلية[٧٧]، ومنها (ثالثًا) كثرة مشاغل ساروردري بسبب المصاعب التي كان يثيرها الملوك الصغار في المناطق الشمالية، فهم وإن كانوا صغارا وليس من ذوي الشأن، فإن أعمالهم وفتنتهم كانت تقلق راحة الدولة الكبيرة،[٧٨] (وأخيرًا) خيانة كوشتاشبيلي الذي أُجبر على الانضمام إلى التحالف المناهض للآشوريين لحلفائه، ومساعدة تجلات بلاسر على النصر.[٧٩]

وبناءً على ذلك؛ فقد تسبب الاشتباك الأول في تراجع الجيش الأورارتي الذي عاد من حيث أتي، وبمجرد أن وصل إلى تقاطع الطرق في بيسني، انفصلت فرقة كوموخ عنه، وهربت في اتجاه عاصمتها، وعملت فرقة جورجوم الشيء نفسه في خلبا، حيث طريق وادي أكسو (Aksu) الذي يؤدي إلى جورجوم، ثم عبرت نهر جوكسو(Goksu)، وفر ساروردري من جبل سيباج (sibag) إلى سهل ملاطية التي انسلخت عنده قوات ميليد، في حين استطاع ساروردري استباق ملاحقة الآشوريين، وأن يصل ويعبر ويزيل الجسر بين الفرات ودولة ساروردري، قبل أن يصل تجلات بلاسر، ولكن ظهور تجلات بلاسر في مليتنه، كان بمثابة بداية الوجود الآشوري في هذه المنطقة، بعد انقطاع واصب ردحًا من الزمن.[٨٠]

ولا ريب أن نتائج هذه الحملة كانت في غاية الأهمية، حيث ترتب عليها نتيجتان بالغتا الأهمية:

**الأولى**: دفع ساروردري إلى المرتفعات الأرمينية، ومنذ هذا الوقت لم يعد يمارس أي تأثير حقيقي في سوريا، فلم تستطع أورارتو أن تعود إلى سابق عهدها في شمال سوريا[٨١] رغم أن ملوك أورارتو ظلوا مدعومين من ملوك تلك الدويلات التي وفرت لهم وقت الحرب مع الآشوريين مجالاً للحركة، وظلت تلك السياسة التي انتهجها ملوك أورارتو في تلك المنطقة تأتي أكلها لوقت طويل.[٨٢]

**والثانية**: كان لهذه الهزيمة أثر عظيم في تمهيد الطريق أمام تجلات بلاسر الثالث لإخضاع شمال سوريا، وإن كنا لا نعني بذلك أن سكانها استكانوا للأمر الواقع، واعترفوا بهزيمتهم، فقد كان على تجلات بلاسر الثالث أن يجدد هجومه على أرفاد، وينتقم من جورجوم وكوموخ وغيرها لمدة ثلاث سنوات مضت وهو ما كان، حيث شهدت أعوام (٧٤٢ – ٧٤٠) ق.م حملات متتالية؛ بهدف القضاء على تحالف شمال سوريا، وبالتالي إخراج أورارتو من هذه المنطقة.[٨٣]

وفي أعقاب هذا النصر منح تجلات بلاسر الثالث العفو لكوشتاشبيلي، وثبته على عرش كوموخ كتابع للدولة الآشورية، وربما جاء ذلك بسبب ولائه الكامن رغم خضوعه لأورارتو، وظهر كوشتاشبيلي في قوائم الملوك الخاضعين لتجلات بلاسر الثالث في عام (٧٤٠/ ٧٣٩) ق.م أثناء حملة الملك الآشوري على آرام دمشق و ملك صور وغيرها، وفي عام ٧٣٨ق.م، وأخيرًا في عام ٧٣٢ ق.م.[٨٤] ولم يقتصر الأمر على تقديم الإتاوة للآشوريين في ذلك الوقت فحسب، بل تعين على كوموخ مساعدة الآشوريين في تثبيت دعائم دولتهم في سوريا، حيث يذكر حاكم دمشق ـ بعد أن تحولت إلى مقاطعة آشورية في عام ٧٣٢ق.م ـ أن ٢٠٠٠ من محاربي ملك كوموخ كانوا جزءًا من القوات الآشورية في مقاطعته.[٨٥]

## ٦- موتاللي

هو الحاكم الأخير لكوموخ، قبل أن يتم دمجها في نظام المقاطعات الآشورية، وربما كان الخليفة المباشر لكوشتاشبيلي، وإذا كان الأمر كذلك، فإن عهده امتد لفترة طويلة، حيث استمر حتى عام ٧٠٨ ق.م. ولعل تسمية أسلافه بأسماء ملوك الدولة الحيثية في العصر البرونزي المتأخر، يشير إلى أن الأسرة الملكية في كوموخ منذ بدايتها إلى نهايتها ربما كانت فرعًا من العائلة الملكية الحيثية التي حكمت الأناضول في عصر البرونز المتأخر.[٨٦]

وعلى أية حال، فقد استردت كوموخ صفتها في هذا العهد بوصفها العميل الآشوري المفضل، لدرجة أن سرجون الثاني أضاف أراضي مملكة ميليد- عندما تم تقطيع أوصالها على أيدي الآشوريين في عام ٧١٢ق.م- إلى ممتلكات موتاللي، كما منحه بعض أراضي سمعأل، [٨٧] وبذلك كان موتاللي الحاكم الكوموخي الوحيد الذي امتد سلطانه على كلٍ من ملاطية وأرسلان تبه و "ساكابا- جوزو" (Sakapa-GÖzü)، الأمر الذي جعل كوموخ تمثل دور الدولة الحاجزة التابعة لآشور ضد تقدم الأورارتيين.[٨٨]

بيد أن هذه الشراكة ذات المنفعة المتبادلة انتهت فجأة وبصورة وحشية، عندما امتنع موتاللي عن دفع الإتاوة للآشوريين، وارتمى في أحضان الأورارتيين بزعامة أرجيستي الثاني، حيث يسجل النقش الآشوري ما يلي: "هذا الصبي الذي لا يعرف الخجل، لم يعد يخشى الآلهة، وطاب له الشر، وبدا يحيك المؤامرات ويستعديني، ووضع كل ثقته في أرجيستي ملك أورارتو، إلا أن فأله خاب ومسعاه فشل... ".[٨٩]

وكان من أثر ذلك أن فقدت كوموخ استقلاها، حيث لم يقف سرجون الثاني مكتوف اليدين تجاه خيانة موتاللي، بل جرد حملة عسكرية على كوموخ، نجحت في الإطاحة بالأسرة الملكية، حتى أن موتاللي ولى مدبرًا ولم يعقب،[٩٠] وسعى الآشوريون بعد هذا الصنع إلى ترحيل أسرى كوموخ، وإعادة توطينهم على طول الحدود مع عيلام في بيت إياكن (Bit-Iakin).[٩١] وهكذا أصبحت كوموخ مقاطعة آشورية، ووقعت تحت حكم تورتان اليسار؛ بهدف إحكام السيطرة الآشورية على الحدود الشمالية الغربية، وواصلت كوموخ تاريخها باعتبارها مقاطعة آشورية من عام ٧٠٨ق.م وحتى سقوطها في أيدي البابليين في عام ٦٠٧ق.م.[٩٢]

فمن أجل تأمين طرق التجارة في بلاد سوريا، سار الملك نبوبلاصر في شهر تشرين الأول عام ٦٠٧ ق.م بقواته إلى كيموخو

التي تتميز بموقع استراتيجي مهم؛ إذ أنها تتحكم في الطريق الذي يربط شمال سوريا بجنوبها، مارًا بحماة إلى كركميش (جرابلس حاليًا)، وبعد أن عبر نهر الفرات اشتبك مع المدينة، وتمكن من الاستيلاء عليها، ووضع حامية عسكرية هناك، وبعد أن مكث في المدينة فترة من الزمن، ربما من أجل مراقبة سير الأمور فيها عن كثب، قفل راجعًا إلى بابل في شهر شباط (فبراير) وهو محمل بالغنائم،[٩٣]حيث تذكر المصادر البابلية ما يلي:-

"السنة التاسعة عشرة: في شهر سيفان sivan حشد ملك أكد جيشه، وحشد نبوخذ نصر (الثاني) ابنه البكر( و) ولي العهد جيشه، وسارا إلى جبال[ ...za]. ترك ملك أكد الأمير وجيشه هناك، في حين أنه عاد إلى بابل في شهر تموز..........[في شهر] أيلول عاد الأمير إلى بابل بعد أن أنهى نبوخذ نصر الثاني معاركه ضد [القلاع] واستولى عليها [وأضرم النار فيهن] (و) سلب كل الجبال واستولى على كل الجبال حتى منطقة [أورارتو]. وفي شهر تشري حشد ملك أكد جيشه وسار[إلى] كيموخو التي تقع على ضفة نهر الفرات، وعبر النهر واشتبك مع المدينة، وفي شهر كانون الأول (ديسمبر) استولى على المدينة ونهبها، وأقام حامية له فيها، وفي شهر شباط عاد إلى الوطن".[٩٤]

ويبدو أن المصريين لم يحتملوا فكرة سيطرة البابليين على هذا الطريق التجاري المهم، لذا زحف الجيش المصري في عام ٦٠٦ق. م باتجاه الحامية البابلية في مدينة كيموخو، وفرض الحصار عليها، وبعد أربعة شهور من الحصار تمكن الجيش المصري من الاستيلاء على المدينة، وهزم رجال الحامية البابلية، وإزاء هذا التطور الخطير سار الملك نبوبلاصر في شهر تشرين الأول( أكتوبر) من السنة نفسها لصد المصريين، وعسكر في مدينة قورماتي التي تقع على نهر الفرات جنوب كركميش، ثم جعل جيشه يعبر ويستولي على شوناديري وإيلامو ودخامو (تقع جميع هذه المدن على الضفة اليسرى من نهر الفرات)، وفي شهر شباط (فبراير)عاد إلى بلاده وهو محمل بالغنائم، غير أن هذه النجاحات العسكرية التي حققها الملك البابلي لم تُحل دون تقدم الجيش المصريو قادمًا من مدينة كركميش، بعد أن عبر نهر الفرات باتجاه الجيش البابلي المعسكر في مدينة قورماتي، فأجبره على الانسحاب والعودة إلى بابل.[٩٥]

لكن مع سقوط كركميش في يد نبوخذ نصر الثاني في عام ٦٠٥ ق.م، انتقلت كوموخ بشكل مفترض إلى البابليين، وربما الميديين.[٩٦]

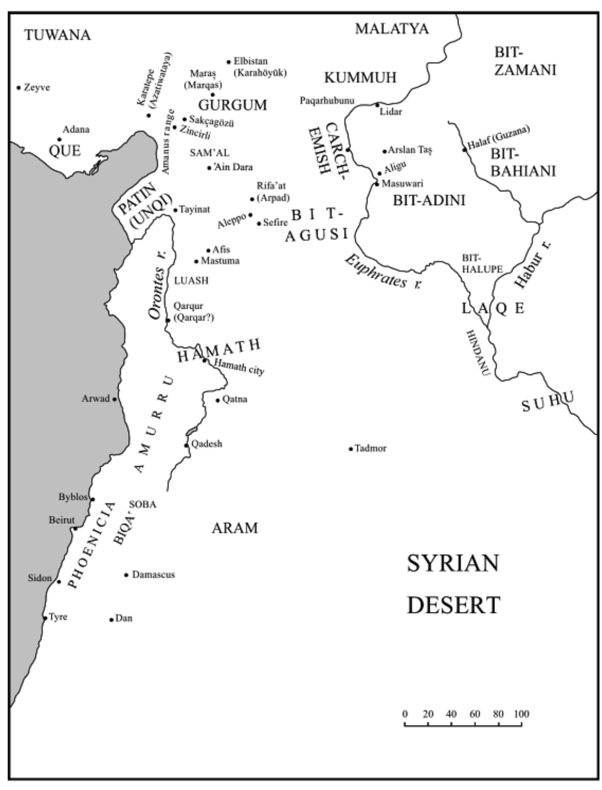
## خَاتِمَةٌ

من خلال هذه الدراسة التي تناولت التاريخ السياسي لمملكة كوموخ الحيثية الحديثة يمكن أن نستخلص النتائج الآتية:

- لا تبين الأدلة الأثرية أو النصية بشكل قاطع ما إذا كانت مملكة كوموخ قد تأسست في بداية عصر الحديد أم لا، حيث جاءت الإشارات الأولى لكوموخ بوصفها مملكة في السجلات الآشورية التي تعود إلى عام ٨٦٦ ق.م، لكن من المحتمل أن تاريخها بدأ كمملكة فرعية تابعة لكركميش حتى انفصلت عنها في بداية القرن التاسع ق.م، وإن كان هناك مَنْ يرى أن تاريخها كمملكة مستقلة بدأ في القرن العاشر ق.م وليس القرن التاسع ق.م، وذلك على أساس أن الملك المعروف باسم تودهاليا في نقش (Kelekli)- والذي تزوج من ابنة ملك كركميش في القرن العاشر ق.م - هو أحد ملوك كوموخ، غير أن هذا الرأي لا تدعمه الأدلة الأثرية بشكل حاسم.
- ربما تشير تسمية ملوك كوموخ بأسماء ملوك الدولة الحيثية في العصر البرونزي المتأخر إلى أن الأسرة الملكية فيها من البداية إلى النهاية ربما كانت فرع من العائلة الملكية الحيثية التي حكمت الأناضول في عصر البرونز المتأخر.
- سلكت كوموخ مسلكًا رمي إلى مهادنة الآشوريين في سياستها الخارجية، فبقيت بمعزل عن كثير من المحن، وجنت فوائد التجارة، وحافظت على استقلالها، كما كان من ثمار هذه السياسة أن كسبت كوموخ الدعم العسكري الآشوري في صراعاتها الإقليمية مع الدويلات الحيثية المجاورة، ويستدل على ذلك من قيام الملك الآشوري أداد نيراري الثالث في عام ٨٠٥ ق.م بترسيم الحدود بين مملكتي كوموخ وجورجوم لصالح كوموخ في عهد ملكها شوبيلوليوما، وتكرر نفس الشيء في عام ٧٧٣ ق.م على يد الملك الآشوري شلمنصر الرابع.
- كان التحالف الآشوري مع كوموخ في غاية الأهمية أيضًا بالنسبة للآشوريين وقتذاك، ويعزي ذلك إلى سيطرة كوموخ على مخاضة بازارجيك، حيث اتاحت للآشوريين الوصول إلى الطرق الشمالية الغربية نحو جورجوم وجبال طوروس الغنية بالموارد المعدنية، زد على ذلك أن التحالف مع كوموخ كان بمثابة كبح جماح لقوة كركميش، حيث أصبحت كركميش بين الحليف الآشوري في الشمال والحضور العسكري الآشوري في تل برسيب في الجنوب.
- نجح الملك الأورارتي ساردوري الثاني في فرض السيادة الأورارتية على مملكة كوموخ في عام ٧٤٦ ق.م، غير أن الملك الآشوري تجلات بلاسر الثالث سرعان ما استعاد السيادة الآشورية على كوموخ، وذلك عندما تمكن من دفع الأورارتيين إلى المرتفعات الآرمنية على أثر هزيمتهم في موقعة كشتان في عام ٧٤٣ ق.م.
- استردت كوموخ في عهد ملكها الأخير موتاللي صفتها بوصفها العميل الآشوري المفضل، لدرجة أن سرجون الثاني أضاف أراضي مملكة ميليد- عندما تم تقطيع أوصالها على أيدي الآشوريين في عام ٧١٢ق.م- إلى ممتلكات موتاللي، كما منحه بعض أراضي سمعال، بيد أن هذه الشراكة ذات المنفعة المتبادلة انتهت فجأة وبصورة وحشية، وذلك عندما امتنع موتاللي عن دفع الإتاوة للآشوريين، وأرتمى في أحضان الأورارتيين، الأمر الذي دفع سرجون الثاني إلى القيام بحملة عسكرية نجحت في الإطاحة بموتاللي، وتحويل كوموخ إلى مقاطعة آشورية في عام ٧٠٨ق.م.

## قائمة الاختصارات

| | |
|---|---|
| ARAB | *Luckenbill, D.D., Ancient Records of Assyria and Babylonia, Vol.2, Chicago, 1927.* |
| ARRIM | *Annual Review of the Royal Inscriptions of Mesopotamia Project, Toronto.* |
| A.St. | *Anatolian Studies, London.* |
| CAH | *The Cambridge Ancient History, Cambridge.* |
| CHLI I | *Hawkins, J.D., Corpus of Hieroglyphic Luwian Inscriptions. Vol. I: Inscriptions of the Iron Age, Berlin and New York, 2000.* |
| IRAQ | *British School of Archaeology in Iraq, London.* |
| JHA | *Journal for the History of Astronomy, Cambridge.* |
| JNES | *Journal of Near Eastern Studies, Chicago.* |
| MJNE | *Monographic journals of the Near East, Malibu.* |
| NEA | *Near Eastern Archaeology, Atlanta* |
| OEA | *The Oxford Encyclopedia of Archaeology in the Near East, Oxford University Press, Oxford, 1997.* |
| RIA | *Reallexikon der Assyriologie und Vorderasiatischen Arch äologie, Berlin and New York: de Gruyter* |
| RIMA2 | *Grayson, A.K., Assyrian Rulers of the Early First Millennium BCI (1114-859), The Royal Inscriptions of Mesopotamia, Assyrian Periods, Vol. 2.Toronto, 1991.* |
| RIMA3 | *Grayson, A.K., Assyrian Rulers of the Early First Millennium BCII (858-745), The Inscriptions of Mesopotamia, Assyrian Periods, Vol.3, Toronto, 1996.* |
| SAAB | *State Archives of Assyria Bulletin, Padova.* |
| UKN | *Melikishvili, G.A., Urartskie klinoobraznye nadpisi, Moscow, 1960, (Texts are cited by number).* |




خريطة توضح مملكة كوموخ وممالك شمال سوريا وجنوب الأناضول في عصر الحديد. نقلاً عن: Bryce, T., *op. cit.*, p. 46.

## الهَوامِشُ:

(1) Bryce, T., *The Routledge Handbook of the Peoples and Places of Ancient Western Asia: The Near East from the Early Bronze Age to the Fall of the Persian Empire*, Routledge, London, 2009, p. 397.

(٢) **أرباد**: تقع أرباد شمال حلب، وكانت عاصمة دولة بيت أجوشي الآرامية، أما اسمها الحالي فتل رفعت وتقع في قضاء إعزاز، ويرد اسم أرباد في بعض المراجع في صورة أرفاد، انظر: هنري.س عبودي: **معجم الحضارات السامية**، الطبعة الثانية، طرابلس، ١٩٩١، ص٦٣.

(3) Hawkins, J.D., "Kummuh" in: *RIA VI,* Berlin, 1983, p. 338; Tanrıöver, M.D., *The Transition from Late Bronze Age to the Early Iron Age in The Upper Euphrates and the Amuq: AStudy of Settlement Patterns*, Master's thesis, Bilkent University, 2010, p. 42.

(4) Hawkins, J.D., *CHLI I*, Walter de Gruyter, Berlin, 2000*,* p. 331.

(٥) **باخوا:** لم يُحدد الموقع الدقيق لهذه المدينة حتى الأن، ولكن هناك مَنْ يُحدد موقعها بوجه عام بالقرب من نهر الفرات الأعلى في شرق الأناضول، انظر:

Bryce, T., *op. cit*., p. 521.

(٦) **إيشوا:** ظهرت هذه الدويلة في عصر البرونز المتأخر في شمال بلاد ما بين النهرين، وتمتد ما بين جنوب نهر مراد سو وشرق نهر الفرات وربما حتى نهر دجلة الأعلى، وكان مركزها يقع ضمن محافظة إيلازيغ التركية، انظر:

*Ibid*., p. 343.

(7) Ibid., p. 330.

(8) Id.,*"Kummuh",* p. 338.

(9) Belmonte, J.A. & Gonzalez-Garcia, A.C., "*Antiochos's* Hierothesion at Nemrud Dag Revisited: Adjusting the Date in the Light of Astronomical Evidence" in: *JHA41,* Cambridge, 2010, p. 1.

(10) Hawkins, J.D., *op. cit.,* p. 338; Müller, U., *Die Eisenzeitliche Keramik Von Lidar Höyük*, PhD, Universität Heidelberg, 1996, p. 8.

(11) Parker, B.J., *The Mechanics of Empire*, PhD, Los Angeles, 1998, p. 297; Ersoy, S., *M. ö.ll. Binde Mezopotamya- Anadolu Siyasi Müsasebetleri*, yükseklisans tezi, Ankara, 2008, p. 103.

(12) Bryce, T., *The World of The Neo-Hittite Kingdoms: A Political and Military* History, Oxford University Press, Oxford, 2012, p. 110.

(١٣) **عصر الحديد:** يمتد هذا العصر في جنوب شرق آسيا منذ عام ١٢٠٠ق.م وحتى عام ٥٣٨ ق.م، ويقسم إلى ثلاث مراحل رئيسة يمكن توضيحها على النحو الآتي: مرحلة عصر الحديد الأول (١٢٠٠-١٠٠٠ق.م). مرحلة عصر الحديد الثاني (١٠٠٠- ٥٨٦ ق.م). مرحلة عصر الحديد الثالث (٥٨٦-٥٣٨ ق.م)، انظر:

Edelman, D.V., *The Origins of the Second Temple: Persian Imperial Policy and the Rebuilding of Jerusalem*, Routledge, London, 2014, p. 289.

(14) *Loc. cit.*

(15) Ekinic, M., *Adiyamanil Çevre Durum Raporu, Adiyaman*, 2011, p. 185.

(16) Bryce, T., *op. cit.,* p. 110.

(١٧) **نقش Kelekli**: عُثر على هذا النقش في عام ١٩٠٨م في قرية (Kelekli) الواقعة بالقرب من الضفة الغربية لنهر الفرات في مقاطعة غازي عنتاب التركية، ويوجد حاليًا متحف في (Vorderasiatisches) في برلين، ويُؤرخ بالقرن العاشر قبل الميلاد، انظر:

Hawkins, J.D., *CHLI I,* pp. 92-3; Marchetti, N., *" Karkemish on The Euphrates: Excavating a City's History*", *in: NEA* 75 /3, Atlanta, 2012, p.132.

(18) Bryce, T., *op. cit*., p. 110.

(19) Grayson, A.K.," Assyria: Ashur-Dan II to Ashur Nirari V (934-745 B.C.)*",* in: *CAH 3/ 1*, Cambridge, 2003, p. 256; Hawkins, J.D., *CHLI I,* p. 331.

(20) Şahin, S.," Kommagene Ülkesive Tanrılar Tahtı Nemrut Dağ", in: *Tanrılar Dağı Nemrut*, Başgelen, N., (ed.), Arkeoloji ve Sanat Yayınları, İstanbul, 1998, p. 38.

(٢١) **باقرخوبونو**: تقع على الضفة الغربية لنهر الفرات في منطقة بازارجيك المعاصرة، وكانت تشكل مدينة حدودية بين مملكة كوموخ ومملكة جورجوم، انظر:

Bryce, T., *The Routledge Handbook of the Peoples and Places of Ancient Western Asia*, p. 526. Edelman, D.V., *The Origins of the Second Temple: Persian Imperial Policy and the Rebuilding of Jerusalem*, Routledge, London, 2014, p. 289.

(22) Hawkins, J.D., *CHLI I,* p. 331.

(23) Grayson, A.K., *RIMA 3,* University of Toronto Press, Toronto, 1996, pp. 18-9.

(24)Yamada, S., *The Construction of the Assyrian Empire: A Historical Study of the Inscriptions of Shalmanesar III (859-824 B.C.) Relating to His Campaigns to the West*, Brill, Leiden, 2000, pp. 92-4.

(25) Bryce, T., *The World of The Neo-Hittite Kingdoms: A Political and* Military *History,* p. 111.

(26) Hawkins, J.D., "*Kummuh"*, p. 338.

(٢٧) **مدينة" أنا - آشور- أوتر- اصبات"**: كانت تُعرف سابقًا في المصادر الآشورية باسم بيترو، وتحدد هذه المدينة حاليًا بتل أوشيريا (Aushariye) الواقع على الضفة الشرقية لنهر ساجور عند مصبه في نهر الفرات شمالي سوريا، انظر:

Block, D.I*., Israel: Ancient Kingdom Or Late Invention?*, B&H Publishing Group, Nashville, 2008, pp. 231-3; Herrmann, V.R, *Society and Economy under Empire at Iron Age Sam'al (Zincirli Höyük, Turkey)*, PhD, University of Chicago, 2011, p. 37.

(٢٨) أستخدم مصطلح الدويلات الحيثية الحديثة لتعيين دويلات عصر الحديد التي خلفت الإمبراطورية الحيثية في شمال سوريا وجنوب الأناضول، انظر:

Hawkins, J.D.," Neo-Hittites" in: *OEA 4*, Oxford University Press, Oxford, 1996, p. 126.

(29) Grayson, A.K., *RIMA 3,* p. 23; Block, D.I*., Israel: Ancient Kingdom Or Late Invention?*, B&H Publishing Group, Nashville, 2008, pp. 231-3.

أزهار هاشم شيت: **"الصلات الآشورية مع منطقة حلب (القرن ١٨ق.م- القرن ٧ ق.م)"**، *دراسات موصلية*، العدد الثامن والعشرون، جامعة الموصل، ٢٠١٠، ص٦٨.

(30) Grayson, A.K., *RIMA 3,* pp. 9-19, 21, 34-6.

(31) Winter, I.J., *North Syria in the First Millennium B.C., with Special Reference to Ivory Carving*, PhD, Columbia University, 1973, p. 114.

(32) Bryce, T., *op. cit.,* p. 112.

(٣٣) **مسلة بازارجيك:** عُثر عليها في قرية كيزكابانلي في منطقة بازارجيك ( كهرمان ماراش حاليًا) في تركيا، وكانت هذه المسلة بمثابة حد حجري بين كوموخ وجورجوم، وتحتوي على نقشين، حيث احتوى الوجه على نقش للملك أداد نيراري الثالث، في حين احتوى الظهر على نقش من عهد شلمنصر الرابع، وتوجد هذه المسلة حاليًا في متحف كهرمان مراش، انظر:

Kuan, K., *Assyrian Historical Inscriptions and Israelite Judean-Tyrian Damascene Political and Commercial Relations in the ninth-eighth Centuries*, PhD, Emory University, 1994, p. 159.

(٣٤) كانت تُدعي سمورا ـ مات Sammura-Mat في المصادر المسمارية، بينما أطلقت عليها المصادر الكلاسيكية اسم سميرأميس Samiramis، كما عُرفت أيضًا باسم سميرام Samiram، واكتسبت هذه الملكة شهرة كبيرة، ووصُفت بنعوت كثيرة ما بين الجمال والقوة، ونُسجت حولها

الأساطير، ونسبت إليها أعمال خارقة وإنجازات متعددة ترجع إلي الملوك الذين سبقوها أو الذين جاءوا بعدها، ومن هذه الإنجازات إعمار مدينة بابل وفتح مصر وليبيا والهند، كما تنسب لها المآثر الآرامية بناء مدينة مطلة على بحيرة فان شرقي تركيا، علمًا بأن المدينة بناها ملك أورارتي معاصر لها. وعن قصة سميرأميس، انظر:

Thompson, R.C, "An Assyrian Parallel to an Incident in the Story of Semiramis", in: *IRAQ4/1*, London, 1937.

(35) Yildirm, N., "Neo-Assyrian Document found in Anatolia" in: *Ankara Üniversitesi Dil ve Tarih-Coğrafya Fakültesi Tarih Bölümü Tarih Araştırmaları Dergisi*, Sayi 48, 2010, p. 125.

(36) Grayson, A.K., *RIMA 3,* p. 205.

(٣٧) وجد هذا النص مدونًا على مسلة من منطقة دور-كاتليمو Dur-Katlimmu (تل الشيخ حمد المعاصرة)، ويُوجد بجانب الكتابة مشهد منحوت بالنحت البارز، يمثل بقايا من صورة لرأس الملك ورموز إلهية، وهناك فقرة تمهيدية تبين اسم الملك وصفاته ونسبه، ووصف مختصر للحملة التي جردها على الجبهة الغربية، وهزيمة أتارشومكي الأربادي، انظر:

*Ibid*. p. 206.

(38) *Ibid.,* p. 207.

(٣٩) استمرت التحالفات المناهضة للدولة الآشورية وحلفائها في المنطقة حتى ذلك الحين، ويَستدل على ذلك من مسلة زاكور، التي تؤرخ بمسلة بازارجيك، والتي تروي الحملة العسكرية التي جردها التحالف السوري بزعامة ملك أرام دمشق المدعو بَرْ-هاداد Bar-Hadad ضد زاكور ملك حماة، وكان التحالف يتألف من ١٦ دويلة نذكر منها أرباد وكيو وجورجوم وسمعأل، وقد حاول الحلفاء الاستيلاء على حماة، غير أنهم فشلوا، المهم هنا أن كوموخ لم تشارك في التحالف على عكس جورجوم، وبالتالي فمن المنطقي أن يفصل في النزاع الحدودي بين كوموخ وجورجوم لصالح كوموخ على حساب جورجوم، انظر:

Kuan, K., *op. cit.,* pp. 162-4.

(40) Donbaz, V., "Two Neo-Assyrian Stelae in the Antakya and Kahramanmaras Museums", in: *ARRIM 8*, Toronto, 1990, pp. 5-24.; Galil, G., "Conflicts between Assyrian Vassals", in: *SAAB VIII*, Padova, 1992, p. 58.

(41) Grayson, A.K., *RIMA 3,* p.240; Galil, G., *op. cit.,* p. 58.

(42) *Loc. cit.*

(43) Arbino, G.P., *Effects of Neo-Assyrian Administration on Populations West of the Euphrates,* PhD, the Faculty Golden Gate Bapist Theological Seminary, 1995, p. 216.

(٤٤) **نقش بوي يِبّبناري**: عُثر على هذا النقش في قرية بوي يِبّناري في عام ١٩٣١م، ويُوجد حاليًا في متحف الحضارات الأناضولية في أنقرة، انظر:

Hawkins, J.D., *CHLI I,* p. 334

(45) *Ibid.,* pp. 334-6.

(46) Bryce, T., *op. cit.,* p. 113.

(47) Bossert, H., "Reisebericht aus Anatolien", in: *Or 28/3*, Roma, 1959, p. 73; Hawkins, J.D., *CHLI I,* pp. 340 -1; Charles, B., *Historical Dictionary of The Hittites,* Scarecrow press, Lanham, 2004, p. 188.

(48) Hawkins, J.D., *CHLI I,* p. 332; Bryce, T., *Ancient Syria: A Three Thousand Year History,* Oxford University Press, Oxford, 2014, p. 130.

(49) Konakçi, E., *Urartu Kralliği'nda Toplu Nüfus Aktarimlar ve bu Uygulamanin Urartu Kültürüne Etkileri*, Yükseklisans Tezi, Izmir, 2006, p. 79.

(٥٠) **أويتا**: حددها ميكيسشفيلي بالمدينة الملكية الخاصة ب lalla ملك ميليد، والتي ضمها شلمنصر إلى حظيرة الدولة الآشورية منذ عام ٨٣٦ ق.م، وبناء على ذلك فإن المدينة تقع على الحدود بين ميليد وكوموخ على هضبة طوروس، التي يخترقها طريق واحد يربط المنطقتين، انظر:

Astour, M.C., "The Arena of Tiglath-Pileser III's Campaign against Sarduri II (743 B.C.)", in: *MJNE2/3,* Malibu, 1979, pp. 5-6.

(٥١) **حلبا**: إحدى المدن الملكية في بلاد كوموخ، وترد في النصوص الآشورية بصيغة خلبا، وقد تكون خالفاني الحالية على الضفة الشرقية لنهر الفرات إلى الجنوب، انظر:

Diakonoff, I. M. &Kashkai, S. M., *Repertoire Geographique des Textes Cuneiformes IX, Geographical Names According to Urartian Texts*, Reichert, Wiesbaden, 1981, p. 39.

(٥٢) **بارالاني**: على الرغم من أن مدينة بارالا parala غير معروفة، فلا يمكن تحديدها بعيدًا عن جبال طوروس؛ لأن ساردوري أوقف تقدمه، قبل أن يصل إلى عاصمة كوموخ التي حملت الاسم نفسه، وواصل سيره إلى الموقع الذي عُرف لاحقًا باسم ساموساتا (سمسات حاليًا)، انظر:

Astour, M.C., *op. cit.*, pp. 5-6.

(53) Melikishvili, G. A., *UKN*, Moscow, 1960, No.155E.

(54) Na'aman, N., *Ancient Israel and its Neighbors Interaction and Counteraction*, Vol.1, Eisenbrauns, Winona Lake, 2005, p. 27

(٥٥) تعزي حالة الضعف التي أصابت الدولة الآشورية في هذه الفترة إلى عدة أسباب نذكر منها الآتي:

أولاً: ضعف السلطة المركزية؛ بسبب الرقعة الجغرافية الكبيرة للإمبراطورية الآشورية نتيجة فتوحاتها العسكرية، مما أدى إلى صعوبة السيطرة على الأقاليم الواقعة بعيدًا عن مراكز السلطة الآشورية، فانتشر الفساد الإداري المتمثل في ظلم كبار الموظفين والنبلاء وحكام الأقاليم، واستغلالهم لمناصبهم في تحقيق مصالحهم الذاتية على حساب الشرائح الاجتماعية الأخرى.

ثانيًا: صغر سن بعض الملوك مثل أداد نيراري الثالث ( ٨١٠ – ٧٨٣ ق.م ) الذي أصبح تحت وصاية والدته لمدة خمس سنوات، وبعدها مارس هذا الملك مهامه في إدارة الدولة، وأسهم ضعف الملوك الآشوريين الذين لم يكونوا بمستوى الملوك الذين سبقوهم في القيادة العسكرية وإدارة الدولة، حيث قل عدد الحملات العسكرية وتقلصت حدود الدولة، انظر: محمد دسوقي عبد العزيز: **التوسع الآشوري غربًا في عصر الإمبراطورية الثانية**، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ٢٠٠٦، ص٢٠-٢٣، وكذا:

Winter, I.J., *op. cit.*, pp. 129-130.

(56) Arbino, G.P., *op. cit.*, p. 215.

(57) Konakçi, E., *op. cit.,* p. 79-80.

(58) Winter, I.J., *op. cit.,* p. 130.

(59) *Ibid.,* p. 131.

(60) Grayson, A.K., "Assyria: Tiglath Pileser III to Sargon II (744 – 705 B.C)", in: *CAH 3/2*, Cambridge, 2008, p. 74.

(61)Parker, B.J., *The Mechanics of Empire*, PhD, Los Angeles, 1998, pp. 93-94.

(٦٢) جباغ قابلو:**"التنافس الآشوري الأورارتي للسيادة على الشرق القديم خلال النصف الأول من القرن التاسع والقرن الثامن قبل الميلاد"**، *دراسات تاريخية*، العددان٧١-٧٢، جامعة دمشق، ٢٠٠٠، ص٦٧ – ٦٨.

(٦٣) لمزيد عن هذه الحملات، انظر:

Brown, S.C., *Kinship to Kingship: Archaeological and Historical Studies in the Neo – Assyrian Zagros*, PhD, University of Toronto, 1979, pp. 85- 93. "

(64) Kurt, M., *Urartu Devleti*'nin Bati Politikasi ve Yayilim, in: *Ksù Socyal Bilimler Dergisi 7*, Kahramanmaraş Sütçü İmam Üniversitesi, 2010, p. 83.

(٦٥) مارغريت ريمشنايدر: **أوراتو مملكة أرمينية قديمة في أحضان أرارات،** ترجمة محمد وحيد خياطة، حلب، ١٩٩٣، ص ١٠٥.

(66) Treister, M.Y., *The Role of Metals in Ancient Greek History*, E.J. Brill, Leiden, 1996, p. 161.

(٦٧) يلاحظ أن آواريكو Awariku ملك كو في كيليكا لم ينضم لهذا التحالف، حيث أوضحت مسلة إنسيرلي Incirli، التي عُثر عليها على بعد ثلاثين كيلو مترًا شمال شرق سمأل، أن هذا الملك ظل مواليًا للآشوريين ضد أورارتو، وجراء ذلك منح بعض أراضي كوموخ كمكافأة له لعدم انحيازه لجانب أورارتو، انظر:

Herrmann, V.H.R., *op. cit,* p. 74.

(٦٨) مارغريت ريمشنايدر: المرجع السابق، ص٩٩ ، ١٠٥.

(٦٩) أ.ر. جرني: **الحيثيون**، ترجمة محمد عبد القادر محمد، مراجعة فيصل الوائلي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٧م، ص٦٨.

(70) Mackenzie, D.A., *Myths of Babylonia and Assyria*, The Gresham Publishing company 34 Southampton st.Strad, London, p. 446.

(71) Dubosky, P.," Tiglath-Pileser III's Campaigns in 734 – 732 B.C.: Historical Background of Isa7: kgs 15 – 16 – and 2 chr 27 – 28 ", in: *Biblic 87*, Rome, 2006, pp. 163 – 64.

(73)Astour, M.C., *op. cit.,* pp. 14-15.

(٧٤) **بيسني**: تقع في إقليم أديامان حاليًا، انظر:

Kaya, M.S., *The Zaza Kurds of Turkey*, I.B. Tauris, London, 2011, p.5.

(75) Astour, M.C., *op. cit*., pp. 15- 16.

(76) *Ibid.*, p. 16.

(77) Parker, B.J., *op. cit*., p. 299.

(٧٨) مارغريت ريمشنايدر: المرجع السابق، ص١٠١.

(79) Na'aman, N., *op. cit.,* p. 27.

(80) Astour, M.C., *op. cit*., pp. 16 – 17.

(81)Winter, T.J., *op. cit*., p. 132; Dubovsky, B., *A study of the Neo-Assyrian Intelligence Services and Its Significance for 2 Kings 18-19*, PhD, Harvard University, 2005, p. 40.

(82) Konakçi, E., *op. cit*., p. 80.

(83) Parker, B. J., *op. cit.*, p. 300; Winter, I.J., *op. cit.,* p. 131.

(84) Kuan, K., *op. cit*., pp. 262, 269, 271, 280-1; Hawkins, J.D., *CHLII,* p. 332; Grabbe, L.L., *Ancient Israel: What Do We Know and How Do We Know It?*, T & T Clark, London, 2007, p. 134.

(85)Radner, K., Hatti's heirs: "Kummuhi and the other Neo-Hittite kingdoms", *Assyrian empire builders*, University College London, 2012 [http://www.ucl.ac.uk/sargon/ essentials/countries/hatti/], Content last modified: 5 Nov 2012.

(86) Bryce, T., *The World of The Neo-Hittite Kingdoms: A Political and Military History,* p. 114.

(87) Herrmann, V.H.R., *op. cit.*, p. 54.

(88) Arbino, G.P., *op. cit*., p. 257; Hawkins, J.D., *CHLI I,* p. 332; Gilibert, A., *Syro-Hittite Monumental Art and the Archaeology of Performance,* Walter de Gruyter, Berlin, 2011, p. 17.

(٨٩) مارغريت ريمشنايدر: المرجع السابق، ص١٤٥.

(90) Luckenbill, D.D., *ARAB*, Vol.2, The University of Chicago Press, Chicago, 1927, 64.

(91) Lederman, R.C., *The Designation of Foreign Territory in Assyrian Royal Inscriptions of the Sargonid Period*, PhD, University of Pennsylvania,1988, p. 258.

(92) Hawkins, J.D., *CHLI I,* p. 332.

(٩٣) أحمد حبيب سنيد الفتلاوي: **"العلاقات البابلية المصرية في العصر البابلي الحديث ٦٢٦-٥٣٩ ق.م."**، مركز بابل للدراسات الحضارية والتاريخية، مجلد (٢)، العدد (١)، جامعة بابل، ٢٠١٢، ص٣١٣.

(94) Grayson, A, K, *Assyrian and Babylonian Chronicles*, Eisenbrauns, Winona Lake, 1975, pp. 97-8.

(95) *Ibid*., p. 98.

أحمد حبيب سنيد الفتلاوي: المرجع السابق، ص٣١٤.

(96) Hawkins, J.D., *"Kummuh"*, p. 340; Bard, K.A., *Encyclopedia of the Archaeology of Ancient Egypt*, Routledge, New York, 2005, p. 152.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].



# جوانب من تاريخ شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام

## كتاب أرابيكا للملك الموريطاني يوبا الثاني (٢٥ ق.م – ٢٣ ق.م)

**خالدية مضوي**
أستاذة التاريخ القديم
كلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية
جامعة معسكر – الجمهورية الجزائرية

### مُلَخّصْ

كثيرة هي الدراسات التاريخية القديمة التي أولت اهتمامها بتاريخ شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، إلا أن كتاب أربيكا لمؤلفه الملك الموريطاني يوبا الثاني يُعَدّ أول مصدر كلاسيكي شمولي يدون باللغة الإغريقية من طرف كاتب مغربي، وهو يتطرق لجوانب عديدة من تاريخ هذه المنطقة التي شغلت حيزًا كبيرًا من اهتمامات المؤرخين السابقين واللاحقين له، سنحاول أن نسلط الضوء عليها وعلى غيرها من الإشكالات ذات الصلة بهذا الموضوع من خلال هذه الدراسة التي تتناول التعريف بصاحب الكتاب وظروف تأليفه، وأهمية الكتاب بالنسبة للسلطات الرومانية، وإلقاء الضوء على موضوعات الكتاب وهي: الجغرافيا، والعادات والتقاليد والنشاط التجاري، ومنتجات شبه الجزيرة العربية، وعالم الحيوان، وعالم النبات.

**بيانات الدراسة:**

تاريخ استلام البحث: ١٨ يناير ٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر: ٢٥ أبريل ٢٠١٥

**كلمات مفتاحية:**

الجزيرة العربية، العصور القديمة، مملكة موريطانيا، الملك يوبا الثاني

**معرِّف الوثيقة الرقمي:** DOI 10.12816/0045092

**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**

خالدية مضوي. "جوانب من تاريخ شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام: كتاب أرابيكا للملك الموريطاني يوبا الثاني (٢٥ ق.م – ٢٣ ق.م)".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد السابع والثلاثون؛ سبتمبر ٢٠١٧. ص٩٧ – ١٠٣.

### مُقَدِّمَةُ

تُعَدّ هذه الدراسة لبنة جديدة تضاف إلى قائمة الدراسات التاريخية المعاصرة التي أولت عنايتها لتاريخ الجزيرة العربية في العصور القديمة، بحيث سنحاول من خلالها تسليط الضوء على إسهامات الملك والعالم الموريطاني يوبا الثاني (IUBA II) في كتابة تاريخ المنطقة من خلال مؤلفه "أرابيكا"(Arabica)، الذي لم تعره الدراسات العربية المختصة اهتمامًا وأسقطت اسمه من سجل المصادر الكلاسيكية الإغريقية المؤرخة لوقائع وأحداث شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام،[١] وذلك على الرغم من أهمية مصداقية المعلومات الواردة فيه، وهي حقائق أدرك المؤرخ "كايوس سكندوس بلينيوس"(Cauis Secundus Plinius) المعروف ببلينيوس القديم أهميتها ونوها بها في مؤلفه "التاريخ الطبيعي"، وذلك منذ القرن الأول الميلادي،[٢] بحيث استهل في معرض حديثه عن بلاد العرب في الفقرة الأولى من الفصل الواحد والثلاثين من كتابه السادس قوله:[٣] "لم أنس أو أتجاهل حديثي السابق الذي ذكرته في الكتاب الثالث، والذي أشرت فيه أن أكثر الكتابات مصداقية ودقة تلك التي كتبت من مؤرخي المنطقة، غير أنه وفيما يتعلق بتاريخ بلاد العرب، أحب أن أتبع في سرد لأخبارها ما ورد منها في كتب مؤرخي الحملات الرومانية، وكتاب أرابيكا للملك يوبا الثاني الذي أهداه إلى كايوس قيصر (Caesar Cauis)[٤] قائد الحملة الرومانية على البلاد العربية".

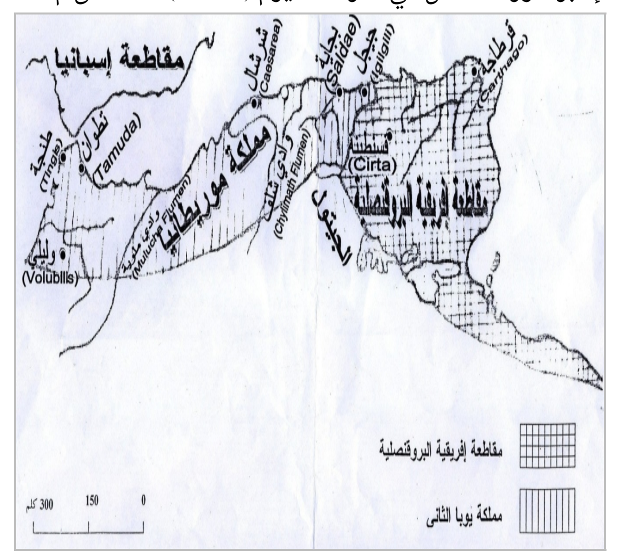
ستعكف هذه الدراسة على معالجة عديد الإشكالات المتعلقة بالموضوع والتي من بينها الوقوف على البواعث والدوافع الظاهرية والخفية بأبعادها المختلفة المعرفية والسياسية والعسكرية التي حذت بهذا الملك لاحتفاء بتاريخ الجزيرة العربية، والتحري عن مصادره ومدى أهميتها ومصداقيتها، ثم ما مدى أهمية معلوماته بالنسبة للسلطات الرومانية ولمعاصريه ولاحقيه من المؤرخين، وقبل الخوض في الإجابة عن هذه التساؤلات لابد

لنا من وقفة نتعرف من خلالها على صاحب الكتاب ومؤلفه "أرابيكا".

## ١-التعريف بصاحب الكتاب

لم تشر المصادر الأدبية إلى تاريخ ميلاده، وإنما اكتفت بذكر حادثة أسره و نقله إلى روما بعد هزيمة والده الملك يوبا الأول (Iuba I) في معركة رأس ديماس (Thapsus) سنة ٤٦ ق.م،[٥] ولهذا رجح بعض المؤرخين المعاصرين مولده ما بين سنه ٥١ أو ٥٠ ق.م في زاما (Zama) عاصمة مملكة نوميديا الشرقية.[٦] حظي الطفل يوبا برعاية أوكتافيا "Octavia"شقيقة الإمبراطور أغسطس وأرملة القائد الروماني ماركوس أونطونيوس "Marcus Antonius"، إذ أنشأته على طريقة شباب الأرستقراطية الرومانية، بحيث تعلم اللغتين الإغريقية واللاتينية وتشبع بثقافتهما، كما نال رعاية وعطف الإمبراطور أكتافيوس "Octavius"، إذ منحه حق المواطنة الرومانية وأصبح يعرف باسم كايوس يوليوس «Caius Iulius»، واصطحبه في بعض حروبه ضد ماركوس أنطونيوس "Marcus Antonius"في مصر ٣١ ق.م وإسبانيا ٢٦-٢٥ ق.م.[٧]

توج يوبا الثاني (Iuba II) ملكًا على عرش مملكة موريطانيا سنة ٢٥ ق.م من طرف الإمبراطور أغسطس، هذه المملكة التي امتدت حدودها من المحيط الأطلسي غربًا إلى الوادي الكبير (Ampsaga Flumen) شرقًا،[٨] بالإضافة إلى قسم من جيتوليا الممتد تقريبا من زراية (Zarai) إلى توده (Thabudeos) الواقعة جنوب نوميديا[٩] (المغرب الأقصى وأجزاء من الجزائر). (انظر: خريطة مملكة موريطانيا). تزوج هذا الملك سنة ٢٠ أو١٩ ق.م برغبة مربيته أوكتافيا " "Octaviaمن كليوباترة القمر "Cléopâtre Séléné"ابنة كليوباترا السابعة "Cléopâtre VII "و ماركوس أنطونيوس التي أسرت ونقلت إلى روما بعد انهزام والديها أمام الإمبراطور أغسطس في معركة أكتيوم (Actium) سنة ٣١ ق.م.[١٠]




نقلاً وبتصرف عن:

Benabou (M), Juba II ou l'africanité vassal de Rome, Pp.148 .

## ٢- مملكة موريطانيا في عهد الملك يوبا الثاني

رُزق يوبا الثاني (Iuba II) من هذا الزوج بابن اسمه بطليموس (Ptolemaeus) وربما بنت اسمها دريسيله (Drysila) وهي التي قال عنها المؤرخ اللاتيني تاكيتوسTacitus" "أنها حفيدة ماركوس أونطونيوس،[١١] وبعد وفاة الملكة كليوباترة «Cléopâtre» سنة ٦ أو ٥ ق.م، تزوج يوبا بغلافيرا "Glaphyra" ابنة أرشليوس « Archelaus » ملك كابادوسيا وأرملة ألكسندر ابن هيرود الأكبر،[١٢] هذا الزواج الذي تزامن مع رحلته إلى الشرق التي رافق فيها القائد الروماني كايوس قيصر"Caius Caesar".[١٣]

عرفت مملكة موريطانيا في عهده تطورًا اقتصاديًا وعمرانيًا معتبرًا، إذ بمجرد تعيينه ملكًا اتخذ من شرشال (IOL) المحطة الفينيقية وعاصمة الملك الموريطاني بوخوس الثاني (Bocchus) عاصمة لمملكته الواسعة وأطلق عليها اسم القيصرية (Caesarea) لقب ولي نعمته أوكتافيوس أغسطس، ولم يكتف بتغيير اسمها فحسب، وإنما حولها إلى مدينة رومانية وذلك بتوسيعها وتزينها بالمباني الجميلة ليجعل منها نموذجًا للعمران الروماني، حيث أقام بها ساحة عمومية ومعبد خصصه لعبادة هذا الإمبراطور، كما بنى بها مسرحًا وسط المدينة، يُعَدّ من أقدم المسارح التي أنجزت ببلاد المغرب القديم بعد مسرح مدينة برج بوشاطور (Utica)، وزودها بأسطول كان له الدور الكبير في تطوير الاقتصاد خاصةً ترويج التجارة والقيام بالحملات الاستكشافية العلمية زيادة على حراسة الشواطئ.[١٤]

تميزت سياسته الخارجية بربطه علاقات عسكرية ببروقناصلة مقاطعة إفريقية البروقنصلية كما ربطته علاقة متميزة بالأرستقراطية الرومانية وخاصةً الإمبراطور أوكتافيوس أغسطس وابنه الإمبراطور تيبريوس «Tiberius»، كما وطد علاقاته التجارية بدول البحر الأبيض المتوسط خاصةً إيطاليا، غاليا وإسبانيا.[١٥]

وعلى الرغم من المسؤوليات الجسام التي كنت ملقاة على عاتقه فيما يخص أمور السياسة والحكم، إلا أن ذلك لم يثنه عن التأليف في حقول معرفية متعددة، بحيث كان يوبا الثاني ( Iuba II) شغوفًا بطلب العلم والمعرفة، إذ وصفه بلوتاركيوس "Plutarquiu" s بأنه أكبر المؤرخين بين الملوك وأعلم علماء الإغريق"،[١٦] ولعل مما ساعده على ذلك معرفته للغات متعددة كالبونية التي تعلمها في صباه بزاما (Zama) بالإضافة إلى اللاتينية والإغريقية اللتان كان يؤلف بهما كتبه، كما اهتم إلى جانب جمعه المعلومات من مؤلفات سابقيه من الإغريق والرومان بالبحث في عدة مواضيع، كالتعرف على منبع نهر النيل وذلك بإرساله بعثة استكشافية إليه، كما حاول التعرف على أرخبيل جزر الكناري،[١٧] وألف كتبًا عديدة في علوم مختلفة، إذ أنجز دراسة حول نبات أوفوربوس "Euphorbus" نسبة إلى طبيبه الذي

اكتشفه في جبال الأطلس، وقد وصفه بأنه يحسن الرؤية ويقاوم ضرر لدغة الأفاعي باختلاف أنواعها.[١٨]

ومن أشهر مؤلفاته التي احتفظت بها المصادر كتابه لبيكا "Libyca"، أسيريكا "Assyrica" وأرابيكا "Arabica" والتاريخ الروماني بالإضافة إلى مؤلفات أخرى حول الرسم والمسرح وأخطاء اللغة.[١٩] ذاع صيته ووصف أنه أعظم علماء عصره، فأقام له سكان مدينة أثينا تمثالاً بالقرب من إحدى المكتبات، وأفادت كتاباته العديد من العلماء كبلينوس القديم " Plinius" الذي ذكره في كتابه التاريخ الطبيعي 37 مرة، كما اعتمد الطبيب غاليانوس "Galianus"الذي عاش في النصف الثاني من القرن الثاني ميلادي على دراسته حول نبات أوفوربوس "Euphorbus"، وكل من أتيني "Athenee" وبولكس "Pollux"، وتاتيانوس"Tatianus" في نهاية القرن الثاني، وسولينوس "Solinus"، وأميانوس ماركلينوس "Ammianus Marcellinus" في القرنين الثالث والرابع ميلادي وأليانوس البيزنطي «Alianus» في القرن الخامس.[٢٠]

توفي يوبا الثاني سنة ٢٣ ق.م[٢١] وفي هذا الصدد يفيدنا المؤرخ الفرنسي مارسال بن عبو «M.Benabou» بمعلومات نقلها عن كاتبين مسيحيين هما لاكتانس «Lactance» ومنيكيوس فيلكس «Minicius Félix» تشير إلى تأليهه بعد وفاته من طرف رعاياه الموريين،[٢٢] كما كشفت الحفريات التي أجريت في مدينة سلا (Sala) المغربية عن تمثالين أحدهما لهذا الملك والآخر لابنه بطليموس «Ptolemaeus»، عثر عليهما داخل معبد صغير للقرن الرابع ميلادي.[٢٣]

## ٣-التعريف بالمؤلف

لم يصل إلينا كتاب الملك يوبا الثاني المحرر باللغة الإغريقية والذي عرف من خلال عنوانه المترجم إلى اللاتينية أرابيكا "Arabica" بطريقة مباشرة، وإنما من خلال ثلاثة كتاب كلاسكيين لاحقين،[٢٤] من أهمهم المؤرخ اللاتيني بلينيوس القديم، بحيث يخبرنا هذا الأخير في ثلاثة مواضع من مؤلفه "التاريخ الطبيعي "Historia Naturalis" في الفقرة الرابعة عشرة من الفصل الواحد والثلاثين من الكتاب السادس، في الفقرة الثانية من الفصل الواحد والثلاثين من الكتاب الثاني عشر، وفي الفقرة الأولى من الفصل الرابع من الكتاب الثالث والثلاثون، أن الملك يوبا الثاني ألف كتابًا ضخمًا حول البلاد العرب أسماه أرابيكا، أهداه إلى كايوس قيصر "Caesar Cauis" الابن المتبنى للإمبراطور الروماني أغسطس،[٢٥] غير أن معلوماتنا حول عدد كتبه ومحتواها يبقي محدودًا ولا يمكننا التعرف عليها إلا على ضوء الإشارات التي زودنا بها بلينيوس، الذي كان قد استشهد ببعض منها في كتابه،  بحيث أطلعنا على اثنان وعشرون جزءًا من أجزائه  نوضحها من خلال هذا الجدول:

| الأجزاء | المصدر |
|---|---|
| التاسع والثلاثون، الواحد والأربعين، الثاني والأربعين، الرابع والأربعين | Plinius, VI, 32, 1-9. |
| السادس والأربعين | Ibid, XXXII, 10. |
| السابع والأربعين والثامن والأربعين | Plinius, VI, 177, 179; VIII, 35; XXXI, 18; XXXVI. |
| التاسع والأربعين | Plinius, VIII, 30, 3. |
| الخمسين | Ibid, XII, 30, 1-15. |
| الواحد والخمسين | Ibid, XII,30,1 |
| الثالث والخمسين | Ibid, XIII, 7, 5. |
| الخامس والخمسين | Ibid,X XV,8,1. |
| السادس والخمسين | Ibid, XIII, 142 |
| السابع والخمسين | Plinius, XXV, 17, 1. |
| الثامن والخمسين | Ibid, XII, 22, 1. |
| التاسع والخمسين | Ibid, XXXIII, |
| الستين | Ibid, XXXV, 39 |
| الواحد **والستين** | Ibid, XXXVIII, 9, 1. |
| الثاني والستين، الثالث والستين، الرابع والستين، الخامس والستين | Ibid, XXXVIII, 24, 69, 73,108, |

أما عن تاريخ تأليفه، فيمكننا أن نستنتج بحسب ما يفيدنا به بلينيوس دائمًا،[٢٦] أنه قد أنجز في وقت سابق من سنة ١ ق.م وهو تاريخ انطلاق الحملة الرومانية.[٢٧] والظاهر أن كتاب أرابيكا كان ذائع الصيت ويلقى انتشارًا ورواجًا في أرجاء الإمبراطورية وبخاصةً في العاصمة روما، بحيث تمكن مؤرخنا بلينيوس - وهو الذي عاش في فترة لاحقة بعد وفاة يوبا الثاني – من الاطلاع عليه، وهو ما يفهم من مضامين العديد الفقرات الواردة في كتابه السادس كقوله مثلاً "أحب أن أتبع كتاب يوبا"،[٢٨] كما قرأه واعتمد عليه المؤرخ سولينوس الذي عاش خلال القرن الثالث ميلادي والمؤرخ البيزنطي أليانوس الذي عاش خلال القرن الخامس ميلادي.[٢٩]

يتضح لنا من النصوص التي اقتبسها بلينيوس عن مؤلف "أرابيكا"، أن هذا الكتاب ذو طابع جغرافي، عنى بكافة الأمور المتعلقة ببلاد العرب فيما يخص مساحتها وما فيها من المدن والمواقع والرؤوس والخلجان، إلا أن ذلك لم يمنعه من التطرق إلى مجالات أخرى كالسلالات البشرية وذلك من خلال استعراض أسماء بعض الشعوب والقبائل وعاداتها وتقاليدها، ومواردها الاقتصادية وأنشطتها التجارية.

## ٤- مصادره

لقد تيسر للملك يوبا الثاني الحصول على معلومات حول الجزيرة العربية لم تتيسر لغيره وذلك نظرًا لعدة عوامل نذكر منها:
١- معاصرته لأحداث الحملة الرومانية على اليمن في سنة ٢٤ ق.م التي قادها إيليوس جالوس "Aelius Gallus" بروقنصل مقاطعة مصر، واستفادته من معلومات معاصره الجغرافي سترابون "Strabo" الذي قام بتسجيل وقائعها لاسيما من النواحي السياسية والتجارية بحيث استفاد من الوصف الدقيق للطرق التي سلكتها الحملة ونتائجها والأخطار التي وقعت فيها وكذلك وصفه للمدائن والقبائل العربية.[٣٠]

٢- استعانته في تحرير كتابه على مصادر سابقية وبخاصة على خطة لإسكندر المقدوني في غزوه لشبه الجزيرة العربية التي ذكرها بيلوت أونسكريت (Pilote Onéscrite ) والأميرال نيارك (Néarque)،[٣١] والتي وصلتنا أخبارها عن طريق كاتبين كلاسيكيين لاحقين هما أريانوس "Arrianus" وسترابون "Strabo".[٣٢]

٣- إن قسمًا كبيرًا من معلوماته، خاصة تلك المتعلقة بالطيوب الآتية من جنوب الجزيرة العربية، كان يستند فيها يوبا على ملاحظاته الشخصية للمجتمع الروماني الذي كان مؤرخنا أحد أبنائه، بحيث استقر في روما عاصمة الإمبراطورية الرومانية لفترة طويلة استمرت مدة ٢١ سنة (٤٦ – ٢٥ ق.م)، حصل خلالها هذا الملك على حقوق المواطنة الرومانية، وقد رأى بأم عينيه أن هذا المجتمع كان يستهلك قدرًا معتبرًا منها، وكان بالضرورة على علم بمصدر هذه السلع وتجارها خاصةً وأنه كان من أفراد الأسرة الإمبراطورية المقيمين في قصر الإمبراطوري.[٣٣]

٤- إن المؤرخين المعاصرين لا يستبعدون زيارته للجزيرة العربية وذلك إما برفقة كايوس قيصر (Caius Caesar) أثناء حملته التوسعية على الجزيرة العربية (١ ق.م ٤م)، أو إلى الشرق بمناسبة عقد قرانه على قلافيرا "Glaphyra" ابنة أرشليوش "Archélauis" ملك كابدوسيا "Capaddocia".[٣٤]

## ٥- ظروف تأليف الكتاب

من الواضح أن أهم الدوافع التي جعلت الملك الموريطاني يحتفي بتاريخ الجزيرة العربية هو رغبته في إهداء هذا الكتاب إلى ولي نعمته الإمبراطور أغسطس الذي كفله ورعاه وتوجه ملكا، حتى يستعين به قائد حملته على الجزيرة العربية كايوس قيصر في احتلالها، وحتى تتدارك من خلاله السلطات الرومانية الإخفاقات التي منيت بها في حملة إيليوس جالوس، غير أن ذلك لا يمنع من وجود أسباب أخرى وإن لم تكن بنفس الأهمية ودرجة، والتي نلخصها في يأتي:

١- يُعَدّ اهتمام يوبا بشؤون شبه الجزيرة العربية جزءا من اهتمام الكتاب الكلاسيكيين بالمنطقة في العهد الإمبراطوري الأعلى وكان استمرار هذا الاهتمام وتزايده يشكل انعكاسًا واقعيًا لاهتمام روما بالاحتلال الجزيرة العربية لسببين رئيسيين هما:

(أ) لأسباب أمنية عسكرية تمثلت في حماية الحدود الشرقية للإمبراطورية الرومانية على مشارف الجزيرة العربية، تأمين الخط الملاحي البحري من الشرق بعد أن أصبح مهددا من قبل الفرس في إيران.[٣٥]

(ب) لأسباب اقتصادية، بحيث اتبع أباطرة روما مع احتلال مصر وتحويلها إلى مقاطعة رومانية سنة ٣٠ ق.م سياسة كان هدفها السيطرة على التجارة وبخاصة تجارة الطيوب والتوابل التي بدأت تلعب دورا مهما في العلاقات التجارية مع الإمبراطورية الرومانية في عهد الإمبراطور أغسطس (٢٧ ق.م - ١٤م)[٣٦] وقد لخصها سترابون بقوله "ما يزيد من ثروة سكان المنطقة أن أهلها كانوا يبيعون منتجاتهم ولا يشترون شيئًا في مقابل ذلك، كذلك إذا ضمت هذه المنطقة إلى الإمبراطورية الرومانية فستؤدي بموقعها على الساحل الشرقي للبحر الأحمر إلى جانب مصر على الساحل الغربي إلى سيطرة روما الكاملة على الطريق التجاري البحري في البحر الأحمر، وقد كان هذا إذا تم خليقًا بأن يوفر على الإمبراطورية الرومانية وعلى الرعايا الرومان التكاليف الباهظة والرحلات الشاقة بالقوافل التجارية الضخمة، كذلك كان خليقًا بأن يؤدي إلى تخفيض ثمن سلع المنتجات العربية وعلى تحويل طريق التجارة إلى الهند بطريقة مباشرة.[٣٧]

٢ -مواكبة الملك يوبا الثاني "IubaII" لمعاصريه من المؤرخين والجغرافيين والرحالة الذين اهتموا بتقديم المعلومات عن شبه الجزيرة العربية على أساس استقصاء علمي، بحيث تكون هذه الكتابات مرجعًا لمَنْ يريد التعرف على المنطقة لسبب أو لآخر سواء من السياسيين أومن غيرهم، ولعل ما يدعم هذا الرأي تدوينه لمجموعة من الكتب تناولت مناطق جغرافية مختلفة كبلاد أشور ولوبا.

## ٦ – أهمية كتاب أرابيكا بالنسبة للسلطات الرومانية

كان كتاب أرابيكا الدليل الذي استعملته السلطات الرومانية في الحملة الموجهة للاحتلال شبه الجزيرة العربية، هذه الحملة التي أرسلها الإمبراطور أغسطس عن طريق البحر تحت قيادة ابنه المتبنى كايوس قيصر سنة ١ ق.م. والظاهر أن هذه الحملة لم تستغرق وقتًا أو جهدًا كبيرًا بحيث يذكر لنا بلينيوس القديم[٣٨] "أن القائد لم يفعل أكثر من إلقاء نظرة سريعة على البلاد العربية"، لكن يبدو مع ذلك أن الحملة قد حققت الهدف الاقتصادي والسياسي بالنسبة لروما، وهناك أكثر من دليل يشير إلى هذه النتيجة، بحيث يذكر لنا مؤلف يوناني مجهول في كتابه "الطواف حول البحر الاريتري"[٣٩] في جملة قصيرة مفادها "أن القيصر استولى علي ميناء عدن في زمن غير بعيد عن زمانه ودمره"،[٤٠] دون أن يحدد اسم هذا القيصر[٤١] وسواء أكانت تسمية "قيصر "تعني كايوس

قيصر قائد الحملة البحرية أو تشير إلى الإمبراطور أغسطس الذي كان يشار إليه عادة باسم القيصر فالنتيجة واحدة، كذلك يذكر لنا بلينيوس القديم[٤٢] "أن كايوس قيصر قد حصل على شهرة واسعة من وراء هذه الحملة"، وهو حديث يدل على أن روما حققت هدفا ملموسا حتى ولو أخذنا هذا الإخضاع بأقل معانيه وهو حصول روما على امتيازات في هذا الميناء، أما الشاهد الأخير فهو شاهد أثري مؤداه أن حوالي نصف العملة الرومانية التي وجدت بالهند ترجع إلى عهد كل من الإمبراطورين أغسطس وابنه تيبيريوس،[٤٣] ومعنى هذا أن التجارة الرومانية مع الهند قد نشطت نشاطا كبيرا في هذه الفترة، وغني عن البيان أن نقطة الوسط في طريق التجارة بين روما والهند تشغلها السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة العربية، الأمر الذي يدل على أن روما إن لم تكن قد وضعت المنطقة تحت نفوذها، تكون قد حصلت على تسهيلات تجارية كبيرة عبر موانئها.[٤٤]

## ٧ -محتوى الكتاب

لقد تضمن كتاب يوبا الثاني "Iuba II" الكثير من المعلومات القيمة التي تطرق فيها إلى مواضيع

متعددة هي:

**١/٧- الجغرافيا:**

لم يقصر يوبا تسمية بلاد العرب على شبه الجزيرة العربية ولكنه أدرج مثل سابقيه من المؤرخين من أمثال هيرودوتوس (Herodotus) وغيرهم، القسم الداخلي من سوريا وشبه جزيرة سيناء وصحراء مصر الشرقية التي تقع بين النيل والسواحل الغربية للبحر الأحمر ضمن نطاق هذه التسمية، ووصف لنا المدن الواقعة على الساحل الممتد من المحيط الهندي إلى الخليج العربي وتلك الواقعة غرب البحر الأحمر، إذ تحدث عن كافة الأمور المتعلقة بشبه الجزيرة العربية فيما يخص مساحتها وثرواتها وما فيها من المدن والرؤوس والخلجان والموانئ والجبال، وهي المعلومات التي ورد ذكرها عند بلينيوس القديم في الفقرات التسعة عشر من الفصل الثاني والثلاثين من الكتاب السادس[٤٥] وبحسب هذا الأخير دائمًا، فإن يوبا الثاني قد تفرد بمعلومة مفادها "أن التجارة البحرية ابتداءً من وادي الكلب كانت مستحيلة بسبب وعورة المنطقة"،[٤٦] كما أنه لم يخف تعجبه من إغفاله ذكر بعض المدن الزاهرة في المنطقة – إن لم يكن خطأ الناسخين كمدينة عمان (Omana)،[٤٧] وبعض الموانئ المتمركزة على الجانب الشرقي لشبه الجزيرة العربية كأطانة (Attana) وهمنة (Omna)[٤٨] وتلك الواقعة على المضيق الذي يفصل البلاد العربية عن البلاد الإفريقية وهي مدن (Bérenice)، (Epidires)، وهو الذي صحح وصوب معلومات سابقيه من المؤرخين.[٤٩]

**٢/٧-العادات والتقاليد والنشاط التجاري:**

على الرغم من طبيعة الكتاب الجغرافية، إلا أن معلوماته لم تخلو من الحديث عن بعض عادات الشعوب وتقاليدها وبعض أوج نشاطهم التجاري، بحيث ذكر أن العرب كانوا يستخدمون زيوت الأسماك مراهم لجمالهم لوقايتها من الذباب، كما تحدث عن متاجرتهم بزيوت الأفاعي.[٥٠]

**٣/٧-منتجات شبه الجزيرة العربية:**

لقد أشار يوبا لبعض منتجات شبه الجزيرة العربية كاللادن (Iadanon) الذي تشتهر به المنطقة وهو على نوعين أحدهما طبيعي والآخر اصطناعي،[٥١] والمر (Smyrna) الذي ينمو بالقرب من مناطق زراعة أشجار البخور، وهو ينتشر في كثير من مناطق شبه الجزيرة العربية عند المعينين (Minaioi) والسبأيين (Sabaioi)[٥٢] وغيرهم، وهو يزرع مرتين في السنة،[٥٣] كما ذكر أن الصمغ يستخرج من نبات شوكي ينمو في شبه الجزيرة العربية وفي الهند ويعرف باسم (Lama)،[٥٤] وفي حديثه عن الأشجار المثمرة تطرق إلى النخيل التي ذكر أن أجود أنواع تمورها هي تلك الموجودة في إقليم سكان الخيام (Skenitae) وهي تسمى (Dablan).[٥٥]

**٤/٧-عالم الحيوان:**

تطرق يوبا في مؤلفه إلى بعض الحيوانات التي كانت تعيش في الجزيرة العربية، بحيث ذكر أن أفاعي المنطقة شبيهة بأفاعي الهند، يبلغ طولها (٢٠) ذراعًا، وهي محدبة كتلك الموجودة في منطقة الصومال (Trogloditikae)،[٥٦] وأن الجمال العربية ذات حدبة واحدة،[٥٧] كما أنه يحيلنا على نوع غريب من الحيوانات، لديه ثلاث فكوك وله وجه إنسان وجسم أسد، وهو يحب أكل اللحوم البشرية،[٥٨] كما يشير إلى الخيول وتعلق أصحابها بها،[٥٩] وفي حديثه عن الأسماك أشار إلي المحار الذي يبلغ وزنه داخل الصدفة الواحدة ٨٧، ٠ كلغ، وأن الحلزونيات من أشد خصومها، وهي تتميز في شبه الجزيرة العربية بألوانها المختلفة الزرقاء الصهباء والأرجوانية،[٦٠] ولم تفوته الإشارة إلى انعدام الخنازير البرية والأليفة في شبه الجزيرة العربية.[٦٢]

**٥/٧-عالم النبات:**

يقدم يوبا في هذا القسم وصفًا دقيقًا للأشجار العطرية بشبه الجزيرة العربية لا نجده عند من سبقه من الكتاب سواء منهم المؤرخون أو الجغرافيون أو علماء التاريخ الطبيعي، وقد أشاد بلينيوس القديم بذلك قائلاً "...على الرغم الحملات الرومانية المتكررة على شبه الجزيرة العربية وورود أخبارها إلينا من خلال المؤرخين، إلا أننا نفتقد لمواصفات شجرة البخور، ولا يوجد مؤرخ لاتيني أو إغريقي تمكن بحسب علمنا من إعطائنا وصفا لها باستثناء يوبا الثاني الذي ذكر أن شجرة البخور جذعها ملتو وأن أغصانها شبيهة بنبات القيقب،[٦٢] وأن شجرة المر تتميز بجذعها الخشن و الملتوي وهي أكبر حجما من شجرة البخور، وأن أوراقها شبيهة بأوراق الزيتون، وأن القطن من الأشجار التي تشتهر بها شبه الجزيرة العربية، وهي ذات أوراق شبيهة بأوراق النخيل، وهي أفضل من تلك التي تشتهر بها الهند،[٦٣] وأن الحبة السوداء من

الأعشاب المقاومة للموت،(٦٤) وأن طول أشجارها يصل إلى (٥٠) ذراعًا في الجزيرة العربية.(٦٥)

نستخلص مما تقدم ذكره؛ أنه على الرغم من أهمية المعلومات التي زودنا بها يوبا الثاني إلا أننا نلاحظ في بعض معلوماته ذلك الجنوح إلى الخيال أو عدم تحري الدقة العلمية في أحايين أخرى، ويظهر ذلك جليًا من خلال حديثه عن أفاعي أثيوبيا التي كانت تتكتل في مجموعات لتجتاز البحر الأحمر باتجاه بلاد العرب بحثًا عن غذائها،(٦٦) غير أن ذلك لا يمنع من وجود الكثير من الحقائق التي ثبتت صحتها ونوه لها واستفاد منها لاحقوه من الكتاب القدامى اللاتين والإغريق وفي مقدمتهم بلينيوس القديم "Plinius" الذي أشاد بكتاباته واستشهد بآرائه ووظفها (٣٧) مرة في كتابه التاريخ الطبيعي.

## خَاتِمَةُ

وهكذا يتضح مما تقدم ذكره، أن الملك الموريطاني يوبا الثاني كان من بين أهم المؤرخين القدامى الذين احتفوا بتاريخ شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام منذ أواخر القرن الأول قبل الميلاد من خلال مؤلفه أرابيكا الذي لقي صدا إيجابيًا، كما حظي باهتمام من قبل جمهور المؤرخين اللاحقين له لما ضمه من معلومات قيمة طالت جوانب متعددة من تاريخ هذه المنطقة، غير أن هذا المؤلف كغيره من المؤرخين لم يخل من بعض المعلومات غير الدقيقة التي لم يتسن لصاحبها تحري الدقة حولها بحكم انشغالاته السياسية، ولجهله لجغرافية وطبيعة المنطقة التي وطأتها قدماه.

## الهَوامِشُ:

(١) نذكر من بين هذه المؤلفات على سبيل المثال لا الحصر: جواد علي، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، الطبعة الثانية، بيروت دار العلم للملايين، بغداد، دار النهضة، ١٩٧٦، ١٩٧٨، محمد بيومي مهران، **دراسات في تاريخ العرب القديم**، الطبعة الثانية، الرياض، المكتبة التاريخية للجنة البحوث والتأليف والترجمة والنشر، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٩٨٠، حلمي محروس إسماعيل، **الشرق العربي القديم وحضارته** (بلاد ما بين النهرين والشام والجزيرة العربية القديمة)، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٩٨، السيد عبد العزيز سالم، **تاريخ شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام**، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ٢٠٠٢، لطفي عبد الوهاب يحي، **العرب في العصور القديمة**، مدخل حضاري في تاريخ العرب قبل الإسلام، الطبعة الثالثة، مصر، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٣، أحمد أمين سليم، **جوانب من تاريخ وحضارة الجزيرة العربية في العصور القديمة**، مصر، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٥ .

(٢) **بلينيوس القديم (٢٣-٧٩م)**: وهو جايوس بلينيوس سيكوندوس ومن كتبه الهامة كتابه "التاريخ الطبيعي" الذي قسمه إلى سبعة وثلاثين قسما، ولقد تناول شبه الجزيرة العربية في قسمين من هذا المؤلف، ولقد تحدث فيهما عن بلاد العرب وثرواتها وجغرافيتها ومدنها وسكانها وبعض الأحداث التاريخية التي مرت بها، وطرق التجارة في شبه الجزيرة العربية والمسافات بين بعض المراكز التجارية، ويتحدث كذلك عن المنتجات الطبيعية لشبه الجزيرة العربية ومناطق تواجدها ومواسم محاصيلها وطريقة استخراجها وجمعها، كما يتحدث عن أثمانها.

(3) Plinius, VI, 31, 1,"Non me praeterit , nec sum oblitus , sui quemque situs diligentissimum auctorem vosum nobis in introituhujusoperis.In hac tamen parte arma romana sequi placet nobis, Jubamque regem , ad eumdem Cauis Caesarem voluminibus de eadem expiditione Arabica", Histoire naturelle de Pline, avec la traduction en français par Littré (M.E).Paris, Dubochet (J .J), Le Chevalier Comp, éditeurs, 1848.

(٤) **كايوس قيصر:** هو حفيد الإمبراطور أغسطس، وابن القائد الروماني ماركوس أغريبا وجوليا البنت البكر للإمبراطور، تبناه هذا الأخير في سنة ١٧ ق.م وحصل في سنة ١٢ق.م على لقب قيصر، أرسله والده في سنة ١ ق.م إلى الشرق بحيث تمكن من تحقيق بعض الانتصارات في أرمينيا وشبه الجزيرة العربية، توفي سنة ٤ م.

(٥) لا تشير المصادر إلى ظروف توليه الحكم، وإذا كان المؤرخان الكلاسيكيان ديون كاسيوس وبلوتاركيوس قد أشارا إليه أول مرة كملك منذ سنة ٥٠ ق.م، فإن بعض المؤرخين المعاصرين يفترضون أن بداية حكمه كانت في سنة ٦٠ ق.م، حكم خلالها مملكة نوميديا الشرقية التي امتدت حدودها من مقاطعة إفريقية الرومانية وتحديدًا عند هنشير الثنية الواقع بالمدخل الجنوبي لخليج السرت الصغير (تونس) شرقًا إلى غاية مدينة قسنطينة غربًا (الجزائر)، وتحدها من الناحية الجنوبية الشرقية مدينة لبدة الليبية (أجزاء من تونس وليبيا والجزائر)، واتخذ من مدينة زاما عاصمة له.

Dion Cassius, Histoire romaine, XLI, 41, 3, Traduit et annoté par Auberger (J).Paris, les belles lettres, 1995; Plutarque, Caesar, 55, Les vies des hommes illustres, traduit par Richard .Paris, le Fèvre, 1838 ; Piganiol (A), La conquête romaine 7 édition.Paris, P.U.F, 1995, P.371

(6) De la Blanchère (R), «De rege Iuba regis Iubae filio», B.C.A, 1884, p70; Carcopino(J), Le Maroc antique .paris, Gallimard, 1943, p31.

(7) Gsell(St), Histoire ancienne de l'Afrique du Nord (=H.A.A.N), T VIII, Réimpression de l'édition 1921- 1928, Otto Von ZellerBruck, P.208.

(8) Dion Cassius, op.cit., LI, 15 ,6 ; LIII, 26, 2 ; Strabon, Géographie XVII, 3, 7, Traduction d'Amedée Tardieu .Paris, Hachettes, 1886.
(9) Desanges (J), «Le triomphe de Cornelius Balbus19avant J.C» R.Af, 1954, P.125.
(10) Mazard (J), Corpus Nummorum Numidae Mauretanique.Paris, arts et métiers graphiques, 1955, P.108.
(11) Tacitus, Histoire, V, 9, Texte établi et traduit par Goelzer (H), Paris, Les Belles Lettres, 1921.
(12) Josephus Flavius, II, 7,4, La guerre des Juifs contre les romains 66- 70apres J.C, traduit par Armould.Paris ,Lidis, 1975.
(13) Gsell (St), H.A.A.N, T8, p221.
(14) Benseddik(N), Ferdi (S), Leveau(Ph), Cherchel.Alger, 1983, Pp.55-59.
(15) Tacitus, Annales, Iv, 24, texte établi et traduit par Geolzer(H) .Paris, Les Belles Lettres, 1945; Benabou (M), «Juba II ou l'africanité vassale de Rome» Les Africains, IX, 1977, P.153.
(16) Plutarque, Sertorius, 9 ; Caesar, 55.
(17) Gsell(St), H.A .A.N, T8, p254.
(18) Plinius, V, 16, Histoire naturelle, V, texte établi et traduit et commenté par Desanges (J). Paris, Les Belles Lettres, 1980.
(19) Gsell(St), «Juba savant et écrivain», R.Af, 1928, P.168.
(20) Id, H.A.A.N,T8, PP274-277.
(21) Tacitus, Annales, IV, 24.
(22) Benabou (M), La résistance africaine à la romanisation d'August à Dioclétien. Paris, Maspero, 1976.
(23) Coltelloni-Trannoy (M), «Le Culte royal sous les règnes de Juba II et Ptolémée de Maurétanie», Histoire et archéologie de l'Afrique du Nord, V colloque international, 115 congrès national des sociétés savantes, Avignon 9-13avril1990, édition B.C.T.H.S, 1992, PP69-81.

(٢٤) وهم المؤرخان الرومانيان بلينوس القديم الذي عاش خلال القرن الأول ميلادي، وسولينوس الذي عاش خلال القرن الثالث ميلادي ضف إلى ذلك المؤرخ البيزنطي أليانوس.

(25) Plinius, Op.cit, VI ,31,14, «Iuba in his volumnibus quae scripsit ad Cauis Caesarem, Augusti filium, de arabia" XXXIII, 4,1 "Jubamque regem, ad eumdem Cauis Caesarem voluminibus de eadem expiditione arabica
(26) Plinius, VI, 31, 14; XII, 31, 2; XXXII, 4, 1.
(27) Gsell (St), op .cit, p 273.
(28) Plinius, VI, 31, 1.
(29) Gsell (St), Op.cit, p277.

(٣٠) **سترابون** (٦٤ ق.م – ١٩م): ألف كتابًا باللغة الإغريقية في سبعة عشرة جزءًا أسماه "الجغرافية"، وصف فيه الأحوال الجغرافية الطبيعية لمقاطعات الإمبراطورية الرومانية الرئيسية وتاريخها وأحوال سكانها الاجتماعية والدينية، وقد خصص في كتابه السادس عشر فصلاً خاصًا عن بلاد العرب، ذكر فيه الخطوط التجارية البحرية والبرية من موانئ وطرق الجانب الشرقي للبحر الأحمر إلى موانئ وطرق الجانب الغربي لهذا البحر، محددًا بدايات الخطوط ونهاياتها والمواقع التي تمر بها، وتعرض لنظام الحكم الذي كان يسود بعض المناطق العربية، والعلاقات التي كانت تربط بين أقوام المنطقة وغيرهم.

(31) Plinus, VI,٢٦, 1 ; Gsell (St), op.cit , 270.

(٣٢) لطفي عبد الوهاب يحي، المرجع السابق، ص٢٠٢.

(33) Gsell (St), op.cit , p٢٦٦.

(٣٤) لطفي عبد الوهاب يحي، المرجع السابق، ص٢٠٨.

(35) Aymard (A), Auboyer(J), Rome et son empire .Paris, P.U.F, 1954, P.311-312.

(٣٦) حسن الصابون، «**حول ميناء لويكي كومي**" مجلة مركز الخدمة للاستشارات البحثية، العدد (٢٨)، ٢٠٠٩، ص١ -٢.

(٣٧) سترابون، **جغرافية سترابون**، الكتاب السادس عشر، وصف بلاد ما بين النهرين وفينيقيا وشبه الجزيرة العربية، نقله عن الإغريقية، محمود مبروك الدويب، بنغازي، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ٢٠٠٦، ص٩٥.

(38) Plinius, VI, 32, 17.

(٣٩) وهو من الكتب الهامة التي وصلتنا عن شبه الجزيرة العربية، والكتاب محرر بالإغريقية وإن كان قد عرف تحت عنوانه المترجم إلى اللاتينية، وقد اختلف المؤرخون حول تاريخ تأليف الكتاب، إذ يرى بعضهم أنه ألف في نهاية القرن الأول ميلادي بينما يرى بعضهم الآخر أنه ألف في النصف الأول من القرن الثالث، وقد وصف مؤلف هذا الكتاب في مؤلفه طوافه في البحر الأحمر وسواحل بلاد العرب الجنوبية والهند مرورًا بشواطئ شبه الجزيرة العربية، والكتاب يحوي معلومات كثيرة من ذلك النوع الذي يحتاج إلى معرفته الملاحون والتجار، سواء ما يتصل بالملاحة والأسواق أو ما يتصل بالمعلومات العامة عن البلاد التي تقع على سواحل شبه الجزيرة العربية، إلا أنه لم يهتم إلا بأحوال الساحل، أما الأقسام الداخلية من جزيرة العرب فالظاهر أنه لم يكن ملما بها إلماما كافيا، كما أشار إلى الأنباط وملكهم الذي كان معاصرا للوقت الذي كتب فيه وإلى علاقة الإمبراطورية الرومانية بشبه الجزيرة العربية.

(40) Perpilus peri maris Erythraei, P.26.

(٤١) لقد اختلف المؤرخون المعاصرون حول تاريخ احتلال الرومان لميناء عدن، وقد تصور بعضهم أن ذلك وقع في عهد الإمبراطور كلوديانوس (٤١ - ٥٤م) أو قبلها بقليل، ويرى بعض الباحثين أن استيلاء الرومان على عدن كان بعد حملة أيليوس جالوس، وربما بعد الميلاد بقليل، وذلك بعد إخفاق تلك الحملة الرامية إلى بلوغ المحيط الهندي من البر والاستيلاء على الميناء من البحر وذلك في سنة ٢٤م، وقد ذهب بعض الباحثين أن القيصر المقصود هو كراكلا.

(42) Plinius , XII, 30, 1-2 ; VI, 31- 32 .
(43) Cary (M), History of Rome, London, p591n18.
(44) Plinius, VI, 32, 1-19.
(45) Ibid, VI, 32,
(46) Ibid,VI,34,4.
(47) Ibid, VI, 32, 7.
(48) Ibid, VI, 34, 2.
(49) Ibid, XI, 34, 3.
(50) Ibid, XXXVII, 1-35.
(51) Ibid, XII, 30, 1-25.
(52) Ibid, XII, 18; XII, 30, 1; XII, 41, 1.
(53) Ibid, XXXI, 15, 15.
(54) Ibid, XII, 7, 5
(55) Ibid, VIII, 13, 1.
(56) Ibid, VIII, 26, 1.
(57) Ibid, XXXIV, 1.
(58) Ibid, VIII, 72, 3.
(59) Ibid, VIII, 40, 1.
(60) Ibid, VIII, 72, 3.
(61) Ibid, XII, 30, 1.
(62) Ibid, XII, 22, 1.
(63) Ibid,XXV,17,1.
(64) Ibid, XXV, 28, 1.
(65) Ibid, XXXVII, 9, 1.
(66) Ibid, VIII, 25; VIII, 30.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].



# التعليم والمؤسسات التعليمية في المغرب الأوسط من خلال كتاب المعيار للونشريسي

**نسيم حسبلاوي**
أستاذ التاريخ الوسيط
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة البويرة – الجمهورية الجزائرية

## مُلَخّصْ

الموضوع الذي بين أيدينا يندرج ضمن المواضيع الثقافية العامة، إلا أنه يتخصص من حيث مصدرية المعلومات من جهة، والجغرافية من جهة ثانية، أما بالنسبة للمصدر فهو كتاب فقهي هام يندرج ضمن "كتب النوازل" التي تعتبر من المصادر الجديدة في استنباط المعلومات التاريخية، وهو كتاب "المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب"، وقد قمت بتعريف صاحبه تعريفًا وافيًا، وهو أحمد بن يحيى الونشريسي المتوفى سنة (٩١٤هـ/١٥٠٨م)، وأما بالنسبة للخصوصية الجغرافية تمثلت في الاقتصار على "المغرب الأوسط" فقط، حتى أبتعد قدر المستطاع عن الحشو والتعميم. قسمت الموضوع إلى أربع عناصر: أولها، المؤسسات التعليمية: والتي ذكرت منها المساجد والمدارس والزوايا، والتي توزعت عبر كامل تراب المغرب الأوسط، خاصةً تلمسان وضواحيها لكونها قاعدة الدولة الزيانية (بني عبد الواد)، ثانيها: الأستاذ أو المعلم أو المؤدّب الذي كان يعيّن في المساجد والمدارس لتعليم القرآن واللغة العربية، وقد خصصت له "أجرة" شهرية من الأحباس (الأوقاف) التي كانت توقف على هاتين المؤسستين، أو كان يجمعها له أولياء الطلبة في القرى والمداشر، ثالث هذه العناصر: الطلبة أو الصبيان الذين كانت عائلاتهم تصرّ على إرسالهم في الصغر إلى إحدى دور التعليم المتوفرة في المكان الذي يعيشون فيه، لحفظ القرآن الكريم وتعلم الكتابة مع اللغة العربية، وأما آخرها فكان عنوانها: مستجدات تعليمية: سماها الونشريسي "بدعًا" منها ما كانت مستحسنة ومنها المستقبحة، وقد أجملت أهمها في النقاط التالية: -كثرة التدوين والتآليف- بناء المدارس – نبذ العلوم العقلية عامة، وعلم الكلام خاصةً- سلبية وأضرار النقل من المختصرات- اتخاذ الكراسي في المساجد بدل الجلوس على الحصير- ذم علماء السلطان – ذم التقليد- ذم التبرك بقبور العلماء والصالحين- تصدّر الجهال للفتوى. وأخيرًا؛ أشير إلى أني عرّفت في هذا المقال بحوالي ١٥ فقيهًا وعالمًا من علماء المغرب الأوسط، ممَنْ تصدّروا الإجابة على النوازل والمسائل الخاصة والعامة التي كانت تطرح هنا أوهناك في مناطق المغرب الأوسط.

**بيانات الدراسة:**

تاريخ استلام البحث: ١٩ أبريل ٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر: ٠٣ أغسطس ٢٠١٥

**كلمات مفتاحية:**

تاريخ التعليم، المغرب الأوسط، الونشريسي، كتاب المعيار، المؤسسات التعليمية

**معرِّف الوثيقة الرقمي:** DOI 10.12816/0045094

**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**

نسيم حسبلاوي. "التعليم والمؤسسات التعليمية في المغرب الأوسط من خلال كتاب المعيار للونشريسي".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد السابع والثلاثون؛ سبتمبر ٢٠١٧. ص١٠٤ – ١١٤.

## مُقَدِّمَةُ

عرفت بلاد المغرب العملية التعليمية المرتبطة بالثقافة العربية الإسلامية منذ عصر الفتوحات، فقد كانت للفاتحين جهودا متفاوتة في تعليم البربر مبادئ الإسلام من جهة ولغة القرآن من جهة ثانية، دون أن ننسى بأن الفتح الإسلامي في ذاته كان فتحا ثقافيا قبل أن يكون فتحا عسكريا، ويُعد بناء عقبة بن نافع الفهري لمدينة القيروان في ولايته الأولى (٥٠-٥٥هـ/٦٦٩-٦٧٤م) هو المنطلق الفعلي لهذا المشوار التعليمي الطويل والذي قصده هذا الفاتح الكبير وهو يدور حول مدينته مرفقا بثلة من صحابة النبي محمد (ﷺ) وهو يدعو لها –كما جاء في طبقات إفريقية لأبي العرب تميم-: "اللهم املأها علمًا وفقهًا واعمرها بالمطيعين والعابدين"، ثم جاء

الخليفة الأموي الرابع عمر بن عبد العزيز الذي حكم بين (٩٩-١٠١هـ/ ٧١٧-٧٢٠م) ليعطي دفعة قوية لهذه العملية التعليمية ببلاد المغرب عن طريق البعثة العلمية التي ضمت عشرة من خيار التابعين والتي أرسلها إلى إفريقية بعد توليه الخلافة مباشرة "ليفقهوا أهل إفريقية ويعلمونهم أمر دينهم" فيما أشار إليه المالكي في رياض النفوس، واستمرت هذه العملية صعودًا ونزولاً عبر القرون المتوالية لتصل إلى عصر ابن خلدون (ت.٨٠٨هـ/ ١٤٦٠م) الذي بيّن لنا بما لا يدع مجالا لأدنى شك أن بلاد المغرب كان لديها نظامًا تعليميًا مستقلاً يختلف عن النظام الأندلسي، وذلك في قوله في مقدمة كتابه العِبر: "فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط وأخذهم أثناء المدارسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه، لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب إلى أن يحذق فيه أو ينقطع دونه فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعًا عن العلوم بالجملة، وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر..."

ثم جاءت مرحلة ما بعد ابن خلدون، وهي المرحلة التي سأتناول فيها العملية التعليمية في حيّز جغرافي محدود وهو المغرب الأوسط، من خلال كتاب محدد وهو المعيار المعرب للونشريسي، وقد تناولت هذا الموضوع من خلال أربعة عناصر هي: (المؤسسات التعليمية، المدرّس أو المؤدب أو الأستاذ، الطالب، مستجدات العلم والتعليم).

قبل الشروع في الحديث عن هذه العناصر وجب أن أعرّج على تعريف صاحب كتاب "المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب" الذي هو المصدر الأساسي في موضوعي هذا، فهو الونشريسي أحمد بن يحيى، واسمه الكامل أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الواحد بن علي الونشريسي، أشهر من أن يعرّف، ترجم له عدد كبير من المؤرخين، واتفقوا على أنه حامل لواء المذهب المالكي في وقته - نهاية القرن التاسع وبداية العاشر الهجريين- فقد عاش بين (٨٣٤-٩١٤هـ/ ١٤٣٠- ١٥٠٨م)، نشأ بتلمسان وبها أخذ عن شيوخها قبل أن يستقر بمدينة فاس بالمغرب الأقصى، وله هذا الكتاب الشهير في النوازل الذي يبين تبحره وتمكنه في الفقه المالكي، وله غير ذلك من المؤلفات،[١] ذكره صاحب دوحة الناشر بقوله: "البحر الزاخر، الكوكب الباهر، حجة المغاربة، من العلماء الراسخين والأئمة المحققين".[٢]

## أولاً: المؤسسات التعليمية

من خلال عدد من النوازل الواقعة بالمغرب الأوسط تبين أن الاهتمام بالمؤسسات التعليمية –أو دور العلم - تعددت دوائره سواء من طرف العلماء أومن طرف الحكام والأمراء أومن طرف عائلات عموم الشعب، فكانت المساجد في المرتبة الأولى في قائمة الأهمية والاهتمام، وهي التي كانت تحتضن مجالس العلماء والفقهاء، فالمدارس التي كانت تخصص للتعليم، ثم الزوايا التي كانت تحتضن حلقات الذاكرين، وطقوس الطرق الصوفية، وقد توزعت هذه الدور والمساجد جغرافيا بين تلمسان وبجاية ومازونة والجزائر وغيرها، إلا أن النوازل التي بين أيدينا تجعل من تلمسان الحاضرة الأكثر حظا من تواجد هذه المؤسسات، ويعود ذلك طبعا لكونها كانت قاعدة ملك الدولة الزيانية - أوبني عبد الواد –[٣]

فالمسجد لم يكن مخصصًا للصلاة فقط، بل كان يمثل مركز الحياة في العصور الوسطى منذ ظهور الإسلام، وأهم مهمة اضطلعت بها الجوامع بعد الصلاة هي العملية التعليمية التي كان يصدرها العالم أو الفقيه، هذا ما يوضحه الونشريسي في جمعه وحصره لما رآه بِدَعا في عصره خاصة ببلدان المغرب تحت عنوان "فصل أذكر فيه المستحسن من البدع وغيره"، حيث تحدث عن بدعة استحداث الكراسي في المساجد لإلقاء الدروس طبعا، ثم ذكر أنه :" قد كان من هدي العلماء في قعودهم أن يجتمع أحدهم في قعوده وينصب ركبتيه أو يقعد على قدميه ويضع مرفقيه على ركبتيه"،[٤] وفي نوازل أخرى ذكر بعض مجالس علماء المغرب الأوسط التي كانت تستقبل الطلبة وتساؤلاتهم أمثال الشريف عبد الله بن أبي عبد الله الشريف التلمساني المتوفى سنة ٧٩٢هـ،[٥] الذي "سُئل في مجلس تفسيره عن حكمة ذكر الذهب دون الياقوت أو نحوه مما هو أرفع قيمة من الذهب"،[٦] والشريف الآخر أبو يحيى محمد بن أبي عبد الله التلمساني المتوفى سنة (٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م)،[٧] الذي سُئل في مجلس تفسيره أيضًا عدة أسئلة منها "عن الحكمة في تقديم السمع على البصر في غالب التنزيل في نحو٤٠ آية"[٨]، كما اختلف طلبة مازونة حول مسألة عقائدية في مجلس تدريس أحد فقهائها الذي قال: "إن الله رأى أشخاصنا قبل وجودنا وسمع أصواتنا في الأزل ونحن عين العدم..."،[٩] ويُسند هذا ما عرف به الفقيه محمد بن أبي القاسم بن محمد المشذالي البجائي المتوفى سنة ٨٦٦هـ، وهو أحد العلماء الذين أثبت لهم الونشريسي في معياره عدة فتاوى "حيث كان يخطب بالجامع الأعظم ببجاية وتصدر فيه وفي غيره للتدريس".[١٠]

وقد أكد العلامة المجتهد العارف أبو الفضل قاسم بن سعيد العقباني المتوفى سنة (٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م)[١١] على أهل قرية "تضامن الجماعة في بناء المسجد واتخاذ الإمام والمؤدب"، ملزما الجميع بالمساهمة في ذلك حتى لا تتعطل إقامة الجماعة.[١٢] وجاءت المدارس في المرتبة الثانية من حيث الانتشار، فقد ذكر الونشريسي نازلة ببلدة كبيرة في تلمسان يجري بها ماء من الأعلى إلى الأسفل وبهذا البلد "حمامات ومدارس ودور"،[١٣] -وصيغة الجمع تدل على الكثرة - سُئل عنها أبوعبد الله محمد بن مرزوق الحفيد المتوفى سنة (٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م)،[١٤] فأجاب برسالته المشهورة: "الروض البهيج في مسائل الخليج"، ونازلة أخرى سئل عنها شيوخ تلمسان –دون تحديد- حول أرض محبسة على وجه المغارسة على "المدرسة اليعقوبية"،[١٥] وهي المدرسة التي ذكر لنا التنبكتي

في نيل الابتهاج أن الإمام العالم الفاضل الولي الصالح الصوفي الزاهد العلامة المحقق ابن زاغو المغراوي التلمساني المتوفى سنة ٨٤٠هـ، درّس بها الحديث والتفسير والعربية والبيان والحساب وغيرها،[١٦] كما اشترى رجل من مازونة بأموال الصدقات دارًا تهدمت كانت مشتملة على بيوت شتى لأناس شتى، ومنها بيت حُبس على مسجد "فأعاد بناءها مدرسة بالقرب من مدرسة أخرى قديمة، وسكنها الطلبة مدة"،[١٧] ثم وقع خلاف بين الباني وأحد المتصدقين تصدّر الإجابة عنه الفقيه أبو علي منصور بن علي بن عثمان البجائي المتوفى بعد سنة (٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م).[١٨] وأظهرت نازلة أخرى سئل عنها شيخ شيوخ الونشريسي القاضي سعيد بن محمد العقباني أبوعثمان، المتوفى سنة (٨١١هـ/ ١٤٠٨م)،[١٩] تتعلق ببعض الطلبة القاطنين في أحد المدارس، أرادوا الانتقال من مسكنهم بها إلى مسكن مدرسة أخرى قريبة، بسبب ضيق التي هم فيها، إلا أن القاضي لم يُجز لهم ذلك.[٢٠]

كل هذه النوازل تؤكد كثرة المدارس في المغرب الأوسط خاصةً في تلمسان، وإذا أردنا الاستزادة فإن عبد الرحمان بن خلدون يخبرنا في كتابه العبر أن بعض حكام تلمسان كانوا يبنون المدارس كما فعل أبو حمو موسى الثاني[٢١] الذي بنى مدرسة خاصة للعالمين الجليلين الشهيرين بابني الإمام،[٢٢] وقد جعل أخوه أبو زكرياء يحيى بن خلدون وهو يُعرِّف بتلمسان أن من مباهجها كثرة المدارس وذلك في قوله: "... وتنصب إليها من عل أنهار من ماء غير آسن تتجاذبه أيدي المذانب والأسراب المكفورة خلالها، ثم ترسله بالمساجد والمدارس والسقايات، فالقصور وعلية الدور والحمامات".[٢٣] ومن الغرابة أن هذه الكثرة لم ترُق للونشريسي مؤلف المعيار، ولا للعالم الجليل التلمساني محمد بن إبراهيم الآبلي،[٢٤] إذ جعلها الأول من البدع غير المستحسنة، أما الثاني فجعلها من مفسدات العلم وذهابه رفقة كثرة التواليف[٢٥]، بينما هي اليوم عندنا من المفاخر كما يذكر الكاتب الكبير عبد الله العروي الذي أكد أن "معظم المدْرسات التي نفخر بها اليوم ويتمتع برونقها السواح الأجانب في فاس وتلمسان وتونس تعود إلى ذلك العهد".[٢٦]

وأما المؤسسة الثالثة التي أوردها الونشريسي في نوازله المجموعة هي الزوايا التي يرتادها المتصوفة، وهي ظاهرة ارتبط انتشارها –كما يشير المؤرخ المغربي إبراهيم القادري بوتشيش – بالمرحلة الأخيرة من العصر المرابطي، وذلك لعدة أسباب ليس هذا مكان حصرها،[٢٧] فقد سُئل فقيه بجاية أبوزيد عبد الرحمان الوغليسي المتوفى سنة (٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م)[٢٨] عن عادات فقراء الزوايا "من الرقص والتصفيق" فأجاب أن ذلك بدعة وضلال مع أنه رافع لصالح الصوفية الحقة بقوله: "وقد يغترّ من لا يميّز الأمور بما يذكر عن بعض أهل الصدق من الصوفية، مما يقع لهم عند السماع عند صفوه، من حالة صادقة من التواجد... فكيف يتشبه بهم من هو في غمرات الجهل".[٢٩]

كما أورد نازلة أخرى مهمة تحمل في طياتها تفاصيل الحضرة الصوفية، التي تجمع المريدين بشيخهم من بداية الاجتماع إلى نهايته، حيث يهللون ويسبحون ويصلون على النبي (ﷺ)، ويقرأون القرآن أفرادًا وجماعة، وينشدون الأشعار في مدح النبي (ﷺ)، ويقرأ أحدهم فصولا من كتب الوعظ، ثم يأكلون طعامًا من مال الشيخ وخالص كسبه، وفي الأخير يدعوا الشيخ وهم يؤمنون رافعين أكفهم، ويمسحون بها وجوههم ثم ينصرفون[٣٠]، ولم يجد المسئول عن هذه النازلة شيخ الإسلام ومفتي الأنام الحافظ القدوة، العلامة المجتهد العارف أبو الفضل قاسم بن سعيد العقباني -سابق الذكر- بدا من التنويه بهذه الطقوس مؤكدًا أن كله" حسن وأكثره مثنيٌ عليه شرعًا، وليس فيه إن شاء الله موضع للنهي... ولقد حضرت مجتمعهم مرتين فما رأيت إلا تعاونا على البر والتقوى وبعدا من الإثم والطغوى"،[٣١] ليستدل مرة أخرى عن صحة هذا التوجه بكلام والده "شيخ الشيوخ ورئيس العلماء والحكماء، وقاضي تلمسان وبجاية ووهران ومراكش وسلا" سعيد بن محمد العقباني أبو عثمان سابق الذكر، حيث سمعه غير مرة يجيب سائليه عن هذه الجلسات والتجمعات "أن ذلك سداد وصواب وطوع للسنة والكتاب".[٣٢]

وأختم بنازلة أخيرة تبين توجه بعض الخواص إلى استحداث زوايا والتصدق بها للصالح العام، حيث قام أحدهم ببناء دار "سماها زاوية" وخط في جدار قبلتها صورة محراب ثم مات بعد ذلك،[٣٣] فقد يكون أحس بدنو أجله، وأراد أن يكون آخر عهده بالدنيا صدقة جارية.

## ثانيًا: المدرّس أو الأستاذ

ويطلق عليه أحيانًا أخرى المؤدّب، وهو عنصر أساسي في العملية التعليمية، لذا كان يخصص له جزء من الأحباس كأجرة على جهوده التعليمية، أو يتفق آباء "الطلبة" على أجرة محددة تكون مشتركة بينهم، وعادة ما تكون شهرية، أما مكان التعليم فكان في هذه الفترة الزمنية – بعد القرن ٩هـ/١٥م – إما في المدارس التي كانت تتواجد خاصةً في المدن أو الحواضر، أو في المساجد التي اشتهرت بهذه المهمة منذ القرون الأولى لظهور الإسلام، والتي انتشرت في الحواضر والبوادي على حد سواء، كما أوضحت سابقًا، أو ثالثًا في الدكاكين التي يملكها المدرّس أو يكتريها المحسنون لممارسة العملية التعليمية، فقد أثبت صاحب المعيار عدة نوازل تظهر تحبيس عقارات على أساتذة ومؤدبين، من ذلك النازلة الواقعة بأسرة العقباني والتي سئل عنها فقهاء بجاية وتونس وفاس، مفادها تحبيس الأمير الزياني الواثق بالله أبوعبد الله محمد[٣٤] عقارًا محتويًا على جنات ومحارث وحمام على عالم من العلماء الأعلام طول حياته ؟ والسؤال بلفظ الفقيه القاضي أبوعبد الله محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد بن محمد بن محمد العقباني،[٣٥] وقد أحبس رجل أرضًا على أستاذ لم يعينه ولكن اشترط فيه شروطا تعجيزية "لا توجد اليوم في أحد" -كما

جاء في صيغة السؤال – إلا أن الفقيه العالم ابن مرزوق الحفيد سابق الذكر، أجاز منحها للمدرس الأمثل في الموضع المعني بالحبس،[٣٦] كما أجاز أكثر من واحد صرف ما فضل من أحباس المساجد المخصصة للإمام والمؤذن ولترميم ما تصدع من البنيان، على عملية التدريس التي تضم خاصة المؤدب والطالب [٣٧]، وقد سبق أن رأينا من يحبس عقارات على المدارس، وعمدة هذه الأخيرة المعلم والطالب.

أما ما يتعلق بأجرة المعلم، فقد مال بعض فقهاء المغرب الأوسط إلى إباحتها رغم أن الإمام مالك بن أنس كرّهها، فقد سئل الفقيه سعيد العقباني التلمساني عن أجرة تعليم العلم والإجازة في ذلك؟ فأجاب أن "الإمام مالك في المدونة – لسحنون الإمام- كره الإجارة على تعليم العلم، وقيل بالإباحة، ومذهب المدونة مقدم في النقل كي لا يضيع العلم لضعف أرزاق العلماء، فإن منعوا الإجارة شغلهم طلب المعيشة عن التعليم... وأما توقف التعليم على كتب الإجازة فلم يقله أحد"،[٣٨] لذا شدد الفقهاء على إعطاء المعلم أجره للقادر عليها، وهذا في الحالات التي لا يكون للمعلم دخلا من الأحباس ولا من غيرها، لذا كان تضامن الجماعة واشتراكهم في أجرة الإمام والمؤدب من المرغّب فيه،[٣٩] وحتى وصي اليتيم عليه إخراج الأجرة من ماله لتدفع إلى معلمه، حتى لا يفوته قطار التعليم،[٤٠] كما أشار إلى ذلك الفقيه قاسم العقباني، والذي اتفق مع أهل موضع على تعليم أبنائهم مدة سنة ولم يكملها بسبب انقطاع الطلبة –الأبناء-، على الأولياء منح المعلم أجرة السنة كاملة إلا إذا كان سبب الانقطاع تتعلق بالأستاذ فيعطى فقط المدة التي درسها من العام،[٤١] ولم يسقط هذه الأجرة فقيه بجاية علي بن عثمان أبو الحسن[٤٢] على المديان – الذي عليه ديون-، بل أمهله إلى أن يبيع القاضي عنه شعيرًا كان يملكه، فيعطي منه لأصحاب الديون ومنهم مؤدب أولاده.[٤٣]

وجرت العادة ببلاد المغربين الأوسط والأقصى أن يعطي آباء الصبيان لمعلميهم شمعًا كل سنة بمناسبة مولد النبي محمد (ﷺ)، وقد يكون لتخصيص الشمع علاقة بالبدعة التي ذكرها الونشريسي والتي كانت منتشرة ببلاد المغرب أجمع، وهي إيقاد الشموع ليلة المولد وسابعه،[٤٤] وهي البدعة التي ما تزال منتشرة إلى يومنا هذا في بلدنا الجزائر، وإن كانت مقتصرة فقط بليلة المولد والليلة الموالية، وليت الأمر وقف عند هذا الحد بل تعداه إلى بدعة أسوء وأشنع وأبشع وأخطر وهي المفرقعات والألعاب النارية التي تملأ سماء البلاد قبل ليلة المولد بأيام، وتستمر بعده لأيام. كما اختصت البادية بعادة أخرى تسمى "خميس الطالب"، يلزم جميع الأولياء ممن لديهم أبناء متمدرسين وممن ليس لهم، بمنح كميات من الزبدة للأساتذة في فصل الربيع، ويظهر من هذه العادة رغم الظلم الواضح على الآباء الذين ليس لديهم أبناء متمدرسين أنها تحفيزية للمعلمين كي يأتوا إلى البادية ويمكثوا فيها، ورغم ذلك فإن الآباء المتضررين رفعوا شكوتهم عن طريق سؤال إلى العالم الفقيه قاسم العقباني، الذي لم يتردد في إسقاطها عنهم حتى وإن كانت مما اشترطه المعلم، إلا أن يعطيها هؤلاء أو بعضهم تطوعًا.[٤٥]

## ثالثًا: الطالب

كانت الأسر بالمغرب الأوسط حريصة على تعليم أبنائها سواء في الحضر أو في البادية، وكانت هذه العائلات تدفع مصاريف التعليم من جيبها أحيانًا، وأحيانًا أخرى يتكفل بعض المحسنين بتحبيس عقارات عليهم وعلى المدارس المخصصة لذلك، وقد رأينا أمثلة على ذلك، وذهب بعض الفقهاء إلى جواز منح بعض الطلبة من أموال الزكاة إعانة لهم على طلب العلم، كما فعل أهل موضع في زكاة أموالهم التي جمعوها ومنحوها "الشخص غائب في طلب العلم"،[٤٦] ولم يكن هذا الاندفاع والتوجه محض صدفة، وإنما لترغيب العلماء في التعليم وتقدير أهله وتيسير طرقه، ومن ذلك ما أفتى به ابن مرزوق الحفيد من أن "النظر في العلم أفضل من قراءة القرآن"،[٤٧] انطلاقًا من أن قارئ القرآن ينفع نفسه فقط، بينما العالم ينتفع به عموم الناس، كما أسقط الفقيه سعيد العقباني همّ الإجازة على من يريد التعليم – كما أشرت سابقًا-، بل يتصدر للتعليم "من عرف منه العلم والدين... ومن رأى نفسه كفؤا وجب عليه التعليم وجوب عين أو كفاية حسب الموضع الذي هو فيه، وأن الطالب إذا رأى الشيخ أو المعلم يعظمه الناس جاز له الأخذ عنه"،[٤٨] وذلك لتجنب أشباه العلماء والجهال الذين عمت بهم البلوى والمصيبة بعد القرن التاسع الهجري (٩هـ)، حيث كانت "تسند إليهم الصلاة والإمامة... وينتصبون للفتوى والطلب والإلقاء".[٤٩]

وقد أوضحت في نوازل سابقة أن أجرة المعلم الذي لا دخل له، تكون على عاتق أولياء الطلبة بعد اتفاق بين الطرفين، كما أوضحت سابقًا أن بعض طلبة المدارس كانت لهم بها مساكن خاصةً، مثل ذلك الرجل الذي اشترى دارًا بها بيوت شتى، فبنى مكانها مدرسة سكنها الطلبة،[٥٠] أو رغبة بعض الطلبة الانتقال من مساكنهم بمدرستهم إلى مساكن مدرسة أخرى، بسبب ضيق التي هم فيها،[٥١] وقد أوضح لنا ابن خلدون في مقدمته الشهيرة "أن سكنى طلبة العلم بالمدارس في المغرب ست عشرة سنة، وهي بتونس خمس سنين"،[٥٢] ورغم بقاء عدد الطلبة بهذه المدارس مجهولا فإن هذه المقدمات تدل على التطور الكبير الذي عرفته المدارس في هذه الحقبة الزمنية ببلاد المغرب.

أما عن المستويات التي تميز فئات الطلبة، فإن نوازل المعيار لا تقدم لنا أي صورة عنها، لكن استعانتنا بابن خلدون يمكننا معرفة مستويين اثنين للتعليم ببلاد المغرب أجمع، هما تعليم الصبا – أي الصبيان- وهو الشبيه بالتعليم الابتدائي في أيامنا، ثم التعليم الثاني،[٥٣] وهو الشبيه بالتعليم الثانوي عندنا اليوم وما بعده، ويمكن التفريق بينهما في النوازل باستخدام مصطلحين متباينين الأول هو "الصبيان"، وهم تلاميذ المرحلة الأولى أو الابتدائية، ومصطلح "الطلبة"، وهم طلاب المرحلة الثانية، وفي نازلة "طلبة

مازونة" المشار إليها سابقًا دليل على ما ذهبت إليه، حيث اختلفوا في مسألة من العقائد بمجلس أحد الفقهاء،[٥٤] ولا يمكن لتلاميذ المرحلة الابتدائية أن يختلفوا، أو يكون لهم رأي في مسائل بسيطة، فما بالك بمسائل العقيدة، الأمر الذي يؤكد أن أصحاب هذه النازلة كانوا من المستوى الثاني أو العالي، وقد جاءنا المعيار بدليل آخر من طلبة قسنطينة الذين ساهموا في النقاش مع شيخهم الزنديوي قاضي قسنطينة وفقيهها المتوفى سنة ٨٨٢هـ،[٥٥] في مسألة "وجوب قراءة سورة الفاتحة في الصلاة، وعدم وجوب السر أو الجهر بها؟"[٥٦] وقد أثبت الونشريسي جواب ورأي عدد منهم.

وأما أوقات التعليم، فإن النوازل التي بين أيدينا لا توضحها بإسهاب، لكن نازلة المؤلف نفسه بعد تعيينه مدرسا للفقه بفاس من طرف حكام المغرب الأقصى، تقدم لنا صورة واضحة حول هذا الموضوع، فمقارنة بين توجه الونشريسي في التعليم، وجواب قاضي الجماعة في تلمسان الفقيه محمد بن يوسف السنوسي أبوعبد الله المتوفى سنة ٨٩٥هـ[٥٧] على هذه النازلة، يتبين أن أوقات التعليم كان فيها تنوع واختلاف حسب عادات المكان، حيث تراوحت بين ثلاثة أشهر وجل السنة، بما فيها فصل الصيف، إلا أن التركيز كان على فصل الشتاء دون غيره، ثم تخفف درجات المسائل المدروسة تدريجيا، فقد جاء في سؤال الونشريسي الذي أرسله إلى قاضي الجماعة في تلمسان الشيخ إبراهيم بن قاسم بن سعيد العقباني المتوفى سنة ٨٨٠هـ[٥٨] أنه وجد وهو بفاس "عادة الكثير من مدرسي البلد والناحية الاقتصار على تدريس شهرين أو ثلاثة من السنة إلا ما شذ منهم"،[٥٩] بينما أكد هو أنه يدرس جل السنة، وفي جواب السنوسي له أوضح أن العادة لدى الشيخ "قديمًا وحديثًا" هي التركيز على فصل الشتاء في التعليم، بسرد عدد قليل من المسائل الصعبة، وإفراغ الوسع في نقل آراء العلماء فيها، ولا يعطي المدرس لنفسه فيه راحة، أما في باقي الفصول فيقتصرون على بيان صورة كل مسألة مع نقل ما لابد منه من الأبحاث والأقوال حولها، فلا يأتي الشتاء الموالي حتى يكون المتعلم فهم المسائل ما يؤهله لفهم مسائل صعبة جديدة، أما ما اعتاده بعض المدرسين في زمنه الذي وصفه بالفاسد، من إقراء فصل الشتاء فقط فهو مرفوض ومنبوذ.[٦٠]

وأما المناهج المدروسة، فإن كتاب المعيار فيما يتعلق بالمغرب الأوسط لا يقدم لنا إلا إشارات صغيرة حولها، وبإضافة ما ذكره ابن خلدون في مقدمته، ودراسة عميقة لتراجم العلماء المساهمين في النوازل خلال هذه الفترة الزمنية، يمكننا وضع صورة قريبة من الكمال لكنه خارج عن نطاق الدراسة المقتصرة على كتاب المعيار للونشريسي.

## رابعًا: بعض مستجدات التعليم

لقد تطرق الونشريسي إلى عدة مستجدات طرأت على العملية التعليمية في زمانه بالمغرب عمومًا، أدرجها تحت عنوان "فصل أذكر فيه المستحسن من البدع وغيره"، وقد عرّج على كثير من قضايا التعليم التي قسمتها إلى قضايا إيجابية وأخرى سلبية، ولم أتبع تقسيم المؤلف الذي عدّ معظم ما ذكر من المستجدات بدعًا سلبية،[٦١] وإنما وضعت ما رأيته إيجابيا في الإيجابيات وما رأيته سلبيًا في السلبيات:

**قضايا إيجابية**: (استنتجت منها)

- تدوين العلوم: حفظًا للشريعة من الضياع.
- كثرة التواليف وبناء المدارس: جعلهما الونشريسي من أسباب تراجع العلم مستدلاً بالفقيه التلمساني محمد بن إبراهيم الآبلي من شيوخ عبد الرحمان بن خلدون الذي قال: "إنما أفسد العلم كثرة التواليف، وإنما أذهبه بنيان المدارس"، وقد وافقه تلميذه الذي عنون الفصل الرابع والثلاثون من مقدمته المشهورة بأن "كثرة التآليف في العلوم عائقة عن التحصيل".[٦٢]
- هجومه على علماء السلاطين وجعلهم شر العلماء.
- تقديس الكتابة وحب الكتاب، فإذا وجد أحد المارة "قرطاسا" - ورقة- قبّله ووضعه على رأسه، ثم يرفعه إلى موضع طاهر، كما نفعل اليوم مع قطع الخبز خاصةً التي نجدها ملقاة بالشوارع، وتبين نازلة في هذا المعنى، بيع كتاب في المزاد وصل سعره ١٤ دينار ذهب وربع دينار.[٦٣]
- ابتداع علم الكلام والجدل وعلم القياس والنظر والاستدلال بأدلة المعاني والمعقول، وإن كانت هذه العلوم ليست من وضع المغاربة، إلا أنها وصلت إلى مجالسهم ومدارسهم، وتخصص فيها بعض علمائهم، وإشارة الونشريسي لها في البدع المستقبحة دليل على انتشارها في بلاد المغرب.

**قضايا سلبية**: (استنتجت منها)

- نقل الناس من المختصرات الغريبة أربابها ونسبة ظواهر ما فيها إلى أمهاتها، وفيها قال ابن خلدون: "أن كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم".[٦٤]
- الجلوس على الكراسي بدل الحصير(الأرض)، استحدثها المنتسبون للعلم، بينما كان السابقون يجلسون على الأرض.
- خلط علم الطب بالسحر والشعوذة، وهوما يتعاطاه كثير من مدّعي علم الطب ومعرفة الأدواء وصناعة اليد من حيل وتخيل وإيهام العقل، حسب تعبير الونشريسي، وهو أمر لم نسلم منه حتى في أيامنا.
- التبرك بقبور العلماء والشهداء والصالحين، وهو أمر ما زالت شريحة كبيرة من مجتمعاتنا تنتحله وتمارسه، وإن كان اليوم اقتصر على الصالحين فقط.

- ذم التقليد، فقد نقل عن المقري الجد – جد أحمد بن محمد المقري صاحب نفح الطيب- كلامًا طويلاً ذم فيه التقليد وما نتج عنه من سلبيات وخلص إلى أن "التقليد مذموم، وأقبح منه تحيّز الأقطار وتعصب النظار... واعلم أن أصل التقليد هو المعصية التي هي كالطبع لهذا النوع لأنه غلب عليه حب الخيال والوهم وقلّ فيه طاعة العقل والفهم...".[٦٥]
- تعاطي الجهال العلم وانتصابهم للفتوى والطلب والإلقاء، وتقديمهم على العلماء، وتولية المناصب الشرعية – التي تحتاج إلى أهل العلم- بالتوارث والجاه لمن لا يصلح، وهي ظاهرة ما تزال مجتمعاتنا المغاربية والعربية تعاني منها في عصرنا هذا والله الهادي إلى سواء السبيل.

## خَاتِمَةٌ

يُخطئ من يظن أن هذه الفترة الزمنية التي تمثل عصر ما بعد ابن خلدون، عرفت فيه العملية التعليمية تراجعًا أو توقفًا أو انتكاسة، لأن الشواهد التي بين أيدينا والتي أشرنا إليها في الموضوع تبين استمرار دوران عجلة العملية التعليمية بشكل إيجابي ومحمود، فكل الأسس التي قامت عليها هذه العملية عرفت انتعاشه، أو كانت حلقاتها تدور دورانا منتظمًا في أقل تقدير.

كانت دور العلم متنوعة ومتعددة ومنتشرة عبر مختلف أقطار المغرب الأوسط، سواء تعلق الأمر بالمساجد الجامعة أو المساجد الصغيرة التي انتشرت في المدن والبوادي، وإلى جانبها رأينا المدارس التي كانت تستقبل الطلبة من مختلف الأعمار، ثم وجدناها طبقت حتى النظام الداخلي المعروف في أيامنا، حيث كان الطلبة يبيتون فيها سنين عديدة، والتي أكّد لنا الونشريسي أنها كانت كثيرة، وجعلها من مفسدات التعليم، كما كانت الزوايا المنتشرة هنا وهناك -خاصةً في هذا العصر الذي كثرت فيه الطرق الصوفية-، والدكاكين أو الحوانيت التي كان يكتريها الأساتذة أو الآباء تقوم بدور مساعد وهام في نشر التعليم. وكان المعلّم أو المؤدّب يقوم بدوره التعليمي في المدن وفي البوادي على السواء، وكان له أجر على ذلك سواء من الأحباس أومن أهل المتعلمين، الذين سعوا لتعليم أبنائهم، وقد أجاز بعض الفقهاء منح جزء من أموال الزكاة للتلاميذ والطلبة الذين لا يملكون مصاريف التعليم.

أما الأساس الثالث للعملية التعليمية وهو المنهج، فقد كان واضحًا مما تقدم أنه اقتصر على العلوم الدينية التي كان على رأسها القرآن الكريم وحديث النبي (ﷺ)، ثم يأتي الفقه (الحلال والحرام) في المرتبة الثانية، والذي اختص بمذهب الإمام مالك، لكون كل الفقهاء والعلماء والمؤدبين في ذلك الوقت كانوا مالكية، أما في المرتبة الثالثة فقد جاء "علم الكلام والجدل وعلم القياس والنظر والاستدلال بأدلة المعاني والمعقول"، وهي علوم دخيلة كما أشار الونشريسي الذي اعترض على تدريسها.

جدول يبين النوازل المدرجة في الموضوع وتواجدها في كتاب المعيار:

| النازلة | مكان وقوعها | الفقيه المجيب عنها/ سنة وفاته | تواجدها في الموضوع/ ص | تواجدها في كتاب المعيار/ ج/ ص |
|---|---|---|---|---|
| استحداث الكراسي في المساجد للتدريس | المغربين الأوسط والأقصى | أحمد بن أحمد الونشريسي – صاحب المعيار- (ت. ٩١٤هـ / ١٥٠٨م) | ٠٢ | ٢/ ٤٧٧ |
| مسألة في التفسير:الحكمة في ذكر الذهب دون الياقوت أونحوه.. | تلمسان | الشريف عبد الله بن أبي عبد الله الشريف التلمساني (ت. ٧٩٢هـ) | ٠٢ | ١٢/ ٢٣٦ |
| مسألة في التفسير : الحكمة في تقديم السمع على البصر في غالب القرآن | تلمسان | محمد بن أبي عبد الله الشريف التلمساني (ت. ٨٣٣هـ / ١٤٢٩م) | ٠٢ | ١٢/ ٣٢٥... |
| اختلاف طلبة مازونة حول مسألة عقائدية | مازونة | / | ٠٢ | ١٢/ ٣٤٥ |
| تضامن الجماعة في بناء مسجد واتخاذ الإمام والمؤدب | المغرب الأوسط | قاسم بن سعيد العقباني أبوالفضل (ت. ٨٥٤هـ / ١٤٥٠م) | ٠٢ | ١/ ١٣٩ |
| بلدة يجري بها ماء من الأعلى إلى الأسفل | تلمسان | محمد بن مرزوق الحفيد أبوعبد الله (ت. ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م) | ٠٢-٠٣ | ٥/ ٣٣٤ |
| أرض محبسة على المدرسة اليعقوبية | تلمسان | شيوخ تلمسان | ٠٣ | ٨/ ١٧٥ |
| رجل اشترى دارا أعاد بناءها مدرسة | مازونة | منصور بن علي بن عثمان البجائي أبو علي (ت.٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م) | ٠٣ | ٧/ ٢٤٨ |
| طلبة يسكنون مدرسة أرادوا الانتقال إلى مساكن أخرى | تلمسان | سعيد بن محمد العقباني أبوعثمان (ت.٨١١هـ / ١٤٠٨م ) | ٠٣ | ٧/ ٢٦٣ |
| ذم كثرة المدارس والتآليف | بلاد المغرب | الونشريسي ( المؤلف ) + محمد بن إبراهيم الآبلي (ت. ٧٥٧هـ / ١٣٤٧م) | ٠٣ | ٢/ ٤٧٩ |
| عادات فقراء الزوايا | المغربين الأوسط والأقصى | عبد الرحمان الوغليسي البجائي أبوزيد (ت. ٧٨٦هـ / ١٣٨٤م) | ٠٤ | ١١/ ٣٤ |
| عادات فقراء الصوفية | المغرب الأوسط | قاسم بن سعيد بن محمد العقباني | ٠٤ | ١١/ ٤٨ |
| عادات فقراء الصوفية | المغرب الأوسط | سعيد بن محمد العقباني أبو عثمان | ٠٤ | ١١/ ٤٨ |
| بنى زاوية | المغرب الأوسط | / | ٠٤ | ٧/ ٢٩٦ |
| حاكم زياني يحبس عقارًا على عالم | تلمسان | وقعت لآل العقباني | ٠٥ | ٧/ ٢٤٨... |
| رجل يحبس أرضا على أستاذ بشروط | تلمسان | ابن مرزوق الحفيد | ٠٥ | ٧/ ٤٣- ٤٤ |
| ما فضل من أحباس المساجد يصرف على التدريس | بلاد المغرب | / | ٠٥ | ٧/ ٢١٥-٢١٦ |
| أجرة تعليم العلم | المغرب | سعيد بن محمد العقباني | ٠٥ | ٢/ ٢٣٦، ١١/ |

| النازلة | مكان وقوعها | الفقيه المجيب عنها/ سنة وفاته | تواجدها في الموضوع/ ص | تواجدها في كتاب المعيار ج/ ص |
|---|---|---|---|---|
| | الأوسط | | | ١٦-١٧ |
| وصي اليتيم وأجرة المعلم | المغرب الأوسط | قاسم بن سعيد بن محمد العقباني | ٠٦ | ٩/ ٤٣٤ |
| معلم انقطع عنه الطلبة قبل إتمام العام | المغرب الأوسط | قاسم بن محمد العقباني + علي بن عثمان أبوالحسن | ٠٦ | ٨/ ٢٦٠ |
| صاحب ديون عليه أجرة مؤدب أولاده | بجاية | علي بن عثمان | ٠٦ | ٥/ ٩٣ |
| هدية المولد النبوي للمعلمين (عادة ) | المغرب الأوسط | الونشريسي (المؤلف) | ٠٦ | ٨/ ٢٥٤ |
| تقديم الزبدة للمعلمين (عادة ) | المغرب الأوسط | قاسم بن محمد العقباني | ٠٦ | ٨/ ٢٦١ |
| جمع الزكاة لطالب علم | المغرب الأوسط | / | ٠٦ | ١/ ٣٩٤ |
| النظر في العلم أفضل من قراءة القرآن | عامة | ابن مرزوق الحفيد | ٠٧ | ١/ ١٩٧-١٩٨ |
| آراء طلبة قسنطينة حول مسألة وجوب سورة الفاتحة | قسنطينة | مع الزنديوي (ت.٨٨٢هـ) | ٠٨ | ١/ ١٩٧-١٩٨ |
| أوقات التعليم | المغربين الأوسط والأقصى | الونشريسي (المؤلف) + محمد بن يوسف السنوسي أبوعبد الله (ت. ٨٩٥هـ) | ٠٨ | ٧/ ٣٤٧... |
| بدع مستحسنة ومستقبحة | بلاد المغرب | الونشريسي (المؤلف) | ٠٩ | ٢/ ٤٦١-٥٤٥ |
| بيع كتاب في المزاد | بجاية | أحمد بن محمد بن عيسى البجائي | ٠٩ | ٦/ ١٥٧ |

## الهَوامِشُ:

(١) أحمد بابا التنبكتي. **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، إشراف، عبد الحميد عبد الله الهرامة، طرابلس: منشورات كلية الدعوة الإسلامية،١٩٨٩م، ط.١، رقم. ١٣٠، ص. ١٣٥-١٣٦. محمد بن مريم التلمساني. **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، الجزائر: منشورات السهل، ٢٠٠٩م، ص.٨٠- ٨١. يُنظر: أحمد ابن القاضي. **لُقط الفرائد من لفاظة حُقق الفوائد**، ضمن: **موسوعة أعلام المغرب**، تنسيق وتحقيق محمد حجي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٦، ط.١، ج.٢، ص.٨٢٣. عبد الحق حميش ومحفوظ بوكراع. **موسوعة تراجم علماء الجزائر- علماء تلمسان وتوات**-، الجزائر: دار زمورة للنشر والتوزيع، ٢٠١١م، ص.٢٦١-٢٦٥.

(٢) محمد بن عسكر الحسني الشفشاوني. **دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر**، تحقيق محمد حجي، الرباط :١٩٧٧، رقم.٣٢، ص. ٤٧-٤٨.

(٣) عن دولة بني عبد الواد يُنظر: ابن الأحمر. **تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان**، تقديم وتحقيق هاني سلامة، مصر: مكتبة الثقافية الدينية، ٢٠٠١م، ط.١، ص. ٥٩ وما بعدها. يحيى بن خلدون، **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، تقديم وتحقيق عبد الحميد حاجيات، الجزائر: المكتبة الوطنية، ١٩٨٠م، ص. ٢٠٣ وما بعدها. عبد الرحمان بن خلدون. **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومَنْ عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، الأردن-السعودية: بيت الأفكار الدولية، ص.١٨٤٦ وما بعدها. حسين مؤنس، **تاريخ المغرب وحضارته**، لبنان: العصر الحديث للنشر، ١٩٩٢م، ط.١، مج.٢، ج.٢، ص. ٢٠٧ وما بعدها وج.٣، ص. ٥ وما بعدها.

(٤) أحمد بن يحيى الونشريسي. **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب**، إشراف، محمد حجي، لبنان: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨١م، ط.١، ج.٢، ص. ٤٧٧.

(٥) الشريف عبد الله بن أبي عبد الله الشريف: هكذا ذكره الونشريسي في المعيار، ووصفه ابن مريم بالعلامة المحقق الحافظ الجليل المتفنن المتقن، من أكابر علماء تلمسان ومحققيهم، ولد سنة ٧٤٨هـ، وتوفي سنة ٧٩٢هـ. (الونشريسي. نفسه، ج.٨، ص. ٢٣٥، ابن مريم. نفسه، ص. ١٣٩-١٤٣.

(٦) الونشريسي. المعيار، ج.١٢، ص. ٢٣٦.

(٧) **الشريف أبو يحيى محمد بن أبي عبد الله التلمساني**: وصفه ابن مريم أنه آية من آيات الله في القيام بتحقيق العلوم، علامة محققًا نظارًا حجة، ونقلاً عن شيخ الونشريسي محمد بن العباس قوله: "الإمام العلامة الأوحد شريف العلماء وعالم الشرفاء آخر المفسرين من علماء الظاهر والباطن"، توفي سنة (٨٣٣هـ/١٤٢٩م). ابن مريم. نفسه، ص. ١٤٩-١٥٠. يُنظر: محمد بن محمد بن عمر بن قاسم مخلوف. **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، خرج حواشيه، عبد المجيد خيالي، لبنان: دار الكتب العلمية،٢٠٠٣، ط.١، رقم.٩٤٣، ص. ٣٦٥.

(٨) الونشريسي. المعيار، ج.١٢، ص. ٣٢٥ وما بعدها.

(٩) نفسه، ج.١٢، ص. ٣٤٥.

(١٠) **محمد بن أبي القاسم (بن بلقاسم) المشذالي البجائي**: علامتها وفقيهها وخطيبها ومفتيها المحقق النظار، حسب مخلوف، وقال فيه التنبكتي: "كان إمامًا كبيرًا مقدمًا على أهل عصره في الفقه ذو وجاهة عند صاحب تونس، له عدة مؤلفات..."، توفي حسب وفيات الونشريسي سنة (٨٦٦هـ/١٤٦١م). (مخلوف. مصدر سابق، رقم.٩٩٢، ص.٣٧٩. التنبكتي. مصدر سابق، رقم.٦٥٤، ص. ٥٣٨-٥٣٩. أحمد بن يحيى الونشريسي. **وفيات**، ضمن **موسوعة أعلام المغرب**، مصدر سابق، ج.٢، ص.٧٧٠ ). وعن المسجد في المغرب الإسلامي يتحدث كمال السيد أبو مصطفى "كان يموج بالفقهاء والعلماء والطلاب، وكان الشيوخ يجلسون عند أحد الأعمدة ويتحلق الطلاب حولهم"، (كمال السيد أبو مصطفى. **جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي**، الإسكندرية: مركز الإسكندرية للكتاب، ١٩٩٦، ص.١١٥).

(١١) **قاسم بن سعيد بن محمد العقباني التلمساني أبو الفضل**: وصفه ابن مريم "بشيخ الإسلام ومفتي الأنام، الحافظ القدوة العلامة المجتهد العارف، ولي خطة القضاء في تلمسان وأحرز في العلوم قصب السبق وحازه"، وذكره المازوني في نوازله في مواضع كثيرة، وعن هذا الأخير نقل الونشريسي في نوازله، وجعله في وفياته، من وفيات سنة (٨٥٤هـ/١٤٥٠م). (ابن مريم. نفسه، ص. ١٦٩-١٧٠. التنبكتي. نفسه، رقم.٤٧٠، ص. ٣٦٥-٣٦٦. مخلوف. نفسه، رقم.٩٥٢، ص. ٣٦٧-٣٦٨. أبو زكرياء يحيى بن موسى المغيلي المازوني. **الدرر المكنونة في نوازل مازونة**، تحقيق مختار حساني، الجزائر: دار الكتاب العربي، ٢٠٠٩م، ط.١، صفحات متعددة. الونشريسي. وفيات، ص.٧٦٠)

(١٢) الونشريسي. المعيار، ج.١، ص. ١٣٩.

(١٣) نفسه، ج.٥، ص. ٣٣٤.

(١٤) **محمد بن مرزوق الحفيد أبوعبد الله**: ذكره التنبكتي وابن مريم والمقري التلمساني، والونشريسي في وفياته وغيرهم، وأثبت له المازوني والونشريسي عشرات المسائل، وصفوه "بالعلامة الحجة الحافظ المحقق الكبير، قاضي الجماعة في تلمسان... حجة الله في خلقه المفتي الشهير، سيد العلماء الجلة وإمام أئمة الملة وآخر السادات الأعلام..."، ذكروا له عدة مؤلفات ورسائل تفوق العشرين، ولد سنة ٧٦٦هـ، وتوفي سنة (٨٤٢هـ/١٤٣٨م). (ابن مريم. نفسه، ص. ٢٢٤ وما بعدها، التنبكتي. مصدر سابق، رقم. ٦١١، ص.٤٩٩-٥١٠، الونشريسي. **وفيات**، ص. ٧٤٨، مخلوف. مصدر سابق، رقم.٩٤٥، ص. ٣٦٤-٣٦٥. أحمد بن محمد المقري التلمساني. **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب**، الجزائر: المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، ٢٠١١، ج.٧، ص. ٣٩٤ وما بعدها).

(١٥) الونشريسي. **المعيار**، ج.٨، ص. ١٧٥. يُنظر: السيد أبو مصطفى. مرجع سابق، ص. ١١٨-١١٩.

(١٦) أحمد بن محمد بن عبد الرحمان بن زاغو أبو العباس المغراوي التلمساني: أشاد بعلمه التنبكتي ناقلاً عن القلصادي الأندلسي، وجعل وفاته سنة ٨٤٠هـ، بينما عده ابن مريم وابن القاضي من وفيات سنة ٨٤٥هـ. (التنبكتي. نفسه، رقم.١٠٦، ص. ١١٨، ابن مريم. نفسه، ص.٧٠-٧٢. ابن القاضي. مصدر سابق، ص.٧٥١، مخلوف. نفسه، رقم.٩٤٨، ص. ٣٦٦).

(١٧) الونشريسي. المعيار، ج.٧، ص. ٢٤٨.

(١٨) منصور بن علي بن عثمان أبو علي البجائي: "عالمها ومفتيها، العلامة الفقيه الحجة"، بهذا وصفه التنبكتي، وذكر أنه كان حيًا سنة ٨٥٠هـ، وقد ذكر الونشريسي والمازوني بعض فتاويه. (التنبكتي: نفسه، رقم. ٥٧٢، ص. ٦١٣).

(١٩) **سعيد بن محمد العقباني أبوعثمان**: هو والد الفقيه قاسم العقباني سابق الذكر، أشاد بعلمه كثيرون منهم ابن فرحون الذي قال فيه: "إمام عالم فاضل فقيه مذهب مالك، وصدارته في العلم مشهورة، ولي قضاء

بجاية وتلمسان وله في ولاية القضاء مدة تزيد على أربعين سنة"، عاصره يحيى بن خلدون الذي ذكر أنه تفنن في علوم كثيرة وولي القضاء في تلمسان وبجاية ومراكش وسلا ووهران وهنين، وكان يقال له حسب ابن مريم "رئيس العلماء والعقلاء"، ولد سنة ٧٢٠هـ، وتوفي سنة (٨١١هـ/ ١٤٠٨م)، بينما عدّه الونشريسي وابن القاضي من وفيات سنة ٨١٠هـ. (ابن فرحون المالكي. الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، القاهرة: مكتبة دار الحديث، ٢٠٠٥، ط.٢، ج.١، ص.٣٤٣. أبو زكريا يحيى بن خلدون. مصدر سابق، ص. ١٢٣.ابن مريم. مصدر سابق، ص. ١٢٩-١٣٠. ابن القاضي. مصدر سابق، ص.٧٢٦. الونشريسي. **وفيات**، ص. ٧٢٦). يُنظر أيضًا: التنبكتي: نفسه، رقم:١٩٩، ص١٨٩، مخلوف. مصدر سابق، رقم.٩٣١، ص. ٣٦٠-٣٦١، حميش: مرجع سابق، ص.٢١٠-٢١١.

(٢٠) الونشريسي. المعيار، ج.٧، ص. ٢٦٣.

(٢١) أبو حمو موسى الثاني بن يوسف بن عبد الرحمان بن يحيى بن يغمراسن تولى عدة مرات بين (٧٦٠-٧٨٩هـ/ ١٣٥٩-١٣٨٧م). (ابن الأحمر. مصدر سابق، ص. ٧٦ وما بعدها) يُنظر عنه: عبد الحميد حاجيات. **أبو حموموسى الزياني –حياته وآثاره**-، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٨٢م.

(٢٢) ابني الإمام هما الأخوين أبو موسى عيسى، وأبو زيد عبد الرحمان، ابني محمد بن عبد الله بن الإمام التلمساني: ذكرهما ابن فرحون بأنهما:" فاضلا المغرب في وقتهما وكانا خصيصين بالسلطان أبي الحسن المريني...لهما التصانيف المفيدة والعلوم النفيسة"، وأشاد بهما التنبكتي وابن مريم والمقري التلمساني وعبد الرحمان بن خلدون في تاريخه، والونشريسي في معياره وفي وفياته، توفي أبوموسى سنة ٧٥٠هـ، بينما توفي أخوه قبله في سنة ٧٤٣هـ. (ابن فرحون. مصدر سابق، ج.١، ص. ٤١٦. الونشريسي. **وفيات**، ص.٦٣٧ و٦٥٣). يُنظر أيضًا: التنبكتي. مصدر سابق، رقم. ٢٩٠، ص. ٢٤٥-٢٤٨ ورقم. ٣٦٥، ص. ٢٩١-٢٩٧. عبد الرحمان بن خلدون. مصدر سابق، ص. ٢٠٤٨-٢٠٤٩. يحيى بن خلدون. مصدر سابق، رقم. ١٠٠ و١٠١، ص. ١٣٠. عبد الحق حميش. مرجع سابق، ص. ١٨٦. وقد ذكر ابن خلدون عبد الرحمان أن أبا حمو الزياني سابق الذكر لما حكم تلمسان استدعى من فاس أبوعبد الله محمد بن أحمد الشريف التلمساني فزوجه ابنته وبنى له مدرسة جعل في بعض جوانبها مدفن أبيه وعمه، وأقام يدرس العلم إلى أن مات. (العبر. نفسه، ص. ٢٠٥٨).

(٢٣) يحيى بن خلدون. نفسه، ص. ٨٦. وفي السياق نفسه يذكر لنا المقري التلمساني في النفح أنه رأى أبيات شعر هي من بدائع الدنيا، مكتوبة على دائرة مجرى الماء بمدرسة تلمسان التي بناها أمير المسلمين أبو تاشفين الزياني، [قد يكون الثاني الذي حكم بين ٧٩١-٧٩٥هـ/١٣٨٩-١٣٩٣م]. (المقري التلمساني. مصدر سابق، ج.٨، ص. ١٨٢).

(٢٤) **محمد بن إبراهيم الآبلي**: من شيوخ ابن خلدون عبد الرحمان، والذي ذكر أن أصله من الأندلس ومنشأه في تلمسان، التي ولد بها سنة ٦٨١هـ، وكان مائلاً إلى العقليات فمهر في المنطق والحساب، وأخذ عنه ذلك، كانت وفاته سنة ٧٥٧هـ، كذلك جعل وفاته صاحب لُقط الفرائد. (ابن خلدون. العبر، ص. ٢٠٤٩-٢٠٥٠. ابن القاضي. مصدر سابق، ص ٦٦٣).

(٢٥) الونشريسي. المعيار، ج.٢، ص. ٤٧٩.

(٢٦) عبد الله العروي. **مجمل تاريخ المغرب**، بيروت-الدار البيضاء: المركز الثقافي الغربي، ١٩٩٤، ط.١، ج.٢، ص. ٢١٨.

(٢٧) إبراهيم القادري بوتشيش. **المغرب والأندلس في عصر المرابطين– المجتمع، الذهنيات، الأولياء**-، تطوان: منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، ٢٠٠٤، ط.٢، ص. ١٢٥. وفي السياق نفسه يشير محمد فتحة في كتابه القيم عن النوازل "أن الموحدين [أيضًا] لم يقفوا موقفًا معاديًا من تيار التصوف بل بالعكس، في عهدهم ظهر أقطاب التصوف المغربي واتسع نطاقه ليشمل البوادي والمناطق النائية". (محمد فتحة. **النوازل الفقهية والمجتمع –أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي من القرن ٦ إلى ٩هـ/١٢- ١٥م** -،الدار البيضاء: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٩٩، ص. ١٦٠).

(٢٨) **الوغليسي عبد الرحمان بن أحمد البجائي**: هو الشيخ الفقيه الصالح المفتي، وهو شيخ الجماعة ببجاية الفقيه الأصولي المحدث، عمدة أهل زمانه وفريد عصره وأوانه (أحمد بن قنفذ القسنطيني. **الوفيات**، تحقيق عادل نويهض، بيروت: منشورات دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٣، ط.٤، رقم.٧٨٦، ص. ٣٧٦. مخلوف. مصدر سابق، رقم.٨٧٩، ص. ٣٤٢). وقد ذكر له المازوني في نوازله عدة فتاوى. (ج.١، ص. ٨٧ و١٩١، ج.٢، ص. ٢٤٢ وغيرها).

(٢٩) الونشريسي. المعيار، ج.١١، ص. ٣٤. ولما تحدث أحمد ابن قنفذ القسنطيني عن جده لأمه الشيخ يوسف بن يعقوب الملاريّ، قال أنه توفي سنة ٧٦٤هـ، ودفن بزاويته بملارة على مرحلتين إلى الغرب من قسنطينة. (الوفيات رقم. ٧٦٤، ص.٣٦٢-٣٦٣ ).

(٣٠) الونشريسي. المعيار، ج.١١، ص.٤٨ وما بعدها.

(٣١) نفسه، ج.١١، ص ص.٤٨-٧٣.

(٣٢) نفسه. وفي هذا الصدد يشير محمد فتحة أن الإقبال على المتصوفة، والاعتقاد بكراماتهم لم يقتصر على عوام الناس، بل تعداه إلى الفقهاء وكثير من رجالات العصبيات الحاكمة بدء بالسلاطين أنفسهم. (محمد فتحة. نفسه، ص. ١٦٤).

(٣٣) الونشريسي، نفسه، ج.٧، ص. ٢٩٦.

(٣٤) هو أبوعبد الله محمد (الثاني) بن أبي عمران موسى بن يوسف تولى سنة (٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م). مؤنس. مرجع سابق، مج.٢، ج.٣، ص. ١١٤.

(٣٥) الونشريسي. نفسه، ج.٧، ص. ٢٤٨.

(٣٦) الونشريسي. نفسه، ج.٧، ص. ٤٣-٤٤.

(٣٧) نفسه، ج.٧، ص. ٢١٥-٢١٦. عن الأحباس ووجوه صرفها يُنظر: محمد فتحة. نفسه، ص. ١٠٤ وما بعدها.

(٣٨) الونشريسي. **المعيار**، ج.٨، ص. ٢٣٦ وما بعدها وج.١١، ص. ١٦-١٧. وقد أورد لنا القابسي التونسي (ت.٤٠٣هـ) أن "أجرة المعلم –منذ عهده- كانت على أشكال، إما معلومة كل شهر أوكل سنة، أو تترك للأولياء الحرية فإن أعطي قبل، وإن لم يعط لم يسأل". (أبو الحسن علي القابسي. **الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين**، تحقيق أحمد خالد، تونس: الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٨٦م، ط.١، ص. ١٣٩).

(٣٩) الونشريسي. نفسه، ج.١، ص. ١٣٩. ومن القابسي نقرأ أيضًا "أن اتخاذ مكان التعليم سواء كان بيتًا أو حانوتًا فهو على المعلم، إلا أن يُدعى إلى صبيان بأعيانهم" -كالنازلة التي بين أيدينا- (القابسي. نفسه، ص.١٤٥).

(٤٠) الونشريسي. نفسه، ج.٩، ص. ٤٣٤.

(٤١) نفسه، ج.٨، ص. ٢٦٠. ويبدوا أن ما كان يحدث بين الأبناء وآبائهم من جهة وبين الأساتذة من جهة أخرى، قد شغل شريحة كبيرة من المجتمع، الأمر الذي توضحه كثير من التساؤلات في هذا المجال، سواء عند المازوني أوفي المعيار للونشريسي، كما يخبرنا صاحب دوحة الناشر أن أحد أعلام مدينة وهران، والذي درّس بمدينة فاس، وهو أحمد شقرون بن أبي جمعة المغراوي (ت. ٩٣٠هـ) ألف كتابا في

هذا المجال سماه "جامع جوامع الاختصاص والتبيان فيما يعرض بين المعلمين وآباء الصبيان". (الشفشاوني. مصدر سابق، رقم. ١٢٤، ص. ١٢٥-١٢٦).

(٤٢) **علي بن عثمان أبو الحسن**: عرفه التنبكتي بأنه من علماء بجاية وفقهائها الجلة، وقد نقل قول الشيخ عبد الرحمان الثعالبي (ت.٨٧٥هـ في الجزائر): "شيخنا أبو الحسن الإمام الحافظ، عليه كانت عمدة قراءتي ببجاية". (التنبكتي. نفسه، رقم. ٤٢٥، ص. ٣٣٢).

(٤٣) الونشريسي. المعيار، ج.٥، ص. ٩٣.

(٤٤) نفسه، ج.٨، ص. ٢٥٤ وج.٢، ص. ٤٧١-٤٧٢.

(٤٥) نفسه، ج.٨، ص. ٢٦١.

(٤٦) نفسه، ج.١، ص. ٣٩٤.

(٤٧) نفسه، ج.١٢، ص. ٣٧٥.

(٤٨) نفسه، ج.٨، ص. ٢٣٦ وما بعدها.

(٤٩) الونشريسي. المعيار، ج.٢، ص. ٤٩٧ و٥٠٣.

(٥٠) يُنظر: الصفحة رقم ٠٣ من المقال.

(٥١) يُنظر: الصفحة رقم ٠٣ من المقال.

(٥٢) ابن خلدون. العبر، ص. ٢٢٠.

(٥٣) نفسه، ص. ٢٩٣. وبما أن ابن خلدون حدّد الفرق بين المرحلتين بسن البلوغ (نفسه، ص.٢٩٢)، إلا أن المستشرق الإسباني خوليان ريبيرا في دراسته القيّمة حول التربية والتعليم في الأندلس، جعل التفريق بين المستوى "الابتدائي" والمستوى "العالي" من الصعوبة بمكان، حيث يقول: "من الصعوبة أن نحدد على نحو دقيق متى يبدأ التعليم العالي وأين ينتهي... ولتحديد هذا المصطلح يمكن أن نقول إن التعليم العالي كل ما تجاوز المواد المقرر دراستها في التعليم الابتدائي، وهي مبادئ القراءة وحفظ القرآن، وإنشاد الشعر وحفظه دون فهم في أغلب الأحوال، ومبادئ النحو". (خوليان ريبيرا. **التربية الإسلامية في الأندلس –أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية** -، ترجمة الطاهر أحمد مكي، مصر: دار المعارف، ١٩٩٤، ط.٢، ص. ١١٨-١١٩).

(٥٤) يُنظر: الصفحة رقم ٠٢ من المقال.

(٥٥) **الزنديوي أبوعبد الله محمد بن محمد التونسي**: وصفه صاحب المعيار بقاضي قسنطينة وفقيهها، بينما وصفه التنبكتي بشيخ تونس في وقته وقاضي الأنكحة بها، توفي سنة ٨٨٢هـ (الونشريسي. المعيار،ج.١، ص. ١٩٧. التنبكتي. مصدر سابق، رقم.٦٥٦، ص.٥٤٠-٥٤١).

(٥٦) الونشريسي. المعيار، ج.١، ص. ١٩٧-١٩٨.

(٥٧) **محمد بن يوسف السنوسي أبوعبد الله**: قاضي الجماعة في تلمسان، أطال كل من التنبكتي وابن مريم في مدحه وذكر مناقبه، وجلة شيوخه، ونقلا من كتاب تلميذه أبي عبد الله الملالي الذي ألفه عن شيخه وسماه" المواهب القدسية في المناقب السنوسية"، وكانت وفاته سنة ٨٩٥هـ. (التنبكتي. نفسه، رقم. ٦٩٦، ص. ٥٦٣-٥٧٢، ابن مريم. مصدر سابق، ص. ٢٥٧-٢٦٨).

(٥٨) **إبراهيم بن قاسم بن سعيد بن محمد العقباني التلمساني أبو سالم**: هكذا سماه التنبكتي وأضاف: "الإمام العلامة الحافظ ابن شيخ الإسلام مفتي الأمة أبي الفضل قاسم، قاضي الجماعة في تلمسان، ولد سنة ٨٠٨هـ وتوفي سنة ٨٨٠هـ"، ونقل عنه المازوني في نوازله. (التنبكتي. نفسه، رقم. ٣٠، ص. ٦٥، ابن مريم. نفسه، ص. ٨٤. الونشريسي. وفيات، ص. ٧٨٤).

(٥٩) الونشريسي. المعيار، ج.٧، ص. ٣٤٧ وما بعدها.

(٦٠) نفسه، ص. ٣٥٣.

(٦١) نفسه، ج.٢، ص. ٤٦١- ٥٤٥ .

(٦٢) ابن خلدون. العبر، ص. ٢٧٨.

(٦٣) الونشريسي. نفسه، ج.٦، ص. ١٥٧.

(٦٤) ابن خلدون. نفسه، ص. ٢٨٩.

(٦٥) الونشريسي. نفسه، ج.٢، ص. ٤٨٣.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].



# تقدير الخصوبة وتمجيد الذكورة في المغرب الأقصى خلال العصر المريني



د. محماد لطيف
أستاذ التاريخ
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة ابن زهر – المملكة المغربية

## مُلَخّصْ

شكلت الخصوبة والمواقف الممجدة للإنجاب والقيم المحبذة للإكثار من النسل من أهم القيم الموجبة للتقدير عند معظم مغاربة العصر الوسيط عامة، والعصر المريني على وجه التخصيص؛ فقد افتتنوا بالمرأة الولود، وأعجبوا بالرجل الفحل المتباهي بقدراته الجنسية، واعتقدوا في قيم الكثرة والتعدد، فقدروا الأسرة الممتلكة لأدوات الإنجاب، والزوجين الكثيري النسل. لكن هذه القيم الاجتماعية لا تكتمل إلا بالحصول على الوليد الذكر، مادام أن مكانة الأسرة داخل المجتمع رهينة بما تنتجه من الذكور. لقد أسهمت كثافة الترسبات الذهنية التي خلفتها سيادة العقلية المشجعة على الإنجاب والمقدرة لخصوبة المرأة، في مختلف أشكال السلوك والقيم الأخلاقية والممارسات والعادات الجماعية والفردية لدى مختلف أسر المغرب الأقصى خلال العصر المريني، وعلى هذا الأساس تفشت في شأنها أشكال من السلوك والقواعد الأخلاقية، والتمثلات الرمزية التي وجهت مشاعر الناس واختياراتهم الاجتماعية. في هذا الخصوص شاعت الكثير من الوصفات المقوية للقدرات الجنسية لدى الرجال، والعادات المتوسلة للإنجاب والخصوبة لدى النساء. إن هذا السياق الاجتماعي الذي ربط قيمة المرأة ومستقبلها الزواجي بقدراتها الإنجابية، جعل من الرغبة في الحصول على الولد عند الزوجات هما استحوذ على تفكيرهن؛ فالتوجس من عدم الإنجاب، أو الخوف من الإصابة بما يقلل من الذرية، دفع بالعديد من النساء إلى سلك سبل متعددة، من الالتجاء إلى المشتغلين بالسحر والتنجيم والاستعانة بالتمائم والرقى والتعاويذ، إلى الاستنجاد والتعلق بكل من توسمن فيه الصلاح، وبفعاليته في إزالة العقم والتخلص مما قد يعيق الحمل.

**بيانات الدراسة:**

تاريخ استلام البحث: ٠٥ مايو ٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر: ١٦ سبتمبر ٢٠١٥

**كلمات مفتاحية:**

المغرب الأقصى، الغرب الإسلامي، العصر المريني، تاريخ الذهنيات، الإنجاب والذكورة

**معرِّف الوثيقة الرقمي:** DOI 10.12816/0045095

**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**

محماد لطيف، "تقدير الخصوبة وتمجيد الذكورة في المغرب الأقصى خلال العصر المريني".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد السابع والثلاثون؛ سبتمبر ٢٠١٧. ص١١٥ – ١٢٣.

## مُقَدِّمَةُ

تُعَدّ الأبحاث المرتبطة بدراسة تاريخ الذهنيات والسلوكات الاجتماعية من القطاعات البحثية الحيوية التي ما فتئت توسع من دائرة اهتمامات أخصائيي الزمن، كما تعتبر محطة إستوغرافية جذبت إليها حقولا تاريخية كثيرة ومتنوعة. وفي هذا الإطار تألق عدد هام من المؤرخين الغربيين الذين أفردوا أبحاثهم لتتبع التحولات الكبرى في مختلف حقب تاريخ المجتمعات الأوربية، مراهنين في ذلك على ما جد من مقاربات ومناهج، وعلى ما برحت تقدمه أرشيفاتهم من معطيات دقيقة.

وبالقدر الذي لا يستطيع فيه أي باحث في التاريخ أن يخفي إعجابه بالمراحل الكبرى التي قطعها المؤرخون الغربيون في البحث في قضايا التاريخ الاجتماعي، وكذا بالنتائج والإنجازات المهمة التي تحققت في دراسة تاريخ الذهنيات والسلوكات الاجتماعية، بالقدر نفسه يبدي اندهاشه أمام التواضع الكمي والمعرفي البيِّن لهذا الميدان في الدراسات التاريخية الخاصة بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط عامة، وخلال الفترة

المرينية على وجه التخصيص. فما دُبج من دراسات في تاريخ العقليات في المغرب الأقصى خاصة، حسب علمنا، يظل في حكم النادر، ورهين عثرات البداية، ولم تتجاوز ثمراته العلمية مباحث وفصول مقتضبة ضمن دراسات عامة في التاريخ الاجتماعي.

لا يخامرنا شك في أنّ حقل تاريخ المغرب الاجتماعي وتحديدا تاريخ العقليات، هو حقل واعد وخصيب في أمس الحاجة إلى البحث والاستقصاء من وجهة نظر المؤرخ، وفي ذات الآن مسلك شائك ومعقد؛ شائك بسبب الصعوبات المنهجية التي يثيرها، ومعقد بسبب ندرة المعلومات وتشتّت المتوفر منها؛ فالمتون النصية التقليدية وقلم التدوين المشدود إلى مراكز السلطة البارع في وصف الحروب والأحداث الصاخبة والوقائع المدوية، لا توفّر المعلومات اللازمة للتوسّع في مثل هذه المواضيع، لهذا كثيرا ما يضطر الباحث إلى الاستنجاد بوثائق دفينة، على غرار مدوّنات الفقه والفتاوى، ومصادر رديفة من مثيل مصنفات المناقب والتصوف، ومذكّرات الجغرافيين والرحّالة، وكتب التطبيب والاستشفاء، والأدب، ومصنفات الأمثال الشعبية، وغيرها من أنواع المظان التي شكلت مادتها التاريخية ثقوبا يمكن النفاذ عبرها للخوض في قضايا من عالم المسكوت عنه في تاريخ الذهنيات بالمغرب الأقصى خلال العصر المريني.

انطلاقًا من هذه النظرة المؤسسة، نتوخى من خلال هذه المقالة القصيرة، تقديم مساهمة علمية لفهم جانب من الأفكار الموَجِّهة للمجتمع وعقليات الناس وسلوكياتهم ومواقفهم في المغرب الأقصى زمن المرينيين، بالتركيز على جوانب متصلة بمكانة الإنجاب، وخصوبة المرأة، وتمجيد الذكورة، محاولين تجاوز الإطار الوصفي المحض، عن طريق ربط القضايا المطروقة بسياقها العام، والعوامل الفاعلة داخل المجتمع، وتباين البيئات الحضرية والبدوية.

## أولاً: الرغبة في الولد وسيادة عقلية الإنجاب

لاقت المواقف الممجدة للإنجاب، والقيم المحبذة للإكثار من النسل، تأييدا كبيرا وتجاوبا تاما لدى مختلف شرائح مجتمع المغرب الأقصى خلال العصر المريني. ولا غرو، فقد عد الزواج من الأمور المرغوب فيها التي حظيت بمكانة اجتماعية عالية[١]، لكونه الوسيلة المثلى لإنجاب الأبناء، وتحقيق الكثرة، وتعزيز طموح الامتداد الذي راود معظم الأزواج[٢]. وقد ترسخ على ضوء هذه القيمة الاجتماعية للزواج أن أضحى الحصول على الولد إحدى أهم بواعثه وغاياته[٣]، وأن أصبح الاقتران بالمرأة الولود على رأس معايير اختيار الزوجة[٤]. ولعل أبلغ الإشارات دلالة على أن تقدير الخصوبة والإنجاب كان من الأفكار الشائعة بين غالبية الناس، وأهم القيم المسيطرة على ذهنيتهم في ذلك العهد، حض الأمثال الشعبية المتداولة على الإقبال على المرأة الولود[٥]، ونظرتها الإيجابية لقدرات الزوجة الإنجابية، والمرأة الكثيرة الأولاد.[٦]

والأكيد أنها مواقف مؤيدة لما كان يبثه فقهاء الحقبة مدار البحث من أفكار مشجعة على النسل والكثرة. ففي معرض حديثه عن الخصال الحميدة للزواج، أشار ابن الحاج العبدري[٧]، إلى أن بالزواج يكثر النسل، ويبقى الذكر والأثر، "فإذا ظهر المولود فقد كثر به العدد، ورفع به الذكر إن كان ذكرا، والأثر إن كان أنثى". أما أبو عبد الله ابن مرزوق فحث على نكاح المرأة البكر، تحت حجة أنها المؤهلة للإنجاب ومضاعفة الذرية بشكل مستمر فـ"الولد مع البكر أرجى كالأرض المجمة بالنسبة إلى ما يلقى فيها"[٨]. وفي الاتجاه نفسه اجتهد العديد من العلماء من خلال كتاباتهم في تبيان طرق الممارسات الجنسية التي ينتج عنها الولد، وأهم الوسائل الواجب اعتمادها أثناء "الجماع" لتتحقق غاية الإنجاب[٩]. والواضح، أن هذه المواقف المحبذة للإنجاب والنسل، قد تعززت مكانتها في الذهنية السائدة واستحوذت على تفكير فئات المجتمع، لانسجامها وتلاؤمها مع الأفكار الدينية الراسخة التي تدعو المؤمن إلى الإكثار من السواد، وتشجعه على تكريس العملية الجنسية من أجل التناسل[١٠]. لهذا ليس غريبا أن ينظر معظم فقهاء الفترة المرينية وعلمائها، إلى كبر حجم الأسرة، وأطفالها الكُثر على أنها نعمة من الله، وزينة الحياة الدنيا، وإمداد للمجتمع بعناصر استمراره.[١١]

أمام هذه القيمة الاجتماعية التي حظي بها الإنجاب، والتي دعمتها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، لا يعدم الباحث بعضا من المواقف المدعمة للعزل في الجماع، وفتاوى ترخص لإفساد الحمل وإسقاطه. فقد أجاز القاضي أبو بكر بن العربي (ت٥٤٣ هـ/ ١١٤٣م)، العزل عن الزوجات من دون قيد ولا شرط، وفي الاتجاه ذاته أبدى الفقيه عبد الله العبدوسي (ت٨٤٩ هـ/ ١٤٤٥م)، تحفظًا واضحًا من الإنجاب، حين اشترط العزل في النكاح فرارا من الولد بدعوى "فساد الزمن"[١٢]، وأقر ابن الخطيب بوجوب الإجهاض "في بعض الجواري الصغيرات الأرحام والضيقات ومن تحمل قبل الافتضاض، ومن يتوفر الخوف من هلاكهن عند الولادة قصدا".[١٣] وندد الونشريسي في بداية القرن العاشر الهجري بما عرف عن بعض تجار الإماء من سقيهن بعض الأدوية التي ترخي الطمث عند إمساكه فيسيل المني معه وتنقطع الولادة.[١٤] لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نستغل تلك الشروط والتحريمات التي أصدرها الفقهاء، لنستنتج أن الممارسة الوقائية من الحمل كانت من الإجراءات المألوفة والعادية. فالواضح أنها ارتبطت بأسباب خاصة كما تهم حالات محددة ومعزولة.[١٥]

بلا شك أن هناك أساليب لمنع الحمل كانت معروفة وتصفها كتب الباه، وترد ضمن بعض النوازل الفقهية، لكن من الراجح أن استعمالها لم يكن منتشرا بتلك الصورة الكبيرة التي قد توحي به هذه المتون والإفادات الواردة في هذا الشأن. والغالب على الظن أن الأزواج لم يحاولوا التحكم في الممارسة الجنسية وبصورة جدية لمنع دورها الإنجابي.[١٦] ومهما كان الأمر، فالظاهر من خلال كافة النصوص المتاحة، أن مسألة تقدير مغاربة العصر المريني

للخصوبة وتمجيدهم للإنجاب، خضعت لعدة اعتبارات اقتصادية واجتماعية. فقد اعتقدوا اعتقادا جازما بأن ثروة الأسرة وقوتها ترتبط ارتباطًا وثيقًا باتساع حجمها، وكثرة عدد أفرادها[١٧]. وعلى هذا الأساس اعتبروا المزيد من الأبناء بمثابة الحصن الذي يحمي الأسرة من غوائل العوز والحاجة، والأداة المثلى التي تؤمن الأيدي العاملة اللازمة لتوفير أسباب المعيشة، ومعاركة الظروف الصعبة.[١٨]

ومن الدلائل الموضحة للأهمية الاقتصادية للإنجاب، واعتبار الطفل أداة تثمير ومصدر رزق هام للأسرة، شهادة ابن الحاج صاحب كتاب المدخل[١٩]، حين قال بأن بالأطفال تحصل "كثرة الرزق، والاستراحة من التعصب والنصب، وهذا موجود، نشاهد بعض الناس يكون فقيرا ضعيفا تعبا من التكسب بعيدا من العلم وأهله إلى ذلك من الأحوال الناقصة، فإذا أحدث له مولود ظهر أمره وكثر خبره". وهي شهادة على ما يبدو، لا يمكن فصلها عن ظروف العصر، وهاجس تأمين الحاجات اليومية الذي ظل مهيمنا على فكر معظم الأسر[٢٠]. ولعل هذا ما يعضده قول ابن الخطيب[٢١]، عندما رأى أن الحاجة تشتد إلى الولد "للانتفاع به في أسباب المعاش"، وفي هذه العبارة ما ينهض حجة على ارتباط الرغبة في الولد بالواقع المادي.

وإذا كنا لا نشك في شيوع مثل هذه الأفكار والمواقف بالمدن، فالغالب على الظن أنها عمت البوادي بنسبة أكبر؛ ولعلها مسألة لا يمكن تفسيرها إلا بعد ربطها بالظروف المعيشية، وأحوال الحياة غير المأمونة في هذه المجالات[٢٢]؛ ولا غرو، فلما شكل أمر تطويع سبل المعيشة، وتحصيل أسباب البقاء أمرا حيويا بالنسبة للقبائل جميعها، سواء المعتمدة على الترحال[٢٣]، أو على الفلاحة[٢٤]، وكذا التي كانت تعيش على الغزو والسلب وموارد الحرب[٢٥]، فقد كانت ملزمة بحكم تنازع البقاء بالاحتفاظ على قوة كافية للاستحواذ على مصادر الحياة، وفي الوقت نفسه حمايتها من طوارق التعدي[٢٦]. غير أن لهذه القوة ركيزة أخرى أساسية، هي ركيزة العدد التي جهدت الأسر لتأمينها بالإنجاب والإكثار من النسل، والاستبشار بالذكور.[٢٧]

وإلى جانب ما لقيمة الإنجاب والإكثار من النسل من علاقة بتطويع أسباب المعيشة وتأمينها، فقد كان لارتباط موقع العائلة داخل نسيج القبيلة بامتلاكها لأدوات الإنجاب، واتساع قاعدتها بالأبناء[٢٨]، أن عدت الرغبة في الولد أهم الضرورات الاجتماعية الملحة التي راودت معظم الأسر البدوية. وحسبنا دليلا على ذلك ما ذكرته إحدى الروايات عن امرأة تدعى شمسى استفحل أمرها، وغلبت على قبيلتها بفضل أبنائها العشرة.[٢٩] وتظهر قيمة الإنجاب، وأهمية تكوين أسر واسعة كثيرة الأفراد، في التجاء البعض إلى الإقبال على الزواج المتعدد، واستيلاد الزوجات بشكل متكرر.[٣٠] وهذا ما تعكسه حالة عبد الحق بن محيو المريني، الذي أقبل على "خطبة النساء والتزوج طلبا للولد"[٣١]، بحيث تزوج أربعا من النساء أنجبن له أولادا "زاد بهم في قومه عزة ومكانة ومهابة".[٣٢]

وإذا أمعنا النظر في مضامين بعض النصوص الأخرى، اكتشفنا أن الرغبة في إنجاب الأطفال كانت تشتد لدى البعض من الأسر المهووسة بانعدام الخلف، على اعتبار أنهم الوسيلة المثلى لاستمرار الأسرة، والمحافظة على كينونتها. وهذا ما تشي به حالات أولئك الآباء الذين سعوا إلى الحصول على أولاد يحافظون على ذكرهم، ويحققون بعض الطموحات التي راودتهم؛ ذكر ابن مريم[٣٣]، أن والد عبد الله بن محمد بن أحمد الشريف الحسيني (٧٤٨-٧٩٢هـ/ ١٣٤٧- ١٣٩٠م)، بشر به هو وأخوه عبد الرحمن (٧٥٧-٨٢٦هـ/ ١٣٥٦- ١٤٢٣م) في المنام، حيث "رأى قائلاً يقول له يزداد عندك ولد عالم لا تموت حتى تراه يقرئ العلم". وورد في رواية ليحيى السراج نقلها عن والده، "قال: سمعت والدي يقول: "دخلت يومًا قبل التزوج على الشيخ أبي موسى العجيسي (ت٧٠٥هـ/ ١٣٠٦م)، وفي نيتي أن لا أتزوج، فمس على ظهري، وقال: يا أبا العباس تزوج فها هم في صلبك، وفيهم من يحفظ القرآن، فتزوج وكان له جماعة من الأولاد، وحفظ ثلاثة منهم القرآن"[٣٤].

ومن المظاهر المعبرة عن سيادة عقلية الإنجاب، ذلك التصور الذي كان يحمله الرجل عن الفحولة، واكتمال الرجولة؛ إذ كان البعض من الرجال يتخذ من الحمل المتكرر عند زوجاتهم، وقدراتهم الجنسية، موضوعا للتباهي والتفاخر، وميزة من ميزاتهم. أشار ابن الحاج إلى أنه كان من شأن العرب أن يمتدحوا بقدراتهم الجنسية ويفتخروا بها، لأن ذلك دليل على قوة الرجل وصحة بدنه ومزاجه.[٣٥] ومن النماذج المدعمة لهذا التخريج في مجالات المغرب الأقصى خلال الحقبة المرينية، ما ذكره أحد مؤرخي البلاط[٣٦]، عن السلطان أبي الحسن المريني (٧٣١- ٧٤٩هـ/ ١٣٣١- ١٣٤٨م) حين ربط اكتمال ذكوريته وصحتها، بإقباله على الزواج واتساع ذريته واعتبر ذلك مفخرة من مفاخره.

ومن القرائن الأخرى الدالة على أن الرغبة في الولد كانت شديدة، وأن هاجس الإنجاب ظل مهيمنا على تفكير غالبية الأزواج، ما تزودنا به المصادر من إفادات تفصح عن حالات من الأسر، رغم ظروف العوز والفقر التي كانت تئن تحت وطأتها، فإن رغبتها في الحصول على الأطفال كانت رغبة شديدة[٣٧]. في هذا الصدد ورد ضمن إحدى تراجم الفترة المدروسة، أن رجلاً يدعى أبا علي بن أبي تاليت الهسكوري من جبل دمنات قدم يوما لزيارة الولي أبي محمد صالح في رباطه بآسفي، قال: فبينما هو جالس "قال لي: يا أبا علي ما رزقت ولدا إلى الآن، فقلت: لا والله. فقال لي: كثر الله تعالى ذريتك يا أبا علي، كررها ثلاثا، فارتعدت فرائصي من دعائه، وتغيرت خوفا أن أبتلى بكثرة الأولاد مع الفقر، فنظر إلي قد تغيرت،... فقال لي: يا أبا علي أترد على الله هبته وعطيته".[٣٨]

من الراجح وفق المعطيات المتاحة، أن الأسر الفقيرة كانت، في غالب الأحيان، أحوج من غيرها لهذا العدد الكبير من الأفراد، إلا أنه من الإنصاف القول، إن المزيد من الذرية ألقى أحيانا على الأسر المعدمة عبء ثقيلا خصوصا في أوقات الإزم؛ فكثيرة هي

العائلات التي تحدثت عنها المصادر ظلت عاجزة عن تدبر الحاجات الضرورية لأعداد أفرادها الكُثر لتواضع قدراتها المادية والاقتصادية. لهذا لا غرابة أن نصادف نصوصا كثيرة عن آباء اشتكوا ثقل نفقاتهم الأسرية لكثرة عيالهم. من ذلك ما ذكره ابن عباد الرندي في إحدى رسائله[٣٩]، حين وصف حال واحد من أصحابه بـ "الزلط وكثرة العيال".[٤٠] وما ورد ضمن إحدى الروايات المنقبية عن إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون (ت٧٩٩هـ/١٣٩٧م)، من أنه "عاش لم يملك دارًا ولا نخلاً، إنما يسكن بالكراء، ويأكل بالسلف والدين مع كثرة عياله".[٤١] لينطبق عليهم ما قاله بعض السلف: "إذا أراد الله بعبده شرًا، سلط الله عليه في الدنيا أنيابًا تنهشه، يعني: العيال".[٤٢] القول نفسه ينطبق على أحد الفاسيين الذي خلف "جملة من البنات"[٤٣]، وأيضًا على أحد البنائين الفقراء الذي قال عنه البادسي[٤٤]، ضمن ترجمة محمد الشريف الحسني، إنه مات وترك عيالاً دون معيل. وغيرها من النماذج التي تثبت أن تواضع الأحوال المادية والاقتصادية للأسر الفقيرة لم يثنيها عن الإكثار من الإنجاب.[٤٥]

واللافت للانتباه أن الشكوى من نفقات كثرة الأبناء امتدت إلى بعض أصحاب الثروة والجاه، بل أدت ببعضهم إلى الإفلاس والفقر؛ ومن الأمثلة المعبرة عن ذلك حالة خطيب جامع القرويين أبا الفضل محمد بن الخطيب المزدعي، الذي قال عنه صاحب المسند[٤٦]، أن النفقات المكلفة التي تطلبتها إعالة أولاده، اضطرته إلى صرف ما تحت يده من أموال الأوقاف والتركات والأيتام التي عين وصيا عليها. وفي الاتجاه نفسه، يقدم ابن الخطيب[٤٧] صورة معبرة عن حالة ابن مرزوق، عندما ربط بين قلة ذات يده وبين "كثرة الولد". كما أشارت رواية للسلطان أبي سالم المريني (٧٦٠ - ٧٦٢هـ/ ١٣٥٩- ١٣٦١م)، نقلها عنه المقري[٤٨]، أن ابن الخطيب نفسه انتهت به الأحوال إلى أن أصبح "سليب المال، كثير العيال".

## ثانيًا: شيوع العادات المقوية لقدرات الرجل الجنسية وإمكانات المرأة الإنجابية

لا سبيل إلى الشك في أن سيادة الذهنية المحبذة للإنجاب، وسيطرة الأفكار المؤيدة للإكثار من النسل على الفرد منفردا وعلى الأسرة بمجموعها، جعل من العادات المتوسلة للإنجاب وخصوبة المرأة، وكذا الوصفات المقوية للقدرات الجنسية لدى الرجل، تعرف انتشارا واسعا، وإقبالا كبيرا[٤٩]. في هذا الصدد، تحفل عدد من مصادر الحقبة مدار الدرس، وبالخصوص كتب الجنس، بنصوص تفصيلية عن أهم الوسائل التي كان يُنصح بها الرجل لتقوية "الباه"، والطرائق التي يحصل بها "الجماع"[٥٠]. كما تتحدث عن الكثير من العادات التي أقبلت عليها بعض الجماعات بالغرب الإسلامي والتي من شأنها معالجة الضعف الجنسي[٥١]، وما قد يُبتلى به أحد الزوجين من أمراض وعيوب تحول دون تحقيق الإشباع في الجماع[٥٢]، وتصعب في اعتقادهم من الممارسة الجنسية السوية المؤدية إلى الإنجاب[٥٣]. فقد اقترح أحمد زروق على الرجل المُصاب بمرض العنة، أن "يكتب الفاتحة سبعًا، وسورة القدر خمسا وعشرين مرة في آنية، ثم يمحوها بماء الحمص الذي قد بات فيه ليلة، ويشربه ثلاثة أيام على الريق، فإن لم يجبه فليوكل أمره إلى الله تعالى فيما أصابه، فقد عزت الحيلة".[٥٤]

بالمثل شاعت العديد من العلاجات الشعبية التي اعتقد السواد الأعظم في نجاعتها لتقوية قدرات الرجل في الجماع. أشار الإدريسي أن سكان إحدى مناطق المغرب الأقصى كانوا يقبلون على نوع من الحجارة اعتقدوا في دورها في تهييج الشهوة الجنسية.[٥٥] وذكر ابن القاضي، أن من خصائص وادي الجواهر لدى الفاسيين، "أن من شرب من مائه على الريق يحرك شهوة الجماع"[٥٦]. وبالمثل شاع الاعتقاد بـ "الطب الروحاني" بحسب تعبير ابن المؤقت[٥٧]، فالتجأ العديد من الرجال، وبخاصة أولئك الذين حرموا من الإنجاب، إلى الصلحاء والأولياء للتبرك بهم، والتماس الدعاء منهم طمعا في العون على تحقيق آمالهم في أن يرزقوا أطفال. ذكر الماجرى[٥٨] في هذا السياق، أن رجلاً من الأثرياء ملكته رغبة النسل، وكان كثير الزواج طلبًا للولد، فاتجه إلى الولي أبي محمد صالح الذي دعا له بأن يمنحه الله الكثير من الأولاد. وورد في كتاب إثمد العينين[٥٩]، أن واحدًا من أصحاب والد أبي العباس الزقاق قصد المتصوف عبد الرحمن الهزميري للدعاء أن يرزقه الله مولودًا ذكرًا. كما أشار المؤلف نفسه[٦٠]، أنه كان من الذين واظبوا على زيارة الأولياء والأضرحة والتمسح بأعتاب قبورهم، رجاء تيسير سبل الزواج قبل أن يتجه إلى أبي زيد الهزميري الذي كاشفه بما هجس في خاطره، وبما سيحصل عليه من أبناء.

## ثالثًا: الزوجة وهاجس العقم

ومن جانب آخر، فلا شك في أن اتجاه معظم الأسر نحو الإكثار من النسل، أثر في واقع المرأة الزوجة؛ فإذا كان وضعها يتقوى أثناء فترة الحمل؛ فتحضى بمكانة متميزة، وبعناية لم تألفها من قبل الجميع الذين يتفانون في الاستجابة لطلباتها[٦١]، وخاصة زوجها الذي كان يزيد من اهتمامه بها، ويبدل قصارى جهده لتلبية جل رغباتها واشتهاءاتها[٦٢]، فإن ذلك كرس تلك الصورة التي تقدمها أداة للنسل، والجانب الذي تقع عليه مسؤولية الإنجاب. ويمكن تلمس ذلك من خلال النصوص التي تحملها مسؤولية تأخر الحمل، أو الفشل في الحصول على مولود.[٦٣] وإذا كانت النصوص لا تسعف في الكشف عن صورة المرأة العاقر، وأشكال التعامل معها من قبل الزوج وأسرته، فيخيل إلينا أنها كانت موضع امتهان واحتقار، فاللوم موجه إليها بالدرجة الأولى، حتى وإن لم يتأكد من عقمها[٦٤]؛ شفيعنا في ذلك تلك الحالات التي أدى فيها تأخر الحمل إلى الطلاق[٦٥]، وفي أفضل الأحيان إلى مشاركتها في فراش الزوجية امرأة يتزوجها زوجها.[٦٦]

من الطبيعي أن يجعل هذا السياق الاجتماعي الذي يربط قيمة المرأة ومستقبلها الزواجي بقدراتها الإنجابية، من الرغبة في الحصول على الولد عند الزوجات رغبة شديدة وقوية، وهما استحوذ على تفكيرهن؛ ولا غرو، فالتوجس من عدم إنجابهن، أو الخوف من إصابتهن بما يقلل من ذريتهن، دفعهن إلى سلك سبل متعددة، والتعلق بكل من توسمن فيه الصلاح أو ادعاه، من ذلك زيارة الأولياء، والأضرحة المعروفة بنتائجها المحمودة في هذا الأمر(٦٧). فقد ظلت بعض المزارات والأضرحة إلى وقت قريب، مشهورة في الاعتقاد الشعبي، بفعاليتها في إزالة العقم والتخلص مما قد يعيق الحمل.(٦٨) وبالمثل دفعت الرغبة في الولد، وتأخر الحمل، ببعض الزوجات المتوجسات من العقم، إلى الالتجاء إلى المشتغلين بالسحر والتنجيم(٦٩)، والاستعانة بالتمائم والرقى والتعاويذ(٧٠)، أو الاستنجاد ببعض الوصفات العلاجية التي عادة ما كان ينصح بها لعلاج العقم(٧١). وقد تمثلت هذه الوصفات، في تناول بعض الأشربة، وتجرع الأعشاب، وحرق البخور التي يعتقد في فعاليتها الشديدة في العلاج، وتحقيق المراد. أورد ابن هلال ضمن نوازله، أن على المرأة التي تأخر حملها، أن تأخذ "حبات الحرف"، و"سباط الملوك" فتيبسها، وتسحقها في مهراس، وتخلطها مع العسل، وتلعق منه أصبعا واحدا كل يوم.(٧٢) وبلغت الرغبة ببعضهن حدًا فقدن فيه السيطرة على سلوكاتهن، إذ لم يترددن في الوقوع في أيدي أدعياء العلاج الذين استغلوا وضعيتهن الحرجة للنيل منهن ومن أعراضهن، بإتباع حيل كثيرًا ما انطلت عليهن.(٧٣)

## رابعًا: الرغبة في الولد الذكر وتمجيد الذكورة

بالقدر الذي اعتقد فيه مغاربة العصر المريني بقيمة الكثرة والعدد، والتمسك المستميت بثقافة الخصوبة والإكثار من النسل، فإنهم اعتقدوا اعتقادًا جازمًا بأهمية الذكر وفضلوه على الأنثى. فمُجدت خلال هذه المرحلة من تاريخ المغرب قيمة الذكورة والرجولة.(٧٤) ونستطيع أن نعثر على صدى هذا الاعتقاد، في شيوع عدد من العادات والإجراءات التي جرى الاعتقاد في أنها تزيد من حظوظ إنجاب الأولاد الذكور. وفي هذا السياق، أوصى أحمد زروق من يريد الولد الذكر بأن يأمر زوجته "بالنوم على شقها الأيمن عند فراغه"(٧٥). النصيحة نفسها قدمها محمد النفزاوي للوزير محمد بن الونان الزواوي، حين قال له: "فإذا قضيت حاجتك وأردت النزول لا تقم قائما، ولكن أنزل عن يمينك برفق، فإن حملت المرأة من تلك الساعة يكون ذكرا إن شاء الله".(٧٦)

ولأن الرغبة في الولد الذكر كان طموحًا هيمن على فكر معظم الأزواج، فقد شاعت في مجموع مجالات الغرب الإسلامي الكثير من الإجراءات والممارسات التي كان الغرض منها التطلع إلى معرفة ما إذا كان جنس الجنين ذكرًا أم أنثى(٧٧). في هذا السياق يحدثنا السقطي أن أهل الأندلس، وفي محاولة منهم للوصول إلى جنس الجنين، كانوا يعمدون إلى اعتماد مجموعة من الطرق، من ذلك "أن يقدر بخيط من وسط سرة المرأة إلى الفقارة المحاذية لها من ظهرها، ويعلم المكان بمداد، ويدار القياس إلى الجانب الثاني من الموضع إلى الموضع، فإن نقص الخيط من الجانب الأيمن عن العلامة، فهي حامل بذكر، وإن طال فهي حامل بأنثى والله أعلم بذلك"(٧٨). ويخبرنا محمد النفزاوي من إفريقية، أن جنس المولود يتحدد من خلال مجموعة من العلامات التي تظهر بالمرأة، فإذا "بان لونها عند تبين حملها لم تتغير، وكان وجهها حسنا منيرًا، وقل الكلف من وجهها، فذلك علامة تدل على الذكر"(٧٩). أما إذا ازدادت قبحًا، وفقدت جمالها وتغير لونها، فلا يمكن لمولودها أن يكون إلا بنتا.(٨٠)

ومن الوسائل الأخرى المعتمدة للتكهن بجنس الوليد المنتظر، والتي تكشف على أن هوس البحث عن المولود الذكر دائمًا ما كان يرافق الزوجين، اللجوء إلى بعض الصلحاء الذين اعتقدت العامة في صدق تنبؤاتهم(٨١). فقد ورد ضمن نازلة من نوازل الفترة، سؤال "عن قوم يدعون الصلاح...، ويقولون نعلم ما في بطون النساء"(٨٢). وذكرت إحدى الفتاوى المؤرخة سنة ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م، أن رجلا من المنتسبين إلى أهل الصلاح كان يتحدث في حمل الحوامل، ويقول فلانة يزيد لها ذكر وفلانة ذات أنثى(٨٣). وبالمثل، كان دور المنجمين، الذين ذاعت أفكارهم في الحقبة المدروسة(٨٤)، كبيرًا للاطلاع على جنس المولود. فقد غدا اتصال القمر بالمشتري وعطارد في عرف أهل المغرب، بحسب رواية لابن الخطيب(٨٥)، دالاً على أن المولود سيكون ذكرًا.

ولا تفوتنا الإشارة إلى تلك الروايات التي حاول من خلالها البعض إضفاء طابع الأسطورة والكرامة، على فترة ظهور الحمل الذكر عند بعض الأمهات؛ إذ نسجتها في نسق لا يختلف كثيرا عن تلك التي أحاطت بولادة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، لتظهر انفراد المشاعر التي تميز المرأة أثناء الحمل بجنين ذكر، وأثناء مخاض ولادته.(٨٦) ومن النماذج على ذلك حالة يعقوب بن عبد الحق المريني، الذي روى أن أمه " رأت في منامها كأن القمر خرج من قبلها حتى صعد في السماء، وأشرق نوره الأرض". ولما قص أبوها الرؤية على الشيخ أبي عثمان الورياكلي، تنبأ بأن المولود سيكون سلطانًا(٨٧). كما ورد في ترجمة أحمد زروق (ولد سنة ٨٤٦هـ/ ١٤٤٢م)، أن والدته رأت حين حملت به كأنها أعطيت شيئا من الذهب، ورأت جدته كأن الحج أخذه منها(٨٨). في حين قال محمد بن أحمد الشريف الحسني، بأنه بشر بمولوديه عبد الله وعبد الرحمان في النوم.(٨٩)

وفي كل الأحوال فقد كانت الرغبة في الحصول على الولد الذكر قوية وبالخصوص عند الأمهات. فالطفل الذكر بالنسبة للزوجة يزيد من قيمتها المعنوية داخل الأسرة ومن حظوظ الاستفادة من الميراث العائلي(٩٠)، فضلاً عن أنه يرفع من شأنها ومكانتها عند الزوج ويضمن استقرارها الزواجي. فثمة حالات أقدم فيها بعض الأزواج على الطلاق، وعلى الزواج المتعدد أملاً في أن يرزقوا بأبناء ذكور، لأن كل مواليدهم من البنات.(٩١)

وتتجلى العقلية المفضلة للابن الذكر في سلوك الأسرة عند الولادة، ففي الوقت الذي تقل فيه استبشارة الأسرة بالمولود الأنثى(٩٢)، ترتفع الزغاريد احتفاء بالمولود الذكر، وتزداد حفاوة الاستقبال وضخامة الاحتفالات بولادته خاصة إذا كان باكورة الزواج(٩٣). ويلاحظ أن جل رسائل التهنئة بالمولود الجديد ارتبط موضوع أشعارها بالمولود الذكر(٩٤). وفي ذات الاتجاه فقد يحصل أن يتم إرضاعه أشهر زيادة على مدة إرضاع الأنثى.(٩٥)

ومن القرائن المؤكدة لمكانة الطفل الذكر، تلك الروايات التي تتحدث عن بعض الأسر خلال الحقبة المبحوث فيها، عانت من مسألة فقدان أولادها، واضطرارها إلى الاستعانة بالعديد من الطرق التي اعتقدت في نجاعتها للحد من هذا التلف الذي أصابها. من هذه الروايات نذكر أن محمد بن أحمد مرزوق وزوجته عائشة بنت أحمد بن الحسن المديوني، كانا من شأنهما ألا يعيش لهما ولد إلا نادرًا. ولما رزقا بمولود جديد، اختارا تغيير اسمه باسم محمد حتى يتعافى، باعتقادهم، من المرض الذي ألم به، والذي كاد أن يجعل مصيره مثل مصير سابقيه(٩٦). الحالة نفسها تكررت مع والد علي بن قاسم الزقاق الترجيني، حيث اشتكى هو الآخر من موت أبنائه الذكور خاصة، "فدل أن يسكب زقا من زيت على من يتزيد من ذكر له يسخنه به ثم يتصدق به ففعل".(٩٧)

## خَاتِمَةٌ

قصارى القول؛ إن الحياة الاجتماعية في عصر المرينيين تميزت بطغيان مجموعة من القيم والمعتقدات والأفكار التي جاءت انعكاسا أمينا لبنية ثقافية سائدة. فقد أسهمت أوضاع الحياة القاسية نتيجة طبيعة وسائل الإنتاج البسيطة، والوضع الطبيعي والمعاشي السائد القائم على الكفاف والقلة وعائدات الغزو، في قوة التأثير وكثافة الترسبات الذهنية التي خلفتها سيادة العقلية المشجعة على الإنجاب والمقدرة لخصوبة المرأة، في مختلف أشكال السلوك والقيم الأخلاقية والممارسات والعادات الجماعية والفردية في المغرب الأقصى خلال العصر المريني. والحاصل، فقد أبان التحليل أن الخصوبة والإكثار من النسل كانت من الحاجات الملحة، وقيمة من أهم القيم الموجبة للتقدير التي انفعل معها معظم مغاربة العصر المريني. وعلى هذا الأساس تدوولت في شأنها أشكال من السلوك والقواعد الأخلاقية، والتمثلات الرمزية التي وجهت مشاعر الناس واختياراتهم الاجتماعية.

## الهَوامِشُ

(١) محماد لطيف، **الحياة الأسرية بالمغرب الأقصى خلال العصر المريني ٦٦٨-٨٦٩هـ/ ١٢٦٩-١٤٦٥م**، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، جامعة المولى إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية، ٢٠٠٧-٢٠٠٨م، ص. ١٠٨.

(٢) الماجري، **المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح**، المطبعة المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٢٣م، ص، ٣٢١. التنبكتي، **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، إشراف وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، وضع هوامشه وفهارسه طلاب من كلية الدعوة الإسلامية، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م، ص، ٢٢٥.

(٣) ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢م، ص، ٢٨٥. **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢م، ص، ٢٣. ابن خلدون، **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس، خليل شحادة، مراجعة، سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ج٧، ص، ٢٢٥. الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق وتعليق، جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٤م، ج٣، ص، ٩.

(٤) ابن الخطيب، **ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب**، حققه ووضع مقدمته وحواشيه، محمد عبد الله عنان، الناشر، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ج٢، ص، ٣٢٧.

(٥) "تسميه مسعود أودحيه بالعود". الزجالي، **ري الأوام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام (أمثال العوام في الأندلس)**، تحقيق ودراسة، محمد بن شريفة، مطبعة محمد الخامس، فاس، صدر عام ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م، ق٢، مثل رقم ١٨٣٧، ص، ٤٢٢.

(٦) حميد تيتاو، محماد لطيف، **ملامح من التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لقبائل أيت عطا من خلال أمثالها – مساهمة في تدوين الأمثال الأمازيغية** –، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣ م، صص، ٨٤، ١٧٨.

(٧) **المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على بعض البدع والعوائد التي انحلت وبيان شناعتها وقبحها**، طبع على نفقة مصطفى أفندي فهمي الكتبي وشريكه، المطبعة العامرة الشريفة، ١٣٢٠هـ، ج٣، ص، ٣١.

(٨) الونشريسي، **المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، بالمملكة المغربية، الرباط، ودار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ج٣، ص، ٥.

(٩) ابن الحاج، **المدخل**، ج٢، ص، ٥٥، ٦٠. ج٣، ص، ٣١. الونشريسي، **مختصر أحكام البرزلي**، مخ.خ.ع، الرباط، رقم: ٢١٩٨ د، ص، ٥٨٤. محمد النفزاوي، **الروض العاطر في نزهة الخاطر**، ضمن كتاب الجنس عند العرب، نصوص مختارة، منشورات الجمل، الطبعة الأولى، كولونيا- ألمانيا، ١٩٩٧م، ص، ١٠٣.

(١٠) من ذلك قوله تعالى: «الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» . **سورة الكهف**، الآية، ٤٦. وقوله أيضا: «وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ»، **سورة نوح**، الآية، ١٢. ومن الأحاديث النبوية قوله صلى الله عليه وسلم: (ما منكم امرأة تقدم ثلاثة من الولد إلا كانوا لها حجابا من النار، فقالت امرأة: واثنين، قال: واثنين). رواه النسائي وأبو داود والحاكم. **موسوعة الأحاديث النبوية الشريفة**. للمزيد من التفصيل، راجع : زهير حطب، **تطور بنى الأسرة العربية**، معهد الإنماء العربي، بيروت، ١٩٧٦م، ص، ١٢١.

(١١) ابن عبد الرؤوف، **رسالة في آداب الحسبة والمحتسب**، نشر ليفي بروفنسال، ضمن ثلاث رسائل أندلسية في أدب الحسبة والمحتسب، مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٥٥م، ص، ٧٩. المقري، **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب**، دار صادر، بيروت، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، ج٥، ص، ٦٠.

(١٢) ابن القاضي، **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٣م، ج٢، ص، ٤٢٥. محمد بن جعفر الكتاني، **سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس فيمن أقبر من الصلحاء بمدينة فاس**، ٣ أجزاء، طبعة حجرية، فاس، ١٣١٦هـ، ج٣، ص، ٣٠٢.

(١٣) **كتاب عمل من طب لمن حب**، طبع النص العربي مع بيان المصطلحات ومعجم الأسماء الطبية، ماريا كثيثون فازكيز دي بينيتو، جامعة سلمنقة، ١٩٧٢م، ص، ٢٧٤.

(١٤) الونشريسي، **المعيار**، ج٣، ص، ٣٧٠.

(١٥) للمزيد من التوضيح، راجع: محمد فتحة، "معطيات عن تحديد النسل في المغرب خلال العصر الوسيط المتأخر انطلاقا من قولة لعبد الله العبدوسي في موضوع العزل"، **مجلة كنانيش**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة، العدد الأول، ١٩٩٩م، ص، ٥٥.

(١٦) الملاحظة نفسها أوردها فيليب أرياس في تناوله لمسألة منع الحمل في تاريخ أوربا. أنظر : "تاريخ الذهنيات"، ضمن كتاب **التاريخ الجديد**، إشراف جاك لوكوف، ترجمة وتقديم، محمد الطاهر المنصوري، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م، صص، ٢٩٩- ٣٠٠.

(١٧) ابن هذيل، **عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة**، مخطوط المكتبة الوطنية، الرباط، رقم ٥٨١ د، ص، ٦٥. ابن الأحمر، **روضة النسرين في دولة بني مرين**، تحقيق، عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص، ٥٥.

(١٨) محمد أستيتو، **الفقر والفقراء في مغرب القرنين ١٦ و ١٧م**، مؤسسة النخلة للكتاب، وجدة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م، ص، ٣٧٢.

(١٩) ابن الحاج، ج٣، ص، ٣١.

(٢٠) شارل أندريه جوليان، **تاريخ إفريقيا الشمالية، تونس- الجزائر- المغرب الأقصى**، تعريب محمد مزالي، البشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، النشرة ٢، ١٩٨٣م، ج١، ص، ١٦٦. محمد ياسر الهلالي، **مجتمع المغرب الأقصى خلال القرنين الثامن والتاسع هـ/XV/XIVم، مساهمة في دراسة بعض مصطلحات التراتب الاجتماعي [العامة- الخاصة] [الطبقة-المرتبة]**، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية، ١٩٩٩-٢٠٠٠م، ص، ١٠٨، ١٥٧.

(٢١) **روضة التعريف بالحب الشريف**، عارضه بأصوله وعلق على حواشيه وقدم له، محمد الكتاني، دار الثقافة، الدار البيضاء، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٠م، ج١، ص، ٣٩٨.

(٢٢) ابن خلدون، **المقدمة**، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م، ص، ٩٦. يمكن ملاحظة ذلك، من خلال ما رافق الحياة البدوية من ضروب الغصب والتعدي: ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، صص، ٢٨٢، ٢٨٨. **الذخيرة السنية**، ص، ٣٦. ابن خلدون، **العبر**، ج٧، صص، ٢٢٤، ٢٢٦. الملزوزي، **نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك**، نشر عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٣م، صص، ٦٨- ٦٩.

(٢٣) مجهول، **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تحقيق، سهيل زكار، عبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط١، ١٩٧٩م، ص، ١٧. ابن خلدون، **المقدمة**، ص، ١١٤. **العبر**، ج٧، صص، ٦٨، ٧٤، ٢٢١-٢٢٢.

(٢٤) الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، دون تاريخ، مج١، ص، ٢٤٣. الحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، معجم جغرافي، تحقيق، إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م، ص، ٦٠٥.

(٢٥) ابن خلدون، **المقدمة**، ص، ٢١١. الناصري، **الاستقصا**، ج٣، ص، ١٠٨.

(٢٦) إبراهيم القادري بوتشيش، **تاريخ الغرب الإسلامي**، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٩٤م، ص، ٢٥.

(٢٧) الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ترجمه عن الفرنسية، محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م، ج١، ص، ٢٥٨. زهير حطب، **تطور بنى الأسرة العربية**، صص، ١٠٥، ١١٩، ١٢٠، ١٣٥. أحمد التوفيق، **المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، (إينولتان ١٨٥٠-١٩٢٠)**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، أطروحات ورسائل ١، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص، ١٨٩.

(٢٨) ابن خلدون، **المقدمة**، ص، ١٠٤.

(٢٩) الناصري، **الاستقصا**، ج٣، ص، ١٣٤.

(٣٠) الونشريسي، **المعيار**، ج٣، ص، ٢٧٨.

(٣١) ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص، ٣١-٣٢.

(٣٢) المصدر نفسه، ص، ٣٢.

(٣٣) **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٦م، صص، ١١٧، ١٢٧.

(٣٤) محمد بن جعفر الكتاني، **سلوة الأنفاس**، ج٢، ص، ٦٣.

(٣٥) **المدخل**، ج٢، ص، ٥٧.

(٣٦) ابن مرزوق، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا الحسن**، دراسة وتحقيق، ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم، محمود بوعياد، إصدارات المكتبة الوطنية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص، ١٣١-١٣٢.

(٣٧) ابن عباد، **الرسائل الكبرى**، طبعت بتصحيح، أحمد بن محمد المهدي بن العباس بن صابر البوعزاوي، طبعة حجرية، ١٣٢٠هـ، ص، ١٥٧. ابن عسكر، **دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر**، تحقيق، محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والنشر، سلسلة التراجم، ط٢، مصورة بالأوفسيط، الرباط، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ص، ١٠٦.

(٣٨) الماجري، **المنهاج الواضح**، ص، ٣٢٠.

(٣٩) **الرسائل الكبرى**، ص، ١٥٧.

(٤٠) المصدر نفسه، ص، ١٤٥.

(٤١) التنبكتي، **نيل الابتهاج**، ص، ٣٥.

(٤٢) ابن عرضون، **مقنع المحتاج في آداب الأزواج**، مخطوط. المكتبة الوطنية، الرباط، رقم ١٠٢٦ ك، ص، ٣.

(٤٣) ابن تكلات، **إثمد العينينونزهة الناظرين في مناقب الأخوين**، تحقيق ودراسة، محمد رابطة الدين، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية، ١٩٨٦م، ص، ٢٥٠.

(٤٤) **المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف**، تحقيق، سعيد أحمد أعراب، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٨٢م، ص، ١٤٦.

(٤٥) مجهول، **بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب**، تحقيق، عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، صص، ٣٣، ٤٦. الصومعي، **كتاب المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى**، تحقيق علي الجاوي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٩٦م، ص، ٢١٩.

(٤٦) ابن مرزوق، **المسند**، ص، ٢٣٠.

(٤٧) **نفاضة الجراب في علالة الاغتراب**، تقديم وتحقيق، السعدية فاغية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ/ ١٩٨٩م، ج٣، ص، ٢٣٦.

(٤٨) **نفح الطيب**، ج٦، ص، ١٨.

(٤٩) يمكن ملاحظة ذلك، من خلال بعض العادات المنتشرة في حفلات الزواج. الحسن الوزان، **وصف افريقيا**، ج١، ص، ٢٥٦. محمد المختار السوسي، **المعسول**، طبع بمطبعة النجاح، الدار البيضاء، عام ١٣٧٠هـ/١٩٦٠م ، ج١، صص، ٣٢-٣٣.

(٥٠) راجع في هذا الصدد: محمد التجاني، **تحفة العروس ومتعة النفوس**، تحقيق، جليل العطية، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، ١٩٩٢م، ص، ١٩٦. محمد النفزاوي، **الروض العاطر**، ص، ١٠٣-١٠٤. ولعلها كتابات لا تشذ عن اتجاه نظيراتها في المشرق الإسلامي: السيوطي، **كتاب الإيضاح في علم النكاح**، ص، ١٢٤. وكتاب **الرحمة في الطب والحكمة**، طبع ونشر، مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني، د.ت، ص، ٢٦-٢٧ - ٢٨. بحيث أورد ما لا يقل عن أربعين طريقة لعلاج العقم. للتفصيل عن مضامين بعض هذه الكتابات، راجع : سمية نعمان جسوس، **بلا حشومة الجنسانية النسائية في المغرب**، ترجمة عبد الرحيم حزل، نشر المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٣م، ص، ٢٤٣.

(٥١) ورد في نوازل ابن رشد، أن زوجة اشتكت إعراض زوجها عنها منذ دخل بها، وقالت أنها تريد الفراق، لأنها " لا تستطيع الصبر عما يلحقه بها من الضرر، فيما يرغب النساء من أزواجهن". **المسائل**، تحقيق ودراسة، الحبيب التجكاني، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م، مج١، ص، ١٨٥.

(٥٢) ابن غازي، **الكليات في المسائل الجارية عليها الأحكام**، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، رقم: ١٧٢٩ د، (ضمن مجموع)، ص، ١٠٩. محمد النفزاوي، **الروض العاطر**، ص، ٧٩-٨٢، ١٠٨.

(٥٣) لعل المطلع على بعض المصنفات، يلحظ مايقدمه مؤلفوها من وصفات عديدة، لمعالجة ما يصاب به الزوج أو الزوجة من عجز جنسي، أو من علل في أعضائهما التناسلية، لذا خصصوا أبواب فيما يقوي على الجماع، وباباً آخر فيما يزيد من حجمه، وبابا عن فروج النساء، وبابا يهتم بالعجز الجنسي، انظر: محمد النفزاوي، **الروض العاطر**، ص، ٧٧، ٨٣، ١٠٣. مجهول، **كتاب في الطب**، مخطوط مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، رقم ١/١٦٩، ص، ٤٠. ابن عرضون، **مقنع المحتاج**، ص، ٢١٥ وما بعدها.

(٥٤) **النصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية**، دراسة وتحقيق وتخريج، عبد المجيد خيالي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠١، ص، ٨٠.

(٥٥) **نزهة المشتاق**، مج١، ص، ١٠٤.

(٥٦) **جذوة الاقتباس**، ج١، ص، ٤٣.

(٥٧) **السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية**، طبع بمطبعة مصطفى البائي الحلي وأولاده، مصر، ١٣٤١هـ، ص، ١٥٥.

(٥٨) **المنهاج الواضح**، ص، ٣٢١-٣٢٢.

(٥٩) ابن تكلات، **إثمد العينين**، ص، ٢٣٠. ابن عيشون، **الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس**، دراسة وتحقيق، زهراء النظام، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، السنة الجامعية، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ص، ٢١٢.

(٦٠) ابن عيشون، **الروض العطر**، ص، ٢٢٣-٢٢٤.

(٦١) ابن عسكر، **دوحة الناشر**، ص، ١١٤.

(٦٢) ابن عرضون، **مقنع المحتاج**، ص، ٣١٩. إبراهيم القادري بوتشيش، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين، المجتمع، الذهنيات، الأولياء**، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م، ص، ٣٣.

(٦٣) ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، صص، ٣١-٣٢. الماجري، **المنهاج الواضح**، ص، ٣٢١.

(٦٤) محماد لطيف، **الحياة الأسرية بالمغرب الأقصى**، ص، ٣٦٤.

(٦٥) الدرعي، **الأجوبة الناصرية في بعض مسائل البادية**، مخطوط المكتبة الوطنية، الرباط، رقم ١٦٤٤د، (ضمن مجموع)، ص، ٩٨.

(٦٦) الونشريسي، **المعيار**، ج٥، ص، ١٢٧.

(٦٧) الأنصاري، **اختصار الأخبار عما كان بسبتة من سني الآثار**، تحقيق، عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، ط٢، الرباط، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص، ٢٢. ابن عسكر، **دوحة الناشر**، ص، ١٠٦. محمد بن جعفر الكتاني، **سلوة الأنفاس**، ج٣، ص، ٩١.

(٦٨) سمية نعمان جسوس، **بلا حشومة**، ص، ١١٨.

(٦٩) ابن هيدور، **الاعتبارات النظرية في الأحكام النجومية**، مخطوط المكتبة الوطنية، الرباط، ميكروفيلم رقم ٢٣٥١، (ض.م)، ص، ٢٣٨. ابن أبي الرجال، **شرح أرجوزة في الأحكام النجومية**، ص، ٤٣.

(٧٠) الونشريسي، **المعيار**، ج٢، ص، ٣٨٨. ج١١، ص، ١٦٦.

(٧١) محمد النفزاوي، **الروض العاطر**، ص، ١٠٥.

(٧٢) ابن هلال، **الأجوبة**، طبعة حجرية، دون مكان الطبع، دون تاريخ، (نسخة خاصة)، ص، ١٨٣.

(٧٣) فهذه امرأة عاقر بحسب رواية لابن عرضون، قصدت أحد المعالجين ممن يتوسم فيه الخير والصلاح، فطلبت منه أن يعالجها، فقال لها: لابد من الكتابة في مواضع من بواطن جسدك فانزع ثيابك سوى السروال، ففعلت، فصار يستمتع بها. **مقنع المحتاج**، ص، ٢٨٠. كما ذكر أن امرأة أخرى عاقر قصدت أحد المعالجين، فقال لها: عندي مسألة

صحيحة للعاقر، ولكن لا يتأتى عملها لأن كاتبها يكتبها في ذكره ويجامعها به، فرغبت منه عملها. ص، ٢٨٠.

(٧٤) حميد تيتاو، **الحرب والمجتمع بالمغرب الأقصى خلال العصر المريني**، منشورات مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، سلسلة أبحاث ١، دجنبر ٢٠٠٩م، ص، ٤٣٢.

(٧٥) **النصيحة الكافية**، ص، ٧٨.

(٧٦) محمد النفزاوي، **الروض العاطر**، ص، ١١٢.

(٧٧) راود هذا الطموح بعض الناس منذ فترات سابقة من تاريخ المغرب، واستعملوا لأجل معرفة جنس الجنين مجموعة من الطرق المختلفة. عن بعضها، راجع: إبراهيم القادري بوتشيش، **المغرب والأندلس**، ص، ٣٣.

(٧٨) **رسالة في الحسبة**، ص، ٥٢- ٥٣.

(٧٩) **الروض العاطر**، ص، ١١١. نقل ذلك كما هو واضح، عن السيوطي، **الرحمة في الطب والحكمة**، ص، ٢١٨.

(٨٠) إلى جانب علامات أخرى قال صاحب المصدر، إنه أخذها من أقوال أهل العلم فيما جربوه وصح عندهم. المصادر نفسها، الصفحات نفسها.

(٨١) ابن خلدون، **المقدمة**، ص، ٢٥٩.

(٨٢) الونشريسي، **المعيار**، ج١١، ص، ١٦٦.

(٨٣) المصدر نفسه، ج٢، ص، ٣٨٨.

(٨٤) Ahmed Khaneboubi, Les premiers sultans mérinides1269-1331, Histoire politique et sociale, L'Harmattan, Paris, 1987, P. 189.

(٨٥) **نفاضة الجراب**، ص، ١٣١- ١٣٢. **ريحانة الكتاب**، ج٢، ص، ١٧٨.

(٨٦) تركي علي الربيعو، **العنف والمقدس والجنس في الميثولوجيا الإسلامية**، نشر المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٥م، ص، ١٦٢-١٦٦.

(٨٧) ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، ٢٩٧.

(٨٨) مجهول، **التعريف بالشيخ أحمد البرنسي المعروف بزروق**، مخطوط المكتبة الوطنية، الرباط، رقم ٢١٠٠ د، (ضمن مجموع)، ص، ٢٧٩.

(٨٩) ابن مريم، **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٦م، صص، ١١٧، ١٢٧.

(٩٠) قالت في هذا الصدد: "سميه مسعود، ودحيه بالعود". الزجالي، **أمثال العوام**، مثل رقم ١٨٣٧، ق ٢، ص، ٤٢٢. حميد تيتاو، محماد لطيف، **ملامح من التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لقبائل أيت عطا**، ص، ١٥٩. مثل رقم: ٧٦٦.

(٩١) محماد لطيف، **الحياة الأسرية**، ص، ٣٦١.

(٩٢) الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج١، ص، ٢٥٨.

(٩٣) ابن الحاج، **المدخل**، ج٣، ص، ٣٢. ابن الخطيب، **ريحانة الكتاب**، ج٢، ص، ١٧٧-١٧٨. روجيه لوتورنو، **فاس في عصر بني مرين**، ترجمة نقولا زياده، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٦٧م، ص، ١٠٣.

(٩٤) إبراهيم القادري بوتشيش، **المغرب والأندلس**، ص، ٣٤.

(٩٥) سمية نعمان جسوس، ص، ٢٠.

(٩٦) **نيل الابتهاج**، التنبكتي، ص، ٥٠٨.

(٩٧) ابن القاضي، **جذوة الاقتباس**، ج٢، ص، ٤٧٦.

# ألقاب الحكام الحفصيين
## النشأة والتطور

**د. عامر حسن أحمد عجلان**
مدرس الآثار الإسلامية
كلية الآداب
جامعة سوهاج – جمهورية مصر العربية

**مُلَخّصْ**

أدت الألقاب دورًا كبيرًا في تاريخ الدول الإسلامية قديمًا وحديثًا، وتعددت تلك الألقاب وتباينت من دولة لأخرى ومن عصر لآخر، وحرص الخلفاء والسلاطين والأمراء المسلمون على اتخاذ ألقاب لها دلالاتها الدينية والسياسية والاجتماعية، والتي عكست ظهور مَنْ تلقب بها في صورة حماة الدين والعقيدة، وأنهم خلفاء الله في الأرض والمجاهدون في سبيله، والقائمون على أمر الأمة الإسلامية ومصالح مواطنيها. فالألقاب تُعَدّ من شارات الحكم التي يحرص على اتخاذها الحكام والأمراء المسلمين، وقد عكست هذه الألقاب توجهات الحكام وسياستهم، كما مثلت صدًا للأحداث السياسية والعسكرية وأحيانًا الاجتماعية للفترة التاريخية التي يحكم فيها كل أمير أو سلطان. وهذا ما وضح بشكل جلي في ألقاب حكام الغرب الإسلامي بشكل عام _كالأغالبة والرستميين والأدارسة والفاطميين_، وألقاب الحكام الحفصيون بشكل خاص. فقد تلقب حكام الدولة الحفصية بعديد من الألقاب التي تماشت والأوضاع التي اكتنفت فترة كل حاكم والتي عكست الفترات والأطوار المتباينة التي عاشتها الدولة الحفصية من قوة وازدهار أو ضعف وانهيار في كافة مناحي الحياة. ومنها ألقاب العبودية لله، والألقاب الأميرية، والألقاب الخلافية، وألقاب الإمامة، والألقاب الملكية، والألقاب السلطانية، وغيرها.

**بيانات المقال:**

تاريخ استلام المقال: ١٦ فبراير ٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر: ٢٢ مايو ٢٠١٥

**كلمات مفتاحية:**

الحفصيون، الغرب الإسلامي، ألقاب الخلافة، ألقاب الإمامة، الألقاب السلطانية

**معرِّف الوثيقة الرقمي:** DOI 10.12816/0045096

**الاستشهاد المرجعي بالمقال:**

عامر حسن أحمد عجلان. "ألقاب الحكام الحفصيين: النشأة والتطور".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد السابع والثلاثون؛ سبتمبر ٢٠١٧. ص١٢٤ – ١٣٢.

## مُقَدِّمَةُ

حث الدين الإسلامي الحنيف على ألا يخاطب المسلم أخاه إلا بما يحب من الأسماء والألقاب. فقال عز وجل:{ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[١]. وقد حرص المسلمون على ذلك، لذا فقد اهتم الحكام المسلمون أيما اهتمام باتخاذ الألقاب التي تميزهم عن غيرهم وتبرز مكانتهم وسلطانهم ونفوذهم، حيث كانت هناك لكل دولة ألقاب يحملها حكامها واختلفت هذه الألقاب بين الدول والشعوب حسب عادات وتقاليد وأعراف ذلك الشعب المحكوم وبيئته. وتعددت الألقاب عند المسلمين ودول الجوار من الأمم الأخرى، مثل الإمبراطور والقيصر، وكسرى، والنجاشي، والفرعون، أو الخليفة أو أمير المؤمنين، والملك، والرشيد، والهادي، والمنصور، والمأمون، والسلطان، والأمير، بل نجد أن هناك ألقابًا تضاف إلى لفظ الجلالة (الله) في العصر العباسي الثاني، مثل العزيز بالله، والناصر لدين الله، والمتوكل على الله والمستعين بالله، والقائم بأمر الله وغيرها.[٢]

ولما كان هناك بعض حكام الدول وخاصةً في العصر العباسي، ممَنْ كان يحمل أكثر من لقب مثل أمير المؤمنين، والناصر لدين الله، والملك والسلطان. والملك، وخادم الحرمين الشريفين، أو حامي حمى الحرمين الشريفين السلطان مثلما كان عليه الحال في العصر العثماني فقد عانى كثير من الباحثين والدارسين وهواة التاريخ من متاهات وإرباكات بعض المؤرخين عند ذكرهم لأسماء أرباب النفوذ من الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء والوزراء

وغيرهم، أو عند ذكرهم ألقابهم فقط، أو ألقابهم ونعوتهم، أو ألقابهم والأسماء التي يكنون بها، وفي كثير من الأحيان يكتفون بالنعت أو بالكنية، وفي حالات أخرى يوردون أسمائهم فقط. الأمر الذى يؤدى في كثير من الأحيان إلى التباس الشخصية التي يتحدثون عنها مع شخصية أخرى(٣). يتساوى الأمر في ذلك بين شرق العالم الإسلامي وغربه، ولما كانت ألقاب الدول في غرب العالم الإسلامي لم تنل حظًا وافرًا من الدراسة كنظيرتها في المشرق، أردت أن ألقى الضوء على ألقاب دولة من الدول التي كان لها أثر فعال في تاريخ المغرب الأدنى ألا وهي الدولة الحفصية.

## تمهيد

يُنتسب الحفصيون إلى الشيخ أبي حفص عمر بن يحيي الهنتاني، ويسمي بالعمري ويلقب بأزناج؛ والهنتاني نسبة إلى قبيلة هنتانة أكبر قبائل المصامدة وأكثرها جمعًا وأشدها قوة، وهم السابقون للقيام بدعوة المهدي، والممهدون لأمره وأمر عبد المؤمن من بعده. وقد مرت الدولة الحفصية بأطوار مختلفة في فترة حكمها لإفريقية _والتي امتدت من سنة (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) إلى سنة (٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م)_ تنوعت ما بين سطوع وأفول لنجمها في سماء الأحداث السياسية. فالطور الأول هو طور "النشأة والخلافة"، وقد امتد من عام (٦٢٦هـ/١٢٢٩م) إلى عام (٦٧٥هـ/١٢٧٧م). وقد شهدت الدولة في هذه الفترة ازدهارًا كبيرًا، وخضع لها كثير من الدول المجاورة. ثم تلي هذا الطور فترة من الاضطرابات والانقسامات، تفرقت فيها السلطة بين تونس وبجاية وقسنطينة، وامتدت هذه الفترة من (٦٧٥هـ/ ١٢٧٧م) إلى (٧٤٧هـ/١٣٤٦م). ثم ما لبثت الدولة أن خضعت للمرينيين حكام المغرب الأقصى مرتين إلى أن عادت إلى قوتها، وذلك في الفترة الممتدة بين عامي (٧٤٨ – ٧٧٢هـ/ ١٣٤٧–١٣٧٠م).

تلت هذه المرحلة فترة من الاستقرار على كافة الأصعدة، وهي "فترة الازدهار" (٧٧٢ - ٨٩٣هـ/ ١٣٧٠ - ١٤٨٨م). ومرة أخرى تعود البلاد إلى الضعف والتخبط والفوضى، فتكثر المجاعات، وتتكرر ثورات الأعراب، ويدخل الإسبان البلاد، إلى أن تسقط الدولة على يد الأتراك العثمانيين، وهذا هو الطور الأخير من أطوار الدولة الحفصية وهو طور "الضعف والانهيار" والذي امتد من عام (٨٩٣هـ/ ١٤٨٨م) إلى عام (٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م)، وهو العام الذي تحولت فيه البلاد من السيادة الحفصية إلى ولاية تابعة للدولة العثمانية. وقد اتخذ الحكام الحفصيون ألقابًا تماشت وتلك الأطوار التي مرت بها دولتهم.

## ألقاب الحكام الحفصيين

كان لتوجه كل دولة من دول الغرب الإسلامي مردوده على الألقاب التي اتخذها حكام هذه الدول، فاكتفي الحكام الأغالبة بلقب "حاكم" و "أمير" (٤) لتبعيتهم وولائهم للخلافة العباسية(٥). أما الدولة الرستمية فقد اتخذ حكامها لقب "الإمام"، وبمقتضى ذلك أصبح رئيس الدولة مصدرا لجميع السلطات دينية كانت أم سياسية(٦)، كذلك فقد اكتفي الأدارسة بلقب "الإمامة" لأنهم لم يؤسسوا خلافة مستقلة، وإنما دولة علوية ينتمي مؤسسها إلى البيت العلوي(٧)، وعلى الرغم من ذلك لم تكن دولة شيعية بالمعني المتعارف علية من حيث الفكر السياسي والاتجاه المذهبي، كما ظهر ذلك بشكل واضح فيما بعد في الدولة الفاطمية(٨)؛ فلما قام عبيد الله المهدي أول ملوك العبيديين بإفريقية تلقب بـ "أمير المؤمنين"(٩) لأنه كان يري أنه أحق بالخلافة من بني العباس المعاصرين له بالمشرق، فهو أول مَنْ زاحم الخليفة في هذا اللقب بعد ما كان قاصرًا في صدر الإسلام على الخليفة بالمشرق من بني أمية أو من بني العباس بعدهم.

ثم تبع المهدي على ذلك عبد الرحمن الناصر الأموي صاحب الأندلس، ورأي أن له في الخلافة حقا اقتداء بسلفه الذين كانوا خلفاء في المشرق(١٠) فأعلن الخلافة وتلقب بـ "أمير المؤمنين الناصر لدين الله"، وذلك في ذي الحجة عام (٣١٦هـ/ يناير٩٢٩م).(١١) واستمر الحال على ذلك إلى أن انقرضت عصبية العرب أجمع وذهب رسم الخلافة وتغلب الموالى من العجم على بنى العباس، والصنائع على العبيديين في القاهرة، وصنهاجة على أمراء إفريقية، وزناتة على المغرب، وملوك الطوائف بالأندلس على أمر بنى أمية، وافترق أمر الإسلام، فاختلفت مذاهب الملوك بالمغرب والمشرق في الاختصاص بالألقاب بعد أن تسموا جميعا بالسلطان.(١٢)

وأما ملوك الطوائف في الأندلس اقتسموا ألقاب الخلافة وتوزعوها، فتلقبوا بالناصر والمنصور والمعتمد والمظفر وأمثالها. وأما صنهاجة فاقتصروا على الألقاب التي كان الخلفاء العبيديون يلقبون بها للتنويه مثل: نصير الدولة ومعز الدولة، ولما تحولوا عن دعوة الفاطميين إلى دعوة العباسيين، ولما بعدت الشقة بينهم وبين الخلافة ونسوا عهدها، فنسوا هذه الألقاب واقتصروا على اسم السلطان. وكذا شأن ملوك مغراوة في المغرب لم ينتحلوا شيئًا من هذه الألقاب إلا اسم السلطان.(١٣)

أما المرابطون فقد تسموا _ولأول مرة بالشمال الإفريقي_ بلقب " أمير المسلمين " منذ أن منحه لهم الخليفة العباسي إلى نهاية دولتهم(١٤) ولم يتخذوا لقب " أمير المؤمنين"(١٥) لأنهم كانوا يرون أن هذا اللقب من حق الخليفة العباسي(١٦)، احترامًا وتأدبًا وحفاظًا على وحدة الأمة الإسلامية(١٧). ولما جاء عبد المؤمن بن على اتسم بالخليفة وتلقب "بأمير المؤمنين"، وتبعه على ذلك بنوه

من بعده[١٨]، غير أن المقصود بالخليفة هنا خليفة ابن تومرت الذي انفرد بالمهدوية كما انفرد بلقب "الإمام" بمعناه الشيعي المتميز. أما المرينيون فقد عادوا إلى استعمال لقب "أمير المسلمين" باستثناء بعض حكامهم الذين سمت نفوسهم إلى ألقاب الخلافة فتلقبوا بـ "أمير المؤمنين" وهم: أبو الربيع سليمان (٧٠٨ – ٧١٠هـ/ ١٣٠٨ – ١٣١٠م)، وأبو عنان فارس (٧٤٩ – ٧٥٩هـ/١٣٤٨ – ١٣٩٦م)، وأبو فارس عبد العزيز الثاني (٧٦٩ – ٧٩٩هـ/ ١٣٩٣ – ١٣٩٦م)، وأبو سعيد عثمان الثالث (٨٠٠ – ٨٢٣هـ/ ١٣٩٧ – ١٤٢٠م).[١٩]

أما بالنسبة للدولة الحفصية، فنجد أن أبا زكريا الحفصى مؤسس الدولة اتخذ لقب "الأمير" إلى جانب لقبه بـ "الإمام" و"المولي"، وهما لقبان من الألقاب السلطانية أيضًا[٢٠]. وفي سنة (٦٣٤هـ/ ١٢٣٦ – ١٢٣٧م) ، جدد أبو زكريا البيعة لنفسه، وذكر اسمه في الخطبة بعد ذكر الإمام مقتصرًا على لقب الأمير ولم يتلقب بأمير المؤمنين، وعرض له بعض الشعراء في ذلك بقولهم:

الأصل بالأمير المؤمنينا فأنت بها أحق العالمينا

فلما بلغه هذا أنكره وقال: ما للشعراء والدخول في هذا الفضول[٢١]وقام أبو زكريا بضرب نقوده مسجلاً عليها لقب "الأمير الأجل"[٢٢]، كما نجد هذا اللقب أيضا على بعض شواهد القبور،[٢٣] وهذا يضحد قول جورج مارسيه بأن أبو زكريا الحفصى "منح نفسه لقب أمير المؤمنين".[٢٤]

ولما تولي أبو عبد الله محمد المستنصر الحكم بعد أبيه اكتفي بلقب الأمير الذي سجله على السكة[٢٥] وذكره في المخاطبات الرسمية[٢٦] وسُمي أيضًا "السلطان".[٢٧] وبعد سقوط بغداد سنة (٦٥٧هـ/ ١٢٥٨م) أعلن أبو عبد الله المستنصر قيام الخلافة وتلقب هو ومن جاء بعده من الحكام الحفصيين بـ "أمير المؤمنين"، وحرصوا على ذكر ألقابهم في السكة والمكاتبات الرسمية، والدعاء لهم على المنابر من الحجاز شرقا إلى المغرب والأندلس غربًا.[٢٨]

ومع عنفوان الدولة وبذخها اتخذ الخلفاء ألقابًا أخرى تميز بها بعضهم عن بعض لما في أمير المؤمنين من الاشتراك بينهم[٢٩]، فاتخذ كل منهم مجموعة من الألقاب الخاصة كالألقاب الأميرية، والسلطانية، والخلافية، والجهادية... وغيرها[٣٠]، والتي ظهرت في مكاتباتهم وعلى نقودهم، مثل: المستنصر بالله، والمؤيد بنصر الله، والمنصور بفضل الله، والمتوكل على الله، والمعتمد على الله، والواثق بالله، والقائم بأمر الله، والمجاهد في سبيل الله، وغيرها.[٣١]

كذلك هناك بعض الألقاب الخاصة التي أطلقت على بعض السلاطين مثل أبو زكريا يحيي الثاني الذى أطلق عليه لقب "المخلوع" لأنه خلع نفسه وسلم الأمر لعمه أبي إسحق إبراهيم[٣٢]، كما تلقب أبو عبد الله محمد ابن الواثق بـ "أبو عصيدة" حيث أطعم الشيخ الولي أبو محمد المرجاني[٣٣] الفقراء عصيدة الحنطة يوم ميلاده[٣٤]، كذلك فقد أطلق على أبو يحيي أبو بكر لقب "الشهيد"[٣٥] حيث قتل علي يد أبي البقاء خالد[٣٦] الذي تولي الحكم بعده، كما اشتهر أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بلقب "أبو ضربة".[٣٧]

## خَاتِمَةٌ

هكذا عبرت ألقاب الحكام الحفصيين عن المراحل السياسية المختلفة التي مرت بها دولتهم منذ تأسيسها على يد أبى زكريا يحيى الأول والذي اتخذ لقب "الأمير الأجل"، وهو اللقب نفسه الذي اتخذه ابنه المستنصر قبل إعلانه الخلافة، وعلى إثر إعلان الخلافة اتخذ المستنصر لقبه الخلافي "أمير المؤمنين، المستنصر بالله، المنصور بفضل الله"، ولكن بعد اعتراف بنى مرين بخلافته اتخذ لقب "المؤيد بنصر الله" بدلاً من "المنصور بفضل الله".
كما أن الأمير أبا يحيى أبى بكر اتخذ لقب "الأمير" أثناء ولايته على مدينتي بجاية وقسنطينة، بينما اتخذ اللقب الخلافي "أمير المؤمنين" بعد سيطرته على مقاليد الأمور في الدولة الحفصية. واستمر الحكام الحفصيون في التسمي باللقب الخلافي "أمير المؤمنين"، مع اتخاذ كل سلطان منهم لمجموعة من الألقاب الخاصة نقشها على نقوده وسجلها في مكاتباته، وذلك فضلا عن بعض الألقاب التي فرضتها الظروف والأحداث على صاحبها مثل "المخلوع" و"الشهيد" و"أبو عصيدة" و"أبو ضربة". ومن الملاحظ؛ أن الحكام الحفصيين تشبهوا بالخلفاء العباسيين باتخاذهم الألقاب نفسها التي كان يتخذها العباسيون لكي يضفوا على أنفسهم نوعا من الوجاهة السياسية.

## الملاحق

جدول يوضح ألقاب الحكام الحفصيين

| | م | ١ | ٢ | ٣ | ٤ |
|---|---|---|---|---|---|
| | **اسم الحاكم** | **أبو زكريا يحيي الأول** | **أبو عبد الله محمد المستنصر** | **أبو زكريا يحيى الثاني "المخلوع"** | **أبو اسحق إبراهيم الأول** |
| **الألقاب** | ألقاب العبودية لله | العبد الفقير إلى الله | | | |
| | الألقاب الأميرية | - الأمير<br>- الأمير الأجل<br>- الأمير المؤيد | - الأمير<br>- الأمير الأجل | الأمير الأجل | الأمير الأجل |
| | ألقاب الخلافة | | أمير المؤمنين | أمير المؤمنين | |
| | ألقاب الإمامة | | - المستنصر بالله<br>-المنصور بفضل الله<br>-المؤيد بنصر الله | -الواثق بالله<br>-المؤيد بفضل الله | |
| | الألقاب الملكية | | | | |
| | الألقاب السلطانية | | السلطان | | |
| | الألقاب الجهادية | | | | المجاهد في سبيل الله |
| | ألقاب السلالة | - ابن أبى حفص<br>- ابن الشيخ أبى حفص | - ابن أبى حفص<br>- ابن الشيخ أبى حفص<br>- ابن الأمراء الراشدين | ابن الأمراء الراشدين | ابن أبى حفص |
| | الألقاب الفخرية | | | | |

| | م | ٥ | ٦ | ٧ | ٨ |
|---|---|---|---|---|---|
| | **اسم الحاكم** | **أبو حفص عمر الأول** | **أبو عصيدة** | **أبو بكر الشهيد** | **أبو البقاء خالد الأول** |
| **الألقاب** | ألقاب العبودية لله | | | | |
| | ألقاب الإمامة | - المستنصر بالله<br>-المؤيد بنصر الله | - المنصور بفضل الله<br>-المقسم بالله<br>- المستنصر بالله<br>- المؤيد بنصر الله | | - المنصور بفضل الله<br>- المتوكل |
| | الألقاب الأميرية | | | | |
| | ألقاب الخلافة | أمير المؤمنين | أمير المؤمنين | أمير المؤمنين | أمير المؤمنين |
| | الألقاب الملكية | | | | |
| | الألقاب السلطانية | | | | |
| | الألقاب الجهادية | | | | الناصر لدين الله |
| | ألقاب السلالة | | | ابن الأمراء الراشدين | ابن الأمراء الراشدين |
| | الألقاب الفخرية | | | | |

| | م | ٩ | ١٠ | ١١ | ١٢ |
|---|---|---|---|---|---|
| | **اسم الحاكم** | **أبو يحيي زكريا الأول بن اللحياني** | **أبو ضربة** | **أبو يحيى أبوبكر الثاني** | **أبو حفص عمر الثاني** |
| **الألقاب** | ألقاب العبودية لله | | | | |
| | الألقاب الأميرية | | | - الأمير الأجل | |
| | ألقاب الخلافة | - الخليفة<br>- أمير المؤمنين | | - الخليفة<br>-أمير المؤمنين | أمير المؤمنين |
| | ألقاب الإمامة | - الإمام<br>- القائم بأمر الله<br>- المنصور بفضل الله | - الإمام<br>- المستنصر | -المتوكل على الله<br>-المؤيد بنصر الله | المنصور بفضل الله |
| | الألقاب الملكية | | | | |
| | الألقاب السلطانية | | | | |
| | الألقاب الجهادية | | | | الناصر لدين الله |
| | ألقاب السلالة | ابن الأمراء الراشدين | ابن الأمراء الراشدين | ابن الأمراء الراشدين | |
| | الألقاب الفخرية | | | | |

| م | | ١٣ | ١٤ | ١٥ | ١٦ |
|---|---|---|---|---|---|
| اسم الحاكم | | أبو العباس أحمد الأول | أبو العباس أحمد الثاني الفضل | أبو إسحق إبراهيم الثاني | أبو البقاء خالد الثاني |
| الألقاب | ألقاب العبودية لله | | | | |
| | ألقاب الخلافة | | أمير المؤمنين | أمير المؤمنين | |
| | ألقاب الإمامة | المعتمد على الله | -المتوكل على الله<br>-المؤيد بنصر الله<br>- المنصور بفضل الله | -المستنصر بالله<br>- المنصور بفضل الله<br>- المتوكل علي الله<br>- المؤيد بنصر الله | |
| | الألقاب الأميرية | | | | |
| | الألقاب الملكية | | | | |
| | الألقاب السلطانية | | | | |
| | الألقاب الجهادية | | | | |
| | ألقاب السلالة | | | | |
| | الألقاب الفخرية | | | | |

| م | | ١٧ | ١٨ | ١٩ | ٢٠ |
|---|---|---|---|---|---|
| اسم الحاكم | | أبو العباس أحمد الثالث | أبو فارس عبد العزيز | أبو عبد الله محمد الرابع | أبو عمرو عثمان |
| الألقاب | ألقاب العبودية لله | | | | عبد الله |
| | الألقاب الأميرية | - مولانا<br>- المولى | مولانا | - سيدنا<br>- المولى<br>- مولانا | |
| | ألقاب الخلافة | - الخليفة<br>- أمير المؤمنين | أمير المؤمنين | - الخليفة<br>- أمير المؤمنين | - الخليفة<br>- أمير المؤمنين |
| | ألقاب الإمامة | - المتوكل على الله<br>-المؤيد بنصر الله<br>- المستنصر بالله<br>- المنصور بفضل الله | - المتوكل على الله<br>- المؤيد بنصر الله | - الإمام<br>-المنتصر بالله<br>-المستنصربالله<br>-المؤيد بنصر الله | - الإمام<br>-المتوكل على الله<br>- المؤيد بنصر الله<br>- الواثق بالله |
| | الألقاب الملكية | | حجة الملوك | الملك | |
| | الألقاب السلطانية | | صالح السلاطين | | |
| | الألقاب الجهادية | | - المجاهد في سبيل الله<br>- المجاهد في سبيل رب العالمين | - المجاهد في سبيل الله<br>- المجاهد في سبيل رب العالمين | - المجاهد في سبيل الله |
| | ألقاب السلالة | ابن الأمراء الراشدين | | ابن الأمراء الراشدين | ابن الأمراء الراشدين |
| | الألقاب الفخرية | | | | |

| م | | ٢١ | ٢٢ | ٢٣ | ٢٤ |
|---|---|---|---|---|---|
| **اسم الحاكم** | | **أبو زكريا يحيي الثالث** | **عبد المؤمن بن إبراهيم** | **أبو يحيى زكريا الثاني** | **أبو عبد الله محمد الخامس** |
| **الألقاب** | ألقاب العبودية لله | | | | |
| | الألقاب الأميرية | - سيدنا<br>- مولانا | | مولانا | - سيدنا<br>- مولانا |
| | ألقاب الخلافة | أمير المؤمنين | | - الخليفة<br>- أمير المؤمنين | أمير المؤمنين |
| | ألقاب الإمامة | | | الإمام | - المنصور<br>- المؤيد بنصر الله<br>-المتوكل على الله |
| | الألقاب الملكية | | | | |
| | الألقاب السلطانية | | | السلطان | السلطان |
| | الألقاب الجهادية | ناصر الدين | | | - ناصر الدين<br>- المجاهد في سبيل الله<br>- المجاهد في سبيل رب العالمين |
| | ألقاب السلالة | | | ابن ساداتنا وموالينا الخلفاء الراشدين | - ابن الأمراء الراشدين<br>- ابن موالينا |
| | الألقاب الفخرية | | | - ذو الدولة السعيدة<br>- المرتضى لإيالة الإسلام | |

| م | | ٢٥ | ٢٦ | ٢٧ |
|---|---|---|---|---|
| **اسم الحاكم** | | **أبوعبدالله محمد السادس الحسن** | **أبو العباس أحمد الرابع** | **أبو عبد الله محمد السابع** |
| **الألقاب** | ألقاب العبودية لله | | | |
| | الألقاب الأميرية | | | |
| | ألقاب الخلافة | أمير المؤمنين | | |
| | ألقاب الإمامة | | | |
| | الألقاب الملكية | | | |
| | الألقاب السلطانية | السلطان | | |
| | الألقاب الجهادية | | | |
| | ألقاب السلالة | | | |
| | الألقاب الفخرية | | | |

## الهَوامِشُ:

(١) سورة الحجرات، جزء من الآية رقم ١١.

(٢) راجع: سعيد بن عمر آل عمر: "**ألقاب الحكام نشأتها وتطورها ودلالاتها في منطقة الخليج العربي**"، مجلة التاريخ العربي، العدد (٥٦)، خريف ٢٠١٠م.

(٣) قتيبة الشهابي: **معجم ألقاب أرباب السلطان في الدول الإسلامية من العصر الراشدي حتى بدايات القرن العشرين**، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٥م، ص٧.

(٤) جورج مارسيه: **بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى**، ترجمة: محمد عبد الصمد هيكل، منشأة المعارف بالإسكندرية،١٩٩١م ص٦٧.

(٥) إبراهيم فرغلي: **تونس من الفتح الإسلامي حتى سقوط دولة الأغالبة**، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، 2005م، ص١٣٦.

(٦) محمد عيسى الحريري: **الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي**، دار القلم للنشر والتوزيع -الكويت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٧م، ص٢٢٣.

(٧) كان لقب "الإمام" يعنى عند الشيعة صاحب الحق الشرعي سواء كان متوليا السلطة بالفعل أو لا، أما "خليفة" فكان معناها صاحب السلطة الواقعية سواء أكان صاحب حق شرعي أو لا. أحمد شلبي: **موسوعة النظم والحضارة الإسلامية (٣) السياسة في الفكر الإسلامي**، مكتبة النهضة المصرية-القاهرة، الطبعة السابعة، ١٩٩٢م، ص٤٤؛ وتلقب الأدارسة بالأئمة ولم يتلقبوا بالخلافة لأنهم اعتبروا لقب الإمام أرفع منزلة في الدين من غيره. سعدون عباس نصر الله: **دولة الأدارسة في المغرب "العصر الذهبي"**، دار النهضة العربية للطباعة والنشر- بيروت، ١٩٨٧م، ص١١٥.

(٨) مونتغمرى وات: **في تاريخ إسبانيا الإسلامية**، ترجمة: محمد رضا المصري، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت -لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٩٨م، ص٥٧.

(٩) المقريزي: **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**، تحقيق: محمد حلمي محمد، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث، القاهرة، ١٩٧١م، جـ ١، ص ٩٤؛ سامية مصطفى مسعد: **العلاقات بين المغرب والأندلس في عصر الخلافة الأموية**، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠٠م، ص٦٤.

(١٠) السلاوي: **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954م، جـ 2، ص98؛ حسين مؤنس: **شيوخ العصر في الأندلس**، دار الرشاد، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٧ م، ص ٦٩.

(١١) الحمُيدي: **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس**، تحقيق: صلاح الدين الهوارى، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ٢٠٠٤م، ص ٢٦؛ ابن عذارى: **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، جـ ٢ ، تحقيق ومراجعة : ج .س . كولان وليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت-لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٠م، ص ١٥٧. إلا أنه أشار كل من المقري والضبي وابن سعيد ودوزى إلى أن عبد الرحمن الناصر أعلن الخلافة في عام ٣١٧ هـ. المقري: **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، ثمانية أجزاء، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر -بيروت، ١٩٨٨م، جـ ١، ص ٣٥٣؛ الضبي: **بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس**، جـ١، تحقيق: إبراهيم الإبيارى، دار الكتاب المصري -القاهرة ودار الكتاب اللبناني - بيروت، ١٩٨٩م، ص ٣٩؛ ابن سعيد: **المغرب في حلى المغرب**، تحقيق: شوقي ضيف، جـ ١، القاهرة، ١٩٩٣م، ص ١٨١؛ رينهرت دوزى: المسلمون في الأندلس، ترجمة: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، جـ ٢، ١٩٩٤ م، ص١٥. بينما ذكر لطفي عبد البديع أن إعلان الناصر للخلافة كان عام ٣١٩ هـ. لطفي عبد البديع: **الإسلام في إسبانيا**، د.م، القاهرة، ١٩٥٨م، ص٧. غير أن آدم متز ذكر أن الناصر أعلن الخلافة عام ٣٥٠ هـ. آدم متز: **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، جـ١، الطبعة الثالثة، القاهرة، ٢٠٠٣ م، ص١٥. وقد حسمت الشواهد النقدية الخلاف بين المؤرخين، فهناك دراهم مؤرخة بعام ٣١٦ هـ تحمل لقب عبد الرحمن الناصر "أمير المؤمنين"، مما يدل على إعلانه الخلافة في ذلك العام، واتخاذه أهم ألقاب الخلافة وهو أمير المؤمنين، ونقشه على سكته إعلانا عن خلافته الجديدة. عاطف منصور: **دراسات في النقود الإسلامية**، مركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامي، القاهرة، ٢٠٠١ م، ص١٤٦. عن هذه النقود انظر:

Cordera Y Zaidin: Tratado de Numismtic Arabigo – Espanola, Madrid, 1879, p.77, no.1-BNII , p. 45, no.188 ; George Miles :The Coinage of the Umayyad of Spain, vol. II, New York, 1950, p.253

(١٢) ابن خلدون: **مقدمة ابن خلدون**، جـ2، ص 615.

(١٣) المصدر نفسه، ص 616.

(١٤) ابن الخطيب: **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق: محمد عبد الله عنان، المجلد الرابع، مكتبة الخانجي بالقاهرة، 1977م، ص 350؛ ابن أبي زرع: **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار منصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م، ص137.

(١٥) إن أول مَنْ أطلق عليه لقب "أمير المؤمنين" هو عمر بن الخطاب، وقيل أن أول مَنْ دعاه به عبد الله بن جحش، وقيل عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة. السيد عبد العزيز سالم: **التاريخ السياسي والحضاري للدولة العربية**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ٢٠٠٥م، ص١٥٣.

(١٦) سعدون عباس نصر الله: **دولة المرابطين في المغرب والأندلس عهد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين**، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٥م، ص ١٦١– ١٦٢؛ فؤاد صالح السيد: **معجم الألقاب والأسماء المستعارة في التاريخ العرب والإسلامي**، دار العلم للملايين، بيروت-لبنان، ١٩٩٠م، ص ٤٣.

(١٧) يذكر ابن أبي دينار أن يوسف بن تاشفين تسمي بالفعل بلقب أمير المؤمنين فيقول: "ولم يتسم أحد من لمتونة باسم السلطان إلا يوسف بن تاشفين تسمي بأمير المؤمنين وخطب له بهذا الاسم ولبنيه من بعده". ابن أبي دينار: **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس**، مطبعة الدولة التونسية، ١٢٨٦هـ، ص96. ولكن هذا رأي ضعيف.

(١٨) السلاوي: المصدر السابق، ص99.

(١٩) محمد أبو رحاب: **العمائر الدينية والجنائزية بالمغرب في عصر الأشراف السعديين**، دار القاهرة، ٢٠٠٨م، ص٥٤.

(٢٠) صالح أبو دياك: **النظام السياسي عند الحفصيين**، بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية، مجموعة البحوث التي ألقيت في ندوة الحضارة الإسلامية في ذكرى الأستاذ الدكتور أحمد فكري (16-20 أكتوبر 1976م)، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2000م، ص221.

(٢١) القلقشندي: **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، وزارة الثقافة والإرشاد القومي-المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، أربعة عشر جزءًا في سبعة مجلدات، د.ت، جـ ٥، ص١٣٥؛ الزركشي: **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**، تحقيق: الحسين اليعقوبى وآخران، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٩٨م، ص27.

(٢٢) طاهر راغب: "**قراءة لعملات الحفصيين الأولى**"، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد الثاني والعشرون، مدريد، 1983-1984م، ح 3، ص 118؛ رأفت محمد النبراوي: **النقود الإسلامية منذ بداية القرن السادس وحتى نهاية القرن التاسع الهجري**، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص ٢٩١-٢٩٣؛

Henry Lavoix: Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliotheque National ( Espagne et Afrique), Aranaldo Forni Editore, Figs. 935-940, P. 409-411 .

(٢٣) رجاء العودى-عدونى: **نقائش جنائزية من مدينة تونس في العهد الحفصي**، المعهد الوطني للتراث، تونس، ١٩٩٧م، جـ١، ص ١٢٦.

(٢٤) جورج مارسيه: المرجع السابق، ص319.

(٢٥) سجل أبو عبد الله محمد المستنصر على نقوده الأولي لقب "الأمير الأجل" وذلك قبل إعلانه الخلافة.

Furrugia de Candia: Monnaies Hafsites du Musée du Bardo, Revue Tunisienne (Tunise) N.S, 1938, p. 243; Lavoix: op.cit., fig. 941, p. 412 ,fig. 943, p. 413 .

(٢٦) انظر: نماذج من المكاتبات الرسمية لأبو عبد الله محمد قبل إعلان الخلافة. صالح أبو دياك: المرجع السابق، ص 224.

(٢٧) روبار برنشفيك: **تاريخ إفريقية في العصر الحفصي**، ترجمة: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، 1988م، جا، ص69.

(٢٨) ابن الشماع: **الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية**، تحقيق: الطاهر المعموري، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٤م، ص 67؛ ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص 128؛ الزركشي: المصدر السابق، ص 33.

(٢٩) ابن خلدون: **المقدمة**، جـ2، ص 614.

(٣٠) رجاء العودى-عدونى: "**تطور ألقاب ملوك بنى حفص من خلال الوثائق الأثرية**"، مجلة إفريقية، (١٩)، المعهد الوطني للتراث، تونس، ٢٠٠٢م، ص ٩٨-١٠٧.

(٣١) عن كل سلطان وألقابه راجع الجدول الملحق.

(٣٢) ابن خلدون: **تاريخ ابن خلدون**، ص 435؛ القلقشندي: المصدر السابق، ص ١٢٨؛ ابن الشماع: المصدر السابق، ص 75؛ ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص 130؛ الزركشي: المصدر السابق، ص42؛ ابن القنفذ: **الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية**، تحقيق: محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، ١٩٦٨م، ص١٣٧.

(٣٣) هو "الشيخ الفقيه الصالح العارف المتكلم أبو محمد عبد الله المرجانى، وكان أحد الأعلام، وبقية السلف الصالح ورأس العارفين في زمانه، جمع الفقه والورع والزهد في الدنيا والإيثار بها وصفاء الصدر وقول الصدق، وكان يتكلم في مجلسه على قلوب الناس، ويتحدث مع كل شخص بما في صورة ضميره، وله في ذلك أمور عجيبة في المشرق وإفريقية، وقد توفى-رحمه الله-في عام ٦٩٩ هـ/١٣٠٠ م". ابن القنفذ: المصدر السابق، ص١٥٣.

(٣٤) ابن خلدون: المصدر السابق، ص 456؛ القلقشندي: المصدر السابق، ص١٢٩؛ ابن الشماع: المصدر السابق، ص 83؛ ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص 133؛ الزركشي: المصدر السابق، ص 53.

(٣٥) القلقشندي: المصدر السابق، ص١٢٩.

(٣٦) ابن خلدون: المصدر السابق، ص470؛ ابن الشماع: المصدر السابق، ص84؛ ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص 133؛ الزركشي: المصدر السابق، ص59.

(٣٧) العروسي: **السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي**، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، 1986م، ص327؛ قتيبة الشهابى: **معجم ألقاب أرباب السلطان في الدول الإسلامية من العصر الراشدي حتى بدايات القرن العشرين**، منشورات وزارة الثقافة-دمشق، ١٩٩٥م، ص١٠٢.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].



# أبو إسحاق إبراهيم الساحلي الأديب والمهندس المعماري وأثره في نشر فن العمارة الإسلامية في السودان الغربي

**د. خالدي مسعود**
أستاذ محاضر التاريخ الإسلامي الوسيط
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة ٨ ماي ١٩٤٥ – الجمهورية الجزائرية

## مُلَخّصْ

من أشهر علماء الأندلس والمغرب الذين ساهموا في تطور فن العمارة الإسلامية في بلاد السودان الغربي الشاعر والمهندس المعماري الأندلسي المشهور أبو اسحاق إبراهيم الساحلي الغرناطي المعروف بالطويجن، التقى به سلطان مملكة مالي منسى موسى في مكة المكرمة أثناء تأديته لحجته سنة (٧٢٤هـ/١٣٢٤م)، فدعاه لمرافقته إلى مملكته في بلاده السودان الغربي، فبقي بها حوالي عشرين سنة إلى أن توفي سنة ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م. أثناء إقامته أثر في تطور فن العمارة بها. فقد أشرف على بناء عمارة مساجد مدينتي "جاو" و"تنبكت" وأدخل البناء بالطوب المحروق، وبنى قاعة الاجتماعات في قصر منسى موسى بالحجر والجبس وزخرفها بالخشب المطعم بالذهب والفضة، وأدخل نظام السقوف المسطحة للمنازل والمآذن الهرمية الشكل بالمساجد. فقد كانت المباني في مملكة مالي قبل مجيئه تبنى بالطين ومادة تسمى – الباليستا – حسب ما أورده كل من العمري والقلقشندي في كتبهما.

**بيانات المقال:**
تاريخ استلام المقال: ٢٧ مارس ٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر: ٠٤ يوليو ٢٠١٥

**كلمات مفتاحية:**
تاريخ إفريقيا, العمارة الإسلامية, السودان الغربي, مملكة مالي, علماء الأندلس

**معرِّف الوثيقة الرقمي:** DOI 10.12816/0045097

**الاستشهاد المرجعي بالمقال:**
خالدي مسعود. "أبو إسحاق إبراهيم الساحلي الأديب والمهندس المعماري وأثره في نشر فن العمارة الإسلامية في السودان الغربي".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد السابع والثلاثون؛ سبتمبر ٢٠١٧. ص١٣٣ – ١٣٧.

## مُقَدِّمَةُ

من أشهر العلماء الذين ساهموا في تطوير العمارة الإسلامية في بلاد السودان الغربي الشاعر والمهندس المعماري الأندلسي المشهور أبو اسحاق إبراهيم الساحلي الغرناطي المعروف بالطويجن، ألتقى به سلطان مملكة مالي منسى موسى في مكة المكرمة أثناء تأديته لحجته سنة (٧٢٤هـ/١٣٢٤م)، فدعاه لمرافقته إلى السودان الغربي، فبقي أبو إسحاق الساحلي بها حوالي عشرين سنة إلى أن توفي سنة (٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م). أثناء إقامته أثر في تطور فن العمارة في مملكة مالي، فهو الذي أشرف على عمارة ومساجد مدينتي جاو وتنبكت وأدخل البناء بالطوب المحروق، وبنى قاعة الاجتماعات بقصر منسى موسى ومباني بالحجر والجبس وزخرفها بالخشب المطعم بالذهب والفضة، وأدخل نظام السقوف المسطحة للمنازل والمآذن الهرمية الشكل. فقد كانت المباني في مملكة مالي قبل مجيئه تبنى بالطين ومادة تسمى – الباليستا – كما ورد عند العمري والقلقشندي.

كيف كانت نشأته؟ وما هي البيئة العلمية التي ترعرع بها؟ هل للحياة الثقافية في الأندلس بغرناطة لها أثر على تحصيله العلمي في جوانب مختلفة من الفنون؟ ما هي علاقته بسلطان مالي منسى موسى؟ وما هي منجزاته العمرانية في مدن السودان الغربي؟ هل كان لها أثر في نشر الفن المعماري الإسلامي الأندلسي والمغربي في المنطقة؟

إن المعلومات عن الأديب والمهندس المعماري أبو اسحق الساحلي مستمدة من مؤلفات المؤرخين المعاصرين له، حيث نقلت لنا نبذة عن حياته ونشاطاته الأدبية وفي فن العمارة وهم: لسان الدين ابن الخطيب، والرحالة ابن بطوطة، وابن فضل الله العمري، وعبد الرحمن بن خلدون. كما وردت معلومات عنه في كتاب نفح الطيب للمقري، والدرر الكامنة للعسقلاني، وفي بعض مؤلفات سودانية منها تاريخ السودان للسعدي، والفتاش لمحمد كعت

التنبكتي. وأشارت بعض الدراسات الحديثة لأعمال الساحلي العمرانية أشهرها للمستشرق مونتاي فانسان في كتابه إمبراطورية مالي.

## أولاً: نشأته وسيرته العلمية والأدبية والسياسية

أبو إسحاق إبراهيم الساحلي (المعروف بالطويجن) أديب ومهندس معماري من مدينة غرناطة خرج من بلاده في أوائل القرن (الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي) إلى المغرب، ثم جاب بلاد المشرق في طرقه لتأدية فريضة الحج، وفي مكة المكرمة ألتقى بسلطان مالي منسى موسى عند حجه المشهور في سنة (٧٢٤هـ/١٣٢٤م)، فدعاه السلطان لمرافقته إلى مملكته بالسودان الغربي حيث طاب لأبي اسحاق المقام، فبقي في مالي نيفا وعشرين عاما إلى أن وافته المنية في تنبكت سنة (٧٤٧هـ/١٣٤٦م).[١] وأبو إسحاق إبراهيم الساحلي من غرناطة ومن بيت ثروة وصلاح وأمانة، كان أبوه أمين العطارين بغرناطة وكان مع أمانته من اهل العلم فقيها متفننا وله الباع المديد في الفرائض وجاء في الإحاطة لابن الخطيب أن أبا اسحاق "رحل بعد أن اشتهر فضله... فشرَّق وجال في البلاد، ثم دخل بلاد السودان، فاتصل بملكها منسى موسى واستوطنها زمنًا طويلاً، بالغًا فيها أقصى مبالغ المِكْنة والحظوة والشهرة والجلالة، واقتنى مالاً كثيرًا، ثم ذهبَ إلى المغرب، وحوَّم على وطنه، فصرفه القدر إلى مستقره من بلاد السودان".[٢] ويبدو من كلام ابن الخطيب أن أبا اسحاق كان مغرَّبًا أو مُبعدًا عن غرناطة، محظورًا عليه العودة إليها. ويورد ابن الخطيب في "الاحاطة" أنموذجًا من نثر أبي اسحاق خاطبَ به أهل غرناطة، وقد وصل إلى مراكش من مملكة مالي، يُبدي فيه حنينه إلى مسقط رأسه ووطنه وأصحابه، ويُستشفّ منه ان خروجه من غرناطة لم يكن باختياره.[٣]

كان أبو اسحاق -كما يقول ابن الخطيب-نسيج وحده في الآداب، نظمًا ونثرًا، لا يُشقّ فيها غُباره، إلى خط بديع[٤]. ولم ينقطع أبو اسحاق -وهو في مملكة مالي -عن مخاطبة أصدقاء صباه في غرناطة، ويورد ابن الأحمر في كتاب "نثير الجُمان" اثنتين وستين بيتًا من قصيدة بليغة بعث بها الساحلي من أرض السودان إلى صديق صباه في غرناطة الفقيه الكاتب القاضي أبي القاسم بن أبي العافية[٥]، يسترجع فيها ذكرياته الجميلة في موطن مولده. كان أبو إسحاق الساحلي على صلة بالسلطان المريني أبو الحسن قبل مرافقته لمنسى موسى من الحجاز إلى مالي، كما كان يتردد على المغرب من مملكة مالي للتجارة. وأثناء إقامته أستقبله أبو الحسن فرفع أبو إسحاق إليه قصيدة يحثه فيها على أخذ تلمسان من يد صاحبها أبي تاشفين بن عبد الواد[٦]. يقول ابن خلدون[٧] أنه كان بين هذا السلطان منسى موسى وبين ملك المغرب لعهده من بني مرين السلطان ابي الحسن مواصلةٌ ومهاداةٌ شارك فيها الاعلام من رجال الدولتين... ويُشير ابن مرزوق التلمساني[٨] إلى مهاداة السلطان أبي الحسن سلاطين غرناطة وأفريقيا تونس ومصر "ومنها هدايا لسلطان السودان"، كما يذكر المبالغ السخية التي انعم بها السلطان أبو الحسن على سبيل البر والإحسان والهدية، ويُضيف قائلاً: "وأما هديته لسلطان السودان، وهو سليمان بن موسى، سلطان مالي، سمعت غير واحد من اصحابنا يقول: أنها تزيد في الذخائر على هذه".

ولما كان سلطان مالي قد عمل بعد عودته إلى بلاده من الحج على تعزيز صلات بلاده السياسية والثقافية والتجارية بمصر وبلدان المغرب، فإن دور ابن إسحاق الساحلي بحكم حظوته لدى سلطان مالي وصلته الخاصة بسلطان المغرب، كان له من دون شك دورًا إيجابيًا وفعالاً في تعزيز الصلات السياسية والثقافية وتوطيدها بين مالي والمغرب خلال القرن (الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي). وأثناء تواجد الساحلي في مملكة مالي أشرف على إنجاز عدة منشآت دينية ومدنية بها مستفرغا مهارته الفنية ومبينًا مؤلهاته العلمية في مجال الفن المعماري، فكان له الفضل الكبير في نشر العمارة الإسلامية خاصةً منها الأندلسية في السودان الغربي.

## ثانيًا: المنجزات العمرانية لأبي إسحاق إبراهيم الساحلي في مملكة مالي

**١/٢- بناء مسجد جاو:**

أشتهر السلطان منسى موسى بكثرة بناء المساجد، فمن عادته كما يقول السعدي أنه كان يبني مسجدا في كل مدينة تدركه صلاة الجمعة بها.[٩] ومن المساجد التي أقامها مسجد مدينة جاو على إثر عودته من الحج سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٤م وقد أشرف على بنائه أبو إسحاق إبراهيم الساحلي الشاعر الأندلسي والمهندس المعماري وكان السلطان موسى قد تعرف عليه في مكة خلال حجته المشهورة.[١٠]

بنى الساحلي جامع جاو من الطوب المحروق، ولم يكن هذا معروفا من قبل في السودان وجعل مئذنته هرمية الشكل وهذا أول بناء من هذا الطراز يدخل بلاد السودان، وسرعان ما أنتشر في جميع السودان الغربي، وقد عمر مسجد جاو نحو ثلاثة قرون بعد ذلك ولا تزال أطلاله باقية إلى اليوم.[١١] وكانت مدينة جني مركزًا للثقافة الإسلامية في السودان الغربي، حيث زخرت بالعلم والعلماء، وأنتقل منها العلماء إلى بلاد المغرب، وإلى تنبكت، كما ورد إليها الكثيرون منهم، ويؤكد السعدي ذلك بقوله: "وقد ساق الله تعالى المدينة المباركة سكانا من العلماء والصالحين من غير أهله من قبائل شتى منهم مورمغ كنكي – ورحل إلى كابر لأخذ العلم ثم من رحل إلى جني في أواسط القرن التاسع، كان فقيها عالما جليل القدر فأسرع إليه الطلبة لاقتباس فوائده، وفي نصف ليل يخرج من داره إلى جامع لنشر العلم فيجلس الطلبة حوله يأخذون

العلم إلى الإقامة لصلاة الصبح."[١٢] من خلال هذا النص تلاحظ أن الدراسة في مدينة جني كانت تتم في المسجد وتتم حتى في ظلام الليل ورغم ذلك يقبل الطلاب لتلقي العلم.

**٢/٢- الجا مع الكبير بتنبكت:**

يطلق على هذا الجامع بجيكري بيري، أي "المسجد الكبير"، شيده السلطان منسى موسى، بعد رجوعه من الحج، وقد بناه أبو إسحاق الساحلي وعبد الله الكومي الموحدي الغدامسي على الطراز المغربي الأندلسي الإسلامي، وبنى صومعته على خمسة صفوف، كان ذلك في أوائل القرن (الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي).[١٣] وقد ألحقت به من جهة اليمين قبورهم وهي عادة عند أهالي إفريقيا وراء الصحراء فهم يدفنون موتاهم في رحاب مساجدهم. ولهذا المسجد موقع ممتاز يتوسط مدينة تنبكت. وأجريت على هذا المسجد عدة توسيعات كان أولها سنة (٩٧٧هـ/١٥٦٩م) على يد العاقب بن القاضي محمود بقصد استيعاب أكثر عدد ممكن من المصلين، وساهم في توسيعه فيما بعد سلطان مملكة سنغاي الإسقيا داوود.[١٤] وللجامع الكبير وقع خاص في نفوس أبناء تنبكت وهالة روحية فهم يعتبرون أن عمارة تنبكت وازدهارها مقرونة بعمارة صومعة الجامع الكبير والتي أعطته هالة من القداسة الروحية.[١٥] وتعاقبت على هذا المسجد عدد كبير من الأئمة في عهد مملكتي مالي وسنغاي، ساهموا في الحياة الثقافية والدينية للمنطقة.

**٣/٢- مسجد سنكرى:**

هو المسجد الجديد في مدينة تنبكت والمعروف باسم "سنكرى" ومعناه عند أهل السودان المسجد الكبير، ويقول عنه السعدي أن هذا المسجد بنته سيدة تعرف باسم سنكرى وهي سيدة ثرية، لكن ليس معروفا تاريخ هذا البناء الأول.[١٦] بني على الطراز المغربي، وكان صغيرًا في بدايته ثم تطور. وفي عهد منسى موسى أقتصر هذا الأخير على بناء مئذنته وأشرف على بنائها أبو إسحاق إبراهيم الساحلي وكان شكلها يشبه الطراز المعماري المغربي والأندلسي، وجعل القبور ملاصقة له من جهتي اليمين والمغرب يقول السعدي: "وتلك عمارة السودان أهل المغرب لا يدفنون موتاهم إلا في رحاب مساجدهم وجوانبها".[١٧] جدد هذا المسجد فيما بعد وأضيفت ساحة القبور له. وكان جامع سنكرى من أشهر المراكز الثقافية في مدينة تنبكت، تعلم به العديد من العلماء والفقهاء، وألفت به العديد من المؤلفات يشبه من وجوه كثيرة، الجامع الأزهر، في تراثه ومكانته العلمية.[١٨] ولقد برزت طائفة من العلماء بلغت درجة الإمامة، وأشار إليهم السعدي في كتابه تاريخ السودان منهم الحاج جد عبد الرحمن بن أبي بكر الذي تولى القضاء في آخر دولة مالي، ثم عمر الساكن تنديغ الذي تولى القضاء في عهد الإسقيا محمد وأبو عمر بن محمد أقيت ال>ي ترك أكثر من سبعمائة مجلد في مكتبته، ومخلوف بن علي بن صالح.[١٩]

**٤/٢- قصر السلطان منسى موسى:**

بالإضافة للنهضة المعمارية في المساجد والجوامع ودور العلم، فقد شيدت القصور الفخمة لأثرياء القوم والأمراء وتبارى الجميع تزيين هذه القصور بالذهب والفضة، وقد تبارى المهندسون في إخراج هذا التراث في أبهى صورة لتكون مرآة تعكس هذه الحضارة الإسلامية التي اشتهرت بها تنبكت ومدن السودان الغربي عامة.[٢٠] ومن أشهر تلك القصور القصر هو قصر (مع دل) بمعنى دار السلطان[٢١]. تولى الساحلي بناءه بمدينة تنبكت من الحجر والجبس وزخرفه بالخشب المطعم بالذهب والفضة فجاءت تحفة رائعة.[٢٢] ونقل ابن خلدون عن واحد ممَنْ أستصحبهم منسى موسى من الحجاز، قال: "قال أبو خديجة، ورجعنا معه (أي مع منسى موسى) إلى حضرة ملكه، فأراد أن يتخذ بيتًا في قاعدة سلطانه محكم البناء مجللاً بالكلس لغرابته بأرضهم، فأطرفه أبو إسحاق الطويجن ببناء قبة مربعة الشكل، أستفرغ في إجادته، وكان صناع اليدين، وأضفى عليها من الكلس، وولى عليها بالأصباغ المشبعة المنمقة، فجاءت من أتقن المباني، ووقعت من السلطان موقع الاستغراب لفقدان صنعة البناء بأرضهم ووصله باثني عشر من مثاقيل البتر مثوبة عليها، إلى ما كان له من الأثرة والميل إليه والصلات السنية."[٢٣]

## ثالثًا: أثر أبو إسحاق إبراهيم الساحلي على تطور الفن المعماري في السودان الغربي

كان للمهندس أبو إسحاق إبراهيم الساحلي أثر كبير بتطور العمارة في السودان الغربي، ذلك أنه أستخدم الطوب المحروق وأدخل المآذن الهرمية الشكل في المساجد، وأستحدث السقوف المسطحة للمنازل وكانت المباني قبل ذلك تبنى "بالباليستا"[٢٤] وسقوفها قباب أو جمالونات كالأقباء.[٢٥] وأستمر تأثير الساحلي في الفن المعماري حتى عهد الإسيقيين، حيث بني قصر في عهدهم وصفه كل من شاهده بالروعة والعظمة وقد حلى بالذهب والصور والزخارف التي جعلته يشبه التحف البديعة التي أظهرت الفن والعمارة الأندلسية والتي تمثلت في المساجد والقصور في مدينة تنبكت.[٢٦]

يذكر الرحالة الفرنسي فيليكس ديبوا في كتابه تنبكت العجيبة[٢٧] لما زار مدينة تنبكت ورغم أنه وجدها مخربة وبالية: "أن أهم ما لفت نظره في مساكن هذه المدينة لها دورتان وأهم من هذا كله ضخامة الأبواب المزدانة بمسامير كبيرة، وهذا في حد ذاته يوحي لما وصلوا إليه من ذوق رفيع في صناعة الأبواب". وأسهب ديبوا في شرح مشاهداته في تنبكت فيصف الشوارع الفسيحة ومنازل التجار ومنازل العامة، وقد شاهد منزلاً غاية من الروعة المعمارية وتساءل ديبوا هل هذا لأحد الأمراء فكانت شدة عجبه أنه للشيخ البكائي (زعيم الطريقة البكائية) إحدى الطرق

الوفية هناك. وبفضل أعمال الساحلي أنتشر الفن المعماري المغربي والأندلسي في بلاد السودان الغربي خاصةً بمدينة تنبكت. فقد انتظمت الشوارع وأخذت المباني شكلها المغربي الأندلسي حتى غدت تشابه المغرب ومدنه في بناياتها وقصورها وثقافتها. وصف الرحالة الإنجليزي "بارث"[٢٨] أثناء رحلته للمنطقة خلال القرن التاسع عشر بأن مدن السنغي (نسبة لمملكة سنغاي) تفوق مصر تمدنا وأستمد هذا الوصف من السعدي والذي ذكر أنها ازدهرت بالأبنية الفخمة والبيوت المتعددة الطوابق وأصبح لها سوقها المنتظم وأصبح لها سوقها المنتظم وأصبح لكل من التجار والصناع حي خاص بهم...ولكل تباع سوقه اليومي بالإضافة إلى سوق المدينة الأسبوعي.

ن منجزات الساحلي وأعماله العمرانية كان لها تأثير في سمة الأذواق. وتعتبر أنماط اللباس والعمران والتعليم والسلوك وبذلك لم يقل عمله عن عمل زرياب وتأثره. فقد أشار السعدي في تاريخه إلى شيء من هذا التأثير المغربي في العمارة والعمران بالسودان وتنبكت على الخصوص بالمفهوم الواسع لكلمة (عمران) الذي يشمل الحضارة والثقافة فقال: "كانت تنبكت خراب بير ولم تأتيها العمارة إلا من المغرب، لا في الديانات ولا في المعاملات".

## خَاتِمَةٌ

نستنتج من خلال ما ذكر؛ أن المهندس المعماري الأندلسي أبو إسحاق إبراهيم الساحلي المعروف بالطويجن فضل كبير في إدخال الفن المعماري والهندسة العربية الإسلامية المغربية والأندلسية والبناء الحديث إلى بلاد السودان الغربي. فقد كان للمساجد والجوامع التي شيدها في عهد السلطان منسى موسى بمملكة مالي دورا في الازدهار الثقافي والعلمي في مدن تنبكت وجني وجاو. فقد بنى الساحلي هذه المنشآت الدينية بطريقة حديثة أبتكرها لأول مرة عند دخوله بلاد السودان غير تلك التي كانت سائدة وهي تعتمد على الفن المغربي والأندلسي الذي تميز بالقبة المرتفعة المربعة المزخرفة. وبعد ذلك أخذت عمارة المساجد والجوامع تتطور وتزدهر نتيجة للتأثيرات التي ساهم في إدخالها المهندس أبو إسحاق إبراهيم الطويجن.

وقد أصبحت مدينة تنبكت الحاضرة الثقافية للسودان الغربي وصارت مركزًا من أعظم المراكز الإسلامية في غرب إفريقيا بسبب الثورة التي أحدثها المهندس المعماري أبو إسحاق حيث برع في هندسة دور العبادة وتلوينها وتصميمها وتجهيزها لإقامة شعائر الصلاة. رغم أن الساحلي أشتهر كشاعر وأديب في الأندلس والمغرب كما تدل على ذلك المصادر، إلا أنه كان معروفًا بثقافته في مجال العمارة، وقد يكون هذا السبب الرئيس الذي جعل السلطان "منسى موسى" يصطحبه معه إلى بلاده لإحداث ثروة عمرانية. فقد كلفه ببناء أكبر المسجد في المدن المشهورة مثل جاو وتنبكت. فكانت رائعة البناء وأدخلت أنماط جديدة في مجال العمارة منها استعمال البناء بالطوب المحروق والحجر والجبس، والمآذن الهرمية.

لقد كان للساحلي أثر كبير في تغيير نمط المعيشة للسكان مثل ما فعل زرياب في الأندلس، فبناء القصور الضخمة منها قصر السلطان "منسى موسى" في عاصمة مملكته وزخرفتها بالخشب المطعم بالذهب والفضة يدل على الذوق الرفيع الذي وصل له سكان السودان الغربي، ومستوى المعيشة الجيد بحيث كان لا يختلف عن غيره من البلاد الإسلامية في ذلك الوقت. وقد أثر الفن المعماري الذي أتى به الساحلي على العمارة بشكل، فقد أصبحت مدن السودان تتميز بالمنازل ذات السقوف المسطحة، والشوارع الواسعة والمنظمة.

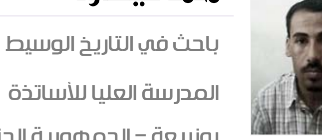
## الهَوامِشُ:

(١) المقري: **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب**، بيروت، ١٩٦٨، ج٢، ص١٩٤.
(٢) ابن الخطيب، لسان الدين: **الاحاطة في أخبار غرناطة**، القاهرة ١٩٧٣، ١/ص٣٢٩.
(٣) أمين توفيق الطيبي: **أبو إسحاق الساحلي أديب ومهندس معماري أندلسي في مملكة مالي**، جريدة الحياة الدولية، العدد ١٢٧٩١، نشر في: ١٩٩٨/٠٣/١١، ص٢١.
(٤) ابن الخطيب: المصدر السابق، ص٣٣١.
(٥) ابن الأحمر إسماعيل: **نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان**، بيروت، ١٩٧٦، ص٢٠٦،٢٠٥.
(٦) ابن الخطيب لسان الدين: المصدر السابق، ج١، ص٣٢٩.
(٧) ابن خلدون عبد الرحمن: **العبر وديوان المبتدأ والخبر**، بيروت، ١٩٥٩، ج٦، ص٤١٦.
(٨) أبو مرزوق التلمساني: **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، الجزائر، ١٩٨١، ص٤٥٤،٤٥٢.
(٩) عبد الرحمن السعدي: **تاريخ السودان**، طبع هوداس، باريس، ص٧.
(١٠) ابن خلدون: المصدر السابق، ج٦، ص٢٠٠.
(١١) إبراهيم هلي طرخان: **دولة مالي الإسلامية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣ ص١٤٨.
(١٢) السعدي: المصدر السابق، ص١٣.
(١٣) السعدي: المصدر السابق، ص٥٤.
(١٤) الهادي مبروك الدالي: **التاريخ الحضاري لإفريقيا فيما وراء الصحراء**، طرابلس، ٢٠٠١، ص١٥٣.
(١٥) الهادي مبروك الدالي: **التاريخ الحضاري**، ص١٥٣.
(١٦) السعدي: المصدر السابق، ص٦٢،٦٣.
(١٧) نفسه، ص٢٨، ٥٧.
(١٨) حسن أحمد محمود: **الإسلام والثقافة العربية في إفريقية**، ج١، ص٢٧٠.
(١٩) السعدي: المصدر السابق، ص٣٩،٣٧،٣٤.
(٢٠) حسن الوزان: **وصف إفريقيا**، دار الغرب الإسلامي، ج٢، ص٤٥.
(٢١) السعدي: المصدر السابق، ص٢٧،٨، ٩.
(٢٢) ابن بطوطة: **رحلة ابن بطوطة**، دار بيروت للطباعة وللنشر، ١٩٨٠ ص٤٥.
(٢٣) ابن خلدون: المصدر السابق، ج٦، ص٤١٦.
(٢٤) **الباليستا**: هي أن يبنى بالطين بقدر ثلثي أذرع ينرك حتى يجف ثم يبنى عليه مثله وهكذا ينتهي. (العمري: **مسالك الأبصار**، ج٢، ص٤٩٥).
(٢٥) القلقشندي: **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، ج٥، ص٢٨٣، إبراهيم علي طرخان: **دولة مالي الإسلامية**، ص١٠٥، ١٠٦.
(٢٦) حسن الوزان: المصدر السابق، ج٢، ص٤٥.
(٢٧) فيليكس ديبوا: **تنبكت العجيبة**، ترجمة عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣، ص١٧٢
(28) HENRI BARTH voyage et de couverte dans l’afrique septentrional,- paris, 1963. P.285.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].



# الدور العسكري للمغاربة في الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي خلال العهدين الفاطمي والزنكي (٣٦٢هـ - ٩٧٣م/ ٥٦٩ – ١١٧١م)



**محمد عيساوة**
باحث في التاريخ الوسيط
المدرسة العليا للأساتذة
بوزريعة – الجمهورية الجزائرية

## مُلَخّصْ
كان العالم الإسلامي خلال الحروب الصليبية يعيش ظروفًا سياسية صعبة كرست الانقسام الحاصل والفرقة التي كانت واضحة لكل ذي عين، وعلى الرغم من الظروف السيئة التي أحاطت بالعالم الإسلامي نتيجة مباشرة للبعد عن الأخذ الكامل بمنهج الإسلام في الحياة – فإن الدول الإسلامية -بما بقي فيها من اعتزاز بمنهج دينها لم تستسلم لهذا الغزو الصليبي طالما فيها بقية على القدرة في المقاومة. هذا ما أدى إلى إعلان حالة النفير في العالم الإسلامي للتصدي لهذه الحملات الصليبية المنظمة. يا ترى ما هو رد فعل دول العالم الإسلامي إزاء هذه الحملات الصليبية؟ وهل كان للجالية المغربية التي استقرت بمختلف الحواضر المشرقية دور في ذلك؟ يهدف هذا المقال إلى إبراز المشاركة العسكرية الفعّالة للمغاربة في الحروب الصليبية بالمشرق الإسلامي خلال العهدين الفاطمي والزنكي، حيث وقف المغاربة صفًا واحدًا إلى جانب إخوانهم المشارقة ضد الصليبيين، ولم يكن هذا غريبًا في شيء، لاسيما إذا تذكرنا أن بلاد المغرب والأندلس كانت تعيش نفس الظروف في صراعها مع النصارى المسيحيين في الجزء الغربي من العالم الإسلامي، هذه المشاركة من طرف المغاربة نالوا بها كل الحفاوة والتكريم من طرف السلاطين الزنكيين لما يقومون به من تضحيات كبيرة وسخية في مختلف الحقول والميادين خاصةً الميادين العسكرية.

**بيانات المقال:**

| | | | |
|---|---|---|---|
| تاريخ استلام المقال: | ٣١ | مايو | ٢٠١٥ |
| تاريخ قبـول النشـر: | ١٦ | سبتمبر | ٢٠١٥ |

**كلمات مفتاحية:**
تاريخ العصور الوسطى، الحركة الصليبية، المشرق الإسلامي، الدولة الفاطمية، الدولة الزنكية

**معرّف الوثيقة الرقمي:** DOI 10.12816/0045093

**الاستشهاد المرجعي بالمقال:**
محمد عيساوة. "الدور العسكري للمغاربة في الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي خلال العهدين الفاطمي والزنكي (٣٦٢هـ - ٩٧٣م/ ٥٦٩ – ١١٧١م)".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد السابع والثلاثون؛ سبتمبر ٢٠١٧. ص ١٣٨ – ١٤٢.

## مُقَدِّمَةُ

إن الأمة العربية الإسلامية اليوم تتعرض لكثير من الأحقاد والضغائن التي تدعو إلى ضرورة فصل بلاد المغرب الإسلامي عن مشرقه لاعتبارات سياسية وإثنية، وذلك بإثارة الفتن وتشويه التاريخ بمختلف الطرق والوسائل لا سيما تلك الدراسات الاستشراقية التي حاول روادها جاهدين للترويج إلى ذلك، مدّعين بذلك بأن الدول التي حكمت بلاد المغرب والأندلس في العصر الوسيط أرادت الانفصال عن مركز الخلافة بالمشرق الإسلامي، وتأسيس كيانات سياسية قائمة بذاتها خاصة ببلاد المغرب. لكن الحقيقة التاريخية تثبت عكس هذا الطرح، إذ أن حكام وشعوب المنطقتين عملوا جاهدين من أجل التواصل والالتقاء في شتى المجالات.

هذه الرغبة في التواصل كانت عبارة عن عاطفة تسري في نفس كل مغربي ومشرقي، ولدت مباشرة بعد عملية الفتح الأولى التي قادها أبناء المشرق نحو بلاد المغرب، والتي ساهمت في إدماج سكانه ضمن المنظومة العربية. وبالمقابل كانت الحروب الصليبية التي شنها الغرب المسيحي نهاية القرن الخامس هجري، الحادي عشر ميلادي على العالم الإسلامي، والتي شهد المشرق أحد أدوارها، ترجمة حقيقية لتواصل الغرب الإسلامي مع المشرق، حيث ساهم المغاربة مساهمة فعالة في الذود عن حياض الإسلام والمسلمين في المشرق. ومن منطلق الدور الريادي الذي لعبه

المغاربة في هذه الحروب أردنا إماطة اللثام عن هذا الموضوع المتمثل في الحديث عن مدى مساهمة أبناء المغرب إلى جانب إخوانهم المشارقة في التصدي لهذه الحملات الصليبية الشرسة خلال العهدين الفاطمي والزنكي، وكذا دحض الرؤى الاستشراقية الرامية إلى فصل بلاد المغرب عن مشرقه.

## أولاً: العهد الفاطمي

## (٣٦٢- ٥٦٧هـ/ ٩٧٣- ١١٧١م)

عاصرت الحملة الصليبية الأولى[١]، وجود الفاطميين ببلاد المشرق، ومن المعلوم أن المجتمع الفاطمي قد ضم في ثناياه قوة مغاربية كان عمادها قبيلة كتامة، والملاحظ أن هؤلاء المغاربة قد لعبوا دورًا كبيرًا في التصدي للصليبيين. والواقع أن اشتراك المغاربة في الحروب الصليبية في المشرق ليس غريبًا في شيء، لاسيما إذا تذكرنا أن بلاد المغرب والأندلس كانت تعيش نفس الظروف في صراعها مع النصارى المسحيين في الجزء الغربي من العالم الإسلامي.[٢]

استمد الفاطميون قوتهم الحربية من عنصرين أساسين منهما العنصر المغربي والعنصر المشرقي، فالمغاربة هم من البربر وكان من أهم قبائل البربر التي أمدت الجيش برجالها فروع الكتامية والباطلية، والمصامدة والجوذرية "نسبة إلى قائدهم جوذر" وزويلة التي جاءت مع جوهر من المغرب[٣]، ويؤكد ناصر خسرو على أن الجيش الفاطمي كان عماد قوته الكتاميين إذ يقول: "كان في الجيش الذي يخرج للقتال فرقة تسمى فرقة الكتاميين، هم من القيروان أتوا في خدمة لدين الله، وقيل أنهم عشرون ألف فارس".[٤] ونود أن نشير إلى أن المغاربة قبل أن يشتركوا في الحروب الصليبية المنظمة قد ورد ذكرهم في المصادر التاريخية حيث يورد المقريزي دورهم في التصدي للحملة البيزنطية التي قادها تزيمسكيس المعروف في المصادر العربية بابن الشمشقيق في أواخر سنة ٣٦٤هـ وأوائل سنة (٣٦٥هـ/ ٩٧٦م)، والذي قام بحملة برية ضخمة مستهدفة المدن الداخلية في الشام، والتي كانت تحت حكم الفاطميين (حمص وبعلبك) ثم تحولت إلى مدن الساحل (بيروت وصيدا).[٥]

يستفاد من الرواية الذي ذكرها المقريزي أن جهود المغاربة بدأت مبكرة ونقرأ ذلك من خلال ذودهم عن بلاد المشرق والتصدي للحملات البيزنطية. هذا وتشير المصادر أيضًا إلى أن القائد الفاطمي نصير الخادم الصقلي وصل بيروت بطريق البحر ومعه عسكر كثير من المغاربة في الدفاع عنها، إلى جانب مغادرة ريان الخادم دمشق ومَنْ معه من المغاربة بغرض الدفاع عن طرابلس بعد أن جاءت الأخبار بنزول البيزنطيين لحصارها.[٦] وما يدل على مشاركة المغاربة أن الإمبراطور صاحب الحملة بعث برسالة إلى ملك الأرمن أشوط شاهان، ذاكرًا له بأن هناك فرقة من المغاربة من حامية طرابلس تقدر بألفي رجل تقوم بمهمة استطلاعية وترصد الطريق وقد سمى المغاربة بالإفريقيين.[٧] هذا إلى جانب حضورهم القوي كمرابطين على ساحل صيدا، الذين شحنه الفاطميون بآلاف الجند المغاربة يتقدمهم القائد ابن كرامة المغربي.[٨]

ومن القرائن أيضًا على اشتراك المغاربة، نذكر أنه في سنة ٣٧٠هـ تولى أمر طرابلس قائد مغربي هو نزال الغربي الكتامي والذي كان تحت إمرته ستة آلاف رجل، وكان لهم دور في مواجهة البيزنطيين حيث نازل هذا القائد ومن معه مدينة اللاذقية، التي كانت بأيدهم، كما نجح مع قائد فاطمي آخر يدعى ابن شاكر في أسر القائد البيزنطي المعين عليها من طرف الإمبراطور باسليوس الثاني، ويورد النويري هذا الخبر في حوادث (٣٧٢هـ/ ٩٨٢م) ويضيف أن نزال قد دخل القاهرة ومعه خمسة آلاف من الروم مقيدين بالسلاسل.[٩]

ومع بداية الحملات الصليبية المنظمة نلمس دورًا آخر للمغاربة، فإذا كان على الفاطميين الشيعة أن يكافحوا الغزو الصليبي في المشرق، فقد كان على المرابطين أن يجاهدوا الإسبان في الأندلس، وهكذا تبدوا لنا الأوضاع السياسية، وكأن كل دولة منصرفة عن الأخرى بمشاكلها الخاصة. لكن الملفت للانتباه أن الفاطميين لم يكونوا وحدهم من انشغل بالحروب ضد الصليبين الغزاة، فالجبهة المغربية كانت هي الأخرى حاضرة وحسبنا شاهدًا في ذلك ما يرويه ابن الأثير في حوادث سنة (٤٩٩هـ)، إذ يقول: "ورد على بغداد أمير من الملثمين (أي المرابطين) ملوك المغرب قاصدًا دار الخلافة، فأكرم وكان يرافقه أحد الفقهاء أتى الخليفة وقام بالوعظ في جامع القصر، فاجتمع له العالم العظيم وكان يعظ وهو متلثم لا يظهر منه غير عينيه، كان هذا الأخير قد حضر مع الأفضل أمير الجيوش بمصر وقعته مع الفرنج، وأبلى بلاءً حسنًا".[١٠]

يستنتج من حصاد ما سبق؛ أنه على الرغم من العداء الذي كان بين الدولتين الفاطمية (الشيعية)، والمرابطية (السنية) لم يمنع من مؤازرة بعضهم البعض وحسبنا في ذلك عدد المغاربة الذين شاركوا إخوانهم في جهادهم للصليبيين. على أن دولة المرابطين لم تعمر طويلاً حيث سقطت في النصف الأول من القرن السادس هجري، الثاني عشر ميلادي، وقامت على إنقاذها دولة مجاهدة أخرى هي دولة الموحدين والتي قامت كحركة إصلاحية تهدف إلى توحيد المغرب، كما كانت ترنو إلى تخليص بيت المقدس والشام، والأندلس من المستعمر الصليبي، وتأكيدًا لهذا المطلب فتحت الباب على مصراعيه أمام المتطوعين من المغاربة للسفر إلى مصر والشام ومشاركة إخوانهم المشارقة في جهاد الصلبيين برًا وبحرًا.[١١]

## ثانيًا: العهد الزنكي

## (٥٢١- ٥٦٩هـ/ ١١٢٧ -١١٧١م)

أثبتت الأحداث التاريخية التي جرت في المرحلة الأولى من المواجه العربية الصليبية أن دولتي الخلافة العباسية والفاطمية رغم ما قامتا به من دور في مواجهة الصليبيين، إلا أنهما لم ترقيا إلى المستوى المطلوب إذ لم تمثلا النموذج الأمثلة لقيادة الأمة العربية. وهكذا فرضت الأحداث التاريخية نمط الدولة العسكرية بديلاً مناسبًا بشرط أن تقوم بتوحيد الجهود في مواجهة الصليبين، فكان دولة عماد الدين زنكي التي ارتكزت على محور الموصل- حلب، هي السابقة التاريخية أو التجربة الأولى في صياغة الدولة العسكرية الموحدة تحت راية قائد واحد يقود جيشه بنفسه، في ميدان الحرب ولقد تولى، عماد الدين زنكي حكم الموصل سنة (٥٢١هـ/ ١١٢٧م)، ليقود دولته الصغيرة في الموصل نحو هدف مزدوج هو توحيد الجهود العربية الإسلامية، وطرد الصليبيين من الأراضي العربية الإسلامية.[١٢] ثم خلفه ابنه نور الدين (ت٥٦٩هـ) وكانت تؤازره أسرة صلاح الدين الأيوبي منهم: نجم الدين أيوب وشيركوه، ثم صلاح الدين الأيوبي، وقد رحب هؤلاء القادة المشارقة بجميع المجاهدين الوافدين من المغرب، واستعانوا بهم في جيوشهم البرية وأساطيلهم البحرية، وهنا يظهر دور المغاربة بوضوح في جهاد الصليبيين سواء في مصر أو الشام.[١٣]

ويتجلى لنا دور المغاربة أكثر خلال الحروب الصليبية، إذ تذكر المصادر أنه لما نزل الفرنجة بنواحي دمشق، سنة (٥٤٣هـ) في عشر آلاف فارس وستين ألف رجل، خرج المسلمون من دمشق للمصاف، فكانوا مائة وثلاثين ألف راجل وعسكر البلد، فاستشهد نحو المائتين ثم برزوا في اليوم الثاني فاستشهد جماعة وقتل من الفرنج عدد كثير، فلما كان خامس يوم وصل غازي ابن أتابك وأخوه نور الدين في عشرين ألفا إلى حماة وكان أهل دمشق في الاستغاثة والتضرع إلى الله وأخرجوا المصحف العثماني إلى صحن الجامع وضج النساء والأطفال مكشفين الرؤوس، وصدقوا الافتقار إلى الله فأغاثهم، وفي هذه المعركة توفي أبو الحجاج يوسف ابن دوباس المغربي المالكي،[١٤] وكان فقيها عالمًا صالحًا حلو المجالسة قتل في سبيل الله في حصار الفرنج لدمشق مقبل غير مدبر بالنيرب.[١٥]

وتنهض إشارة ابن جبير دليلاً إضافيًا على مشاركة المغاربة ونقرأ ذلك في معرض حديثة عن مدينة بنياس ومروره بحصن تبنين قوله: "بأنه موضع لتمكيس القوافل وأكثر المعترضين في هذا المكس المغاربة، ولا اعتراض على غيرهم من جميع بلاد المسلمين وذلك لمقدمة منهم أحفظت الإفرنج عليهم، سببها أن طائفة من أنجادهم غزت مع نور الدين رحمه الله أحد الحصون، فكان لهم في أخذه غنى ظهر واشتهر، فجازاهم الإفرنج بهذه الضريبة المكسية ألزموها رؤوسهم، فكل مغربي يزن على رأسه الدينار المذكور في اختلاف على بلادهم، وقال الإفرنج: أن هؤلاء المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا ونسالمهم، ولا نرزأهم، فلما تعرضوا لحربنا وتألبوا مع إخوانهم المسلمين علينا، وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم" فللمغاربة في أداء هذا المكس سبب من الذكر الجليل في نكايتهم بالعدو يسهله عليهم ويخفف عنتهم عنهم.[١٦]

وإلى جانب ما أسهم به المغاربة بجهودهم الحربية عن حياض الإسلام تطلعنا المصادر عن مشاركتهم الفعالة في التقدم الحضاري الذي عرفته مختلف حواضر المشرق ومن القرائن الدالة على ذلك هو ما ذكره ابن أبي أصيبعة (ت٦٦٨هـ-١٢٦٩م) حيث يذكر أن أبو المجد ابن أبي الحكم عبيد الله ابن المظفر ابن عبد الله الباهلي من الحكماء المشهورين، والعلماء المذكورين والأفاضل في الصناعة الطبية كان يلقب بأفضل الدولة، إذ كان في دولة السلطان الملك العادل نور الين محمود زنكي رحمه الله، فكان يرى له ويحترمه ويعرف مقدار علمه وفضله ولما أنشأ الملك العادل نور الدين البيمارستان الكبير جعل أمر الطب إليه فيه، وكان يتردد إليه ويعالج المرضى فيه، وكان أبو المجد يدور على المرضى به ويتفقد أحوالهم.[١٧] كما قام الطبيب علي ابن بذوخ القلعي المغربي في دمشق سنينًا كثيرة وكان يعالج من يأتي إليه أو يستوصف منه توفي بدمشق في سنة خمس أو ست وسبعين وخمسمائة.[١٨]

ونظير هذه الجهود المغربية نجد أن المشارقة في عهد الزنكيين قد حرصوا على إظهار إعجابهم وتقديرهم لما بذله إخوانهم المغاربة ذودا عن حياض الإسلام والمسلمين في المشرق بمثل اندفاعهم لدفع الأخطار عن بلادهم فاحتضنوهم، وتعاطفوا معهم، وتمادوا بتكريمهم ومساعدتهم، ونلمس ذلك في اهتمامهم بمسألة افتكاك الأسرى المغاربة من قبضة الفرنج حيث اعتبروها واجب ديني ينال الأجر من ورائها. فذكر أن نور الدين الزنكي نذر في مرضة أصابته مبلغًا كبيرًا من المال لفداء أسرى من المغاربة، فلما ابتل من مرضه، أرسل في فدائهم فسيق فيهم نفرًا ليسوا مغاربة، وكانوا من حماة من جملة عمالته، فأمر بصرفهم وأخرج عوضًا عنهم من المغاربة، وقال: "هؤلاء يفتكهم أهلهم وجيرانهم والمغاربة غرباء لا أهل لهم".[١٩] هذا ويذكر أسامة ابن منقذ في سياق إشارته لافتكاك نحو أربعمائة من المغاربة وقعوا في أسر الفرنج أن معين الدولة أنر صاحب دمشق أصر على أن يسهم بنفقات افتكاك هؤلاء الأسرى قائلا لأسامة: "لا بل، أنا أزن والله ثمنهم، وأنا أرغب الناس في ثوابهم".[٢٠]

وتقديرًا للجهود التي كان يبذلها المغاربة خلال الحروب الصليبية، دفع الأمر بنور الدين الزنكي إلى اتخاذ بعض التسهيلات والإجراءات الخاصة بهم وهذا ما نلمسه في شهادة ابن جبير عند قوله: "وسائر الغرباء ممن ليس على هذا الحال، ممن عهد الخدمة

والمهنة يسبب له أيضًا أسبابًا غريبة من الخدمة، إما بستانا يكون ناطورا فيه أو حمام يكون عينا عليه، وحافظا لأثواب داخلية، أو طاحونة يكون أمينا عليها، أو كفالة صبيان يؤديهم إلى محاضرهم ويصرفهم إلى منازلهم إلى غير ذلك من الوجوه الواسعة، وليس يؤتمن فيها كلها سوى المغاربة الغرباء"،[٢١] ومن مناقبه أيضًا "رحمه الله" أنه كان قد عين للمغاربة الغرباء الملتزمين زاوية المالكية في المسجد الجامعي المبارك أوقافًا كثيرة، منها طاحونتان وسبعة بساتين وأرض بيضاء، وحمام ودكانان بالعطارين.[٢٢]

## خَاتِمَةٌ

إن التكامل المشرقي المغربي الذي حدث بعد عملية الفتح مباشرة ساهم في انتقال عدد كبير من المغاربة إلى بلاد المشرق مشكّلين بذلك جالية دائمة في المنطقة كان لها دور بارز في الجهاد ضد الصليبيين فيما بعد، وقد تميزت أغلب المصادر التاريخية في وصفها للمشاركة العسكرية المغربية ضد الصليبيين في المشرق، بالتركيز على المحاسن، مما جعل الصورة التي رسمها المؤرخون والرحالة تبدو واضحة وجلية. فالمغاربة الذين شاركوا إخوانهم المشارقة في جهاد الصليبيين، نجدهم في بعض الأحيان ربما كانوا أكثر اندفاعًا وحرصًا من أهل البلاد الأصليين، فلم تقعدهم الشيخوخة، ولا التقدم في السن، ولم يرهبهم الموت، أو فقدان الأموال، مسطّرين بذلك أنصع الصفحات وأنقاها، ممّا يدل على صدق انتمائهم العربي الإسلامي.

## الهَوامِشُ:

(١) في سنة (٤٨٦هـ/١٠٩٣م) قدم إلى بيت المقدس راهب فرنسي يدعى "بطرس الناسك" للحج والزيارة، ولعله اغتاظ لرؤية السيادة الإسلامية على فلسطين والأماكن النصرانية المقدسة، فعزم على دعوة المسيحيين لإنقاذ الأماكن النصرانية المقدسة من أيدي المسلمين، فكر راجعًا إلى وطنه فرنسا وعرج على روما حيث يوجد البابا أوربان الثاني فأخبره بذلك، فقام هذا الأخير بعقد المجامع الكنسية للبحث عن كيفية تنفيذ خطة غزو البلاد الشامية وتخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين، وعقد المجمع الكنسي في بليزانس في إيطاليا (١٠٩٥م) إلا أنه لم ينجح فعقد مرة ثانية في كليرمون في نوفمبر ١٠٩٥م، واتفق أن يكون موعد الانطلاق يوم ١٥ أوت ١٠٩٦م، وكانت هذه الحملة شعبية بقيادة بطرس الناسك، ثم تلتها حملة رسمية في جانفي ١٠٩٩م، توجه خلالها الصليبيون نحو بيت المقدس، وتعتبر هذه الحملة هي الأولى ثم تلتها حملات أخرى، انظر: عيسى، الحسن: **تاريخ العرب – من بداية الحروب الصليبية إلى نهاية الدولة العثمانية** – ط١،/ عمان – الأردن: الأهلية لنشر والتوزيع، ٢٠٠٨م، ص٩٣، ٩٤، ٩٨.

(٢) زكي محمد، حسن: **الرحالة المسلمون في العصور الوسطى**، د ط، بيروت– لبنان: دار الرائد العربي، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص ٨٥.

(٣) عبد الرحمان، زكي: **الجيش المصري في العصر الإسلامي – من الفتح العربي إلى معركة المنصورة**، د ط، القاهرة: مكتبة الأنجاد المصرية، د ت، ص ٣٠.

(٤) ناصر خسرو: **سفرنامة**، ترجمة: يحيى الخشاب، ط٢، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٤٣م، ص١٠٩.

(٥) المقريزي: **اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء**، ج١، ص ٢٢١.

(٦) عمر عبد السلام، التدمري: **"المغاربة في ساحل الشام – تاريخهم السياسي والحضاري في العصر الفاطمي"**، مجلة التاريخ العربي، ع ١٩٩١/٢م، ص. ص ٢٣٧، ٢٣٨.

(٧) نفسه، ص ٢٣٨.

(٨) نفسه، ص ٢٣٨.

(٩) نفسه، ص ٢٤٠.

(١٠) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، ط١، بيروت- لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ج٣، ص ٩٧؛ "روى أن سبب مجيء هذا الملثم إلى بغداد أن المغاربة كانوا يعتقدون في العلويين أصحاب مصر الاعتقاد القبيح، فكانوا إذا أرادوا الحج يعدلون عن مصر، وكان أمير الجيوش بدر الجمالي والد الأفضل أراد مصالحتهم فلم يميلوا إليه، ولا قاربوه ... فلما ولى ابنه الأفضل أحسن إليهم، واستعان بمن قاربه منهم على حرب الفرنج، وكان هذا الملثم من جملة من قاتل معه، فلما خالط المصريين خاف العودة إلى بلاده، فقدم بغداد ثم عاد إلى دمشق، ولم يكن للمصريين حرب مع الفرنج إلا وشهدها، فقتل في بعضها شهيدًا، وكان شجاعًا، فتاكًا، مقدامًا". انظر: نفسه، ص٩٧.

(١١) أحمد، مختار العبادي: "**دور المغاربة في الحروب الصليبية في المشرق العربي**"، بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية، الإسكندرية: د. ع/ ٢٠٠٠م، ص ٨٤.

(١٢) قاسم عبده، قاسم: **ماهية الحروب الصليبية**، د ط، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٨م، ص. ص ١٥٤، ١٥٥.

(١٣) أحمد مختار، العبادي: "**دور المغاربة في الحروب الصليبية في المشرق العربي**"، ص ٨٥.

(١٤) هو يوسف ابن دوناس الفندلاوي المغربي، أبو الحجاج الفقيه المالكي، قدم الشام حاجا فسكن بانياس مدة، وكان خطيبا بها ثم انتقل إلى دمشق فاستوطنها، ودرس بها على مذهب مالك "رضي الله عنه" وحدث بالموطأ وفي سنة ٥٤٣هـ كان قد خرج فيمن خرج من المسلمين لقتال الفرنج، فلقيه الأمير المتولي وقد لحقه مشقة من المشي، فقال له: أيها الشيخ الإمام ارجع فأنت معذور للشيخوخة، فقال: لا ارجع، نحن بعنا واشترى منا يريد قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ -التوبة ١١١-. انظر: الحموي، ياقوت ابن عبد الله: **معجم البلدان**، د ط، بيروت – لبنان: دار صادر، د ت، ج٤، ص. ص ٢٧٧، ٢٧٨؛ ابن القلانسي، أبو يعلى: **تاريخ أبي يعلى**، دون ذكر الدار ولا تاريخ النشر، ص ٢١٩؛ المقديسي: **الروضتين في أخبار الدولتين – النورية والصلاحية**- د ط، القاهرة: مطبعة وادي النيل، ١٢٨٧هـ، ج١، ص ٥٢؛ الشهابي، قتيبة: **صمود دمشق أمام الحملات الصليبية** – مستخرجة من نصوص المؤرخين العرب والأجانب، د ط، دمشق: منشورات وزارة الثقافة، ١٩٩٨م، ص ١٦٤؛ عاشور، فايد حماد محمد: **جهاد المسلمين في الحروب الصليبية – العصر الفاطمي والسلجوقي والزنكي**، ط٣، بيروت – لبنان: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص ٢١٥.

(١٥) الذهبي: **العبر في خبر من غبر**، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد ابن بسيوني زغلول، د ط، بيروت – لبنان: دار الكتب العلمية، د ت، ج٢، ص. ص ٤٦٣، ٤٦٦.

(١٦) ابن جبير: **رحلة ابن جبير**، ط٢، بيروت – لبنان: دار صادر، د ت، ص ٢٧٤.

(١٧) ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، تحقيق: نزار رضا، د ط، بيروت – لبنان: منشورات دار الحياة، د. ت، ص ٦٢٨؛ الصفدي: **الوافي بالوفيات**، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، ط١، بيروت – لبنان: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٠م، ج٤، ص ٢٠.

(١٨) ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص. ص ٦٢٨، ٦٢٩.

(١٩) ابن جبير: المصدر السابق، ص ٢٨٠.

(٢٠) ابن منقذ، أسامة: **كتاب الاعتبار**، د ط، القاهرة: مكتب الثقافة الدينية، د ت، ص ٨٢.

(٢١) ابن جبير: المصدر السابق، ص. ص ٢٥٠، ٢٥١.

(٢٢) نفسه، ص ٢٨٧.



# التاريخ من أسفل
# في تاريخ الهامش والمهمش







**مولاي عبد الحكيم الزاوي**

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
أستاذ باحث - جامعة القاضي عياض
مراكش - المملكة المغربية


## بيانات الكتاب


التاريخ من أسفل : في تاريخ الهامش والمهمش
منشورات الزمن - سلسلة شرفات (٨١)
نوفمبر ٢٠١٦.

تأليف:
خالد اليعقوبي
خالد طحطح

**معرِّف الوثيقة الرقمي:** DOI 10.12816/0045098

**كلمات مفتاحية:**

الاستوغرافيا البريطانية، الكولونيالية، مدرسة الحوليات، التاريخ الرسمي، المُهمَّش


## مدخل استوغرافي

يبدو أن مفهوم دراسات الهامش والمهمش أخذ يخترق باحة العلوم الإنسانية والاجتماعية منذ نهاية القرن التاسع عشر ضمن سياقات استوغرافية أجنبية. ولسوف يبرز من خلال تحليلات عراب تيار الحتمية الجغرافية الألماني فريدريك راتزل، الذي سيلبسه رداء الفقر والتهميش المجالي، والأنتربولوجي كوبر الذي سيكسبه بعدًا ثقافيًا وحضاريًا. والحال سيمثل هذا الورش الجديد بمقتضى التجديدات المنهجية الحادثة في حقل التاريخ والمعرفة التاريخية آفاقًا واعدة لمختصي الزمن من أجل توصيف أكثف للماضي البشري، وعله اهتمام يعكس في جزء منه مركزية مفهومي الهامش والهامشية في كشف كثير من قضايا تحتجب وراء براديغم الحدث التاريخي الرسمي، وتقود نحو تأويل وتخصيب المعرفة التاريخية، بشكل يسهم في هدم وإعادة بناء الواقعة التاريخية من زاوية جديدة، بمفاهيم جديدة ومصادر جديدة.

وَلَئِن أثارت الباحثة إلين بارو اهتمام الباحثين في حقل التاريخ مبكرًا إلى أهمية هذا الحقل الواعد، وهي تهم بتفكيك المنجز الاستوغرافي لصاحب العمران البشري عبد الرحمان ابن خلدون، من خلفية نقل مركز الاهتمام في العلوم الانسانية من تاريخ صالونات النخبة نحو مطابخ العامة، فلأن واقع البحث التاريخي اليوم أضحى يفرض قراءة تجارب استوغرافية أجنبية حاولت تسليط مبضع بحثها على حياة البسطاء والمهمشين من أجل فهم مغاير لما جرى.

ثمة نقاش صاخب، يدور حاليًا غير بعيد عنا، داخل جامعات أوربية وأمريكية وحتى آسيوية، يسطع ويخبو، تبعا لتجاذبات الراهن الانساني، بين اتجاهات فلسفية وتاريخية وأدبية، يُعيد طرح قضايا خلافية ظلت لسنوات عديدة تتصدر واجهة مجلات التاريخ وأروقة مدرجات الجامعات. نقاش يُسأل مسيرة الإنسان في التاريخ، من حيث هي ذات منتجة للتاريخ، مستوعبة لشروطه، مُتحررة من وصايته وهيمنته، حسب جيرارد نوراييل[1]، وذلك بشكل يُسهم في إعادة بناء وتركيب الماضي بناء مفاهيميًا وإشكاليًا، فبين الانتصار لتاريخ البنيات والزمن الطويل الذي هيمن للحظات على مسار الكتابة التاريخية مع عرَّابي الحوليات والتاريخ الجديد، وبين العودة إلى تاريخ الأفراد وبيوغرافيات البسطاء الذي ظهر مع تجارب استوغرافية جديدة خارج فرنسا، يستوطن جدل ابستمولوجي واسع يخيم على ابستمولوجيا التاريخ.

ولئن عكس هذا النقاش في جزء منه صعوبة الإمساك بوقائع الماضي، وإعادة تركيب معطياته تركيبًا يقربنا من فهم ما جرى، فلأن هناك تداخلاً عميقًا بين المركز والهامش، العام والخاص، الكلي والجزئي، الأعلى والأسفل، يمتح أساسًا من تعقد بنية الأنساق الكبرى واختلاف الفئات الاجتماعية.

بعد مرحلة الكسوف والإقصاء المنهج الذي مارسته مدرسة الحوليات الفرنسية على تاريخ الأفراد والسرد والحدث، باسم الانتصار لموجة البنيات والأنساق الاجتماعية والاقتصادية، التي سادت ردحا من الزمن على الكتابة التاريخية[٢]. تُسجل اليوم عودة قوية للاهتمام بتاريخ المهمشين والبسطاء من الناس[٣]، عودة تعيد معها إلى الضوء الفرد كصانع للتاريخ، وكمركز للاهتمام والتساؤل داخل مختبرات العلوم الإنسانية. عودة إلى تاريخ عامة الناس حسب المؤرخ البريطاني إريك هوبزباوم[٤].

## مورفولوجية الكتاب

ينساق تأليف "التاريخ من أسفل: في تاريخ الهامش والمهمش"، الصادر حديثا عن منشورات الزمن سنة ٢٠١٦م، لكل من خالد اليعقوبي وخالد طحطح، من حوالي ١٩١ صفحة من الحجم المتوسط، في سياق موجة جديدة، بدأت تقتحم تدريجيا مجال الكتابة التاريخية بالمغرب وخارجه، متشبعة برؤية منفتحة على تجارب استوغرافية متعددة، لكل من مدرسة الميكرواستوريا الإيطالية ومدرسة التاريخ من أسفل البريطانية ومدرسة الحياة اليومية الألمانية ومدرسة التابع الهندية ومدرسة شيكاغو الأمريكية، هذا التجديد المنهجي ينهل من تراكمات العلوم الاجتماعية وتناهجاتها، بحثا عن توصيف أكثف بعبارة الأنتربولوجي الأمريكي كليفورد كيرتز للظاهرة الإنسانية المركبة. ومن شأنه ذلك أن يُسهم في إخصاب حقل المعرفة التاريخية، معيدا إلى دائرة الضوء أولئك الذين عَمَّروا لقرون مديدة دهاليز التاريخ وأقبيته المظلمة وذاكرة النسيان، نحو ارتقاء سطح المعرفة التاريخية بتعبير إلين بارو[٥]، ففي عمق التفاصيل الصغيرة التافهة وأحيانا المبتذلة تكمن حقيقة جانب من التاريخ حسب مشيل دو سرتو. إنه باختصار ما يسميه آلان كوربان بالتاريخ الصامت[٦].

غير بعيد عن فرنسا[٧]، انتعشت كتابة التاريخ من أسفل أو تاريخ الهامش في بعض بلدان أوروبا الغربية، مع مدرسة التاريخ من أسفل الانجليزية، ومدرسة الميكرإستوريا الايطالية، ومدرسة التاريخ اليومي الألمانية. تناغما مع الطفرات المنهجية التي واكبت مسيرة الفكر التاريخي داخل هذه البلدان، وتوافقا مع تشكل قناعة، لدى باحثي هذه البلدان، بدور الأفراد في صناعة الأحداث الكبرى، وبتسليط الضوء على فئة اجتماعية ظلت على هامش البحث والتمحيص. إسهامات تاريخية جديدة، تطفو على الواجهة، تغزو الأسواق، وتغري القراء بخبايا مثيرة، وتثير فضول القراء، وتنسف مختلف "البرسبوغرافيات الكلاسيكية"، بمفاهيم وتصورات جديدة، بيوغرافيات خصبة، فرضت نفسها كحقل جديد لإحياء الذاكرة التاريخية والموروث المشترك، تتناول جوانب متعددة، مثل السير الجماعية، السير المتوازية، السير المتقاطعة، السير الفكرية، وسير الناس العاديين.

ومهما بدا للبعض من تجاذب بين هذه الرؤى، فإننا أمام توجه مختلف بدأ يفرض نفسه داخل مسار الكتابة التاريخية، في جامعات متعددة، بدرجات مختلفة، توجه يستشعر التعقيد الذي يميز ماضي الظاهرة الانسانية، ويعمق التفكير في الفردانيات وخصوصيات الحياة الخاصة لبعض الأفراد والمجموعات، ويعيد بناء نسق الأحداث التاريخية من زوايا جديدة، كما يعيد هدم الأصنام الثلاث المقدسة لقبيلة مؤرخي الحوليات. توجه يوصف اليوم بالانفجار البيوغرافي.

## مضامين الكتاب

يطرح كتاب التاريخ من أسفل، في تاريخ الهامش والمهمش جملة قضايا منهجية وتاريخية تعتمل داخل مختبر التاريخ والعلوم الإنسانية، بتقسيم موضوعاتي يرتكز على أربعة فصول أساسية، يُحاول من خلالها باحثا الكتاب اقتحام مجال كتابة التاريخ من أسفل من حيث غائيته، أدواته، وأيضًا استعمالاته. كل ذلك في المدار الذي لا يفارق تحليل تجارب منهجية انخرطت في هذا الورش التاريخي بإيطاليا وبريطانيا والهند، ونقترح مناقشة مضامينه عبر ترسيمة موضوعاتية:

### ١ـ في مفهومي الهامش والهامشية

بدأ مفهوم الهامش والهامشية يخترق أدبيات الفكر الإنساني منذ النصف الثاني من القرن العشرين من خلال كتابات علماء الاجتماع والانتربولوجيين وحتى الجغرافيين، وأخذت هذه التحديدات المفاهيمية تتزين بعباءات متعددة، قياسا بفضفاضية مفهوم الهامش والهامشية وتشعبات تأويلاته، فهذا الجغرافي راسل على مشارف نهاية القرن التاسع عشر يُصبغه برداء المجال، ويعني به المجالات الهامشية، في مقابل المجالات المركزية، وذاك الأنتربولوجي كوبر يقصد به الثقافات المتناهية البساطة.

برز مفهوم الهامش عند المؤرخ البريطاني إريك هوبزباوم ذو النزعة الماركسية الواضحة ممزوجا بالصراع الطبقي، وهو يحيل بناظره إلى التاريخ من أسفل[٨]، واكتسى عند المفكر الايطالي أنطونيو غرامشي صاحب بُعدًا نظريا للدلالة عن هوية المُهَمَّش/ البروليتاري، أي تلك الجماعة من الناس التي تخضع لسيطرة طبقة نخبوية حاكمة، تحرمها الحق في المشاركة في صنع تاريخها وثقافتها كأفراد ناشطين داخل نفس الوطن، في مقابل ذلك نجد المؤرخ الهندي راناجيت غوها يُوظف مفهوم Subaltern لإعادة كتابة تاريخ الهند من زاوية جديدة، يبرز معها الدور الحقيقي للمهمشين في صنع تاريخ الهند زمن الاحتلال البريطاني[٩]. وعلى نحو ما يظهر، فقد خالف بذلك تنظيرات أنطونيو غرامشي القائلة بأن هيمنة النخب الحاكمة

على باقي فئات المجتمع تستند إلى محدد ثقافي، بالقول أن المُهمش يعيش عالما مستقلا عن عالم النخب[١٠]. وفي سياق آخر، سيعتبر عمل كياندرا باندي Gyanedra Pandy الموسوم بعنوان Subaltern Citizens إضافة نوعية في الكتابة التاريخية، من حيث أن عبارة مُهمش تحمل مسؤولية شديدة لكل كتابة تاريخية تروم الكشف عن الذوات المهمشة والمقموعة وأسباب تهميشها[١١].

على هذا النحو، تظهر دراسات المُهمش كقطيعة بين تاريخين: تاريخ السلطة والرأسمال والبنى الفوقية، وتاريخ خارج السلطة والرأسمال. تاريخ جديد بدأ ينتعش نسبيًا خارج فلكية السلطة ومداراتها، مستفيدًا من إرث المؤرخين الماركسيين البريطانيين تحديدا، ومن تبلور نظريات ما بعد الحداثة وما بعد الكولونيالية، التي ستمكن من استعادة مختلف الفاعلين وإنصافهم في التاريخ. سيسهم سياق ما بعد الحداثة وما بعد الكولونيالية في إعادة النظر في المركزية الأوربية، ولسوف يقتحم التاريخ حقل الهامشية في محاولة لاستعادة دور المهمشين في التاريخ، من أجل تفكيك الاستعمار وبناء الذات المستعمَرة التي ستنتعش بدراسات مختلفة وبمنظور مغاير، تغوص في ثنايا جزئيات خاصة تسكن دهاليز التاريخ وأقبيته المظلمة لحياة بعض الناس العاديين، إلى درجة سيصبح الفرد العادي له دلالته ودراميته مثله مثل تاريخ العظماء[١٢]، فالكتابة عن الحداد والطحان والفلاح والراعي ستغدو أكثر أهمية في فصل الالتباس عن عديد من قضايا التاريخ الأكثر عتمة.

### ٢ـ حوليات الجيل الثالث وتجديد الرؤية إلى التاريخ من أسفل

يتتبع الفصل الأول من الكتاب إرث أجيال الحوليات الثلاث من خلال كتابات الرواد الأوائل عن تاريخ المهمش والهامش، ويستقرأ استوغرافية الحولياتيين عبر ابتكار موضوعات جديدة حول تاريخ الذهنيات والإحساس والفكر والذاكرة الجماعية والممارسات الرمزية، تاريخ يتزيا برداء أنتربولوجي[١٣]. يرتسم هذا المنحى بشكل أدق في محاولة جون كلود سميث التي على ما تبدو شكلت ثورة كوبرنيكية في حقل الكتابة التاريخية وقتئذ، إذ نقلتها من برج عاجي نحو ملامسة القاع الاجتماعي كما عبرت بالقول إلين بارو، وكذلك مع فليب أرياس الذي اهتم بتاريخ الكتل التي ظلت على هامش السلطة، وبتاريخ الطفولة والعقليات والموت والمُروض والّلامرئي..... وقبلهم مؤسس الحوليات لوسيان فيفر من خلال بيوغرافياته المخيالية عن مارغاريت دونوفار وفرانسوا الأول وفرانسوا رابليه، وأيضا من خلال عمل إيمانويل لوروا لادوري حول راعي بسيط بمنطقة معزولة في منطقة أرييج العليا في قبل جبال البرانس[١٤].

ستنطبع فترة الخمسينيات من القرن الماضي بهيمنة بنيوية على الفكر الإنساني، وسيظهر أب البنيوية كلود ليفي ستراوس رفقة آخرين أمثال رومان جاكوبسون وجاك لاكان ولوي ألتوسير وميشيل فوكو وفرناند بروديل كمن يُشيدون صرح البنيوية في مختلف مداخلها المعرفية، وهم ينسفون قلعة وجودية سارتر وألبير كامو، وظاهراتية هوسرل، ولسوف تكتسي هذه الموضة الفكرية التي جذبت إليها مفكرين من مختلف بقاع العالم سمعة سيئة، نتيجة تشجنها المعرفي وإقصائها للفرد من مركز الاهتمام، وستعمق أحداث ثورة الشباب الفرنسي سنة ١٩٦٨ الشك في قدرة البنيوية على الصمود أمام إعصار تفكيكية جاك دريدا، وسيكولوجية جيل دولوز وفليبب غاتاري. إعصار سيبشر ببداية أفول قلعة البنيوية، وسيمهد لعودة الفرد إلى سطح الفكر، من حيث هو ذات واعية تُعبر عن إدراكات المجتمع.

تراجعت موجة البنيوية، التي قدمت الذات قربانًا في حقل العلوم الانسانية[١٥]، وبعيدا عن ساحة الفكر الفرنسي، ارتسمت فجأة آفاق جديدة للتاريخ المنظور إليه من أسفل في كل من انجلترا وألمانيا وايطاليا، تحت وقع تأثير مدرسة شيكاگو الأمريكية التي كانت من قبل قد باشرت البحث في تاريخ الهجرة والجريمة منذ وقت مبكر.

### ٣ـ التاريخ من أسفل في الاستوغرافيا البريطانية

بعيدًا عن فرنسا، أثار كتاب هوارد زن "التاريخ الشعبي للولايات المتحدة من ١٤٩٢ إلى الآن"[١٦] جلبة كبيرة في الأوساط الرسمية الأمريكية، ربما لتزامنه مع سياق التوسع الأمريكي من جهة، ولكونه يفضح بشكل سافر تاريخ الإبادة والرق والظلم الاجتماعي، إلى حد جعلت إريك فورنر يعتبر الكتاب بمثابة نيگاتيف فوتوغرافي للتاريخ الأمريكي الرسمي.

يُعبر عن هذا المنحى أيضا كل من المؤرخ الانجليزي إدوارد طومسون الذي نشر سنة ١٩٨٥ مجلدا يضم عدة مقالات، بعنوان جامع "التاريخ من أسفل"، مؤسسًا لورش جديد بدأ يقتحم تدريجيا معاقل الكتابة التاريخية، ويسهم في تجددها، من جهته سيؤلف دومنيك جينوفيز كتابا بعنوان "العالم الذي صنعه العبيد" The World the Slaves، الذي ينكتب عن فئة العبيد السود كفئة إجتماعية محرومة إجتماعيا، وتبرز محاولة ثالثة لا تقل أهمية عن هؤلاء، مع المؤرخ الايطالي كارلو جينزبورغ في كتابه "الجبن والدود"، التي تمثل معاينة مجهرية ميكروسكوبية لقصة طحَّان عادي من منطقة فريولي شمال إيطاليا يدعى دومينيكو سكانديللو مشهور بلقب مينوتشي، الذي سيعدم بعد حكم قضائي صادر عن محاكم التفتيش[١٧].

من جهته، يتساءل المؤرخ البريطاني إريك هوبزباوم عن جدوائية كتابات تاريخية تقليدية لا يقرأها أحد باستثناء الأساتذة والطلبة من ذوي التخصص، حيث يشير إلى أن التاريخ من أسفل يبدأ مع نهاية القرن الثامن عشر كحقل دراسي، من خلال أعمال جول ميشليه حول الثورة الفرنسية، غير أن البداية الحقيقية لتشكل التاريخ من أسفل تعود حقيقة إلى النصف الثاني من القرن العشرين مع إدوارد طومسون، في كتابه The Making of the English Working Class، حول

تشكل الطبقة العاملة الانجليزية، الصادر في ستينيات القرن الماضي، تزامنا مع مراجعة فكرية وإديولوجية، قام بها اليسار البريطاني الجديد وهو يعلن لحظة الطلاق مع الاديولوجية الستالينية السوفياتية. يتضمن هذا الكتاب دعوة صريحة لتجاوز التاريخ النخبوي، والغوص في باطن المجتمعات، وفق ما أكدته أعداد مجلة الحاضر والماضي التي بصمت على توجه أنجلوساكسوني جديد في الكتابة التاريخية.[١٨]

والحال، تمثل اسهامات كل من كرسيتوفيل هيل[١٩] وإدوارد تومبسون[٢٠] وإريك هوبزباوم نواة أساسية في بلورة مشروع الدراسات الهامشية داخل بريطانيا، من خلال أعداد مجلة الماضي والحاضر، وتظهر هذه الاسهامات متجاوزة للتحليل الاقتصادي، قريبة من تحليل الحركات الاجتماعية الدنيا والمقهورين وعامة الناس باعتبارهم القوى التي تصنع العالم. وتكمن فرادة هذا التيار الجديد في كونه أعاد النظر في مفهومي البنية التحتية التي تتحدد بالبعد الاقتصادي والبنية الفوقية حيث توجد السياسة والثقافة والفنون والإيديولوجيا[٢١]، وفي رفض التفسير الأحادي المعتمد على الحتمية الاقتصادية وفكرة الغائية القائلة بحتمية تطور المجتمعات من الاقتصاد البدائي إلى اليوتوبيا الشيوعية مرورا بالعبودية والرأسمالية والاشتراكية. إنها رؤية تاريخية مُجددة تنطبع بتحليل ماركسي جديد ينفي فكرة الحتمية الاقتصادية. على هذا النحو رست سفينة مدرسة التاريخ من أسفل البريطانية.

### ٤ـ امتدادات التاريخ من أسفل

يتتبع الفصل الثاني من الكتاب امتدادات التاريخ من أسفل في الاستوغرافيات الأجنبية، من استعراض نماذج من مدرسة الميكرواستوريا الايطالية وتاريخ الحياة اليومية الألماني ودراسات التابع الهندية، مشاريع بدت جذابة وواعدة لعدة باحثين شباب، وهي تعلن عن انصهار التاريخ في أدوات التحليل الأنتربولوجي، وتسهم في فهم مغاير لوضع الأفراد والهامشيين، بعيدا عن فلكية صعود وأفول الأمم، وتبرز لقارئ متن هذه الاسهامات محاولة كل من ناتالي دافييز عن الفلاح برتراند رولز، وكارلو جينزبورغ عن الطحان مينوكوشيو، وايمانويل لوروا لادوري عن الراعي الفرنسي، وآلان كوربان عن الإسكافي بيناغوت.....الخ. إنها محاولات جديدة، تعود بالتاريخ إلى الذات[٢٢]، لفهم المجتمع من خلال سِيَرِ الأفراد، وبدت أهميته تتأتى من خلال تصاعد التاريخ الشفاهي[٢٣]، الذي يستند إلى إجراء المقابلات عند التحقيق لجمع المعلومات، ولعله استلهم كثيرا من شَكِّية علم الاجتماع الفرنسي، الذي أعاد النظر في عدد من براديغمات التفكير.

سيقتحم مصطلح الميكرواستوريا قاموس الكتابة التاريخية الايطالية[٢٤] مطلع الثمانينات من القرن العشرين، من خلال مجلة كراسات تاريخية (Quoderni Storici) وسلسلة ميكرواستوريا، ولسوف تعتبر في وقتها مقاربة تاريخية جديدة تعيد للفرادة وضعها الاعتباري، وتفصح عن معطيات لم تكن ملحوظة من قبل، بسبب تخفيض سلم المراقبة، فباستثمار مواضيع صغيرة الحجم، يمكننا حسب إفادة كريسيان دولاكورا استخلاص نتائج عامة ذات طبيعة ماكروانتربولوجية.[٢٥]

على نحو مشابه، سارت مدرسة الحياة اليومية الألمانية، وهي تعيد بعث لحظة النازية الألمانية إلى السطح، وتنبش في ماضي جرائمها الإنسانية، بتوجه ماركسي واضح للعيان، وتبدو مقاربة الألمان شديدة التأثر بتيارالأنتربولوجيا التأويلية، وبأهمية المحددات الثقافية في مسار التاريخ، وتعد أعمال كل من ريتشارد دولمن وهانس ميديك ولوطك رائدة في هذا السياق، وهي تنبش في تفاصيل محرقة الهولوكوست وتاريخ الامبريالية.

في آسيا سيقود رانانجيت غوها بمعية هيئة تحرير دراسات التابع سنة ١٩٨٨م[٢٦]، توجهًا تاريخيًا جديدًا تحت مسمى مدرسة التابع الهندية، في سياق المواجهة العلنية مع عرابي التاريخ النخبوي الهندي لمدرسة كامبريدج ومدرسة المؤرخين القوميين، وستوجه سهام نقدها إلى التحليل الماركسي التي ركز على فاعلية النخب في صناعة التاريخ، مُسهمة بذلك في تقديم قراءة جديدة للتاريخ الهندي بإطار نظري ومفاهيمي يستمد روحه من التاريخ من أسفل ونظريات ما بعد الحداثة والدراسات ما بعد الكولونيالية.

### ٥ـ التاريخ من أسفل وخطاب ما بعد الحداثة وما بعد الكولونيالية

يقف الفصل الثالث من الكتاب عند نشأة السياق الثقافي والتاريخي لدراسات المهمش، حيث يتوقف عند اللحظات النظرية الكبرى التي واكبت ميلاد خطاب ما بعد الحداثة وما بعد الكولونيالية لكل من إدوارد سعيد وديبيش شاكرابارتي ونيتشه وهابرماس ويتنغشتاين، عائدًا بسردية التأصيل التاريخي لمفهوم ما بعد الحداثة إلى سبعينيات القرن العشرين، من خلال أعمال كل من فرانسوا ليوتار وجاك دريدا وميشيل فوكو وجيل دولوز وآخرين.

تفصح هذه الاستعادة للنصوص المؤسسة لخطاب ما بعد الحداثة عن وضع سردية الحداثة قيد التحقيق والنقد والمراجعة[٢٧]، وإدانة العقل البشري، وكره أي مشروع يستهدف تحرير الإنسان عبر تحريك قوى التكنولوجيا والعلم والعقل[٢٨]، ونقد إمبريالية التنوير، على نحو ما يلمسه القارئ في تفكيكية جاك دريدا. وفق نفس الإطار سينطبع العالم الثالث بدراسات مرجعية تنتقد الاستشراق والهيمنة الامبريالية في كتابات فرانز فانون وادوارد سعيد وألبير ميمي وليوبولد سيدار سانغور والمهدي بن بركة، مُحاولة أن تُعري عن غطاء الاستعمار، فاضحة لسياسته الاستعبادية. هذا المنعطف الثقافي كان له إسهام بارز في تبلور دراسات المهمش بإيعاز من الأبحاث المجالية التي أشرفت عليها مدرسة شيكاغو الأمريكية، ومن تأويلية كليفورد غيرتز التي استلهمت علامات ورموز ماكس

فيبر، واعتبرت أن الحياة الاجتماعية للأفراد تخضع لنظام من العلامات والرموز التي يجب تأويلها وتفسيرها.[٢٩]

### ٦ـ نماذج وأمثلة لاستعمالات التاريخ من أسفل

ينحو الفصل الرابع والأخير من هذا الكتاب منحى إجرائي في استعمالات ومقاربات مختلفة لتاريخ الأفراد والجماعات، مُتوقفا عند ثلاث نماذج بيوغرافية لمهمشين من التاريخ الرسمي لكل من روجر كيسمنت وغريغوري راسبوتين ومحمد بن عمر الأحرش.

سيثير الكاتب البيروفي ماريو بارغاس يوسا في روايته "حلم السلتي" التي اكتشفها من خلال قراءة سيرة جوزيف كونراد "في قلب الظلام"، الإهتمام إلى سيرة روجر كسيمنت الصاخبة، وهو يلفت الاهتمام إلى سيرة رجل رافقها غير قليل من جدل بينه وبين أجهزة المخابرات البريطانية. يظهر روجر كيسمنت في رواية حلم السلتي كمُصور لحجم الكارثة الاستعمارية، وكمناضل من أجل حرية شعوب الكونغو والبيرو واستقلال ايرلندا من بريطانيا، وكمدافع عن أحقية الثقافات البدائية في الوجود رغم الاختلاف[٣٠]، مُخلفًا بهذه المواقف مصيرًا مجهولاً وركامًا من الشائعات التي طالت سيرته التاريخية.[٣١]

من جهته سيسبر كولن ولسن في روايته "راسبوتين وسقوط القياصرة" الغموض الذي اكتنف حياة يفيموفيتش غريغوري راسبوتين بروسيا قبل الثورة، كشخصية أسطورية في التاريخ الروسي المعاصر، تشفي من بعض أمراض العصر كمرض الهيموفيليا، ولسوف تُظهره ثورة البلاشفة بمظهر الخليع والفاجر واللص والسكير، إلى حد أصبحت الراسبوتينية تعني الحركة الشهوانية المنتشية بالرقص والإثارة والدين[٣٢]. هي رواية تظهر كيف أن التاريخ يمكنه أن يحط من قدر الناس ويجعلهم في الحضيض، كما يمكنه أن يرفعهم إلى درجة القديسين.

على نحو مماثل، سيصرف المفكر المغربي عبد الله ساعف جهده في اقتحام لعبة كتابة السيرة[٣٣] من خلال عمله على بيوغرافية محمد بن عمر الأحرش، وهو جنرال مغربي شارك في حرب الفيتنام، والذي سيخصص له سيرة بعنوان "أنه ما" وسط لُجَّة غامضة ومضطربة عن مسار هذا الرجل، وسيعتمد عبد الله ساعف على شهادات زوجة الأحرش كاميليا وأيضا على إفادات الفرنسي جورج بودايل من أجل كشف خبايا تتعلق بحرب الفيتنام وحياته السياسية والنقابية المغربية زمن الاستقلال إلى موته في ظروف قاسية. ينتقل هذا الفصل بالقارئ إلى تحديد مفهوم الفقر في المدينة، عبر منعطف الأنتربولوجيا من مبحث نظري يهتم بتحليل البنى الريفية إلى مبحث يرصد ظواهر المدينة، بتأثير مباشر من مدرسة شيكاغو الأمريكية. هذا التحول سيثمر ولادة ما يمكن أن نسميه بـ "النظرية التفاعلية" أو "الملاحظة التشاركية" كمقاربة سوسيولوجية تتبنى الفرد كوحدة للتحليل. وهو ما يظهر من خلال تحليلات أوسكار لويس عن أطفال سانشيز[٣٤].

يختتم هذا الفصل باستعراض استوغرافية تاريخ المهمشين في سياق العالم الإسلامي، من خلال تجربة المؤرخ المصري محمود إسماعيل، وتجربة المؤرخ المغربي ابراهيم القادري بوتشيش، اللتان تضمنتنا تطبيقًا حول التاريخ الوسيط، للفئات المهمشة في الغرب الاسلامي بِعُدَّة منهجية وحس تاريخي[٣٥]، لا يخلوان من نباهة تاريخية من حيث الرؤية والتصور والتفسير والتركيب.

### خاتمة

تبدو محاولة الباحثان خالد اليعقوبي وخالد طحطح في اقتحام ورش التاريخ من أسفل كمنهج وكتطبيق حلقة من حلقات تحديث الكتابة التاريخية المغاربية، ونقلة نوعية في زعزعة بعض الثوابت الذهنية والتاريخية لقبيلة المؤرخين، بل وتمرد علمي ومنهجي على كرنوزوفيات الكتابة التاريخية التقليدية، فإذا كانت مدرسة التاريخ الجديد اقتحمت مجال المغيبين والهامشيين من خلال دراسة المتروك من المصادر والمُغيب من الفئات الاجتماعية، كتاريخ المجانين وتاريخ الرعاة وتاريخ اللصوص والمومسات والساحرات، وهي مواضيع كانت توصف في الماضي بأنها مواضيع خسيسة مقابل بالمواضيع النفيسة[٣٦].

دخل البحث التاريخي اليوم بفضل المدارس التاريخية الجديدة بيوت الفقراء، وسكن نمط عيشهم، واقترب من ذهنيات من هم تحت، مع جون كلود سميث الذي تناول مسألة الهامشيين في التاريخ اعتمادًا على أوليس روبير. وسيشكل السياق الثقافي والتاريخي لمجتمعات غير فرنسية أرضية حاضنة للتاريخ من أسفل، في كل من إيطاليا بريطانيا والهند، وهي تجارب استوغرافية أعادت تشكيل الواقعة التاريخية برؤية مغايرة تستنطق التفاصيل، وتقف عند الجزئيات خصوصًا.

هذه الرؤية الحادثة على مستوى المناهج والكتابة التاريخية بالخارج تستقرأ منجزنا الاستوغرافي على نحو مثير للغاية، حيث ما زلنا لم ننزع بعد صفة القداسة عن التاريخ من أعلى، ولم ننظر إلى التاريخ على أساس أنه علم يتجدد بتجدد الأسئلة والمقاربات والمفاهيم.

## الهوامش:

(١) جيرار نوراييل، مؤرخ متخصص في تاريخ الهجرة وتاريخ العمال، من أهم أعماله، حول "أزمة التاريخ"، "التفكير مع والتفكير ضد"، "مسيرة مؤرخ"، "البوتقة السياسية"، "قول الحقيقة في وجه السلطة"، "العنصرية ومسؤولية النخبة"، "الأبناء الملعونون للجمهورية"، للتوسع أكثر يرجى الاطلاع على نص الحوار الذي أجرته مؤسسة مؤمنون بلا حدود، شتنبر ٢٠١٦.

(٢) أثار صدور كتاب "التاريخ المفتت" لفرانسوا دوس جلبة قوية داخل الوسط التاريخي الفرنسي، وعبر عن انشقاقات ابستمولوجية بخصوص تصور التاريخ والكتابة التاريخية بدت تطفو على السطح، كما عبر عن وجود خلافات بنيوية عميقة لورثة عرش لوسيان فيفر ومارك بلوك، وكشف عن بداية تصدع قلعة الحوليات الفرنسية، وتفتت التاريخ الى دراسة مواضيع ميكرو تاريخية، ذات طابع انتربولوجي، فهل يا ترى يتعلق الأمر بموضة عابرة؟ أم باختلاف بنيوي داخل صرح الحوليات؟ هل هي عودة مؤقتة إلى مواضيع أغفلتها الحوليات؟ هل هو حنين إلى تاريخ الفرد، ومعه التاريخ السياسي؟ ماذا ستقدم السير الفردية والجماعية لأشخاص بطوليين وهامشيين لكشف خبايا التاريخ، ولإعادة ترتيب حلقات الماضي المركب؟ للتوسع في هذه النقطة يرجى قراءة كتاب خالد طحطح، **البيوغرافيا والتاريخ**، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى ٢٠١٤.

(٣) صاحب هذه العودة الابستمولوجية التي قادها مؤرخون، فلاسفة، أدباء، وأحيانًا أنتربولوجيون، رجة قوية مست قلعة الحوليات الحصينة، في فترة السبعينات من القرن الماضي، التي بدأت في التصدع، بعد مرحلة الهيمنة على المشهد الثقافي والإعلامي بفرنسا منذ نهاية ثورة الشباب الفرنسي ١٩٦٨م. هذه الرجة جعلت سادن مدرسة الحوليات جاك لوغوف في كتابه "التاريخ الجديد" يوجه سهام نقده نحو مريدي جنس البيوغرافيا التاريخية والسرد التاريخي، ومرتدي التاريخ الشمولي، مشهرا عداءه صوب مناصري هذا النوع من التأليف، حيث شبههم بـ "المهاجرين الذين عادوا بعد الثورة الفرنسية دون أن يتعلموا جديدًا أو ينسوا قديمًا"، إنهم بتعبيره دائمًا يشكلون "عودة غامضة" إلى مواضيع تاريخية قديمة، تحركها نوازع الاديولوجيا، وروح الانتقام من الحوليات، قصد هدم صرح الحوليات العتيد، التي استطاعت في فترات سابقة، أن تعبر على مقدرة فائقة في التكيف مع مختلف المنعرجات الابستمولوجية التي كانت تواجهها.

(4) Eric Hobsbawm, On History, Weidenfeld and Nicolson, London, 1997.

(٥) عبد الغفور خوى، **أبعاد التاريخ، الإنسان، الزمان، المكان**، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧.

(6) Alain Corbin, le monde retrouve de Louis François Pinagot: sur les traces d'un inconnu (1798– 1876).

(٧) تجدر الإشارة إلى أن رواد الجيل الثاني لمدرسة الحوليات ناصب العداء لجنس البيوغرافيا، واعتبروها جثة لا يجب إحياؤها من جديد، بحجة قلة الضبط، الإفراط في الخيال والتخييل، والانتماء للتاريخ السردي المرتبط بالتوجه الوضعاني لمدرسة شارل سينوبوس وفيكتور لانغلوا، غير أن هذا التوجه، سرعان ما سيخفت مع بداية الثمانينات من القرن الماضي، بعد تألق عدة بيوغرافيات تاريخية، صاغها باحثون من تخصصات مختلفة، علماء اجتماع، باحثون نفسانيون، أنتربولوجيون، اتنولوجيون، كما مؤرخون. فهل تمثل هذه العودة رِدَّة على مكتسبات الحوليات؟ أم استجابة لطلبات سوق القراءة، ومؤسسات النشر؟ أم اقتناع ببؤس التاريخ البنيوي وحجبه لقضايا تاريخية رئيسية، وانتصارا لتيار الوجودية الذي ظل صاحبها مقبورا داخل الوسط الجامعي الفرنسي؟، انظر الى خالد طحطح، **البيوغرافيا والتاريخ**، مرجع سابق.

(٨) خالد اليعقوبي وخالد طحطح، **التاريخ من أسفل، في تاريخ الهامش والمهمش**، سلسلة شرفات ٨١، منشورات الزمن، نونبر ٢٠١٦، ص١٢.

(٩) خالد اليعقوبي وخالد طحطح، **التاريخ من أسفل، في تاريخ الهامش والمهمش**، مرجع سابق، ص ١٤.

(١٠) رانانجيت غوها يعتبر المانفيستو المؤسس لمدرسة التابع الهندية، أصدر مقالاً بعنوان:

"One Some Aspects of the Historiography of Colonial India"

ضمن مجلة

Writings On Indian History and society: Subaltern Studies

سنة ١٩٨٢، على أنه يجب التأكيد على أن رانانجيت غوها استطاع أن ينحت مفهومًا خاصًا بمدرسة التابع الهندية رغم تأثره مدرسة التاريخ من أسفل البريطانية، ومختلفًا عن المفهوم الفرنسي لجون كلود شميت الذي يعتبر التهميش صناعة اجتماعية، بينما عند غوها صناعة نخبوية.

(١١) خالد اليعقوبي وخالد طحطح، **التاريخ من أسفل**، في تاريخ الهامش والمهمش، مرجع سابق، ص ١٩.

(١٢) جاك لوغوف، **التاريخ الجديد**، من تقديم الطبعة الأولى، ترجمة وتقديم محمد الطاهر المنصوري، مراجعة عبد الحميد هنية، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧، ص ٥٩.

(١٣) يظهر افتتان الجيل الثالث من مدرسة الحوليات بمناهج وأدوات التحليل الأنتربولوجي واضحًا في جل الكتابات التاريخية منذ مطلع السبعينات من القرن العشرين، حيث تغدو الملاحظة الأساسية التي يلاحظها المتتبع للمتن الاستوغرافي خلال هذه اللحظة هي انصهار التاريخ في الانتربولوجيا، ويشكل كتاب ناتان واشتل حلقة أساسية ضمن حلقة هذا الانصهار، من خلال نظرة مهزومي الهنود البيرو إزاء الغزو الاسباني، الذي أعاد الاعتبار للتاريخ المحلي وذاكرة الشعوب وانتشال جزء من تاريخ شعب الإنكا المنسي وتقديم فترة الغزو الاسباني، أنظر:

Nathan Watchel, la vision des vaincus, les indiens de Peru devant la conquête espagnole 1530-1570 Gallimard Paris 1971.

(١٤) تشكل هذه المساهمة علامة فارقة في الكتابة التاريخية إذ انطلقت من مصادر جديدة وخاصةً سجلات محاكم التفتيش التي حفظها جاك فورنييه أسقف بواتييه أثناء التحقيقات.

(١٥) باسكال جوتشيل وايمانويل لواييه، **تاريخ فرنسا الثقافي**، من العصر الجميل إلى أيامنا هذه، ترجمة مصطفى ماهر، المركز القومي للترجمة، مصر، الطبعة الاولى، ٢٠١١، ص١٩.

(١٦) هوارد زن، **التاريخ الشعبي للولايات المتحدة الامريكية**، ترجمة شعبان مكاوي، في جزءين، الطبعة الثانية، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٩.

(١٧) خالد اليعقوبي وخالد طحطح، **التاريخ من أسفل**: في تاريخ الهامش والمهمش، مرجع سابق، ص ٤٧.

(١٨) نفسه، ص ٥٣.

(١٩) كريستوفيل هيل أنجز عملاً عن الحرب الأهلية لسنة ١٦٤٠ التي اعتبرها لم تكن مجرد جدال برلماني وديني بقدر ما هي ردة فعل ثورية ضد تطور النظام الرأسمالي، وتبرز قيمته في استناده على أهمية الأفكار ودورها في تشكيل التاريخ، متجاوزا التحليل الاقتصادي المحض والنظرة الضيقة لصراع الطبقات.

(٢٠) ادوارد تومبسون أحدث رجة اثنوغرافية قوية في تاريخ القرن التاسع عشر البريطاني، وتاريخ الثورة الصناعية، وتظهر تأويلاته متحررة من نظرية الحتمية الجغرافية، ومعانقة للوجه الانساني لتجربة الطبقة العاملة الانجليزية، مُنبها إلى دور المحدد الثقافي والتقاليد الشعبية في تشكيل الطبقة الانجليزية، عاملا على أنسنة الماركسية برؤية ماركسية جديدة ومغايرة تضع الفعل التاريخي بيد الأفراد.

(٢١) نفسه، ص ٥٧.

(٢٢) استبعدت الذات بشكل ممقوت في كتابات رائد البنيوية كلود ليفي ستراوس، حيث أظهر كتابه مدارات حزينة كرهًا شديدًا للذات والنزعة الانسانية في سياق نظرية موت الانسان، وهو وضع سيجعل بول ريكور يقصف البنيوية بالقول أنها محاولة تعال من دون ذات، وسيحتج على ميشيل فوكو العودة إلى التيار المنادي بالعودة إلى الذات في كتبه حول تاريخ الجنسانية وتاريخ الجنون.

(٢٣) خالد اليعقوبي وخالد طحطح، **التاريخ من أسفل**: في تاريخ الهامش والمهمش، مرجع سابق، ص٦٣.

(٢٤) من أهم الأبحاث التي ستسم مدرسة الميكرواستوريا الايطالية خلال هذه اللحظة نذكر الجبن والدود: عالم طحان في القرن السادس عشر لكارلو كينزبورغ، والسلطة في القرية، مهنة مغرم في البيمونت في القرن السادس عشر لجيوفاني ليفي.

(25) Christian Delacroix, «Echelle» Historiographies 2, Concepts et débats, Folio histoire, Editions, Gallimard, 2010.

(٢٦) تألفت مدرسة التابع الهندية من رانانجيت غوها وشهيد أمين وديفيد أرنولد وغواتام بادرا وديبيش شاكرابارتي ودفييد هاريدمان وسوديبتا كافيراج وشايل مايارام.

(٢٧) خالد اليعقوبي وخالد طحطح، **التاريخ من أسفل**، في تاريخ الهامش والمهمش، مرجع سابق، ص ٩٩.

(٢٨) نفسه، ص ١٠٠.

(٢٩) خالد اليعقوبي وخالد طحطح، **التاريخ من أسفل**، في تاريخ الهامش والمهمش، مرجع سابق، ص ١١٢.

(٣٠) نفسه، ص ١٢٤.

(٣١) ناضل روجر كيسمنت من أجل استقلال ايرلندا عن بريطانيا، رافعا شعار عيسى معنا، وهو توجه كان كافيا لأن يحكم عليه بتهمة الخيانة العظمى، وبتهمة المثلية الجنسية التي ستشوه من صورته لدى الرأي العام البريطاني، ولعل ما يزيد من الأمر غرابة يومياته السوداء التي أثارت ولا زالت تثير غير قليل من جدل، هل هي موجودة حقًا؟ أم أنها محض افتراء اختلقتها الأجهزة السرية البريطانية لضرب صورته الرمزية لدى الجماهير.

(٣٢) خالد اليعقوبي وخالد طحطح، **التاريخ من أسفل**، في تاريخ الهامش والمهمش، مرجع سابق، ص١٣٤.

(٣٣) تنير السير التاريخية الجديدة تاريخ الأعلام من خلال إبراز البنى الاجتماعية التي أفرزتها، وتدرسهم من خلال الوظائف التي تقلدوها، والأدوار التي أدوها من دون الاقتصار على حصرهم في التفسيرات الاجتماعية، نفسه، ص٤٧.

(34)Oscar Lewis, Les enfants de Sanchez, autobiographie d'une famille mexicaine, traduit de l'Anglais par Céline Zens, Edition, Gallimard, paris, 1963.

(٣٥) خالد اليعقوبي وخالد طحطح، **التاريخ من أسفل**، في تاريخ الهامش والمهمش، مرجع سابق، ص ١٦١.

(٣٦) جاك لوغوف، **التاريخ الجديد**، من تقديم الطبعة الأولى، ترجمة وتقديم محمد الطاهر المنصوري، مراجعة عبد الحميد هنية، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧، ص١٣.

# الضرائب في الغرب الإسلامي وأثرها في التاريخ السياسي

(٤٤١ – ٨٦٨هـ/ ١١٤٧ – ١٤٦٩م)




**د. رشيد اليملولي**

دكتوراه في التاريخ الوسيط

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي

مكناس – المملكة المغربية



## بيانات الأطروحة

| | | |
|---|---|---|
| أطروحة دكتوراه | الأستاذ رشيد اليملولي | إعداد |
| التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للغرب الإسلامي الوسيط | الدكتور محمد تضغوت | مشرفًا |
| كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمكناس | الدكتور إبراهيم القادري بوتشيش | رئيسا |
| وحدة التكوين والبحث | الدكتور جمال حيمر | عضوا |
| المغرب ٢٠١٣ | الدكتور محمد فتحة | عضوا |
| ٢٩٣ صفحة | عبد الإله بنمليح | عضوا |

**كلمات مفتاحية:**

الغرب الإسلامي, مصطلحات الضرائب, المصطلحات الجبائية, التاريخ الاقتصادي

**معرِّف الوثيقة الرقمي:** 10.12816/0045099 DOI


## مقدمة

ينتمي موضوع الضريبة في إشكاله ومفاهيمه الكبرى إلى حقل تتقاطع فيه المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية، لذا فتفكيك العلاقات الناظمة لهذه الميادين، ورسم تمظهراتها تاريخيًا في أفق الكشف عن قوانينها، وآليات نسج مكوناتها، كان الأساس والمرتكز المنهجي والمعرفي الذي دفعنا للقيام بهذه المجهود، أملاً في تقديم صورة تقريبية لموضوع ما زالت الدراسات حوله لم توفر بما يكفي من العناصر والإشكالات التي يستضاء بها، إذ لم تظهر هذه الدراسة إلا بسبب غياب عمل يلبي الغاية التي وضعناها كما قال ماكس فيبر.

حاول العمل الذي نحن بصدد، أن يتخذ من موضوع الضريبة وأثرها في التاريخ السياسي مجالاً للتفكير والتحليل، منطلقًا من أولية أساس مفادها؛ بأي معنى يمكن الحديث عن الضريبة في الحقبة الوسيطية؟ وما هي طبيعة العلاقة التي تجمع بين ما هو ضريبي وبين ما هو سياسي واجتماعي وإداري؟

إسهامًا في بلوغ هذا الهدف، وانطلاقًا من الطبيعة الإشكالية انفتحنا على مظان متعددة، على الرغم مما يكتنفها من ثغرات وعيوب، ورفع مستوى منهجية البحث وتقنيته، هذا المستوى أمدنا بمادة مكنتنا من ملء بعض البياضات والتقليل من حجم الثغرات ورتقها، بقراءة تقوم على النقد والتقويم ثم البناء انطلاقًا من المقارنة والتحليل، وهي منهجية تستقي مرجعيتها وتستلهم روحها من التحليل عوض مراكمة النصوص والوثائق كما قال الأستاذ عبد الله العروي، استنادًا إلى أن النصوص على اختلافها وتنوعها لم تكن بتلك السلطة المرجعية التي تصوب وتوجه وهو ما سماه "بول ريكور" بالانخداع المرجعي، بقدر ما كانت وسيلة وأداة، الغرض منها المساعدة على تعضيد بعض مقولات الدارسين، أو دحض وتفنيد ورد أخرى؛ إذ لم يعد مقبولاً علميًا الاطمئنان إلى أفكار وتأملات حرة من أي قيد ومفتقرة إلى دليل، لذلك لم يكن كلامنا مرسلاً لا يحتكم إلى مصدر أو مرجع، ولم يكن في الوقت ذاته خاليًا من المناقشة من خلال استعادة آراء بعض الدارسين ومناقشتها بطريقة لا تدعي قول الحق الذي لا مجمجة فيه كما قال "ابن سينا"، إيمانًا بأن محاولتنا كما قال بول ريكور: "في التاريخ بناءاتنا هي في أفضل الحالات إعادة بناء".

لقد كان من الضروري؛ ومن خلال التقديم العام أن نبدأ بمقاربة أولية بوساطتها نبسط تصورنا ورؤيتنا للموضوع، حيث عرضنا لمقولات وأفكار حسبنا أن توظيفها قد يساعدنا على تحديد الموضوع من زاوية أفضل، إذ تركز اهتمامنا على عقل عدتنا المنهجية والمعرفية عبر بناء الدراسة من حيث أفقها

المعرفي، وأهم مفاهيمها، وإطارها التاريخي وقضاياها الاجتماعية والسياسية والإدارية، انسجاما مع الاقتناع المنهجي والمعرفي الذي أطر أبوابها وفصولها، دون أن نتغاضى عن قيمة مراقبة الروافد المرجعية التي استندنا عليها، وشكلت عماد هذا البحث وذلك من أجل معرفة طبيعتها وقيمتها في توجيه مسار البحث.

## فصول الأطروحة

وإذا كان الأهم حسب بول ريكور؛ لا يكمن في المستوى الكتابي ولا مستوى التفسير والفهم، بل في مستوى الحجة الوثائقية التي يجب الاستناد إليها مع احتمال مراجعتها بالتدريج، فإن جرد حصيلتها ومعرفة إمكاناتها وحدودها في تفسير وتحليل ظواهر وقضايا هذا العمل، مكننا من رسم معالمه إلى بابين، يحتوي كل منها على أربعة فصول، بالإضافة إلى خاتمة واستنتاجات تهم مجمل ما تم التوصل إليه، إضافة إلى ثبت بأهم مصادر ومراجع البحث.

انصرف النظر في **الفصل الأول** من الباب الأول، والذي صغناه على الشكل التالي "المال في الثقافة العربية الإسلامية"، إلى الاهتمام بالنظام المعرفي الإسلامي ومنظوره للمال؛ هذا المنحى كان أساسًا لأنه يرسم بعضًا من ملامح الفصول المكونة لهذا العمل، ويعكس الكيفية التي صاغ بها المسلمون مفهومهم للمال، فكان أن جاءت هذه الثقافة امتدادًا للنص وصورة مستنسخة له، معزولة عن الدورة الإنتاجية التاريخية، إلا من ابن خلدون الذي حاول أن يضع معالم وصور "نظرية" في الضرائب، موليًا اهتمامًا مركزيًا لقضية الجبايات سواء من حيث زمن وقوعها، أو الأسباب الداعية إلى فرضها، وصولاً إلى مختلف التأثيرات التي تحدثها سلبًا وإيجابًا على الدولة والمجتمع.

وانصب الاهتمام في **الفصل الثاني** من الباب الأول على دراسة المصطلحات الضريبية وأنواعها انطلاقًا من تعدد مصطلحات الضرائب وتنوعها على المستوى التاريخي؛ فهل هذا التعدد يعكس مسمى واحدًا؟ أم أننا نربط المصطلح الواحد بأنواع من المعنى أم المعنى الواحد بأنواع من الألفاظ؟ الحصيلة؛ أن المرجعية المعجمية أفادتنا كثيرًا في تمثل العديد من المصطلحات الضريبية، إلا أن الواقع التاريخي أبان عن إمكانية توسيع أنواع الضرائب وحقلها الدلالي بالاستناد إلى العدة المصدرية والمرجعية، كل ذلك دفعنا إلى اعتبار تعدد مسميات الضرائب لا يعكس بالضرورة توحدها في المعنى، حجتنا في ذلك أن الضريبة محكومة بواقع سياسي تجسده السلطة في علاقتها بالمجتمع، وواقع تاريخي يجد سنده في الدورة التاريخية التي تمر منها الدولة؛ بمعنى أن ضرائب لحظة ميلاد المشروع السياسي المرابطي أو الموحدي أو المريني، ليست بالمضمون نفسه والقيمة عينها، وليست كذلك بالأسلوب والمضمون نفسه في مرحلة الدولة أو في مرحلة الانهيار والأفول. غير أن هذا التعدد والتنوع في الأغراض والأنشطة، لا يفت في اعتبارها حقوقًا تقدم للسلطة الحاكمة بغرض الحماية والأمن وضمان ممارسة الأنشطة الاقتصادية.

أما ما تعلق بأنواع الضرائب والتي تم حصرها في الضرائب الفلاحية والتجارية، إيمانا منا بأن الدولة المركزية كانت دولة تجارية تقوم على احتكار الطرق، عبر التوسع وإزاحة كل المتنافسين، فكان ذلك موضوع **الفصل الثالث** من هذا الباب. انطلق البحث في هذا الفصل من الرغبة في رسم صورة تقريبية للسلط السياسية موضوع العصر؛ فبعد أن تم رصد السياسة الضريبية في الفلاحة والتجارة، وتبين أنها سياسة نشطة تهم مختلف مراحل هذه الدول، بشكل جعل التجاوزات الجبائية هي القاعدة عمليًا، رغم كل المحاولات المتقطعة والمتباعدة لتحسين الأوضاع، وقصد تمويل العمليات العسكرية وأداء رواتب الجند والموظفين وحاجيات البلاط، ذلك ما دفعنا إلى دراسة آثار هذه السياسة على هذين القطاعين، بحيث كان الفلاح والتاجر مجرد مصدر للمال ووعاء للضرائب، وهوما كبل نشاط هذين القطاعين، ودفع أفراد المجتمع إلى النزوح وإخلاء الأرض، بسبب الضيق الناتج عن الإجحاف مما قلص من فرص المنافسة وحافز الربح، وضيع على الدولة إمكانية تطوير اقتصادها، وتنمية قدراتها الإنتاجية مادام استحصال الضرائب في الأسلوب والطريقة كان سريع التنفيذ وسهل الاستخلاص.

وتمشيًا مع تحديد علاقة الدولة بمجال الجباية، وسعيًا نحو معرفة امتداد علاقة الدولة بالمجال الضريبي، اتسع مجال البحث في الفصل الأخير من هذا الباب نحو الإقطاع الجبائي، ومقدار حضوره عند السلط السياسية الوسيطية، ما دامت الدولة مرتبطة بالقبائل المؤسسة وبحاجتها إلى التحالفات التي بإمكانها تدعيم سلطتها، وهوما كان يدفعها في تصورنا إلى الإقطاع الجبائي. ومن مدار البحث وحصاد مساءلة النصوص تبين أن هذه السلط المركزية، قد سنت الإقطاع الجبائي وذلك بغرض الحفاظ على ولاء الجند واستيعاب قبائل عدة ضمن النسيج المخزني، وتحويلها إلى دائرة سلطوية تسهل مراقبتها من جهة، ومن جهة ثانية استمالة المتنطعين والمتنزين قصد التخفيف من غلوائهم، لذلك رجحنا أن يكون أسلوب الإقطاع الجبائي قد ساد في غالبية مراحل دول العصر الوسيط.

أما **الباب الثاني** والذي يحتوي على أربعة فصول؛ فقد استهدفنا معرفة طبيعة العلاقة التي تجمع فيما بين المجال الضريبي والسياسي والإداري والاجتماعي. سعينا في الفصل الأول من هذا الباب والذي اتخذ عنوان "أثر الضريبة في المجال السياسي"، إبراز أثر الضريبة على المجال السياسي، فمن خلال التتبع أمكن القول بأن الضريبة كان لها الدور الفعال في توجيه وتنميط الحقل السياسي؛ فالالتزام بالضرائب الشرعية والتي تواكب ميلاد السلطة السياسية كان يعني التفاف القبائل والشرائح الاجتماعية حول السلطة الجديدة، وبالتالي مدها بالمشروعية الداعمة لها سياسيًا واجتماعيًا، هذا الوضع قلما

يصمد في وجه الحاجات المادية للدولة والحكام بعد تحقيق الغاية والمرام، مما يدفعها إلى سن ضرائب جديدة تتفاوت في أحجامها وقيمتها وتتجاوز الوعود المؤسسة، وهوما ينبئ بترهل هذه المشروعية وتآكل مقومات وجودها واستمرارها، لتعمل المرحلة الأخيرة من عمر الدولة على العودة إلى الفوضى الضريبية بشكل قد يدفعنا إلى عدها حلقة دورية قارة وهيكلية، نمطت حقل المشروعية وفسحت المجال لعصبية صاعدة تقتات على المنطلقات نفسها التي أسهمت في أفول السلطة السابقة.

لم يتوقف أثر الضريبة عند هذا المستوى، بل تعداه إلى المجال الاجتماعي وذلك من خلال المواقف التي اتخذتها بعض فئاته، خاصةً الفقهاء والمتصوفة، هذا الإشكال هو الذي حاولنا تحديد ملامحه في **الفصل الثاني** من هذا الباب والتي صيغ على الشكل التالي "بعض مواقف الفقهاء والمتصوفة من الضرائب المستحدثة". أبان البحث فيما يخص مواقف الفقهاء في التجربة المرابطية والموحدية عن قلة وضعف ناتجين عن طبيعة هاتين السلطتين، ولانعدام نصوص يمكن أن تفند ما توصلنا إليه، في وقت تميزت التجربة المرينية بظهور العديد من الفقهاء الذين واجهوا وجابهوا السلطة علنا في القضايا التي لها ارتباط بالمجال الضريبي كدراهم الإعانة والتحبيسات. أما المتصوفة؛ فشكلت الواجهة المالية ساحة نضالية أكدوا فيها معانقتهم لقضايا المجتمع ومشاكله موظفين في سبيل ذلك الكرامة والرمز، هذه المواقف دفعت السلطة إلى ابتداع طرق حاولت بوساطتها الحد من سلطة الفقهاء والمتصوفة وتراوحت هذه الأساليب بين الشدة واللين والاحتواء والتطويع.

وإذا كان الفصلان الأول والثاني من هذا الباب قد مكننا من الإمساك ببعض مفاتيح موقف المجتمع من الضريبة؛ فإن الفصلين الواليين ينهضان بالبحث في الجانب الإداري – التنظيمي، ورد فعل المجتمع عامة من الضريبة، لذا حاولنا الاهتمام في **الفصل الثالث** بالجهاز الإداري والمالي المرابطي والموحدي والمريني، عبر معرفة خصائص هذا الجهاز ومميزاته القمينة بكشف العلاقة الجبائية التي تؤلف فيما بين السلطة والمجتمع، سواء كانت علاقة محكومة بقواعد وشروط منصوص عليها شرعًا، أو مرهونة بالحاجات التاريخية والمادية للسلطة الحاكمة. تباينت المادة المصدرية التي وجهت مسار البحث، من خلال طبيعة المعطيات التي قدمتها بشأن كل تجربة، لذا حاولنا اللجوء إلى المقارنة في بعض الأحيان تجاوزا لهذا الخلل، فالإدارة المرابطية افتقرت للضمانات الكافية للحديث عنها باعتبارها مؤسسة قائمة سواء تعلق الأمر باختصاصات مسئولي هذا الجهاز عمالاً كانوا أو ولاة أو مشرفين، كما أن سير هذه الإدارة وكيفية تنظيمها والمناطق الجبائية بادية وحاضرة، والمقادير المستحصلة وطرق الجباية المستعملة استعصت على البحث لطبيعة مصدرية.

أما ما تعلق بالإدارة المالية الموحدية؛ فمن خلال الرصد والتتبع، أمكن الحديث عن ملامح ومعالم إدارية تجد مظهرها في وجود مشرف على المستوى المركزي، ووالي وعامل جهويًا، بالإضافة إلى وجود مسؤولين مساعدين في المرسى والبر، عكس التجربة المرينية التي أعوزتنا المادة المصدرية في تبين مظاهر هذه الإدارة، إلا ما تعلق بإدارة المرسى والتي طبعها تنظيم محكم تبعًا لاعتماد الدولة على الضرائب المستخلصة من التجارة المرفئية، ولوجود مادة مصدرية مهمة ساعدتنا في رسم بعض من ملامح هذا الإدارة.

غير أن تباين المعطيات المتعلقة بالإدارة المالية زمن المركزيات السياسية، لم يمنع من أن يسمه تشابه كبير في طبيعة الخلل الذي ميز سير هذه الإدارة، ذلك أن هذه السلط كانت تفتقر زمنيًا ومكانيًا إلى درجة ثابتة من القوة والتنظيم، وهوما كان يدفعها لنهج أسلوب إنفاق اتجه نحو قطاعات إنتاجية عابرة كالحروب والعطاء والبناء، ذلك ما شكل عائقًا بنيويًا عرقل سير الإدارة المالية، وكبح إمكاناتها في توفير مورد مالي من شأنه دعم استقرار الدولة وتوفير العدة اللازمة لمواجهة مستلزمات امبراطورية مترامية الأطراف لا تستطيع أن تضمن مرتكزات دائمة.

صورة امتدادات أثر الضريبة على مناحي الحياة، لا يمكن أن تكتمل من دون رصد أثر الضرائب في المجال الخاص بالموقف الاجتماعي، الذي تجسد في مجمل الثورات التي عرفتها الفترة قيد الدرس، وهو ما تم تأطيره في الفصل الأخير من هذا الباب.

تبين في مرحلة أولى أن مصادر البحث قاصرة عن تقديم مادة أولية كفيلة بتتبع الثورات الاجتماعية وتأطير أسبابها، وانطوت في السياق ذاته على تباين واضح فيما يخص معطياتها المتعلقة بالمرابطين والموحدين والمرينيين، إلا أن ذلك لم يمنعنا من نرى أن رد الفعل الاجتماعي تجاه السلطة السياسية الوسيطية، كان محكومًا بالتقبل التنظيمي القائم على مشروع الرسالة المؤسسة لميلاد السلطة وجوهر الفتح الاجتماعي، أي الأساس الذي تفرض عليه الضرائب سواء من خلال أسلوبها في الجباية أو عبر وجوه صرفها، لذا كانت القبائل تثور وترفع راية العصيان عندما يتباين السلوك الجبائي مع المنطلقات التي أسست للمشروع السياسي ودعمته، لذا تحاول عبر الأسلوب الثوري العنيف أن تتحلل من الرابط الذي يجمعها بالسلطة الحاكمة، وهو الضريبة وإن كنا نعي بأن هذا – الأخير – لا يعد الصيغة الوحيدة الدافعة للعصيان القبلي، وظهور بؤر الانتزاء ومحاولات الاستقلال، أمام هذا الوضع لم تكن السلطة لتتورع في تنظيم حملات ذات لبوس ديني، وبدافع ضريبي تتخذ في غالبيتها طابعًا تغريميًا وانتقاميًا في أحيان أخرى، بهدف ضمان التدفق المالي والضريبي وتثبيت و"إدامة" التبعية السياسية.

إن الفصول التي كونت متن هذا العمل، قد سمحت لنا باستنتاجات حكمتها رؤيتنا للموضوع والمنهجية التي أسهمت في سبك تصوراته، وهي استنتاجات تبقى منفتحة وقادرة على التكيف مع المعطيات المعرفية والمنهجية، ومع النقد البناء وغير منساقة بشكل لا ينسجم وروح المتون التي اعتمدناها قاعدة مرجعية لعملنا، خاصةً وأن انعدام دراسات دقيقة حول الموضوع، لا يسمح لنا بالتأسيس والذهاب بعيدا في تحليلاتنا ورسم حدود دقيقة لحقيقته التاريخية، وإذا تعذر علينا تقديم عمل في مستوى الطموح الذي يقتضيه البحث العلمي الرصين المؤطر بشروط مناسبة ومساعدة، فعلى الأقل حاولنا تقديم عمل قد يجد موقعه في مستوى قصد الحقيقة بمعناها التاريخي، وأن يكون أقل سوءًا وأكثر تحفيزًا لغيرنا بغية تجاوز أخطاءه كما قال الأستاذ المرحوم الجابري.

## خلاصات واستنتاجات

حاولنا في هذا العمل، اتخاذ موضوع الضريبة منطلقًا وأفقًا للتحليل والتفكير، على الرغم من أن الإنتاج المصدري –داخل الثقافة الإسلامية عمومًا– لم يتم تحقيقه ونشره، ثم إخضاعه لضرورة البحث وفق الحاجيات المعرفية والمنهجية التي يفرضها السؤال، وتقتضيها الشروط الحضارية، لذا كانت الحاجة ماسة إلى بناء الموضوع عبر تكوين متن من الوثائق ذات الطبيعة المختلفة والتي لا تتحدد بحدود، أو تتعين بحقيقة، أو توصف بيقين، فبدا أن أقصى ما نروم الوصول إليه هو الترجيح، والشكل الافتراضي القابل للرد والتأييد، استنادًا إلى خلفية معرفية ومنهجية، قوامها طبيعة النصوص التي شكلت إطارًا مرجعيًا للأطروحة، والتي يمكن أن نسمها بخاصيتين:

- خاصية أولى، وتهم المصادر التي عنيت بالجهاز التشريعي الصرف، واتخذت صفة الأبدية، والاستمرارية المطلقة، ونخص بالذكر كتب الأحكام، والخراج، والأموال. أما التي اهتمت برأس المجتمع ونفت قاعدته وتتصدرها كتب الآداب السلطانية، وهذه العينة من المصادر لم تؤسس لوعي قادر على الاستجابة لمتطلبات وحاجيات الواقع بقدر ما استكانت إلى فلسفتها في تطويع الواقع لخدمة أغراضها النظرية والتشريعية والتبريرية.
- خاصية ثانية، وتنضوي تحت لوائها الحوليات التاريخية، وكتب الجغرافيا، والنوازل، وهذه النوعية، وإن نهلت من الواقع، فقد تغاضت على تموجاته، وظواهره الخلفية، والتي ساهمت في توجيه العديد من الوقائع والأحداث، فكان أن تميزت بتماثل معطياتها، وبصعوبة تأطير وقائعها زمنيًا.

انطلاقًا من حصاد الحصيلة المصدرية والمعرفية، تناولنا في الباب الأول، قضايا إشكالية، تهم المنظور العام للموضوع الذي نحن بصدده منها منظور الثقافة الإسلامية للمال، من خلال الفصل الأول، وتبين من خلال متابعة بعض المصادر المؤسسة لهذه الثقافة، أنها لم تستطع أن تؤسس وعيًا موضوعيًا، يستجيب لمضمون الأحداث، والوقائع التاريخية التي ساهم المال في نسج وتحريك خيوطها، بل واعتبر المال مقومًا مهمًا كان له الأثر الكبير في توجيه التاريخ الإسلامي عمومًا، بدءًا بعملية الفتح وما قدمته من غنائم، ومرورًا بأنظمة الخراج والضرائب، وصولاً إلى أهمية المداخيل التي وفرتها سواء تجارة الداخل أو الخارج. لذا كانت الثقافة الإسلامية أسيرة وعي يتجاوز الزمن ويعلو عليه بغرض أن ينسجم مع الإطار المعياري الديني، الذي يؤسس لأداتية المال وصيغته الدنيوية، ويمكن أن نعتبر ابن خلدون من الذين حاولوا أن يصوغوا معالم نظرية في الضرائب، انطلاقًا من أهميتها، وزمن وقوعها، وبأشكال التأثيرات التي تحدتها في المجتمع، أو على مستوى علاقة الضريبة بمشروع الدولة التأسيسي، أو تراجع وإسقاط سلطتها وهيبتها.

وفي مستوى ثاني وفي ما يتعلق بالفصل الثاني من الباب الأول، والذي تأطر ضمن إشكالية المصطلحات الجبائية وأنواعها، تبين أن الضرائب تختلف في التسميات ولا تتوحد بالضرورة في المعنى، خاصةً وأن هناك أنواعًا من الضرائب يرتبط ميلادها وظرفيتها التاريخية بالمناخ العسكري، مما يجعلها ضرائب سيادة تبغي القضاء على حالة الفوضى، وتكريس سلطة الدولة، بما يعني ذلك من توحيد النسيج الضريبي، وسيادة الدولة ذات الطابع المركزي، كما أن الحقبة موضوع الدراسة، أبانت عن تواجد أنواع كثيرة من الضرائب، اختلفت تسمياتها باختلاف وتنوع أغراضها ونشاطها، غير أنها على وجه الإجمال شكل من أشكال الحقوق المقدمة للدولة، نظير الحماية وتوفير سبل ممارسة أنواع الأنشطة الاقتصادية، الفلاحية والتجارية، وعرض أنواع السلع والمير في الأسواق.

وحاول الفصل الثالث من الباب الاول، أن يرصد أنواع الضرائب، مركزًا اهتمامه على الضرائب الفلاحية والتجارية، التي سادت خلال فترة حكم الدول التي سادت المجال المغاربي في العصر الوسيط، ليخلص هذا الرصد إلى تعدد وتنوع هذه الضرائب، التي كرست أسلوب الدولة في عدم خلق فرص المنافسة، وحافز الربح، وتكبيل النشاط الفلاحي والتجاري على السواء بأنواع من الرسوم، التي انعكست بشكل جلي على تآكل المنتوج، جعل الدولة تعجز عن تطوير اقتصادها، مثلما لم يستطع الفلاح والتاجر تنمية مواردهما.

وفيما يتعلق بالإقطاع الجبائي، والذي كان محور اهتمامنا في الفصل الرابع، أمكن الحديث عن السياسة الإقطاعية عند دول العصر الوسيط، انطلاقًا من سيادة الإقطاع الجبائي الذي ميز سياسة هذه الدول، استنادًا إلى أن هذا النوع من الإقطاع كان مرهونا ببنية السلطة نفسها، والتي قامت على أساس قبلي، وطبيعي أن يتمخض عن ذلك، إقطاع جبائي، خاصةً، وأن الإقطاع في المرحلة قيد الدرس قد افتقر إلى عنصر التمليك والتصرف الحرين، وهوما يعني أن هذا النوع من الإقطاع،

حركته الحاجة الماسة للمال من طرف الدولة، مادامت هي المالك الأسمى للأرض.

وفي ضوء ما تم رصده من المعطيات، أمكن تأطير الفصل الاول من الباب الثاني، ضمن العلاقة التي تجمع بين الضريبة والمجال السياسي، فأبان هذا الرصد أن الضريبة وجهت الحدث السياسي منذ المراحل الأولى للسلطة السياسية، فكان أسلوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي رافق ميلاد هذه السلطة لا يكتسي بعدًا دينيًا صرفًا، بقدر ما كان وسيلة للتدخل في شؤون السلطة، الحاكمة عبر إسقاط المكوس والمغارم. وخلال جميع مراحل الدولة، كان لأسلوب إسقاط المغارم دور في كسب مشروعية السلطة، سياسيًا واجتماعيًا، وأي تحول عن هذا المسار، كان يعني تصدع السلطة، وبداية تعفن مقومات وجودها، بشكل دفعنا إلى اعتبار الضريبة بنية وجهت المسار السياسي والاجتماعي، ونمطت حقل المشروعية، وكأن التغيير كان تغيير أحداث ووقائع، لا تغيير بنى وقوى اقتصادية.

وفيما يخص موقف المجتمع من الضرائب، أمكن تأطير الفصل الثاني من الباب الثاني وفق موقف بعض الفقهاء والمتصوفة من الضرائب المستحدثة. فبالنسبة للمرحلة المرابطية، ساد الموقف الصوفي بمواقفه المعلنة والواضحة من الضرائب، أمام الفقه الذي انغمس في الحياة السياسية المرابطية، وظل حضوره باهتًا فيما يخص موقفه من الضرائب المحدثة باستثناء إشارات قليلة.

أما في العصر الموحدي، فيكاد موقف الفقهاء يكون غائبًا أمام المتصوفة، الذين جعلوا من الضرائب واجهة نضالية، اكتست طابع المواجهة مع السلطة، من خلال معانقتها لآمال وطموحات مختلف الشرائح الاجتماعية. على أن العصر المريني، تميز بالموقف الجاد للفقهاء والمتصوفة من مسألة الضرائب المحدثة، وذلك راجع بالأساس، لقوة هذين التيارين، من جهة، وغياب المشروع الديني والمقوم العقائدي في ميلاد السلطة المرينية. غير أن موقف المجتمع، لم يقتصر على الفقهاء والمتصوفة فحسب، بل تعداه إلى مختلف الشرائح الاجتماعية، وهذا كان موضوع الفصل الثالث من هذا الباب، فتبين أن الثورة غطت جميع مراحل الدول الوسيطية، وحاولت أن تضفي عليها مسوحًا عدة بهدف شرعنة وجودها، غير أن اللبوس الضريبي كان ذا أثر كبير في إذكاء نارها، وأوارها.

فإذا كانت ثورات مرحلة البداية، أي مشروع التأسيس تهفو إلى قياس وتقييم شعار العدالة الضريبية، والشرعية أساسًا فإن مرحلة الدولة طبعتها الثورات المؤطرة برفض منطق السلطة في تدبير المسألة الضريبية عبر المستوى الإداري المؤسساتي، وذلك ما توضحه ثورات الأندلس في العهد المرابطي، أو الثورات التي استعر أوارها في العصر الموحدي والتي كانت موشومة برفض أسلوب اليد الثقيلة للدولة، أما ثورات مرحلة التأسيس في العصر المريني، فقد أبانت عن رفض السلطة المرينية، والتي قامت على العنف الضريبي مقابل الأمان. وفيما يخص المراحل الأخيرة من عمر المركزيات الوسيطية، فقد شابتها ثورات حاولت التخلص من التبعية الضريبية، مستغلة في ذلك انفراط وأفول ظل الدالة، رافضة تأدية الضرائب، معترفة بالسلطة الدينية، رافضة وجوه صرف هذه الضرائب التي خصصت لتمويل الجيش واستخدامه لقمع، وسحق القبائل العاصية من أجل ضمان مزيد من الضرائب.

استنادًا إلى ما تم استخلاصه من موقف المجتمع وعلاقته بالسلطة عبر المستوى الضريبي، تبين أن للأسلوب الإداري دور في ذلك، فكان لزامًا علينا، أن ندرس الإدارة المالية لدى المركزيات الوسيطية، التي أوضحنا فيها أن المسألة الضريبية تتطلب وجود مؤسسات ذات سلطة، يتم استخدامها بفعالية بغرض تأمين الموارد المالية، وضمان استمرار تدفقها، فاتضح أن هذه المؤسسة لا تحضر بالوزن نفسه وبالتنظيم عينه عند جميع المركزيات، وتتباين مستويات فعاليتها انسجاما مع مراحل هذه السلط، فالتجربة المرابطية عانت من ضمور هذه المؤسسة أمام فعالية الحضور الوازن للقبائل والعسكر في تسيير دواليب هذه الإدارة، في مقابل وضوح بعض معالم هذه المؤسسة عند الموحدين، من خلال دار الإشراف بالرغم من الاعتماد على القبائل وقوة الجيش.

أما التجربة المرينية فكانت هذه المؤسسة تغيب لصالح طبيعة السلطة ومنطقها في التوزيع والإقطاع، وذلك في غالبية مراحلها، وإذا كانت عناوين المصادرة والعزل، وبعض أسماء الإداريين، وبعض الأرقام، توحي بوجود إدارة خاصة عند المرابطين والمرينين، فإن ذلك لا يضمن الحديث عن مؤسسة قائمة الذات، تتوزع المجال الترابي عامة، عكس التجربة الموحدية، التي أبانت عن مستوى إداري فعال تجلى في الإشراف، وتنظيم الموانئ، غير أن هذه التجارب الوسيطة شابها عطل كبير، تجلى في طموح المخزن للتواجد في أنحاء عديدة، والذي كان يوازيه قصور في امتلاك الأدوات الإدارية التي تخول له ذلك، فعملية الفتح-الغز ولم يوازيها تأطير إداري وتنظيم ترابي. وبالمقابل، عانت الأجهزة الإدارية المالية من الأعطاب نفسها، على مستوى وجوه الصرف والإنفاق، وعلى مستوى الأسس التي يمكن الاستناد إليها في بناء الضريبة، وعلى فلسفة إصلاح النظام الضريبي عبر تسهيل قبوله من طرف المجتمع، وتحسين مردوديته.

عرض أطروحة

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].
ملف العدد

# مصر وفلسطين في رحلة البلوي (ت. قبل ٧٨٠هـ)
# دراسة مقارنة




**د. عمار مرضي علاوي**
أستاذ مساعد التاريخ الإسلامي
قسم التاريخ – كلية الآداب
الجامعة العراقية – جمهورية العراق



## مُلَخّصْ

امتاز عصر المماليك (١٢٥٠ -١٥١٧) بكثرة عدد الرحالة سواء كانت للعلم أم للتجارة أو للحج والعمرة وغيرها، بسبب التسهيلات التي منحتها دولة المماليك فضلاً عن تأمين الطرق والمرافق العامة التي تخدم ذلك. لذلك تُعَدّ كتب الرحلات مصدرًا مهمًا في دراسة أحوال البلدان والتعرف على مقدراتها وطبيعة عيشها، فضلاً عن المظاهر الحضارية فيها. ذلك أن هذه الكتب تكون أصدق وأقرب للواقع كونها تلامس الحياة العامة من خلال التجوال والترحال، والوصف الدقيق لمعالم الحياة هناك. ورحلة البلوي هي واحدة من تلك الرحلات المهمة التي سلطت الضوء على الحياة العامة في مصر وبلاد الشام في ظل دولة المماليك البحرية، وعكست الواقع الطبيعي للمظاهر الحضارية دون زيادة أو تكلف. وفي هذه الدراسة نحاول أن نعرف مدى مصداقية وصف البلوي للمدن المصرية والشامية، بمعنى هل كان وصفه نابعًا من مشاهداته، أم نقلاً من رحالة آخرين؟ كذلك التعرف على مدى دقة الوصف الذي وصف به المدن مقارنةً بغيره من الرحالة؟ ومن بين الأمور التي نبحث عنها في هذه الرحلة هي مدى التطور العلمي والثقافي الذي عاشته مصر وبلاد الشام في ظل المماليك، وما هو دور السلاطين في ذلك؟ أخيرًا وليس آخرًا معرفة أهمية كل من مصر وبلاد الشام عند البلوي، بمعنى هل البلدين كانا بالأهمية نفسها عنده أم لا؟ وما هي الأسباب التي أدت إلى تفضيل البلد على الأخر؟ كل هذه الأسئلة الافتراضية نحاول جاهدين للإجابة عليها من خلال التمعن والتدقيق في وصف البلوي، ومقارنته بما وصفه رحالة معاصرين له أو متأخرين كي نصل إلى رؤية واضحة حيال أهمية الرحلة وتميزها عن غيرها.



**بيانات الدراسة:**

تاريخ استلام البحث: ٠٢ مايو ٢٠١٧
تاريخ قبـول النشـر: ٠١ يوليو ٢٠١٧

**كلمات مفتاحية:**

التاريخ الإسلامي، الرحلة والرحالة، عصر المماليك، الإسكندرية، القدس، القاهرة

**معرِّف الوثيقة الرقمي:** DOI 10.12816/0045100

**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**

عمار مرضي علاوي، "مصر وفلسطين في رحلة البلوي (ت. قبل ٧٨٠هـ) دراسة مقارنة".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد السابع والثلاثون؛ سبتمبر ٢٠١٧. ص١٥٥ – ١٧٣.


## مُقَدِّمَةُ

قبل التطرق إلى السيرة الشخصية والعلمية للرحالة البلوي، لا بد من إلقاء نظرة على عصره ومدى أثره على نتاجه العلمي المتمثل بالرحلة والتأليف.

عاش البلوي في دولة ملوك بني نصر أو ما يعرف ببني الاحمر في الأندلس (٦٣٥ ـ ٨٩٧ هـ)، وهم ينتسبون إلى مؤسس دولتهم محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن حسين بن نصر بن قيس الأنصاري، الذي كان يعرف بالشيخ وابن الأحمر، فسميت الدولة باسمه(١). وأشاد ابن الخطيب بنسبهم وأثرهم في توحيد الأندلس قائلاً(٢) "وجمع الله الأندلس على قوم من خيار الأمة ممن الجهاد شأنهم، والفلح معاشهم، والنجدة شهرتهم، والى سعد بن عبادة سيد أنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم نسبهم". وفيما يخص قيام دولتهم فإن الضعف العام لدولة الموحدين وكثافة هجمات النصارى على الأندلس، حفز محمد بن يوسف للخروج لمقاتلتهم وأظهر شجاعة، الأمر الذي أدى إلى مبايعته بالإمارة سنة ٦٢٩هـ(٣). وعلى الرغم من أنه قطع البيعة لابن هود، إلا أنه خلعها ودخل مدينة غرناطة سنة ٦٣٥هـ، فبايعه أهلها واتخذ المدينة عاصمة لدولته.(٤)

عاصر البلوي ملوك بني نصر لاسيما عصري السلاطين أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل (٧٣٣ ـ ٧٥٥ هـ) الذي اتسم عصره بطابع محاربة النصارى، من خلال الاستنجاد بالسلطان أبو الحسن المريني، وكانت المعارك بينهما سجالاً ولعل معركة طريف سنة ٧٤١هـ كانت شاهدًا على ذلك والتي انتهت بهزيمة بني نصر.[٥] اتسم عصر السلطان أبو الحجاج بالسلام والأمن، لكنه ما لبث أن قتل أثناء صلاته بالمسجد الجامع.[٦] والسلطان الثاني الذي عاصره هو الغني بالله محمد بن يوسف الأول (٧٥٥ - ٧٦٠ هـ) الذي تولى الحكم بعد وفاة والده على الرغم من صغر سنه، وبقي في الحكم إلى أن خلعه أخوه أبي الوليد إسماعيل بن أبي الحجاج يوسف(٧٦٠ ـ ٧٦١هـ) الذي لم يدم حكمه سوى عامًا واحدًا بسبب الانقلابات بين الملوك والأمراء[٧]. وتشير المصادر إلى أن إسماعيل لم يحسن إدارة الدولة وانغمس في اللهو، الأمر الذي شجع ابن عم والده محمد بن إسماعيل للاستحواذ على الحكم ومن ثَمَّ قتله.[٨]

ويبدو أن البلوي تأثر كثيرًا بهما لدرجة أنه ذكرهما في مقدمة رحلته قائلاً:[٩] "ويخص بالتأييد والحسنى والمزيد، رافع رايات فخرهم والقائم بأعباء نصرهم والمجدد لآثارهم ومآثرهم، والمحيي لمكارمهم ومفاخرهم، فخر الملوك الجلة وناصر الملة، والبدر الذي زان أفق الملك من ابنائه السعداء والأمراء بالنجوم والأهلة، إمام الهدى وغمام الندى، وحسام الله المسلول على العدى مولانا السلطان أمير المسلمين وناصر الدين أبا الحجاج يوسف بن مولانا السلطان هازم أحزاب المشركين، وقد جاشت، ومسلط سيوفه العضاب على عاتي تلك الرقاب فما استنت ولا حاشت، أمير المسلمين المقدس السعيد الشهيد أبي الوليد بن نصر... ".

وفيما يتعلق بالحركة الفكرية نجد أن بلاد الأندلس تحت حكم سلطنة غرناطة قد امتازت بقوة العلوم ونضجها، على الرغم من أن الكثير من المفكرين والأدباء والكتاب المتأخرين، قد هاجروا إلى البلاد الأخرى، لما رأوا من أن بلدهم آيل للسقوط نتيجة الأحداث الجسام؛ فسلطان الموحدين أخذ ينهار بسرعة، وثورة ابن هود نشبت في الولايات الشرقية، وأخذت القواعد الأندلسية تسقط تدريجيًا بيد النصارى، وإزاء هذه الفوضى السياسية التي اجتاحت الأندلس ضعفت الحركة العلمية واضطر الكثير من الكتاب والعلماء إلى ترك البلد.[١٠] وخير دليل على ازدهار الحركة الفكرية ما ذكره المقري بقوله[١١] "إنهم أحرص الناس على التميز في هذا الجانب، والعالم عندهم معظم من الخاصة والعامة يشار اليه ويحال عليه، وينبه قدره، وذكره عند الناس ويكرم في جوار أو ابتياع حاجة". لذلك نجد أن سلاطين بني الأحمر كانوا يشجعون على العلم ويوفرون البيئة المناسبة للحركة العلمية بصورة عامة، فيذكر أن السلطان أبو الحجاج يوسف كان أكثر السلاطين فضلاً وعقلاً واعتدالاً، وكان يقرب أهل العلم لجنبه بدلالة استيزاره للسان الدين بن الخطيب.[١٢]

كذلك فعل السلطان محمد الذي قرب أهل العلم مثلما فعل والده، فقد قرب اليه المؤرخ الشهير ابن خلدون وأحسن إكرامه.[١٣]

ومن ضمن تقدير أهل الاندلس للعلماء أن لفظة فقيه عندهم لها مكانتها ولها مدلولاً رفيعًا، حتى أن الأمير العظيم منهم إذا أرادوا تنبيهه يسمونه بالفقيه.[١٤] ولم تعرف الأندلس التدريس في المدارس على غرار ما موجود في المشرق الإسلامي، اذ كان التدريس مقتصرًا على المساجد، ولعل أول مدرسة عرفت في الأندلس هي المدرسة النصرية التي أنشأها أبو الحجاج يوسف الأول سنة ٧٥٠ هـ.[١٥] وأدت المساجد دورًا كبيرًا في رفد الحركة العلمية، يذكر أن السلطان محمد الفقيه قام ببناء المسجد الجامع الذي عدّ من أعظم مآثره الخالدة.[١٦]

## سيرة البلوي الشخصية والعلمية

يجد الباحث في أغلب السير الشخصية للكتاب غير المشهورين على مستوى العالم الإسلامي صعوبة في بناء تصور واضح لها، وذلك بسبب سكوت معظم المصادر التاريخية المعنية عنها، لكونه لم تكن له الشهرة قبل سطوع نجمه سواء بالتأليف أو القيادة، لذلك تأتي السير ناقصة ويشوبها الكثير من علامات الاستفهام. وسيرة البلوي هي واحدة من تلك السير التي جاءت ناقصة المعلومات مما يحرمنا من معايشة حياته قبل بروزه كرحالة.

على العموم كاتب الرحلة هو أبو البقاء خالد بن عيسى بن أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد البلوي[١٧]، ينتسب لمدينة قنتورية[١٨] التي نشأ بها وتعلم فيها.[١٩] كذلك غفلت المصادر تاريخ ولادته لكن محقق الرحلة قدرها بسنة ٧١٣هـ.[٢٠] وفيما يخص سيرته العلمية نجد أن أسرته كانت علمية بحتة إذا ما عرفنا أن والده كان قاضيًا لمدينة قنتورية، فنهل بدايةً من والده العلم الكثير، ثم انتقل إلى غرناطة وأتم دراسته الشرعية فيها، كما أخذ في مدينة فاس العلم عن عدة علماء، وانتقل إلى بلاد المشرق الإسلامي لينهل من علومها، ثم عاد بعد رحلته الشهيرة إلى الأندلس ليصبح أحد رجال الفقه والعلم، لدرجة أنه أصبح قاضيًا لقنتورية، وحط رحاله في برشانة[٢١] التي دون فيها رحلته الخالدة.[٢٢]

ونتيجة لعلمه وفضله أن قام السلطان الحفصي أبو يحيى بن أبي زكريا (٧١٨ ـ ٧٤٧هـ) باستكتابه سنة ٧٤٠هـ.[٢٣] فضلاً عن توليه للقضاء في مدينته قنتورية وفي برشانة، وتدريسه في مدرسة الإسكندرية.[٢٤] أثنى عليه العلماء المعاصرين له، فقد وصفه ابن الخطيب[٢٥] وغيره بقوله "هذا رجل من أهل الفضل والسذاجة، كثير التواضع حسن الأخلاق، جميل المعاشرة، ومحب في الأدب...". وقال عنه ابن القاضي[٢٦] "كان ذو خط رائق".

وفيما يتعلق بوفاته فلم يقف عليها أحد من المؤرخين المتأخرين، ومن الذين ذكروا وفاته البغدادي[٢٧] الذي قال أن وفاته كانت بعد سنة ٧٣٧هـ؛ ثم الزركلي[٢٨] الذي ذكر أنها بعد سنة (٧٦٥ هـ/ ١٣٦٣م). ويرجح محقق الرحلة أن وفاته كانت قبل سنة (٧٨٠هـ)، بدليل أن ابن الخطيب ذكره في كتابه الريحانة الذي ألفه سنة (٧٨٠هـ) وترجم عليه.[٢٩]

## التعريف بالرحلة

الكتاب عبارة عن رحلة قام بها البلوي إلى بلاد المشرق الإسلامي، سماها (تاج المفرق في تحلية علماء المشرق)، وسبب هذه التسمية هي لقصد الحج وطلب العلم، إذ كانت الرحلة سنة (٧٣٦ هـ/ ١٣٣٥م) في يوم السبت الثامن عشر من شهر صفر، ثم عاد إلى موطنه يوم الاثنين في بداية شهر ذي الحجة سنة (٧٤٠ هـ/ ١٣٣٩م)، وبذلك تكون رحلته أربع سنوات وتسعة أشهر واثنا عشر يومًا. وبعد عودته إلى موطنه قام بمراجعة الرحلة فأكملها في برشانه في اليوم الأخير من شهر ربيع الأول سنة ٧٦٧هـ، وأضاف اليها تقريظ العلماء والأدباء الذين اطلعوا عليها [٣٠]، ثم نسخها حفيده خالد بن أحمد بن خالد من مبيضة جده وأتمها ببرشانه في الحادي والعشرين من شهر صفر سنة ٨١٩ هـ.[٣١]

قام البلوي[٣٢] بتدوين أخبار رحلته قائلاً "تقييد أطلعه هون من الله وتأييد، قصدت به ضبط موارد الرحلة الحجازية، وذكر معاهد الوجهة المشرقية، جعلها الله تعالى في ذاته وابتغاء مرضاته، بمنه وكرمه، وألممت مع ذلك بذكر الشيوخ من العلماء الفضلاء، الذين يطئون ذيول البلاغة، ويجرون فضول البراعة ولهم كلام يتألف منه شعاع الشرق، ويترقرق عليه صفاء العقل.. وألمعت بذكر نبذ من فوائدهم، واختيار طرف من أناشيدهم.. ولما بوبت ما ألفت ورصعت ما جمعت وشعشعت ما وضعت، فجاء كما تراه حسن الزي عذب الري، عالي القدر، غالي الدرر، مسبوك الحلية والتبر، فيه للسمع مراده، وللفكر معاد، وللألباب مسرح ومرتاد، سميته بتاج المفرق في تحلية علماء المشرق، ودعوت الله تعالى في مواطن الإجابة أن يوفقني فيه للإجادة والإصابة، وأن ينفع به كل من يلتمس النفع به في المطالعة أو بالكتابة".

## أهمية الرحلة

إنّ المتصفح لكتاب تاج المفرق، لا يجده كتابًا مبوبًا أو مقسمًا إلى أبواب، بل وحتى عناوين فرعية، إنّما هو سرد وتشخيص لأهم المعالم التاريخية والجغرافية التي زارها ووقف عليها. تُعَدّ هذه الرحلة من الرحلات الأدبية القائمة على النثر المليء بالسجع، مستوفيًا بها شروط الرحلة الأندلسية والمغربية من الاهتمام بالقضايا الفكرية المثارة في عصره، والترجمة لأعلام العلماء المأخوذ عنهم من الكتب العلمية المشهورة التي كانت في غاية الطلب، والدواوين الشعرية المتناقلة بين الناس، فعدت رحلته من تلك النماذج للرحلات الأندلسية.[٣٣]

وفيما يتعلق بمنهجه في كتابة الرحلة، فهو يقوم بذكر العلماء والرجال ترجمة كاملة من حيث الاسم واللقب وتاريخ الولادة وتأليفهم، وحتى يذكر السند في الأخذ عنهم[٣٤]. كذلك قام بوصف جغرافي للمدن والقرى التي مر عليها بدون إسهاب أو إخلال.[٣٥] ومن المؤاخذات التي سجلت عليه، أنه نقل من وصف الرحالة ابن جبير في ما يتعلق بوصف مدن مصر، ورغم دفاع محقق الرحلة عن البلوي إلا أن محقق رحلة ابن جبير أشار إلى ذلك.[٣٦] ولم يغفل بذكر الأحوال السياسية والاجتماعية بل وحتى النقوش التي شاهدها على المسجدين الحرام والنبوي،[٣٧] فضلاً عن ذكره للمدارس الدينية أمثال المدرسة السراجية في الإسكندرية.[٣٨]

ولم يغفل ذكر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة التي استعان بها في وصف المدن أو دعم الحركة العلمية المنتشرة في المشرق الإسلامي.[٣٩] وبالجملة فإن رحلة البلوي هي ثروة علمية جمع فيها تجربته العلمية الوصفية لبلاد المشرق الإسلامي، ويكفي مدحًا لها أن وصفها المقري[٤٠] بقوله: "وهذه الرحلة المسماة بتاج المفرق مشحونة بالفوائد والفرائد، وفيها من العلوم والآداب ما لا يتجاوزه الرائد".

## خط سير الرحلة

من خلال تتبع رحلة البلوي نجد أنه اتبع طريقًا طويلة ولمسافات متباعدة تدل على أنه عارف بالطرق ومسالكها، وحب السفر ومشاقه.

خرج من بلدته قنتورية متجها نحو تلمسان[٤١]، والجزائر، وبجاية [٤٢]، وقسنطينة[٤٣]، وبونة (العناب) [٤٤]، إلى أن وصل إلى مدينة تونس. ومن تونس إلى قوسرة[٤٥]، ومالطة[٤٦]، وأقريطش[٤٧]، وقبرص[٤٨]، ثم غادر إلى الإسكندرية والقاهرة عن طريق البحر، ومن مصر اتجه نحو بلاد الشام (مدن فلسطين) عن طريق البر في يوم الاثنين الثامن والعشرون من رجب سنة ٧٣٧ هـ، فحط رحاله في غزة[٤٩] في السابع من شهر شعبان، وفي التاسع من شعبان وصل الخليل[٥٠] فبقي فيها أربعة أيام، ثم إلى بيت المقدس في الثاني عشر من شعبان وبقي بها قرابة الشهرين، ثم رحل منها مع الركب الشامي نحو الحجاز للحج في الثاني عشر من شوال، فوصل الكرك[٥١] في الثالث والعشرين من شوال، ومنها سلك الطريق البري المؤدي إلى مكة المكرمة، وأدى فيها فريضة الحج لسنة ٧٣٧ هـ.

ومن مكة سار مع الركب المصري إلى المدينة المنورة فوصلها يوم الخميس في الرابع والعشرين من ذي الحجة، ثم رحل عنها في نفس اليوم إلى عقبة آيلة [٥٢] ومنها إلى فلسطين بقصد الزيارة (المرة الثانية له) وذكر ذلك بقوله[٥٣] "إلى أن وردنا ماء العقبة الكبرى على ساحل البحر وهي التي تسمى عقبة آيلة، يجتمع عندها من الناس من الشام ومصر وغيرها للقاء الركبان، والسؤال عن الاحباب والاخوان... ". ومنها وصل إلى مدينة الخليل في الثالث والعشرين من محرم سنة ٧٣٨ هـ، ثم غادرها إلى القدس الذي اجتمع بأخيه محمد هناك، وبقي فيها حوالي سبعة أيام، ثم غادرها إلى مدينة الرملة،[٥٤] ومنها إلى عسقلان[٥٥] وغزة، حتى وصل إلى قرية قاطية[٥٦] في العاشر من شهر صفر، إلى أن وصل إلى القاهرة في الرابع عشر من صفر، ومنها اتجه إلى الإسكندرية، ثم طرابلس حتى وصل إلى تونس، وأقام بها قرابة سنتين ثم عاد بعدها إلى مسقط رأسه قنتورية.[٥٧]

## المبحث الأول: أهمية مصر عند البلوي

جاءت رحلة البلوي إلى مصر وبلاد الشام في القرن الثامن الهجري، بحدود سنة ٧٣٧ هـ، وكان يحكم هذان البلدان دولة المماليك البحرية. وفيما يخص مصر فإن البلوي اقتصر في زيارته على الإسكندرية والقاهرة، وسوف نقوم بدراسة الوصف الجغرافي والعمراني والعلمي لمصر.

**١/١- وصف المدينة وبناءها:**

قام البلوي بوصف مدينتي الإسكندرية والقاهرة وصفًا دقيقًا في الأمور التي شاهدها أو التي اقتبسها من مصادر أخرى، وهذا الوصف له أهميته ذلك أنه يعطي انعكاسًا لأهمية المدن ومدى تطورها ورقيها. بالنسبة لمدينة الإسكندرية التي وصفها البلوي فقد زارها ثلاث مرات ما بين سنتي ٧٣٧ و٧٣٨ هـ. ففي المرة الأولى كانت في ليلة الجمعة الثالث عشر من جمادى الآخرة لسنة ٧٣٧ هـ، وفور وصوله إلى الإسكندرية استقبله أهلها بالحفاوة وبدأ ينشد قائلاً:[٥٨]

فنسينا ما لقينا وكأنا ما شقينا

وخلصت من حجر الأسى لمسرة

فتنت بها الأبصار والأسماع

وظفرت من زمني بحظ لم يزل

بيني وبين الدهر فيه نزاع

ثم وصف المدينة وصفًا جغرافيًا دقيقًا بقوله:[٥٩] "فلم أر مدينة أحسن منها وضعًا ولا أبدع ربعًا، ولا أسع مسالك ولا أعلى مباني ولا أسمى مراقي، ولا أجمل مراسم، ولا أوضح معالم، ولا أملح أزقة، ولا أعجب رونقًا ورقة، ولا أحسن تفصيلاً وجملة.. فكأن محاسن الدنيا فيها مفروشة، وصورة الجنة فيها منقوشة، كوكبها يقظان، وجوها عريان، وحصاها جوهر ونسيمها عطر، وترابها مسك أذفر، ويومها غداة، وليلها سحر، وكفاها أن ليلها كالنهار في تصرف العباد، وإعادة مساءها كصباحها، وهو غير المعتاد".

لم يقتصر هذا الوصف على البلوي، بل أن العبدري[٦٠] وصف المدينة وصفًا شاملاً عندما قال عنها: "مدينة فسيحة الميدان، صحيحة الأركان، مليحة البنيان، تسفر عن محيا جميل المنظر، وترنو بطرف ساج أحور، وتبسم عن ثغر كالأقحوان إذا نور، كأنه لم يغب عنها، شخص الإسكندر، بما ساس فيها من عجائب مبانيها ودبّر، ناهيك بمدينة كلها عجب، قد ستر حسنها حسن غيرها وحجب، ووفّي فيها الإتقان حقه كما وجب، وقد أغنى عن تسطير وصفها ما سطره الاعلام، وضرب به الأمثال على المهارق بالأقلام".

ويذكر البلوي أن مدينة الإسكندرية هي التي سماها الله في كتابه ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾[٦١] إلا أن ذلك القول الذي اختاره البلوي معتمدًا على بعض الأقوال في التفاسير ضعيفة ولا يمكن التسليم بها كما ذكر ابن كثير[٦٢] لأن المقصود بذلك هم عاد الأولى وحينما ذكر ذات العماد فالمقصود هنا عطف بيان زيادة تعريف بهم، وكذلك معنى التي لم يخلق مثلها في البلاد، أي لم يخلق مثل تلك القبيلة في البلاد.

وينقل البلوي عن ابن سعيد[٦٣] قوله أن بناء المدينة استغرق ثلاثمائة سنة. ويتكرر نقل البلوي عن الجغرافيين والرحالة دون الإشارة إليهم، ففي معرض حديثه عن عجائب الإسكندرية "أن أهلها مكثوا سبعين سنة لا يمشون فيها بالنهار إلا معصبين الأعين بخرق سود خوفًا على أبصارهم من شدة بياضها".[٦٤] وتحدث البلوي عن بناء المدينة بأنه من العجائب، إذ أن بنائها تحت الأرض كبنائها فوقها، بل وأعتق وأمتن، ويعلل ذلك بأن الماء من نهر النيل يخترق جميع ديارها ويتخلل جميع أزقتها تحت الأرض، لذلك تتصل الآبار بعضها ببعض.[٦٥] وفي معرض حديثه عن فتح الإسكندرية ذكر قولاً لوالي مصر عمرو بن العاص الذي فتح مصر، نقلاً عن الكلاعي[٦٦] بقوله: "أما بعد فإني فتحت مدينة لا أصف ما فيها غير أني أصبت فيها أربعة آلاف منية بأربعة آلاف حمام، وأربعين ألف يهودي عليهم الجزية، وأربعمائة حلة للملوك".[٦٧]

**٢/١-وصف الحياة الاقتصادية:**

اكتفى البلوي بذكر المزروعات والمصانع الموجودة في الإسكندرية والقاهرة، فضلاً عن وصف المدينتين وصفًا جغرافيًا.

فقد وصف الحالة المعيشية في الإسكندرية وحركة السوق اليومية بقوله على لسان الكلاعي[٦٨] "أن عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية وجد فيها أثنى عشر ألف بقال يبيعون البقل الأخضر". ويؤيد ذلك العمري عندما تحدث عن الإسكندرية وذكر خيراتها[٦٩] "وبها الأسواق الممتدة، ومعامل البز والقماش والطرز الفائق المثل، واليها تهوي ركائب التجار برًا وبحرًا من كل فج عميق ومكان سحيق"؛ ووصف ثمارها[٧٠] "وبها من الفواكه المنتخبة الثمار، وهي تفوق مصر بحسن ثمراتها ورخص الفواكه بها".

ويصف البلوي ما تمتعت به المدن التي مر بها من الإسكندرية إلى القاهرة سنة ٧٣٠هـ من المزروعات دون أن يفصل أنواع المحاصيل الزراعية "فخرجنا من الإسكندرية في الثلاثاء ثامن يوم من رجب المذكور، وسرنا في بسيط من الأرض عريض مراده لا يخترقه النسيم بمسراة، ويكاد البصر يقف عند مداه بين مدائن عليها نضرة النعيم وبساتين اعتمارها من التعميم، وسرحات مونقة ودوحات مورقة، ونخلات طلع، وخامات زرع تموج بدائعها موج البحر، وتلوح طلائعها بين كتائب الزهر، من لم ير أرض مصر في أوان ربيعها وأبان زروعها، لم ير منظرًا نضيرًا".[٧١]

أما مدينة القاهرة التي وصلها سنة ٧٣٧ هـ، فور وصوله قام بالتغني بمدينة القاهرة قائلاً:[٧٢] "وسرنا في أقطار تلك الحضرة التي أرضها سندسية اللباس، وروضها متنوع الجناس، وروائحها عنبرية الأنفاس، ومنظرها يجلب أنواع الإيناس، فهي بغية النفس وغاية الأنس، ومنية الطرف، ومسرح الظرف، وسلوة الفكر، ونبعة العلم والذكر، وشغل الخاطر والذهن، ومحل الهناء والأمن". ويستطرد البلوي في وصف القاهرة بأعلى ما يكون من الوصف، وكأنه لم يعجب بمدينة غيرها من ذلك البيت الشعري فيها:

ما عداها من جنة الخلد إلا أننا لا ننال فيها الخلودا

ولم يكتف بهذا الوصف بل تعداها إلى الوصف العام عن الحالة التي كانت عليها في العصر المملوكي، فقال عنها بالمجمل[٧٣] "فرأيت فيها من المباني الهائلة والأسواق الحفلة، والمساجد العتيقة والمدارس الأنيقة، والمرابع البارعة والمصانع الناصعة، والأزهار والأشجار الباهرة والآثار العامرة، والجنود الوافرة والأمم المتكاثرة ما تحار في ذلك الأوهام وتكل دون وصفه الألسن والأقلام، القاهرة وما أدراك ما القاهرة الظلال الوارفة والمياه الهامرة، والأرض الأريضة والروضات العاطرة، مقام قام السرور في منبر دوحها خطيبًا... ".

ولا شك أن القاهرة في العصر المملوكي قد بلغت ذروتها العلمية والاقتصادية، فهذا السيوطي[٧٤] يقول عنها: "وأعلم أن مصر من حين صارت دار الخلافة عظم أمرها، وكثرت شعائر الإسلام فيها، وعلت فيها السنة وعفت منها البدعة، وصارت محل سكن العلماء ومحط رحال الفضلاء". لذلك نجد مدح البلوي لمصر في العصر المملوكي واضحًا من خلال الثناء على سلطنة السلطان الناصر قلاوون في ولايته الثالثة (٧٠٩ ـ ٧٤١ هـ/ ١٣١٠ ـ ١٣٤١م) وربطها بخلافة الخليفة العباسي في مصر المستكفي بالله (٧٠١ ـ ٧٤٠ هـ/ ١٣٠٠ ـ ١٣٣٩م) معززًا ذلك بقوله:[٧٥] "فجاءت الدنيا في أيامه غضة، وزهرة الأيام بهجة، لما منح الله على يديه من الأمن والسكون والدعة وظلال المسرة والهدنة، فانسحب ذيل العز وانضرب رواق الأمن، وانسدل ستر العافية على الملأ والكافة والأقطار النازحة والغريبة، وخصوصًا على هذه المدينة".

وفيما يخص وصف ابن بطوطة للسلطان الناصر قلاوون، نجد أنه يفصل أكثر ويهتم بذكر مآثره، فذكر عنه أنه سمي بالألفي لأن الملك الصالح اشتراه بألف دينار، وكانت له سيرة حسنة من ذلك شرف انتماؤه للحرمين الشريفين، وما يفعله كل سنة من أعمال البر التي تعين الحجاج من الجمال التي تحمل الزاد والماء للمنقطعين والضعفاء، وتحمل من تأخر أو ضعف عن المشي في الدربين المصري والشامي، فضلاً عن بناءه زاوية عظيمة خارج القاهرة.[٧٦] ويذكر البلوي ما تمتعت به القاهرة من زراعة الأزهار والأشجار بعد دخوله لها قائلاً:[٧٧] "وفتحت لي راحة القلب أبواب النزهة، فأطلعت عنان طرف الطرف نحو الجهة فرأيت... الأزهار والأشجار الباهرة". فضلاً عن وصفه للمصانع الموجودة في القاهرة "فرأيت فيها المصانع الناصعة".[٧٨]

**٣/١- وصف الحياة العلمية:**

اشتمل وصف البلوي على ذكر المساجد والجوامع والمدارس، فضلاً عن الترب والمشاهد.

أشار البلوي إلى قضية مساجد الإسكندرية وأثرها في الإسلام، فذكر أنها احتوت على أثني عشر ألف مسجد[٧٩]. وهذا الرقم وإن كان مبالغ فيه، إلا أنه يعطي انطباعًا على مدى أهمية الإسكندرية من الناحية الدينية وتأثرها على باقي مدن مصر. أما وصفه للقاهرة التي زارها يوم الأحد الثالث عشر من رجب سنة ٧٣٧ هـ، فكانت محطته الأولى في موضع بالقرب من جامع ابن طولون.[٨٠]

نجد أن البلوي اكتفى بذكر الجامع وذكر مساحته التي توازي مساحة المسجد الحرام طولاً وعرضًا، دون الحديث عن عمارته في العصر المملوكي، فقد شهد الجامع عدّة إصلاحات من ذلك ما قام به السلطان حسام الدين لاجين (٦٩٦ ـ ٦٩٨ هـ/ ١٢٩٧ ـ ١٢٩٩م) بشراء الأوقاف على الجامع وصرف ما تحتاجه عمارته، وأمر بأن تعطى قيمة كل شيء للجامع بثمنها وأن لا يستقطع منها شيء، واشترى ساحة بجوار الجامع، وقام بترتيبه وعمارته متمثلاً بسقفه وجدرانه ونصب منبر جديد، ورتب فيه دروسًا في التفسير والفقه والحديث، وعيّن فيه إمامًا ومؤذنين، وعمل بجواره مكتبًا لإقراء أيتام المسلمين كتاب الله عز وجل.[٨١]

وخلال تجواله في مصر تردد إلى مسجد عمرو بن العاص الذي يسميه بالعتيق قائلاً:[٨٢] "كنت أتردد بها إلى المسجد العتيق الحافل الذي بناه عمرو بن العاص رضي الله عنه واليه ينسب اليوم، فأرى جامعًا منيرًا ومسجدًا كبيرًا له صحن فسيح وسوار حافلة ومقاصر من العود عجيبة، وتواريخ مكتوبة بالخط الحافل المذهب كثيرة، فمنها ما كان مكتوبًا على المحراب ونصه بسم الله الرحمن الرحيم (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ)[٨٣] النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا وسيدنا الإمام المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن أمير المؤمنين، أمر بتجديده الملك الزاهد الناصر المجاهد صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف وفق الله تعالى لطاعته في سنة ثمان وخمسمائة".[٨٤]

وفات البلوي أن يذكر تجديد المسجد وإصلاحه في العصر المملوكي على الرغم من معاصرته لهم، ففي عصر السلطان الظاهر بيبرس (٦٥٨ ـ ٦٧٦ هـ) أمر بتجديد الجامع من إعادة الجدران وزيادة الأعمدة وبيض الجامع كله مع كتابة اسم السلطان عليه وكان ذلك سنة ٦٦٦ هـ.[٨٥] وفي عصر السلطان المنصور قلاوون (٦٧٨ ـ ٦٨٩ هـ) حدث للجامع بعض الأضرار سنة ٦٨٧ هـ، فأمر المنصور بتجديده وإصلاحه، لكن لم تكن بالمستوى المطلوب، وفي عصر السلطان الناصر قلاوون تم إعمار المسجد وإصلاحه نتيجة تعرضه لزلزلة، فكان إعماره جيدًا وبيض الجامع بأسره وزاد في سقف الزيادة الغربية.[٨٦]

وعند المقارنة ما ذكره الرحالة نجد أن البلوي انفرد في وصفه من الداخل، فابن بطوطة اكتفى بوصفه قائلاً:[٨٧] "ومسجد عمرو بن العاص مسجد شريف القدر شهير الذكر، تقام فيه الجمعة والطريق يعترضه من شرق إلى غرب". ولم يفت البلوي إلى ذكر مشاهد الصالحين وقبور الصحابة والتابعين (رضوان الله عليهم أجمعين)، فمنها مشهد السيدة نفيسة[٨٨] بنت الحسين ومسجدها قائلاً:[٨٩] "شاهدت المشهد العظيم مشهد السيدة نفيسة رضي الله عنها، فرأيت مسجدًا عظيم الاحتفال قائمًا في الحسن... ". كذلك مشهد السيدة زينب بنت الصحابي الجليل علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، وتربة زيد بن الحسن (رضي الله عنه).[٩٠]

وفي وصفه لمدينة القرافة[٩١] ذكر عددًا من مشاهد الأنبياء (عليهم السلام)، وأهل البيت (عليهم السلام)، والصحابة (رضوان

الله عليهم) والتابعين والزهاد والأولياء، فمن ذلك قبر أبو النبي صالح (عليه السلام)، وقبر يعقوب أخي يوسف (عليه السلام)، وقبر معاذ بن جبل (رضي الله عنه)، ومشهد الإمام الشافعي (رحمه الله).[٩٢]

وأشاد البلوي باهتمام المماليك بالمدارس عند زيارته للقاهرة سنة ٧٣٧هـ "وفتحت لي راحة القلب أبواب النزهة، فأطلقت عنان طرف الطرف نحو الجهة فرأيت فيها من المباني الهائلة... والمدارس الانيقة".[٩٣] وتطرق إلى المدرسة الصلاحية الشافعية[٩٤] ولو أنه لم يذكرها باسمها عند الحديث عن مشهد الإمام الشافعي، فاكتفى بالإشارة إليها قائلاً:[٩٥] "وبإزاء هذا المسجد العظيم مدرسة مختلفة الصنعة سامية المنية، أعظم المدارس اتساعًا وأعلاها سموًا وارتفاعًا، فيها من المنازل الرفيعة والرواتب الموقفة، والمياه الجارية ما يقر العين ويملأ اليد بالمين ويريك ذوائب الذهب في سبائك اللجين". وهذا الوصف له دلائله على أن العصر المملوكي شهد ثورة علمية في بناء المدارس وتنظيمها تنظيمًا دقيقًا يضاهي الجامعات الحديثة، فالأوقاف على المدارس خير شاهد على نتاج ذلك العصر. كذلك ذكر المدرسة الناصرية[٩٦] عندما درس بها على يد أحد علماءها قائلاً:[٩٧] "لقيته بالمدرسة الناصرية من القاهرة المعزية فسمعت فوائد من لفظه وقيدت شوارد من حفظه".

**٤/١- وصف المعالم الجغرافية والمدنية:**

تطرق البلوي إلى عدة معالم منها جغرافية كنهر النيل، ومنها مدنية كالبيمارستان والأهرامات، ومنارة الإسكندرية.

فبالنسبة لنهر النيل لم ينس البلوي أن يفتخر بأنه ركب في سفينة من سفنه التي فراشها ريحان منضد، وسقوفها كتان ممدد، حتى أن السفن التي تبحر فيه بلغت أكثر من ألف مركب عدا الزوارق الصغار التي كانت معدة للصيد والركوب، بمعنى أن السفن التجارية هي المقصودة بالعدد، وما عداها فهي للزينة والمتعة. وفضلاً عن السفن كانت الجمال الداخلة إلى القاهرة في المياه كل يوم بلغت مائتي ألف جمل عدا البغال والحمير والسقائين، ولم يكتف بهذه المعلومة بل تعداه إلى ذكر عدد دكاكين السقائين المعدة للسقي في القاهرة فبلغت ستين ألف دكان عدا السقائين الذين بالأكواز والأكواب في الطريق والأسواق وغيرها.[٩٨]

لكن نجد عند غيره من الرحالة تفصيل أكثر عن نهر النيل من حيث طبيعته وامتداده، مثال ذلك ما ذكره العبدري[٩٩] بقوله: "نهر عظيم متسع جدًا، آخذ من الجنوب إلى الشمال، ويفترق بعد مسافة من فسطاط مصر على ثلاثة أنهر، ولا يدخل واحد منها إلّا في القوارب شتاء وصيفًا... وصورة السقي به أن كل أهل بلد لهم خلج تخرج منه، فإذا جاء مد أترعها ففاضت على المزارع وسقتها كما كما تسقي سائر الأنهار".

ولم يغب عن البلوي أن يذكر البيمارستان المنصوري[١٠٠]، الذي يعد معلمًا حضاريًا في دولة المماليك، ولو أنه لم يذكره بالاسم بل اكتفى بذكر اسم البيمارستان، ولعل ذلك يعود إلى شهرته، فجاء وصفه دقيقًا "ولو لم يكن للقاهرة ما تذكر به إلا المارستان وحده، وهو قصر عظيم من القصور الرائقة حسنًا وجمالاًواتساعًا ما لم يعهد مثله بقطر من الأقطار أحسن بناء ولا أبدع انشاء ولا أكمل انتهاء في الحسن والجمال وانتماء من نعمت أدواحه وخبت على خضر الأغصان وزرق الغدران أرواحه، فلا غرو أن أمن ورقي، ثم لما كسا وأطعم سقي، آية نعمى وفت بالمعياد، وحسنا مثلها يعد للمعاد قد رويت جوانحه الصادية، وجمعت في شرعته السارية والغادية، فها هو فخره بادي الغرر والاوضاح، منبجس بالماء القراح".[١٠١]

وتعدى البلوي في وصفه إلى تحديد أعداد المرضى الداخلين فيه والى الخدمات المقدمة لهم "يكمل في كل يوم من المرضى الداخلين إليه والناقهين الخارجين منه أربعة الاف نفس، وتارات يزيدون وينقصون، ولا يخرج منه كل من يبرأ فيه من مرض حتى يعطي إحسانًا إليه، وإنعامًا إليه كسوة للباسه ودراهم لنفقاته، وأما ما يعالج به المرضى من قناطير الأشربة المقنطرة والأكحال الرفيعة الطيبة التي تسحق فيها دنانير الذهب والأبريز وفصوص الياقوت النفيس وأنواع اللؤلؤ الثمين فشيء يهول السماع ويعم ذلك الجمع إلى ما يضاف إلى ذلك كله من لحوم الطيور والأغنام على اختلافها وتباين أصنافها مع ما يحتاج اليه كل واحد ممن يوافيه ويحل فيه لفرشه وعرشه من غطاء ووطاء ومشموم ومذرور... ولو استقصيت الكلام في هذا المارستان وحده لكان مجلدًا مستقلاً بنفسه إذ في مبانيه الرائعة وصناعاته وتواريخه المذهبة ونقوشه العجيبة المنتخبة التي ترفل في ملابس الإعجاب، وتسحر العقول والألباب".[١٠٢] ووافقه العمري في الاشادة بالبيمارستان الذي قال عنه:[١٠٣] "المعدوم النظير لعظمة بنائه وكثرة أوقافه، وسعة انفاقه، وتنوع الأطباء وأهل الكحل والجراح به، وهو جليل المقدار جميل الآثار، جزيل الإيثار، وقفه السلطان الملك المنصور قلاوون رحمه الله ".

كذلك تطرق إلى الأهرامات[١٠٤] بوصفها وصفًا دقيقًا دون الخوض في تفاصيل بناءها "وبها الأهرام القديمة المعجزة البناء الغريبة المنظر البديعة الإنشاء كأنها القباب المضروبة قامت في جو السماء، ولاسيما الاثنان منها يقصر الجو بهما سموًا واتساعًا ارتفاعهما مائة ذراع بالذراع الكبيرة من أحد أركانها إلى الركن الثاني ثلاثمائة خطوة وست وستون خطوة وأقيمت من الصخر العظام تركيبها بديع الإلصاق، وهي محدودة الأطراف لا سبيل إلى الصعود إليها إلّا على خطر ومشقة، فتلقى أطرافها المحدودة كأوسع ما يكون بين الرحاب لو رام أهل الارض بناءها لأعجزهم ذلك، وبها كان يجعل الطعام في أيام يوسف عليه السلام".[١٠٥] بينما نجد تفاصيل أبنية الأهرامات عند رحالة آخرين مثل العبدري الذي وصفها تفصيلاً بقوله:[١٠٦] "والأهرام مبان من الحجارة صارت لأحكامها كالحجر الواحد في غاية العلو، متسعة الأسفل مستديرة الشكل فكلما طلعت انخرطت حتى صار أعلاها حاداً على شكل المخروط، وليس لها باب ولا مدخل ولا يعلم كيف بنيت... ووجدوا عرض الحائط عشرين ذراعًا.. ووجد طول كل واحد من الهرمين الكبيرين أربعمئة ذراع بالمالكي وهو ذراع اليد، ويقال ليس على

وجه الأرض أرفع بناء منهما ويذكر أن عمقهما في الأرض مثل ارتفاعه".

وذكر البلوي أبو الهول دون التصريح باسمه، فوصف شكله الخارجي ودل أنه علامة لخروج نهر النيل "وعلى النيل رجل مبني من صخرة فيه علامات لخروج النيل في زيادته ونقصانه وقد وكل به قوم يتعاهدونه فإذا خرج سقى جميع ضياعهم ومزارعهم، وهم يزرعون على ذلك السقي ولا يحتاج زرعهم إلى سقي آخر بقدرة السميع العليم".[١٠٧] بينما نجد تفصيلاً أوفى عند الرحالة التجيبي الذي وصفه قائلاً:[١٠٨] "وبمقربة من هذه الأهرام الثلاثة رأس صورة من حجر صلد هائل المنظر على صورة رأس الإنسان، غير أنه في الكبر قد قام كالصومعة العظيمة، ووجه هذا الرأس مقابل إلى الأهرام، وظهره إلى القبلة مهبط النيل، ويدعوه أهل مصر بأبي الأهوال، ذرع عنق هذا الرأس عرضًا وأنا أنظر اليه، فألفي فيه نحو تسعة أقدام، ويزعمون أنه طلسم للرياح، وأنه لو ذهب لأتلف الريح مصر، والله أعلم بحقيقة ذلك وبما كان المراد به، وبما مر عليه من الدهور والعصور".

ووصف عمود السواري الذي عده من أعظمها وأعجبها، فذكر أن له قاعدة مربعة يكون عليها، وهو أعظم عمود على وجه الأرض، واقف على كنز من الكنوز، ويبلغ طوله تسع وأربعون ذراعًا، وأنه لا يتزحزح عن موضعه حتى لو تساقطت عليه الجبال.[١٠٩] وهذا الوصف له أهمية عند الجغرافيين والرحالة له سواء السابقين للبلوي أو اللاحقين له نجدهم يفصلون ذلك، فمثلاً وصف ياقوت الحموي[١١٠] ذلك قائلاً: "ولقد دخلت الإسكندرية وطوفتها فلم أر فيها ما يعجب منه إلّا عمودًا واحدًا يعرف الآن بعمود السواري تجاه باب من أبوابها يعرف بباب الشجرة فإنه عظيم جدًا هائل كأنه المنارة العظيمة وهو قطعة واحدة مدور منتصب على حجر عظيم كالبيت المربع قطعة واحدة".

بينما نجد العبدري[١١١] قد فصل في وصفه أكثر بقوله: "ومن أغرب ما رأيت بها عمود من رخام بظاهرها يعرف بعمود السواري، وهو حجر واحد مستدير عال جدًا على قدر الصومعة المرتفعة، وهو يبدو من بعيد بارزًا في غابة من النخيل مرتفعا عنها، وقد أقيم على حجارة منحوتة مربعة على قدر الدكاكين العظام، علوها أزيد من قامتين، ولا يعلم كيف أقيم عليها، ولا كيف ثبت هناك مع الرياح والعواصف، وهو مما لا يمكن تحريكه البتة فضلاً عن اقامته هناك". وأشار المقريزي[١١٢] إلى أن هذا العمود عبارة عن حجر أحمر منقط، كان من ضمن أعمدة تحمل رواق أرسطا طاليس الذي كان يدرس به الحكمة، وفصل في قياساته فذكر أن ارتفاعه سبعون ذرعا وقطره خمسة أذرع، وأن طوله اثنان وستون ذراعًا وسدس ذراع.

وحين وصف منار الإسكندرية نجده ينقل عن ابن جبير[١١٣] نقلاً بتصرف دون الإشارة اليه، فحين يقول عن المنار: "يزاحم السماء سموًا وارتفاعًا قد وضعه الله تعالى على يد من سخر لذلك آية للمتوسمين، وهداية للمسافرين يهتدون به في البحر إلى بر الإسكندرية، ويظهر على أزيد من سبعين ميلاً، عرض أحد جوانبه الأربع ينيف على خمسين باعًا، ويذكر أن في طوله أزيد من مائة وخمسين قامة". ومن الجغرافيين الذين ذكروا المنارة وصفتها هو البكري[١١٤] وعلق عليها قائلاً: "وأما المنار اليوم فهو ثلاثة أحزم، الأول مربع البناء قد عمل أحسن عمل من الحجارة المربعة التي أخفي ألصاقها حتى صارت كالحجر الواحد لم يغير الزمان من ذلك شيئًا، وارتفاع هذا المربع ثلاثمائة ذراع وعشرون ذراعا بالذراع المعروفة، ثم ترك في أعلاه غلظ حائط البناء وهو ثمانية أشبار ونحو عشرة أذرع سوى ذلك الغلظ، ورفع على ما بقي من البناء بناء مثمن الشكل طوله ثمانون ذراعًا، ثم بني على هذا البناء المثمن بعد أن ترك، وهو أقل من غلظ الأسفل وثماني أذرع سوى ذلك الغلظ عليه بناء مربع ارتفاعه خمسون ذراعًا أو نحو هذا".

ويبدع الرحالة العبدري في تفصيله لمنار الإسكندرية، إذ أنه دخل المنار وصعد إلى أعلاه ووصفه وصفًا دقيقًا يدل على صدق ذاكرته واهتمامه بهذه الآثار "وهو خارج المدينة على أزيد من ثلاثة أميال وعلى تل مرتفع بشمال البلد، وقد أحاط به البحر شرقًا وغربًا حتى تأكل حجره من الناحيتين، فدعم منها ببناء وثيق اتصل إلى أعلاه وزيد دعمًا بدكاكين متسعة وثيقة وضع أساسها في البحر ورفعت عنه نحو ثلاث قامات. وباب المنارة مرتفع عن الأرض نحو أربع قامات، وبني اليها بنيان حتى حاذاه، ولم يتصل به، ووضعت عليه ألواح يمشي عليها إلى الباب، فإن أزيلت لم يوصل اليه، وفق الباب من داخل موضع متسع لحراسة الباب يقعد فيه الحارس وينام فيه، وفي داخل المنارة عدة بيوت رأيتها مغلقة، وسعة الممر فيه ستة أشبار وفي غلظ الحائط عشرة أشبار، ذرعته من أعلاه، وسعة المنار من ركن إلى ركن مئة وأربعون شبرًا، وفي أعلاه جامور كبير عليه آخر دونه، وفوق الأعلى قبة مليحة يطلع اليها في درج مشرعة إلى النواحي ولها محراب للصلاة".[١١٥]

ويبدو أن سبب بناء المنار هو لهداية السفن التجارية عن طريق إشعال النيران في قمته، وهذا ما أشار إليه المقريزي[١١٦] بقوله: "وكان في المنارة قوم مرتبون لوقود النار طول الليل، فيقصد ركاب السفن تلك النار على بعد، فإذا رأى أهل المنار ما يريبهم أشعلوا النار من جهة المدينة، فإذا رآها الحرس ضربوا الأبواق والأجراس، فيتحرك عند ذلك الناس لمحاربة العدو". وفات البلوي أن يشير إلى تجديد المنارة في العصر المملوكي عندما زار الإسكندرية آنذاك، فقد قام السلطان الظاهر بيبرس ببناء ما تهدم من المنار أثناء زيارته للمدينة سنة (٦٧٣ هـ/ ١٢٧٤م)، وقام بإنشاء مسجدًا في أعلى المنار.[١١٧]

في حين يذكر العمري أن المنارة أصبحت أثرًا بعد عين، اذ محيت آثارها ولم يبق منها إلّا أقل من العشرين ذراع، وأن أمر السلطان لها بالبناء لم يكن على وجه الاعتناء، وما موجود هي منارة استحدثت على كوم عالي داخل سور يعرف بكوم معلى، ليس له أساس ثابت ولا جدار معلى.[١١٨] ويذكر في أحيان قليلة إلى أنه اطلع في بعض الكتب دون التصريح بها، كما في قول عبد الله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنهما) قوله عن عجائب الدنيا

الأربعة ومن ضمنها منارة الإسكندرية، نجده ينقل بتصرف وتغيير للعبارات كما جاء ذلك واضحًا عند ابن الفقيه.[119]

ويزيد البلوي على هذه المرآة في المنارة بأن مَنْ صنعها هم الحكماء يتطلع بها على القسطنطينية وبلاد الروم حتى احتيل في انزالها، إلى أن قام الروم بإفسادها خوفًا منها.[120] ومن الآثار الموجودة في الإسكندرية أن حيطان المدينة وسورها من رخام، وفيها قبة كانت لفرعون، وفيها قصر سليمان (عليه السلام) الذي انهدم وبقيت آثاره، ويوجد بها أسطوانة تستدير الدهر كله.[121]

## المبحث الثاني: أهمية فلسطين عند البلوي

اقتصرت زيارة البلوي إلى بلاد الشام لمدن فلسطين حصرًا، وكانت زيارته لها لمرتين، الأولى سنة ٧٣٧ هـ من السابع من شهر شعبان إلى الثاني عشر من شوال؛ والثانية سنة ٧٣٨هـ بعد أداء فريضة الحج من الثالث والعشرين من محرم إلى الخامس من شهر صفر. وهذا يعني أن المدة الزمنية بين الزيارتين تتراوح بين خمسة إلى ستة أشهر.

**١/٢-صورة فلسطين عند البلوي:**

زار البلوي في رحلته كلاً من غزة، والخليل، والقدس، والرملة، وعسقلان.

ابتدأ البلوي بوصف مدينة غزة وصفًا جغرافيًا عامًا، التي دخلها يوم الثلاثاء السابع من شهر شعبان سنة ٧٣٧ هـ قائلاً:[122] "فزينة الأرض مشهورة، وحلة الروض منشورة، والبسيطة مدت بساطًا مفوفًا، وأهدت من مطارف وشيهًا وزخارف نورها ألطافًا وتحفًا... فأرحنا فيها تعب الأبدان، وسرحنا منها في بلد من أحسن تلك البلدان، بلد حسنه يفقه من كان بليدًا، حتى يعود لبيدًا، فسيحة الساحة، مستطيلة المساحة، نزهة لعين مبصرها من النظافة والملاحة، ما شئت من منظر عجيب، وجانب رحيب، وبسيط خصب، وساحل قريب، ومكان مؤنس لكل غريب، يزهر بالحسن المحض، والنور الغض، وناهيك بالشام، شامة الارض". وتطرق البلوي إلى بساتين غزة وأنهارها وأشجارها دون الخوض في تفاصيلها، فمن المعروف أن غزة تتميز باعتدال الهواء، وتتوفر فيها مياه الآبار والأمطار، وتشتهر بكثرة الفواكه، والثروة الحيوانية فهي "موضع زرع وماشية وموضع مجمع حاضرة وبادية".[123]

وجاء وصف العبدري لها مقربًا لصورتها الحقيقية من مكانة وأثر "مدينة متسعة عامرة لا سور لها، وبينها وبين البحر مسافة أميال، وهي أكثر عمارة من كل ما تقدم ذكره من بلاد الشام، وهي جسر إلى مصر والى الشام، وبها أسواق قائمة ومساجد معمورة".[124] لكن وصف العمري يجعلها أقرب للواقع من الوصف عندما قال عنها:[125] "وهي مبنية بالحجر والكلس، موثقة البناء على نشز عال على نحو ميل عن البحر الشامي، ذات هواء صحيح، وماء مصرف هاضم لا يستلذ، وشرب أهلها من الآبار، ولها مجمع للمطر يدوم به ماء الشتاء لكنه يستقل". وقال عنها العليمي:[126] "وبها كثير من الأشجار والنخل وحولها كثير من المغارس والمزارع، وفيها أنواع الفواكه"؛ ويذكر العمري الفواكه بالاسم "ولها فواكه كثيرة أجلها العنب والتين".[127] فضلاً عن اهتمام سلاطين المماليك بالزراعة من ذلك ما قام به السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٦ هـ بقطع أنوف جماعة من المماليك تعرضوا لزرع غزة بالقطع.[128]

أما مدينة الخليل، التي دخلها يوم الخميس التاسع من شعبان قائلاً:[129] "فحللت فيها قصرًا عظيم البركة ظاهر الرحمة، لائح الأنوار، كريم المئاثر والآثار، ينبي عن الشام بطيب أنبائها، وحسن آلائها، ورقة هوائها، وبهجة بهائها، وجدا جداولها، وجنا جذاذلها، وتضوع أريج أسحارها، وتنوع بهيج أوهارها، وريا رياضها، ورونق جواهرها وأعراضها، وغرة أرضها وصحة هوائها وقلة أمراضها". وجاء وصف العبدري أكثر تفصيلاً بقوله:[130] "وهي قرية مليحة المنظر، أنيقة المسموع والمبصر، مشرقة كالصبح إذا أسفر، موضوعة ببطن واد قليل الماء والشجر، والمحيط بها حرار وعرة". أما ابن بطوطة فوصفها باختصار قائلاً:[131] "وهي مدينة صغيرة الساحة، كبيرة المقدار، مشرقة الأنوار، حسنة المنظر، عجيبة المخبر، في بطن واد". ولعل وصف العمري لها هو أكثر تكاملاً وشمولاً عندما قال عنها:[132] "فإنها بلدة غير مسورة على نحو يوم من القدس بالسير المعتاد، وهي منطوية بين جبال، لا هي في صحراء ولا في واد، وهي قرية أم عمل، ولولا مكان الخليل عليه السلام بها، لم تذكر فيما يذكر".

أما مدينة القدس، التي دخلها يوم الإثنين الثالث عشر من شهر شعبان فقال عنها:[133] "بلدة الأفق المنير ونجمه، والنجم الذي لا تمتطي صهواته، وصلناها والليل في سن الإكتهال، وأيدينا ممتدة بالشكر لله تعالى والابتهال، فوافينا مدينة واسعة الرقعة طيبة البقعة، سامية الأرتفاع، مشرفة البقاع، مباركة الأغوار والتلاع، عذبة المراد، منمنمة الأبراد، ممرعة الجنبات، متنوعة النبات، ممدودة الظلال، مودودة الخلال، مأمولة السعادة مسعودة الآمال، ضخمة البناء، واسعة الفناء، تشهد لسكانها بالثراء والسناء، قد أخذت من كل المحاسن نصيبًا، وفوقت إلى هدف الفضائل سهمًا مصيبًا، وملئت ظرفًا وأدبًا، وأوتيت من كل شيء سببًا". ويأتي وصف العبدري واقعيًا أكثر بعيدًا عن التغني بالمدينة وطبيعتها قائلاً:[134] "والبلد مدينة كبيرة، منيعة محكمة، كلها من صخر منحوت على نشز غليظ مقطوع بجهات الأودية، وسورها مهدوم، هدمه الملك الظاهر خوفًا من استيلاء الروم عليها، وامتناعهم بها، والخراب فيها فاش، وليس بها نهر ولا بستان، وحواليها تلال مشرفة عليها".

كذلك وصف مدينة الرملة، التي دخلها يوم السبت الثاني من شهر صفر قائلاً عنها:[135] "فنزلنا بها بمدينة غضة المنظر حسنة المخبر، ممتعة بالروض الناعم، والنسيم الأعطر، أحسن المدائن أزقة وأسواقًا، وأكثرها فواكه وأرزاقًا، وأملحها بياضًا وأشراقًا، وأبدعها اتصالاً بالبساتين والتصاقًا، قريبة من البحر بعيدة من الغور، كثيرة المساجد والخير، معتدلة الهواء سامية البناء، واسعة الفناء ساكنة المساكن، مكينة الأماكن، لائحة المباهج واضحة

المناهج، رائقة المنازه رائعة المنازل، مرنة الرباب، معشبة الشعاب، هامرة السحاب عاملة الجناب، سافرة المطالع وافرة الصنائع، سابغة المدارع، سائغة المشارع، صافية الزلال، ضافية الظلال، سارة الأسارير، زاهرة الأزاهير، معقودة الحبا معهودة الربا، جليلة العلا جميلة الحلا، جائشة الجيوش، معرشة العروش، فيها جنات من نخيل وأعناب، طوبى لمبصرها وحسن مئاب". يستفاد من وصف البلوي المفصل والدقيق عن مدينة الرملة عن باقي مدن فلسطين، أنها تمتاز بكثرة بساتينها وتعدد فواكهها، وهذا ما أكده ناصر خسرو[١٣٦] عند حديثه عن المدينة وكيفية خزن المياه للزراعة "فقد بني في كل منزل حوض لجميع مياه المطر، فيبقى ذخيرة دائمة". فضلاً عن وصفه لبعض فواكه المدينة ومنها التين بقوله:[١٣٧] "وفي الرملة صنف من التين ليس أحسن منه في أي مكان، يصدر منها إلى جميع البلاد".

وكانت المحطة الأخيرة هي عسقلان التي دخلها يوم الإثنين الرابع من شهر صفر قائلاً:[١٣٨] "وهي مدينة كبيرة مفروشة بالرخام عجيبة، وكانت دار ابراهيم عليه السلام... فسرحنا بمسرح آمال، جنتان عن يمين وشمال، روضات قد أينعت فيها الأزهار، وانبعثت الأعين وعنت الأطيار، فحللناها بلدًا أقفر وخرب، وأكل الدهر على محاسنها وشرب، وترك ساحته كدرامية بالعلياء، وغادره منقض الفناء، متقلص الأفياء". كذلك وصفها العبدري بأنها خراب وليس بها أنيس، لكنه مع ذلك يؤكد على محاسنها وما اشتملت عليه من المحاسن "وقلما رأيت من البلدان ما جمع من المحاسن ما جمعت عسقلان جبرها الله صنعًا واتقانًا ووضعًا ومكانًا، وبرًا وبحرًا، وعامرًا وقفرًا، لها على البر والبحر طرف ممتد، وحكم ماض لا يرتد، ترنو اليها من شرف وتتلو عليهما سور الشرف، وتزهو بتقلبها في الترف، في روضة جمة الأزهار والطرف".[١٣٩] ولم يختلف وصف ابن بطوطة عن هذا الوصف، بخراب المدينة بعدما كانت عامرة، لكنه عاد ووصف محاسن المدينة بقوله:[١٤٠] "وقل بلد جمع من المحاسن ما جمعته عسقلان، اتقانا وحسن وضع وأصالة مكان، وجمعًا بين مرافق البر والبحر".

**٢/٢-مساجد ومدارس فلسطين عند البلوي:**

جاء ذكر المساجد عند البلوي بصور مختلفة، فأحيانًا يفصل القول في قسم منها، وأخرى يختصر، أما المدارس فقد ذكر مدرستين بالاسم فقط.

**١.المساجد:**

وفقًا للمدن الفلسطينية التي زارها البلوي، نجد أنه ذكر مساجد كل المدن باستثناء مدينتي غزة وعسقلان، فمدينة غزة أغفل ذكر مساجدها رغم شهرتها التي أشار اليها ابن بطوطة بقوله:[١٤١] "بها المساجد العديدة ولا سور عليها، وكان بها مسجد جامع حسن، والمسجد الذي تقام الآن به الجمعة فيها، بناه الأمير المعظم الجاولي[١٤٢]، وهو أنيق البناء محكم الصنعة، ومنبره من الرخام الأبيض". وأما مساجد عسقلان فلم يذكر لها مسجدًا مسمى، سوى أنه ذكر حين دخوله للمدينة قائلاً:[١٤٣] "فأطلت الركوع والسجود في ذلك المسجد الحافل، وظلت أتبرك بما تضمنه من الآثار الجلائل". في حين يذكر العبدري أن في عسقلان مسجد كبير مليح يسمى مسجد عمر، وقد تهدم ولم يبق منه إلا الحيطان، فيه أساطين من الرخام قائمة وموضوعة في غاية الحسن، وبه أسطوانة حمراء جميلة جدًا.[١٤٤] وهذا يؤشر على اغفاله عن ذكر المواضع الهامة كما بينت ذلك كتب الرحلات.

**.مساجد الخليل:**

ذكر البلوي مسجدًا في مدينة الخليل الذي سماه بالمسجد الأعظم قائلاً:[١٤٥] "دخلت المسجد الأعظم فرأيت من حسنه عجبًا، ومن بنيانه ما شئت فضة وذهبًا، لا تدرك مبانيه السامية، ولا تلحق آثاره العالية، له أبواب حافلة من الحديد، وشباك منه بديع، وبنيان بالرخام والأحجار العظام الهائلة المنحوتة الضخام، عددت في في طول الحجر الواحد منها أربعة وثلاثين شبرًا، وفيها أكبر من ذلك وأصغر، قد أسس ذلك المسجد العظيم عليها وبنى ظاهره وباطنه منها فجاء جامعًا عجيبًا واسع المساحة، بديع الصنعة، أحدق بجميعه سور جليل بناؤه من الصخر الجسيم، قد جمع الحسن والحصانة والعلو والمتانة، يشرق بياضه على بعد المتأمل... وداخل المسجد الأعظم موجة القبلة بالرخام المجزع المختلف الألوان، الغريب الترصيع الفائق الحسن، قد أفرغ فيه الذهب المضروب والتبر الخالص افراغًا".

وتطرق البلوي إلى تربة إبراهيم (عليه السلام) ووصفها وصفًا دقيقًا[١٤٦] "وفي وسط المسجد الكريم تربة الخليل أبينا ابراهيم عليه السلام، قد جن بها من الشماعات العظام المذهبة والأستار المكللة المطرزة، والمصابيح البديعة المموهة كل حسن رائق رائع، وأمامه ضريح زوجه رضوان الله عليها". ويتوسع البلوي في ذكر كرم الضيافة في هذا الجامع بقوله:[١٤٧] "وما بين المسجد الكريم والقبة الجوفية صحن عظيم كبير جدًا فيه في المسجد أيضًا هو مجتمع الواردين والمقيمين من الأغنياء والفقراء والأمراء والكبراء للضيافة المباركة، ضيافة الخليل عليه السلام، في كل يوم بعد صلاة العصر على توالي أحقاب الدهر، وفيه حضرتها مع جملتهم متبركا بذلك".

ويؤيد العليمي ما ذهب اليه البلوي حول كرم الضيافة، بل ويفصل في ذلك قائلاً:[١٤٨] "وهو السماط من عجائب الدنيا يأكل منه أهل البلد والواردين، وهو خبز يعمل في كل يوم، ويفرق في ثلاثة أوقات بكرة النهار وبعد الظهر لأهل المدينة وبعد العصر تفرقة عامة لأهل البلد والواردين، ومقدار ما يعمل فيه من الخبز كل يوم أربعة عشر ألف رغيف، ويبلغ إلى خمسة عشر ألف رغيف في بعض الأوقات، وأما سعة وقفه فلا تكاد تنضبط، ولا يمتنع من سماطه الكريم أحد لا من الأغنياء ولا من الفقراء".

**.مساجد القدس:**

ذكر البلوي عددًا من المساجد في القدس لعل أهمها وأقدسها هو المسجد الأقصى الذي قال عنه:[١٤٩] "ثم قصدت الحرم الشريف والمسجد العظيم المنيف، الذي بارك الله حوله، وعرفت كل أمة فضله، المسجد الأقصى موضع المعراج والإسراء، وكفى بهذا شرفًا وفخرًا، فرأيت بقعة لها نور وفضل مأثور وشرف معلوم مذكور،

ومسجد له حرمات ومقام تخطر فيه خطرات وتعرض مقامات، ومحل تفيض عليه بركات، وتستجاب فيه دعوات، ومكان يمكن فيه الالتفات وتقصر عنه الصفات، وتكل في تصنيف محاسنه الياءات والألفات، قد جمع شرف المقدار إلى طيب التربة وفضيلة الدار، وشهرت مفاخره فأية البقاع تفاخره؟ وراقت محاسنه فلا منظر يحاسنه! وفاقت مآثره جميع من يكاثره، وأمتع بكل سليم الود وحيا، وأطلع نور البشر في أفق المحيا. وهذا المسجد الشريف هو أعظم مساجد الدنيا، طوله سبعمائة وثمانون ذراعًا، عرضه أربعمائة وخمسون ذراعًا، فيكون تكسيره في المراجع المغربية مائة مرجع، وسواريه أربعمائة وأربع عشرة سارية، وأبوابه خمسون بابًا، يطيف به سور سعته ثلاث خطوات، قد أسس بالحجارة العظيمة وألواحه الكبار المنحوتة الهائلة بنته الجن لسليمان عليه السلام، والمفتوحة الان من أبوابه اثنا عشر بابًا، كل باب منها له الوجه المنقش الحسن المرقش، فيها باب مصفح بالعقيان واللجين مغمد بهما قد قام على ما راق الأبصار وأعجب الأنظار، ومنها باب الرحمة وباب التوبة بابان من الجهة الشرقية".

وقد خالف ابن بطوطة البلوي في بعض التقديرات، فذكر أن طوله سبعمائة واثنان وخمسون، وعرضه أربعمائة وخمس وثلاثون ذراعًا، أما الأبواب فلم يذكر عددها بل اكتفى بكثرة عددها، وأن الجهة القبلية ليس فيها إلّا بابًا واحدًا.[١٥٠] بينما يذكر العبدري أن أبوابه كثيرة من الشرق والغرب والشمال، ولا يوجد سوى بابًا قبليًا يدخل منه الإمام؛ فضلاً عن أن المسجد كله فضاء غير مسقف إلا الناحية الغربية.[١٥١] أما العليمي، فيبدو أنه استفاد من وصف البلوي، بدليل أن وصفه مشابه لوصفه إلا في جزئيات بسيطة، مثال ذلك قام بذكر أبواب المسجد الاثني عشر وهي (الرحمة، التوبة، الأسباط نسبة لأسباط بني اسرائيل، حطة في الجهة الشمالية من المسجد، الدويدارية، الغوانمة نسبة إلى بني غانم، الناظر، الحديد، القطانين، السلسلة، المغاربة، الجنائز).[١٥٢]

ويستدل البلوي في وصفه لبيت المقدس ومسجده الشريف بالآيات القرآنية، ففي قوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ﴾.[١٥٣] يقصد به سور بيت المقدس الشرقي، وذهب أكثر من ذلك إلى قول المفسرين دون الإفصاح عن اسمهم بقوله:[١٥٤] "وروى المفسرون عن عبد الله بن عمرو بن العاص وعن ابن عباس أيضًا.. أنه سور بيت المقدس الشرقي له باب يسمى باب الرحمة من بيت المقدس. قال كعب باطنه المسجد وظاهره وادي جهنم".

ويستمر البلوي في وصفه الدقيق للمسجد قائلاً:[١٥٥] "وفي الجهة القبلية المسجد الأعظم الحافل الذي عليه اليوم اسم المسجد الأقصى، فيه الخطبة والجمعة والمنبر الذي جمع الله فيه من كل إبداع عجيب واختراع غريب، والمقاصر التي لا نظير لها غرابة صنعة، وجود انشاء، والسواري المفضضة الملونة من ألوان شتى من حمرة قانية وصفرة فاقعة وبياض ناصع... وبأعلى المحراب مكتوب بالذهب في أربعة أسطار ما نصه، أمر بتجديد هذا المحراب المقدس وعمارة المسجد الأقصى الذي هو على التقوى مؤسس، عبد الله ووليه يوسف بن أيوب المظفر الملك الناصر صلاح الدين والدنيا، عندما فتحه الله على يديه سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وهو يسأل الله ايزاعه شكر هذه النعمة واجزال حظه من المغفرة والرحمة ". ويذكر أن السلطان صلاح الدين الأيوبي لما حرر بيت المقدس طلب أن يعمل للمسجد منبرًا، فقيل له أن نور الدين محمود كان قد عمل منبرًا في حلب سنة ٥٦٤ هـ وهو في غاية الإتقان، فأمر صلاح الدين بإحضاره من حلب فنصب ببيت المقدس.[١٥٦]

وذكر البلوي عددًا من المساجد الملاصقة للمسجد الأقصى وهي، المسجد الذي بناه الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يقع شرقي المدينة؛[١٥٧] ومسجد عيسى الواقع خارج المسجد الأقصى من ناحية المشرق له قبتين؛[١٥٨] وفي غرب المسجد الأقصى مسجد حسن للمالكية يسمى بمسجد المغاربة.[١٥٩]

كذلك تطرق إلى الأجباب الموجودة في المسجد الأقصى، منها جب سليمان ذكره مفصلاً لم يسبق لأحد أن ذكره مثله قائلاً:[١٦٠] "أن عمر بن الخطاب لما قدم بيت المقدس خرج رجل من أصحابه يستسقي في جب سليمان، وهو جب في داخل المسجد فخرت دلوه في الجب فنزل بها يستخرجها، فبينما هو يطوف في الجب إذ أتاه ملكان فأخذا بعاتقه فذهبا به حتى أدخلاه الجنة فجعل يسريان به فيها فكان كلما مرا على شجرة لها ثمر يمد يده إلى ثمرها فيؤخره الملكان حتى مرا به على شجرة ذات أفنان فمد يده فأخذ ورقة واحدة فقال له الملكان: لو ملكت يدك لسرنا بك اليوم إلى يوم القيامة، ثم انصرفا به إلى الجب فخرج عند صلاة الظهر فأتى عمر فأخبره بالذي كان وضبط يده على الورقة فقال عمر: اضمم يدك عليها ثم بعث إلى كعب الأحبار[١٦١] فأتاه فقال: يا أبا اسحاق! هل تجد في علمك أن رجلاً من أمة محمد صلى الله عليه وسلم يدخل الجنة ثم يخرج منها قال: نعم يا أمير المؤمنين قال هل تسميه قال نعم فهو شريك بن حماشة النميري[١٦٢] قال فانظر هل تراه فنظر كعبا مليا ثم قال هو ذا فقيل لكعب صف الورقة قال نعم كانت مثل الكف العظيمة أشبه شيء بورق الزراقين يعني الخوخ ففي بيت المقدس اثنا عشر جبًا، ليس فيها جب أطيب ولا أعذب ولا أبرد من هذا الجب وهو يسمى ببير الورقة".

وتؤكد كتب الجرح والتعديل هذه الرواية، فقد ذكر ابن حيان هذه الرواية بقوله:[١٦٣] "ذهب يستسقي من جب سليمان الذي في بيت المقدس فانقطع دلوه فنزل الجب ليخرجه فبينما هو يطلبه في نواحي الجب إذ هو بشجرة فتناول ورقة من الشجرة فأخرجها معه فإذا هي ليس من شجر الدنيا، فأتى بها عمر بن الخطاب فقال: أشهد أن هذا هو الحق سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يدخل من هذه الأمة رجل الجنة قبل موته، فجعل الورقة بين دفتي المصحف". كذلك تطرق إلى ساقية ماء تأتي من مسافة شاقة ومهوى بعيد من الأرض قطعت لها الجبال وصدعت لها الصخور الجليلة، حتى انصبت منها المياه على المسجد الأقصى، فأروت وأغدقت وفاضت إلى "خسة[١٦٤] من رخام كبيرة أمام المسجد الأعظم في وسطها فوارة يجري فيها الماء، وفي وسط هذا الصحن صحن عال مرتفع يصعد اليه بأدراج عالية كثيرة من

جهات ثمانية وهو مفروش بالرخام الأبيض، وفي وسط هذا الصحن الأخير المرتفع القبة العظيمة القدر الكبيرة الخطر التي كان محاسن الدنيا مجموعة فيها ومحصورة في نواحيها، فهي من أعاجب الدهر وأحسن ما يرى بالبصر ويتخيل في الفكر".[١٦٥]

**. قبة الصخرة:**

يُعَدّ وصف البلوي لقبة الصخرة من أروع ما وصف به الرحالة السابقين له أو اللاحقين، إذ جاء وصفه شاملاً دقيقًا مستوفيًا لعظمة هذه القبة وتاريخها عند المسلمين. ابتدأ ذكرها بقوله:[١٦٦] "وهي مصنوعة من قبة مثمنة الحائط والأركان من داخلها وخارجها مستوية السقف، أعلاها ذهب مضروب في صنائع عجيبة وجوانبها كلها من داخلها ملبسة بألواح الرخام المنثور الملصق الصاقًا محكمًا مخططًا بالخطوط الكحل تخطيط القدرة الربانية، فجاء منها خواتم عجيبة وطوالع مختلفة الصناعة غريبة، وفي وسط هذه القبة المثمنة المستوية السقف قبة أخرى[١٦٧] قد بعد في السماء مرتقاها حتى تساوي ثراها مع ثرياها وجازت الجوزاء سمتًا وعزلت السماك الأعزل سمكًا وارتقت في الهوى وأسرت إلى السماء النجوى، وانتهت في الحسن الغاية القصوى فكأنما صورت جنة الخلد وأشربت حبة القلب وأوسعت قرة العين، ونقشت في عرض الأرض وأبرزت في الأبريز الخالص المحض قد اتفق الذكر فيها وضرب المثل بتناهيها، وبلغ الخاصة والعامة خبرها وبعد فيهم صيتها وارتفع ذكرها وعظم خطرها وتوافى الناس اليها من البعد والقرب والشرق والغرب متأملين لها متعجبين من مونق مرعاها ورونق سناها، والتقى رجال برجال قد دخلوا البلدان واستبدلوا الأوطان وجالوا في الأمصار وجابوا في الأقطار فأقسم كل واحد منهم بجهد قسمه أنه ما رأى لتمام محاسنها تمامًا ولا بأنق ما انتظمته مطالعها انتظامًا ولا بعجيب ما تضمنه ايواؤها، ومنحته أفناؤها من النقوش السرية، والصنائع السنية التي لا يبلغ نقوش أهل الهند ولا تنتهيها نمنمة أهل الصين تدركها رقوم أهل رها، ولا تساميها دباسج تستر ولا يقارن بها وشي صنعاء ولو لم يكن لها إلّا السطح المدد المشرف على الصحن الكبير والقبة وعجائب ما تضمنته من اتقان الصنعة وفخامة الهمة وحسن المستشرق وبراعة الملبس والحلة ما بين مرمر مسنون وذهب موضون، وعمد كأنها أفرغت في القوالب، أو أعيرت ملمس النضار الدلامس، ونقوش كقطع الحياض، وتشجير كألفات الرياض، يتسنم بين ذلك كله أنه سنام الدنيا، سلسل برود يفرغ أمامه من تماثيل عجيبة الأشخاص في خوابي رخام تهد الجبال ضخمًا ولا تهتدي الأوهام إلى سبيل الألفاء بها".

أما عن فيما يخص سقف قبة الصخرة، فيذكر عن أحد علماء عصره (شمس الدين الكركي) أن الرصاص الذي على السقف بلغ زنته ثلاثين ألف قنطار بالدمشقي، وبالموفى مائة ألف وعشرون ألف قنطار كاملة ؛ ولما بنى الخليفة عبد الملك بن مروان[١٦٨] القبة على الصخرة جعل على الجانبة التي أعلى القبة ثمانية آلاف صفيحة من نحاس مطلية بالذهب في كل صفيحة سبعة مثقال وأفرغ على رأس الأعمدة مائة ألف مثقال ذهبًا وفي وسطها مكتوب بالذهب في أرض سماوية لا زوردية على الدائرة ما نصه:

"بسم الله الرحمن الرحيم أمر بتجديد تذهيب هذه القبة الشريفة مولانا السلطان الملك الناصر العالم العادل المجاهد المؤيد من السماء ناصر الدنيا والدين محيي العدل في العالمين وظل الله في أرضه القائم بسنته وفرضه محرر ممالك الدنيا ومظهر كلمة الله العليا مشيد أركان الشريعة الشريفة، سلطان الإسلام الشهيد الملك المنصور قلاوون[١٦٩] تغمده الله برحمته وذلك في سنة ثمان عشرة وسبعمائة وتحت هذه القبة العجيبة الصخرة الشريفة التي هي كالجبل الراسي والطود العظيم معلقة وسط الفضاء بين الأرض والسماء لا صعودًا ولا نزولاً، انما يمسكها الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا [١٧٠] وقد انصنع بهذه الصخرة الشريفة والبنيان الدائر بها نوع من مغارة كبيرة تفضي اليها أدراج جملتها خمسة عشر درجًا وفيها سطح مفروش بالرخام المجزع المختلف الألوان البديع الصنعة، وهو موضع مبارك للصلاة، وفي الطرف القبلي من الصخرة الشريفة أثر قدم النبي صلى الله عليه وسلم[١٧١] يتبرك به الناس ويمرغون خدودهم فيه، وقد طاف بالصخرة الشريفة شباك من العود، وبعده شباك آخر من الحديد[١٧٢]، ثلاثة أبواب وبين الشباكين فضاء واسع للصلاة".[١٧٣]

كذلك تطرق إلى أبواب القبة وعددها أربعة أبواب، فالباب الجوفي منها يسمى باب الجنة وبأعلاه مكتوب بالخط الحسن هذا باب الجنة، وبأعلى الباب الثاني منه لوح نحاس كبير مكتوب فيه بالنقش المحكم ما نصه: "بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي لا اله إلّا هو الحي القيوم لا شريك له الأحد الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، عبد الله ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، آمنا بالله وبما أنزل على محمد وبما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون، صلى الله عليه وسلم، على محمد عبده ونبيه والسلام عليه ورحمة الله وبركاته ومغفرته ورضوانه، مما أمر به الإمام المأمون أمير المؤمنين أطال الله بقاءه في ولاية أخيه أمير المؤمنين أبي اسحاق ابن أمير المؤمنين الرشيد أبقاه الله وجرى على يد صالح بن يحيى مولى أمير المؤمنين في شهر ربيع الأخير سنة ست عشرة ومائتين، وأعلى الباب الثاني من الباب الشرقي لوح آخر من نحاس أيضًا مكتوب هذا النص المذكور بجملته".[١٧٤]

وتطرق البلوي إلى قبة السلسلة[١٧٥] التي قال عنها:[١٧٦] "قبة تغشى النواظر بشعارها، وتخطف الأبصار بالتماعها تسمى قبة السلسلة، التي كان يحكم بها داود عليه السلام، وهي قبة عجيبة قامت على أسوار مختلفة وصناعة على الحسن مشتملة بوسطها تاريخان مكتوبان بالذهب أحدهما في أرض خضراء زراعية ونصه: بسم الله الرحمن الرحيم وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنّا لحكمهم شاهدين، ففهمناها سليمان، وكلاً آتينا حكمًا وعلمًا [١٧٧]، كمل تجديد بطن هذه القبة (السلسلة) المباركة ونقش سقفها وتبليطها في شهور سنة ست وتسعين وخمسمائة".[١٧٨]

بينما جاء وصف العمري لقبة السلسلة بشيء من التوسعة والتحديد "وهذه القبة محمولة على اثني عشر عمودًا أخضر مرسيني، طول كل عمود خارجا عن قواعده ثلاثة أذرع وربع وثمن، وارتفاع سقفها البسط الملبس بالرصاص ثمانية أذرع.. وما بين العمود والعمود متكاية من الحجر الصوان المنحوت المجلي تقدبر شبر لا غير، طول كل قطعة من هؤلاء أربعة أذرع ونصف، وعرض ما بين عمودي المحراب خمسة أذرع مسدود بالرخام الملون، بخدي المحراب عمودان رخام أبيض، وبأعلى هذه الأعمدة قناطر ملبسة بالفص المذهب والأخضر المختلف الألوان، ارتفاع القناطر ذراعان وربع، وسعتها من المحراب لآخرها ثمانية ثمانية عشر ذراعًا".[١٧٩]

وتحدث البلوي عن مسجد[١٨٠] يقع في الركن الغربي من الصحن فيه قبتان منتظمان عجيبتان فيهما رسوم مذهبة وتواريخ مختلفة، ونصه: "بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله وصلواته على خير خلق الله محمد وآله وصحبه، أما بعد فما زالت همم ملوك الإسلام تناصر على اثبات مفاخر يبقى ذكرهم ببقائها، وانشاء محاسن يباهون الأمم ببهائها، فيحييون رسومًا طالما نسجت عليها العناكب، ويرقمون على صفحات الأيام من الخيرات رقمًا تشرف اليه الكواكب فتظل عيون الأماني بمآثرهم قريرة، وأعواد أحبالهم بمفاخرهم مورقة نظيرة، أعطاهم الله قدرة فصرفوها إلى رفع أقدارهم، وآتاهم الدنيا فلم يتركوها غفلا من محاسن آثارهم... فلله در فتى تبقى مساعيه بعده مشكورة، ومناقبه ما بقيت آثارهم مذكورة، ولما تشعث السقف الذي كان أنشأه الملك المعظم الواقف المذكور رحمه الله انتدب لأحيائه عبد الله الفقير اليه أسد الدين عبد القادر سبط الواقف بحكم ما اليه من النظر الشرعي في أوقاف جده فجدده وبذل وسعه وطاقته فيه ابتغاء مرضاة الله تعالى وكان الفراغ منه في ربيع الأخير سنة تسع وعشر وسبعمائة من الهجرة النبوية وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم".[١٨١]

فضلاً عن ذلك؛ ذكر عددًا من القباب المشهورة هناك منها، قبة الركن المشرقي الحافلة[١٨٢]، وقبة المعراج[١٨٣]، وقبة الميزان الرخامية، وقبة موسى البديعة[١٨٤]، وقبة سليمان الرائقة.[١٨٥] ولم يفت البلوي في ذكر المشاهد والآثار الموجودة هناك، أمثال جبل الطور[١٨٦] الذي هو جبل عظيم منه رفع سيدنا عيسى (عليه السلام) إلى السماء فيما يذكر، ويقع بشرقي الحرم القدسي وفيه قلعة مباركة في أعلاها مسجد شريف حافل مؤسس بالسواري الحسنة الضخمة والرخام الأبيض الصافي، والحجر المنجور الجافي، يقصده الناس للتبرك.[١٨٧]

وذكر عدد من الترب منها، تربة الصالحة الولية رابعة العدوية[١٨٨] التي تقع دون الجبل وأعلاها قبة مباركة يفضي اليها أدراج؛[١٨٩] وعلى بعد منها أيضًا قبة كبيرة مختلفة فيها تربة مريم (عليها السلام) تفضي إلى أدراج هابطة إلى التربة الكريمة عددت فيها ثمانية وأربعين درجة.[١٩٠] فضلاً عن البقاع الطاهرة وقبور الأنبياء (عليهم السلام) وآثارهم، ويذكر أن ما تم ذكره عن تلك المشاهد والمساجد والمعاهد "إلا كالنقطة الواقعة في البحر، والذرة الساقطة في القفر، والشرارة من الجمر".[١٩١]

**. مساجد الرملة:**

لم يذكر البلوي سوى جامعًا واحدًا في الرملة، وذلك عند زيارته للمدينة سنة ٧٣٨ هـ، فقد زار الجامع الكبير في المدينة ووصفه بقوله:[١٩٢] "دخلت بداخلها المسجد الجامع الكبير حيث الخطبة الكبرى، والجماعة العظمى وهو المشتهر بالجامع الأبيض له صحن كبير جدًا فيه أشجار وأطيار وجب وآبار، فيها ماء كثير عذب نمير، وفي وسط الصحن مغارة عظيمة كبيرة تفضي إليها أدراج كثيرة، قد قامت على أقواس محنية وأرجل مختلفة مبنية، ذكر أن فيها جماعة عظيمة من الأنبياء مدفونين يعدهم النساك بالمئين، زرناها لما يؤثر عنها من البركات والأعمال بالنيات وعلى باب المسجد المذكور تاريخان منقوشان في الرخام، وقدمهما وأخصرهما ما نصه: بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أمر بعمارة هذا المسجد الجامع المبارك إياس عبد الله بن جهة الأمير علم الدين قيصر رحمه الله ورحم مَنْ ترحم عليه، سنة ثمانين وخمسمائة".[١٩٣]

وبالنسبة لتاريخ هذا المسجد فإن الخليفة الاموي سليمان بن عبد الملك قبل توليه الخلافة كان على جند فلسطين من قبل أخيه الخليفة الوليد، فقام بعدة أعمال منها، أنه في سنة ٩٦هـ اختط للمسجد خطة وبناه، وأثناء خلافته عمل فيه، وكمل تمام المسجد في خلافة عمر بن عبد العزيز الذي أنقص من الخطة وعلل ذلك بقوله: "أهل الرملة يكتفون بهذا المقدار الذي اقتصرت بهم عليه".[١٩٤] ويذكر العمري قصة بناء المسجد بأن سليمان بن عبد الملك ومعه رجاء بن حيوه،[١٩٥] نزلا عند امرأة تدعى رملة، فأكرمتهما وأعجبا بها، وبمكانها، فأشار عليه رجاء أن يبني مسجدًا للمسلمين، فخط سليمان مسجدًا صغيرًا ودارًا للإمارة، فقال له رجاء أن الرملة ستكون مدينة كبيرة فلا بد لها من مسجد كبير، ويضيف أن الخليفة عبد الملك بن مروان طلب من ملك الروم أن يزوده بأعمدة ورخام، فأجاب طلبه وبعث له أعمدة ورخام لم ير مثلها في الاعتدال والحسن.[١٩٦]

وصفه العليمي[١٩٧] بقوله: "وهو جامع متسع مأنوس عليه الأبهة والوقار والنورانية ويعرف في عصرنا وقبله بالجامع الأبيض، وفي صحنه السماوي معارة تحت الأرض مهيبة يقال أن بها دفن سيدنا صالح النبي عليه السلام". وشهد المسجد عدة إصلاحات، ففي عصر السلطان صلاح الدين الأيوبي (٥٦٩ . ٥٨٩ هـ / ١١٧٣ . ١١٩٣م) وتحديدًا سنة ٥٨٦ هـ تم تجديد عمارته، وفي عصر السلطان الظاهر بيبرس عندما فتح مدينة يافا[١٩٨] سنة ٦٦٠ هـ، قام بإعمار القبة التي على المحراب والباب المقابل للمحراب، وهو المجاور للمنبر الذي يخطب عليه للعيد، كذلك قام بإعمار المنارة القديمة التي زالت ثم بنى عوضها المنارة الجديدة.[١٩٩]

**٢. مدارس القدس:**

تطرق البلوي خلال رحلته إلى مدن فلسطين إلى الحركة العلمية على وجه الخصوص، ومنها المدارس التي لم يسم منها سوى اثنين في مدينة القدس، الأولى بالقرب من المسجد الأقصى، والثانية بالقرب من قبة الصخرة. ولا أبلغ من وصفه لتلك الحركة العلمية بقوله:[٢٠٠] "وفي كل مسجد من تلك المساجد ومدرسة من تلك المدارس، وقبة من تلك القباب إمام عاكف به قائم عليه". على أن ذكر هاتين المدرستين لا يعني أن القدس اقتصرت عليهما، بل أن العليمي ذكر ست وأربعون مدرسة في المدينة.[٢٠١]

**المدرسة الفخرية**: ذكر البلوي هذه المدرسة بأنها تقع بجوار مسجد المغاربة من جهة الغرب.[٢٠٢] وهذه المدرسة تسمى خانقاه الفخرية، وهي بداخل سور المسجد وبابها من داخل المسجد عند الباب الذي يخرج منه إلى حارة المغاربة؛[٢٠٣] واقفها هو المقر العالي القاضي فخر الدين أبو عبد الله محمد بن فضل الله ناظر الجيوش الإسلامية، كان قبطيًا فأسلم وحسن إسلامه.[٢٠٤]

**المدرسة الذنقيدية**: ذكرها البلوي بهذا الاسم، وقال أنها تقع في الجهة الغربية من الصحن المثمن لقبة الصخرة ووصفها وصفًا جماليًا مع ذكر النقوش التي عليها "مدرسة عجيبة غريبة الشكل غزيرة المياه حافلة الصنعة بابها ملاصق لباب الحرم تسمى الذنقيدية، ويسكنها الصوفية وقد حف بها من الرسوم المذهبة العجيبة والخطب الأدبية الغريبة والألفاظ البعيدة القريبة، كل من أتى بالعجب، وسفر عن الحسن المنتخب، ووجب أن كتب هناك بذوب الذهب، اخترت أخصرها ونقلت أيسرها فكان الذي ارتضاه الاختيار واقتضاه الاقتصار ما قيدته من مباح الطبقة العليا ونصه :

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد الله الذي رفع لبيت المقدس في سائر الملل ذكرًا، وفضله على أكثر البقاع شرفًا وفخرًا، وجمع القلوب على محبته تعظيمًا لرتبته وقدرًا، وأسرى بخير خلقه اليه ثم أنزل عليه صلوات الله عليه، سبحان الذي أسرى[٢٠٥]، فيا بشرى لمن بنا لله فيه بيتًا ولو كان شبرًا، ويا أسعد من أسدى للناس فيه ثوابًا وبرًا، لقوله ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾[٢٠٦] فأي خير أعظم من انشاء هذا المكان وبناء هذا الإيوان، الذي باب الرحمة مفتوحًا بين يديه، والطور أمامه والشجر تحت قدميه، والجامع الأقصى كالقمر ناظر اليه، والصخرة الشريفة كالشمس مقبلة عليه، وهو كالهلال قد ظهر بين الشمس والقمر. ما الشمس ما البدر في لألاء بهجته في كل ناحية من وجهه قمر. أرجو لبانيه أن يعطى أمانيه، وأن يفوز من الملك الجليل بالعطاء الجزيل والثناء الجميل والظل الظليل وحسبنا الله ونعم الوكيل".[٢٠٧]

في الحقيقة لا توجد مدرسة بهذا الاسم والصحيح أن اسمها المدرسة التنكزية نسبة إلى واقفها الأمير سيف الدين تنكز الناصري[٢٠٨] سنة ٧٢٩ هـ عندما كان مارًا ببيت المقدس عند عودته من مصر إلى دمشق.[٢٠٩] تقع هذه المدرسة في الجهة الغربية من الحرم القدسي عند باب السلسلة، ولها بابان، شرقي وهو مطل على الحرم الشريف، والثاني شمالي مطل على الطريق المعروف بطريق السلسلة؛ وهي مدرسة عظيمة ليس في المدارس أتقن من بناءها.[٢١٠] وكانت هذه المدرسة نشطة في دروس الحديث الشريف الأمر الذي جعل النعيمي يطلق عليها دار الحديث السيفية.[٢١١] بينما أطلق عليها كلا من السخاوي والعليمي اسم المدرسة التنكزية.[٢١٢] فضلاً عن وجود أعلام المدرسين الذين جلهم من المحدثين يدرسون في هذه المدرسة أمثال: خليل بن كيلكدي العلائي،[٢١٣] وصلاح الدين العلائي،[٢١٤] والدليل الأخير أن جلّ العلماء الذين درسوا في هذه المدرسة كانوا من علماء الحديث.[٢١٥]

## خَاتِمَةٌ

بعد أن استعرضنا المادة العلمية المتعلقة بأهمية كلاً من مصر وفلسطين في رحلة البلوي، كان لا بد من تسجيل أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

- تُعَدّ رحلة البلوي واحدة من الرحلات المهمة في القرن الثامن الهجري، كونها سلطت الضوء على حقبة مميزة في التاريخ الإسلامي، بكل صدق وأمانة.
- إِعتمد البلوي في وصفه للمدن على المشاهدة العينية والوقوف عليها بنفسه، فضلاً عما سمعه من أوصاف عن طريق التلقي؛ وهذا لا يعني أنه لم يعتمد على وصف رحالة آخرين دون الإشارة إليهم، كما فعل في وصف بعض المعالم الجغرافية في مصر، فنجد أنه كان يعتمد على وصف ابن جبير وآخرين؛ لكن ذلك لا يقلل من أهمية وصفه لباقي نواحي المعالم.
- بينما جاء وصف مدن فلسطين امتيازًا بلويًا من خلال اقامته وتنقله بين هذه المدن، بل أن وصفه كان فريدًا من نوعه مقارنة بأوصاف الرحالة المسلمين سواء السابقين أم اللاحقين له؛ فقد جاء وصفه دقيقًا موسعًا مركزًا على النواحي المهمة في المدن، ولم يترك أثرًا أو مركزًا حضاريًا إلا وذكره.
- تُعَدّ رحلة البلوي مصدرًا مهما للعديد من الرحالة الذين جاءوا بعده، وهذا واضح في كتابات العليمي وغيره.
- من الملاحظ على رحلة البلوي أنها جاءت خالية من الإشارة إلى الحياة السياسية، على الرغم من أن الحقبة التي عاصرها كانت مليئة بالأحداث السياسية سواء على الصعيد الداخلي من ثورات وتمردات، أو الصعيد الخارجي المتمثل بالغزوين الصليبي والمغولي؛ ولعل هذا راجع إلى قصر مدة مكوثه في مصر وبلاد الشام، فضلاً عن دخوله كحاج يلفت نظره المنشآت والنواحي الحضارية دون غيرها.
- التوسع في ذكر مدن فلسطين على حساب المدن المصرية، كونه مكث طويلاً في فلسطين فأتاحت له ذلك، عكس مصر.
- أشارت الرحلة إلى مدى اهتمام سلاطين المماليك بالحياة العلمية من خلال إنشاء المساجد، والمدارس، والزوايا، والربط، فضلاً عن البيمارستانات.

## الهَوامِشُ:

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت. ٨٠٨ هـ): **العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومَنْ عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ضبط المتن الأستاذ خليل شحادة، مراجعة الدكتور سهيل زكار، ط٢، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع (بيروت: ١٩٨٨م)، ج ٤، ص ٢١٨.

(٢) لسان الدين ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد التلمساني (ت. ٧٧٦هـ) **اللمحة البدرية في الدولة النصرية**، تحقيق محب الدين الخطيب، ط١، المطبعة السلفية (القاهرة: ١٩٢٧م)، ص ٣٢.

(٣) المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد (ت. ١٠٤١هـ): **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب**، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط١، مطبعة السعادة (مصر: ١٩٤٩م)، ج ١، ص ٣٤٤.

(٤) ابن الخطيب، **أعمال الأعلام فيمَن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**، نشره ليفي بروفنسال تحت عنوان تاريخ اسبانيا الاسلامية، ط٢، دار المكشوف (بيروت: ١٩٥٦م)، القسم الثاني، ص٣٣.

(٥) ابن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق محمد عبد الله عنان، الشركة المصرية للطباعة والنشر (القاهرة: ١٩٧٣م)، ج٤، ص٢٨٠؛ **كناسة الدكان بعد انتقال السكان**، تحقيق محمد كمال شبانه، دار الكتاب (القاهرة: ١٩٦٦م)، ص٣٣.

(٦) ابن خلدون، **العبر**، ج ٤، ص ١٧٤.

(٧) ابن الخطيب، **اللمحة البدرية**، ص ١٠٨.

(٨) المصدر نفسه، ص ١٢٧.

(٩) البلوي، خالد بن عيسى (ت. قبل ٧٨٠ هـ): **تاج المفرق في تحلية علماء المشرق**، تحقيق الحسن السائح، نشر اللجنة المركزية (الرباط: ١٩٧٨م) ، ج ١، ص ٢.

(١٠) ابن خلدون، **العبر**، ج ٤، ص ١٧٤.

(١١) نفح الطيب، ج ١، ص ١٨١.

(١٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٨١.

(١٣) ابن خلدون، **التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا**، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر (بيروت: د. ت)، ص ٨٤.

(١٤) المقري، **نفح الطيب**، ج١، ص ٢٠٦.

(١٥) ابن الخطيب، **الاحاطة**، ج١، ص ٥١٦.

(١٦) المصدر نفسه، ج١، ص ٣٥٩.

(١٧) **البلوي**: نسبة إلى قبيلة البلويين العربية وهي فرع من قضاعة اليمنية، فيها جماعة من الصحابة أمثال كعب بن عجرة وأبو الهيثم بن الهيجان (رضي الله عنهما). ابن الأثير، عز الدين علي بن محمد (ت. ٦٣٠هـ): **اللباب في تهذيب الأنساب**، مكتبة المثنى (بغداد: د.ت)، ج١، ص ١٧٧.

(١٨) **قنتورية**: بلدة صغيرة من أعمال ولاية المرية، تقع على نهر المنصورة بالقرب من بلدة المنصورية. ابن الخطيب، الاحاطة، ج١، ص٥٠٠.

(١٩) ابن القاضي، أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن عبد الرحمن (ت. ١٠٢٥هـ): **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من أعلام مدينة فاس**، دار المنصور (الرباط ١٩٧٣م)، ص١٨٦.

(٢٠) علل ذلك بأن رحلته إلى المشرق كانت سنة ٧٣٦ هـ في مقتبل عمره، وقد تعود الرحالة الأندلسيين أن يرحلوا في فجر شبابهم، واستدل أيضًا بقول ابن الخطيب عن رحلته بأنه راح للمشرق مع اخضرار العود. مقدمة المحقق، ص١٥.

(٢١) **برشانة**: قرية من قرى أشبيلية في الأندلس. ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله (ت. ٦٢٦ هـ): **معجم البلدان**، دار صادر (بيروت: ١٩٧٧ م) ج ١، ص ٣٨٤.

(٢٢) مقدمة المحقق، ص ١٧.

(٢٣) ابن الخطيب، **الإحاطة**، ج ١، ص ٥٠٠.

(٢٤) البلوي، **تاج المفرق**، مقدمة المحقق، ج ١، ص ٤٣.

(٢٥) **الإحاطة**، ج ١، ص ٥٠٠ ؛ المقري، **نفح الطيب**، ج ٢، ص ٥٣٢.

(٢٦) **جذوة الاقتباس**، ج ١، ص ١٨٦.

(٢٧) إسماعيل باشا محمد أمين (ت. ١٣٣٩ هـ): **هدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين**، دار إحياء التراث العربي (بيروت: د. ت)، ج ١، ص ٣٤٣.

(٢٨) خير الدين: **الأعلام**، دار العلم للملايين، ط ٨ (بيروت: ١٩٨٩ م)، ج ٢، ص ٢٩٧.

(٢٩) مقدمة المحقق، ص ١٦.

(٣٠) البلوي، **تاج المفرق**، المقدمة، ص ٤٠.

(٣١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢١٣ ـ ٢١٤.

(٣٢) **تاج المفرق**، ج ١، ص ٣.

(٣٣) نواب، عواطف محمد يوسف: **الرحلات المغربية والأندلسية، مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين**، مطبوعات مكتبة فهد الوطنية (الرياض: ١٩٩٦ م)، ص ١٤٠.

(٣٤) مثال ذلك أخذه عن العالم أبو زكريا وجيه الدين يحيى بن محمد بن يحيى بن عبد الله بن الأمان الصنهاجي المالكي، وذكر ولادته سنة ٦٦٧ هـ وهو إمام الفروع والأحكام، له رحلة قديمة وعى فيها الكثير، سمع عنه تآليف كثيرة وأجازه اجازة مطلقة تامة وكتب له بخطه. **تاج المفرق**، ج ١، ص ٣٧.

(٣٥) الكتاب فيه العديد من الوصف الجغرافي للمدن ومثال ذلك مدينة الكرك التي قال عنها "التي هي من أمنع معقل في الدنيا.. فرأيت مدينة عظيمة الجرم سامية الرسم، كأنها على مرقب النجم"، ج ١، ص٨٧ ؛ ومدينة الرملة "حسنة المخبر، ممتعة بالروض لناعم، والنسيم الاعطر، أحسن المدائن، أزقة وأسواقًا وأكثرها فواكه وأرزاقًا، وأملحها بياضًا وإشراقًا، وأبدعها اتصالاً بالبساتين والتصاقًا، قريبة من البحر بعيدة من الغور كثيرة المساجد"، ج ٢، ص ١٢٤.

(٣٦) أكد ذلك الدكتور حسين نصار محقق الرحلة عندما أشار إلى نقل البلوي من ابن جبير، وسوف نتناول ذلك بالتفصيل في وصف مصر وفلسطين عند البلوي ومقارنة ذلك بينه وبين ابن جبير وابن بطوطة.

(٣٧) من ذلك وصف لإعمار المسجد النبوي الشريف في عصر السلطان المملوكي بيبرس بنقله تلك العبارة "بسم الله الرحمن الرحيم خدم بهذه الدار بزينة للحرم الشريف مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين أبي الفتح بيبرس الصالحي، قسيم أمير المؤمنين في سنة ثمان وستين وستمائة" ج ١، ص ٩٤.

(٣٨) سنفصل الحديث عنها في موضعها في موضوع وصف مصر.

(٣٩) مثال ذلك الآية الكريمة من سورة النجم، وحديث النبي (صلى الله عليه وسلم) في فضل المساجد الثلاث عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا تشد الرحال الا إلى ثلاث مساجد المسجد الحرام ومسجد الرسول والمسجد الاقصى". ج ١، ص ٧٣.

(٤٠) **نفح الطيب**، ج ٢، ص ٥٣٢.

(٤١) **تلمسان**: مدينة مسورة في سفح جبل، لها خمسة أبواب، تعد قاعدة المغرب الأوسط، لها أسواق ومساجد ومسجد جامع وأشجار وأنهار عليها الطواحين، وهي دار مملكة زناتة ومتوسطة قبائل البربر ومقصد لتجار الافاق. البكري، أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧هـ): **المسالك والممالك**، مكتبة المثنى (بغداد: ١٨٥٧م)، ج ٢، ص ٧٤٦.

(٤٢) **بجاية**: مدينة على البحر تُعَدّ مدينة المغرب الأوسط، وعين بلاد حماد، وهي محط السفن والقوافل التجارية برًا وبحرًا، البضائع بها نافقة وأهلها من مياسير التجار، وتشتهر بالصناعة ومنها صناعة لإنشاء الأساطيل والمراكب والسفن والحرابي. الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد (ت. ٥٦٠هـ): **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، عالم الكتب، ط ١ (بيروت: ١٤٠٩ هـ)، ج ١، ص ٢٦٠.

(٤٣) **قسطنطينية**: كانت رومية دار ملك الروم، وملك برومية قسطنطين الاكبر ثم انتقل إلى بيزنطة وبنى عليها سورًا وسماها قسطنطينية، وهي دار ملكهم لها خليج من البحر يطيف بها من وجهين مما يلي الشرق والشمال، ولها أبواب كثيرة. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج ٤، ص ٣٤٧.

(٤٤) **بونة**: من مدن أفريقية تقع بين مرسى الخرز وجزيرة مزغناي، وهي مدينة مقتدرة ليست بالكبيرة ولا بالصغيرة على نحر البحر، بها أسواق حسنة وتجارة مقصودة رخيصة في بيعها، تشتهر بكثرة الفواكه والقمح والشعير فضلاً عن معادن الحديد، وكذلك تشتهر بتجارة المواشي. ابن حوقل، محمد بن علي (ت. ٣٦٧هـ): **صورة الأرض**، ط٢ مطبعة فؤاد بيبان وشركاؤه (بيروت: د. ت)، ج ١، ص ٧٥.

(٤٥) **قوسرة**: وتسمى قوصرة تقع شرق جزيرة مليطمة تلي مدينة مازر، وهي عبارة عن جبل عال مشرف، ولها مرسى من جهة الشمال، وهي مقطع للخشب الجيد يحمل منه إلى صقلية، وتُعَدّ مكمن للغزاة. البكري، **المسالك والممالك**، ج ١، ص ٤٨٨.

(٤٦) **مالطة**: جزيرة بين صقلية وأقريطش، تشتهر بكثرة الأغنام والحمير، فضلاً عن شهرتها في وجود العسل الذي يقصده الكثيرون. ابن حوقل، **صورة الأرض**، ج ١، ص ٢٠٤.

(٤٧) **أقريطش**: جزيرة في بحر المغرب يقابلها من بر أفريقية لوبيا، وهي جزيرة كبيرة فيها مدن وقرى ينسب اليها جماعة من العلماء. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج ١، ص ٢٣٦.

(٤٨) **قبرص**: تسمى قبرس جزيرة في بحر الروم، وأهلها كلهم نصارى، أرضها خصبة جدًا، افتتحها الخليفة معاوية بن أبي سفيان صلحًا. الاصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد (ت. في النصف الأول من القرن الرابع الهجري): **مسالك الممالك**، تحقيق الدكتور محمد جابر عبد العال الحسيني، دار القلم (القاهرة: ١٩٦٠م)، ص٥١.

(٤٩) **غزة**: مدينة في أقصى الشام من ناحية مصر بينها وبين عسقلان فرسخان، وهي من نواحي فلسطين غربي عسقلان. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج ٤، ص٢٠٢.

(٥٠) **الخليل**: اسم موضع وبلدة فيها حصن وعمارة وسوق بقرب بيت المقدس بينهما مسيرة يوم، فيها قبر ابراهيم الخليل (عليه السلام) في مغارة تحت الأرض، وبالخليل سمي الموضع واسمه الأصلي حبرون. المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٨٧.

(٥١) **الكرك**: كلمة أعجمية وهي اسم لقلعة حصينة جدا في طرف الشام من نواحي البلقاء في جبالها بين آيلة وبحر القلزم وبيت المقدس، وهي على سن جبل عال تحيط به الاودية. المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٥٣.

(٥٢) **آيلة**: مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام، كانت مدينة جليلة في زمن سيدنا داود (عليه السلام) وهي التي يجتمع فيها حجيج الشام ومصر من جاء منهم عن طريق البحر. القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢هـ): **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار صادر للطباعة والنشر (بيروت: ١٩٦٠م)، ص ١٥٣.

(٥٣) **تاج المفرق**، ج ٢، ص ١٢٢.

(٥٤) **الرملة**: قصبة فلسطين، مدينة بهية حسنة البناء خفيفة الماء واسعة الفواكه، جامعة الاضداد، تقع بين رساتيق جليلة ومدن سرية ومشاهد فاضلة وقرى نفيسة، تشتهر بالتجارة وجامعها لا يوجد أبهى منه في الإسلام، فيها فنادق وحمامات ومنازلها فسيحة. المقدسي، شمس الدين محمد بن احمد البشاري (ت. ٣٨٠هـ): **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ط٢ مطبعة بريل (ليدن: ١٩٠٦م)، ص ١٥١.

(٥٥) **عسقلان**: مدينة في الشام من أعمال فلسطين تقع على ساحل البحر بين غزة وجبرين، يقال لها عروس الشام، كانت رباطًا للمسلمين لحراسة الثغور منها. ابن عبد الحق، صفي الدين المؤمن البغدادي (ت. ٧٩٣هـ): **مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع**، تحقيق علي محمد البجاوي، ط١ (لبنان: ١٩٥٤م)، ج ٢، ص ٩٤٠.

(٥٦) **قاطية**: عند الجغرافيين تسمى قطية وهي قرية في طريق مصر في وسط الرمل قرب الفرما، وبيوتهم عبارة عن صرائف من جريد النخيل، وتشتهر بكثرة الاسماك لقرب البحر منها. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج ٤، ص ٣٧٨.

(٥٧) هذه المسالك والطرق تم تتبعها من خلال حديث البلوي عن رحلته والاماكن التي تنقل فيها حتى وصل إلى مبتغاه.

(٥٨) **تاج المفرق**، ج ١، ص ٣٥.

(٥٩) **تاج المفرق**، ج ١، ص ٣٦.

(٦٠) أبي عبد الله محمد بن محمد بن علي بن أحمد (ت. بعد سنة ٧٠٠ هـ): **رحلة العبدري**، تحقيق علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين للطباعة والنشر، ط ٢ (دمشق: ٢٠٠٥ م)، ص ٢١١.

(٦١) **سورة الفجر**، الآيتان (٧، ٨).

(٦٢) ابن كثير، عماد الدين أسماعيل بن عمر (ت. ٧٧٤ هـ): **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط ١ (بيروت: ١٤١٩ هـ)، ج ٨، ص ٣٨٥.

(٦٣) هذه المعلومة لم أجدها عند ابن سعيد في كتاب الجغرافيا، ولا عند الزهري في كتابه الجغرافية، إنما وجدتها عند ابن الفقيه في كتابه **البلدان**، ص ١٢٥.

(٦٤) نجد أنه أخذ هذه المعلومة من ابن الفقيه، أبو عبد الله أحمد بن محمد (ت. ٣٦٥ هـ): **البلدان**، تحقيق يوسف الهادي، عالم الكتب، ط ١ (بيروت: ١٩٩٦ م)، ص ١٢٥.

(٦٥) **تاج المفرق**، ج١، ص ٣٦. عند المقارنة مع وصف ابن جبير لبناء المدينة نجد أنه نقل ذلك حرفيًا. محمد بن أحمد (ت ٦١٤ هـ): الرحلة، دار بيروت للطباعة والنشر، ط ١(بيروت: د. ت)، ص ١٤.

(٦٦) سليمان بن موسى بن سالم (ت ٦٣٤ هـ): الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والثلاثة الخلفاء، دار الكتب العلمية، ط ٢ (بيروت: ٢٠٠٠ م)، ج ٢، ص ٣٤٤.

(٦٧) **تاج المفرق**، ج ١، ص ٣٦. مع اختلاف في كلمة حلة، فقد ذكرها الكلاعي بـ (ملهى).

(٦٨) **تاج المفرق**، ج ١، ص ٣٦. الكلاعي، **الاكتفاء**، ج ٢، ص ٣٤٤.

(٦٩) شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت. ٧٤٩ هـ): **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تحقيق كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، ط ١ (بيروت: ٢٠١٠ م)، ج ٣، ص ٣٣٧.
(٧٠) العمري، **مسالك الأبصار**، ج ٣، ص ٣٣٨.
(٧١) **تاج المفرق**، ج ١، ص ٤٧.
(٧٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٧.
(٧٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٧.
(٧٤) جلال الدين عبد الرحمن (ت. ٩١١ هـ): **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ط ١ مطبعة عيسى البابي الحلبي (القاهرة: ١٩٦٧م)، ج ٢، ص٩٤.
(٧٥) **تاج المفرق**، ج ١، ص ٤٨.
(٧٦) محمد بن عبد الله بن محمد (ت. ٧٧٩ هـ): **الرحلة**، أكاديمية المملكة المغربية (الرباط: ١٩٩٧ م)، ج ١، ص ٢١٢.
(٧٧) **تاج المفرق**، ج ١، ص ٤٧.
(٧٨) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٧.
(٧٩) **تاج المفرق**، ج ١، ص ٣٦ ؛ الكلاعي، **الاكتفاء**، ج ٢، ص ٣٤٤.
(٨٠) **جامع ابن طولون**: بناه الأمير أحمد بن طولون سنة ٢٥٩ هـ، وأنتهى منه سنة ٢٦٦ هـ على جبل يشكر حين بنى القطائع، وصارت تقام فيه خطبة الجمعة. المقريزي، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ): **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار** المعروف بالخطط المقريزية، مكتبة الثقافة الدينية (القاهرة: ١٢٩٤ هـ)، ج ٤، ص ٣.
(٨١) المقريزي، **المواعظ والاعتبار**، ج ٤، ٤٣ ؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٢٤٩.
(٨٢) **تاج المفرق**، ج ١، ص ٥١.
(٨٣) **سورة التوبة**، الآية (١٨).
(٨٤) يبدو أن البلوي قد أخطأ في ذكر السنة التي جدد فيها السلطان صلاح الدين الأيوبي، إذ أن المعروف سنة التجديد هي سنة ٥٦٨ هـ. ينظر ابن دقماق، صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدم العلائي (ت. ٨٠٩هـ): **الانتصار لواسطة عقد الأمصار**، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة (بيروت: د. ت)، ج ١، ص ٦٩.
(٨٥) المقريزي، **المواعظ والاعتبار**، ج ٤، ص ١٦.
(٨٦) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٦ ـ ١٧.
(٨٧) الرحلة، ج ١، ص ٢٠٣.
(٨٨) **نفيسة**: هي نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنهم أجمعين)، دخلت مصر مع زوجها اسحاق بن جعفر الصادق، وقيل مع أبيها. كانت من النساء الصالحات التقيات، يروى أن الإمام الشافعي لما جاء إلى مصر دخل عليها وسمع عليها الحديث، توفيت في مكانها المشهور بين القاهرة ومصر الذي يسمى بالمشاهد سنة ٢٠٨ هـ. ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين احمد بن محمد (ت ٦٨١هـ): **وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر (بيروت: د. ت)، ج ٥، ص ٤٢٤.
(٨٩) **تاج المفرق**، ج ١، ص ٥٢.
(٩٠) **تاج المفرق**، ج ١، ص ٥٢.
(٩١) **القرافة**: خطة في الفسطاط من مصر، وقرافة بطن من المعافر نزلوها فسميت بهم، تُعدّ مقبرة أهل مصر وبها أبنية جليلة ومحال واسعة وسوق قائمة، ومشاهد للصالحين وترب للاكابر. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج ٤، ص ٣١٧.
(٩٢) **تاج المفرق**، ج ١، ص ٥٢ ـ ٥٣.
(٩٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٧.
(٩٤) **المدرسة الصلاحية الشافعية**: بناها السلطان صلاح الدين الايوبي سنة ٥٧٢ هـ بجوار الإمام الشافعي وأوقف عليها الأوقاف الكثيرة، وتعد تاج المدارس وأعظم مدارس الدنيا على الإطلاق لشرفها بجوار الإمام الشافعي. السيوطي، **حسن المحاضرة**، ج ٢، ص ٢٥٧.
(٩٥) **تاج المفرق**، ج ١، ص ٥٤.
(٩٦) **المدرسة الناصرية**: ابتدأها السلطان العادل كتبغا ولم يتم عمارتها، وفي سلطنة الناصر قلاوون الثانية أتم بناءها وعمارتها سنة ٧٠٣ هـ ورتب فيها درسا للمذاهب الاربعة. السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص ٢٦٥. وقال عنها المقريزي في أيامه "وأدركت هذه المدرسة وهي محترمة إلى الغاية يجلس بدهليزها عدة من الطواشية، ولا يمكن غريب أن يصعد اليها". يُنظر: **المواعظ والاعتبار**، ج ٤، ص٢٣٠.
(٩٧) العالم هو أبو الأصبغ عيسى بن مخلوف المغيلي. **تاج المفرق**، ج ١، ص ٦١.
(٩٨) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٩.
(٩٩) **رحلة العبدري**، ص ٣١٤. وللمزيد عن نهر النيل يُنظر: المقريزي، **الخطط المقريزية**، ج ١، ص ٩٦ وما بعدها.
(١٠٠) **البيمارستان المنصوري**: بناه السلطان المنصور قلاوون في موقع ما بين القصرين، وهي في الأصل قاعة ست الملك الفاطمية، دام البناء فيه أحد عشر شهرا في سنة ٦٨٢ هـ، وقيل أن سبب بناءه هو أنه لما كان أميرًا خرج لغزو الروم فأصيب في دمشق فعالجه الاطباء من البيمارستان الزنكي، فنذر أن يبني بيمارستانا إن شفاه الله. المقريزي، **المواعظ والاعتبار**، ج ٤، ص ٢٦٨.
(١٠١) **تاج المفرق**، ج ١، ص ٤٩.
(١٠٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٩ ـ ٥٠.
(١٠٣) **مسالك الأبصار**، ج ٣، ص ٢٨٢.
(١٠٤) الاهرامات: أبنية من الحجارة في غاية العلو متسعة الاسفل مستديرة الشكل، وقيل أن أحمد بن طولون سأل حكيما عن سبب بناءها فقيل له لحفظ جثة الملوك، ثم سأله عن كيفية حمل الحجارة فقال يبنون الهرم مدرجا ذا مراق فإذا فرغوا منه نحتوه. البكري، المسالك والممالك، ج ١، ص ٥١٢.
(١٠٥) **تاج المفرق**، ج ١، ص ٥٠.
(١٠٦) العبدري، **رحلة العبدري**، ص ٣١٧ ـ ٣١٨.
(١٠٧) **تاج المفرق**، ج ١، ص ٥٠.
(١٠٨) القاسم بن يوسف (ت ٧٣٠ هـ): مستفاد الرحلة والاغتراب، تحقيق عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب (ليبيا: ١٩٧٥ م)، ص ١٦٧.
(١٠٩) **تاج المفرق**، ج ١، ص ٣٦.
(١١٠) معجم البلدان، ج ١، ص ١٨٧.
(١١١) **رحلة العبدري**، ص ٢١٢.
(١١٢) الخطط، ج ١، ص ٢٩٧.
(١١٣) نلاحظ ذلك جليًا من وصف ابن جبير للمنار عندما وقف عليه "ومن أعظم ما شاهدناه من عجائبها المنار الذي قد وضعه الله عز وجل على يدي من سخر لذلك آية للمتوسمين وهداية للمسافرين لولاه ما اهتدوا في البحر إلى بر الإسكندرية، يظهر على أزيد من سبعين ميلاً.. يزاحم الجو سموا وارتفاعا يقصر عنه الوصف.. ذرعنًا أحد جوانبه الاربعة فألفينا فيه نيفا وخمسين باعا، ويذكر أن في طوله أزيد من مائة وخمسين قامة". **رحلة ابن جبير**، ص ١٥.

(١١٤) **المسالك والممالك**، ج ٢، ص ٦٣٦.

(١١٥) **رحلة العبدري**، ص ٢١٣.

(١١٦) **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار**، ج ١، ص ٢٩٣.

(١١٧) ابن عبد الظاهر، محي الدين أبو الفضل عبد الله (ت. ٦٩٢هـ): **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر**، دار إحياء الكتب المصرية (القاهرة: ١٩٤٢ م)، ص ٤٤٨.

(١١٨) **مسالك الأبصار**، ج ٣، ص ٣٤١.

(١١٩) نص الكلام هو: "يروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال عجائب الدنيا أربع مرآة معلقة بمنارة الاسكندرية، كان يجلس الجالس تحتها فيرى من بالقسطنطينية وبينهما عرض البحر...". **البلدان**، ص١٢٦.

(١٢٠) يُنظر هذه المعلومات عند ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج ١، ص١٨٦.

(١٢١) **تاج المفرق**، ج ١، ص ٣٦. يذكر ابن رسته أن القبة تسمى القبة الخضراء كانت لفرعون، مرفوعة بستة عشر اسطوانة منقورة كلها من صخر، فيها تماثيل ونقوش. أبو علي أحمد بن عمر (ت٣١٠هـ): الأعلاق النفيسة، مطبعة بريل (ليدن: ١٨٩١م"، ص ١١٧.

(١٢٢) **تاج المفرق**، ج ١، ص ٦٢ ـ ٦٣. بينما اقتصر وصف الرحالة ابن بطوطة على الأسواق والمدارس. ينظر الرحلة، ج ١، ص ٢٣٩.

(١٢٣) العمري، **مسالك الأبصار**، ج ٣، ص ٥٥٢.

(١٢٤) **رحلة العبدري**، ص ٤٧٧.

(١٢٥) **مسالك الأبصار**، ج ٣، ص ٣٧٩.

(١٢٦) مجير الدين عبد الرحمن بن محمد (ت. ٩٢٨ هـ): **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، تحقيق عدنان يونس عبد المجيج، مكتبة دنديس (عمان: ١٩٧٣ م)، ج ٢، ٧٤. ومن مفاخر المدينة ولادة سيدنا سليمان (عليه السلام).

(١٢٧) **مسالك الأبصار**، ج ٣، ص ٣٧٩.

(١٢٨) المقريزي، **السلوك في معرفة دول الملوك**، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت: ١٩٩٧م)، ج ٢، ص ٤٨.

(١٢٩) **تاج المفرق**، ج ١، ص ٦٤. يتصف وصف البلوي لهذه المدينة بجمال الطبيعة ونقاء الهواء.

(١٣٠) **رحلة العبدري**، ص ٤٥٧.

(١٣١) **الرحلة**، ج ١، ص ٢٣٩.

(١٣٢) **مسالك الأبصار**، ج ٣، ص ٣٧٦.

(١٣٣) **تاج المفرق**، ج ١، ص ٦٧. يعد هذا وصفا عاما، إذ أن مدينة القدس تشهر بزراعتها وكثرة منتجاتها فقد وصفها العليمي "وبظاهر مدينة القدس الشريف من كل جهة كروم بها من أنواع الفواكه من العنب والتين والتفاح وغيره". يُنظر: **الأنس الجليل**، ج ٢، ص ٥٩.

(١٣٤) **رحلة العبدري**، ص ٤٦٨. ويشابه وصف العمري لوصف العبدري حيث قال عنها: "ومدينة القدس مبنية بالحجر والكلس، وغالب حجرها أسود وهي وعرة المسالك". **مسالك الأبصار**، ج ٣، ص٣٧٥.

(١٣٥) **تاج المفرق**، ج ٢، ص ١٢٤. فصل البلوي الوصف عن هذه المدينة ما لم يفصله في مدن فلسطين الاخرى. بينما اقتصر وصف ابن بطوطة للمدينة بقوله "حسنة الاسواق". يُنظر: **الرحلة**، ج ١، ص٢٥٤.

(١٣٦) ناصر أبو معين الدين (ت. ٤٨١هـ): **سفرنامة**، نقلها إلى العربية الدكتور يحيى الخشاب، ط٢، دار الكتاب الجديد (بيروت: ١٩٧م)، ج ١، ص ٥٤.

(١٣٧) المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٥.

(١٣٨) **تاج المفرق**، ج ٢، ص ١٢٤ ,

(١٣٩) **رحلة العبدري**، ص ٤٥٧.

(١٤٠) **الرحلة**، ج ١، ص ٢٥٢. لم يوضح كلاً من البلوي وابن بطوطة سبب خراب المدينة، وعند الرجوع للمصادر وجدنا أن السلطان صلاح الدين الايوبي قد خرب المدينة سنة ٥٨٧ هـ لأنها كانت عائقًا ضد المسلمين أبان الحملات الصليبية. العليمي، **الأنس الجليل**، ج ٢، ص ٧٤.

(١٤١) **الرحلة**، ج ١، ص ٢٣٩.

(١٤٢) **الجاولي**: هو علم الدين سنجر الجاولي، كان بداية أمره نائبًا للشوبك إلى أن اختص بمرافقة السلطان الناصر قلاوون، ثم أصبح نائبًا على غزة والقدس، له أعمال جليلة منها تعمير الجوامع في الخليل وغيرها، وتعمير الحمامات والمدارس، توفي سنة ٧٤٥ هـ. يُنظر الصفدي، صلاح الدين خليل بن آيبك (ت. ٧٦٤هـ): **الوافي بالوفيات**، تحقيق أحمد الارناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث (بيروت: ٢٠٠٠ م)، ج ١٥، ص ٢٩٢.

(١٤٣) **تاج المفرق**، ج ٢، ص ١٢٤.

(١٤٤) **رحلة العبدري**، ص ٤٧٦.

(١٤٥) **تاج المفرق**، ج ١، ص ٦٤. زاد ابن بطوطة على وصف البلوي، أن سليمان (عليه السلام) أمر الجن ببنائه، كذلك اختلف مع البلوي في أن طول الصخرة سبع وثلاثون شبرًا. يُنظر: **الرحلة**، ج ١، ص ٢٣٩.

(١٤٦) **تاج المفرق**، ج ١، ص ٦٤. بينما اكتفى ابن بطوطة بالإشارة إليها "وفي داخل المسجد الغار المكرم المقدس". يُنظر: **الرحلة**، ج١، ص ٢٣٩.

(١٤٧) **تاج المفرق**، ج ١، ص ٦٥. بينما أغفل ابن بطوطة ذكر هذه الضيافة.

(١٤٨) **الأنس الجليل**، ج ١، ص ٦٣.

(١٤٩) **تاج المفرق**، ج ١، ص ٦٨. وجاء وصف العمري له بشي من الفخر والاعتزاز "معهد الانبياء ومتعهد الاولياء، وثاني البيت الحرام في البناء، وأول القبلتين حال الابتداء، شيدت ملوك بني اسرائيل معاهده، وشدت بقباب البروج معاقده، ثم تدارك بنو أمية ذماءه، وصفحوا أرضه وسماءه". **مسالك الأبصار**، ج ١، ص ٢٠٧.

(١٥٠) **الرحلة**، ج ١، ص ٢٤٦.

(١٥١) **رحلة العبدري**، ص ٤٧٠.

(١٥٢) **الأنس الجليل**، ج ٢، ص ٢٧ ـ ٣١.

(١٥٣) **سورة الحديد**، جزء من الآية (١٣).

(١٥٤) عند الرجوع إلى كتب التفسير وجدنا هذا النص موجود عند الطبري، محمد بن جرير (ت.٣١٠ هـ): يُنظر: **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، تحقيق الدكتور عبد الله عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر ولتوزيع، ط ١ (القاهرة: ٢٠٠١ م)، ج ٢٢، ص ٤٠٣ ـ ٤٠٤.

(١٥٥) **تاج المفرق**، ج ١، ص ٦٩.

(١٥٦) يُنظر: ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، تحقيق: الدكتور عمر عبد السلام تدمري، الناشر دار الكتاب العربي، ط٤، (بيروت: ٢٠٠٤م)، ج ١٠، ص ٣٧.

(١٥٧) **تاج المفرق**، ج ١، ٦٩. ويذكر العليمي أنه عبارة عن مجمع معقود بالحجر به محراب، وسمي بجامع عمر لأنه من بقايا بناء الخليفة عمر الذي جعله عند الفتح لبيت المقدس. **الأنس الجليل**، ج ٢، ١٢.

(١٥٨) **تاج المفرق**، ج ١، ٦٩. بينما سماه العليمي بمهد عيسى (عليه السلام). **الأنس الجليل**، ج ٢، ص١٣.

(١٥٩) يقع هذا المسجد قرب باب المغاربة. البلوي، **تاج المفرق**، ج ١، ٦٩. لم يذكر أحدًا من المؤرخين سبب التسمية، وأغلب الظن أنه لكثرة تواجد المغاربة من المذهب المالكي لهذا المسجد بدليل أن العمري قال عنه

"لغلبة هذا الاسم على ألسنة الجمهور". **مسالك الأبصار**، ج ١، ص ١٥٣. أما العليمي فذكره بأنه "مأنوس مهيب وفيه صلاة المالكية، والذي يظهر أنه من بناء عمر بن الخطاب رضي الله عنه". **الأنس الجليل**، ج ٢، ص ١٥.

(١٦٠) البلوي، **تاج المفرق**، ج ١، ٦٩.

(١٦١) **كعب الأحبار**: هو كعب بن ماتع الحميري اليماني العلامة الحبر، كان يهوديًا فأسلم وقدم المدينة أيام الخليفة عمر (رضي الله عنه) وكان يحدثهم عن الكتب الاسرائيلية ويأخذ السنن عن الصحابة، حدث عنه عدد من الصحابة وروى عنه عدد من التابعين، توفي في مدينة حمص في غزوه في خلافة عثمان (رضي الله عنه). الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ): **سير أعلام النبلاء**، تحقيق شعيب الارناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط ٣ (بيروت: ١٩٨٥ م)، ج ٣، ص ٤٩٠-٤٩١.

(١٦٢) **شريك بن حماشة**: الاصح هو شريك بن خباشة النميري من بني عمرو بن نمير. ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (ت. ٨٥٢ هـ): الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق عادل أحمد وعلي محمد، دار الكتب العلمية، ط ١ (بيروت: ١٩٩٥ م)، ج ٣، ص ٣٠٩.

(١٦٣) محمد بن حبان (ت. ٣٥٤ هـ): **كتاب الثقات**، دائرة المعارف العثمانية، ط ١ (الهند: ١٩٧٣ م)، ج٤، ص ٣٦١.

(١٦٤) **الخسة**: هي بركة الماء التي أنشأها الأمير سيف الدين تنكز نائب دمشق سنة ٧٢٨ هـ، وهي كبيرة وملبسة بالرخام، وقام بعمارتها وعمل بها بركة هائلة ، وهي مرخمة ما بين الصخرة والاقصى. ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر (القاهرة: ٢٠٠٣ م)، ج ١٨، ص ٢٩١. أما ابن بطوطة فلم يذكر هذ البركة سوى أن قال: "ولم يكن بهذه المدينة نهر فيما تقدم، وجلب لها الماء في هذا العهد الامير سيف الدين تنكز أمير دمشق". **الرحلة**، ج١، ص ٢٤٦.

(١٦٥) **تاج المفرق**، ج ١، ص ٦٩-٧٠.

(١٦٦) المصدر نفسه، ج ١، ص ٧٠. كذلك وصف العمري الذي جاء مستوعبًا لذلك، **مسالك الأبصار**، ج ١، ص ٢١٢ وما بعدها.

(١٦٧) قال عنها العبدري: "وفي وسط القبة الصخرة التي جاء ذكرها في الآثار وأنه عليه الصلاة والسلام عرج عنها إلى السماء، وهي صخرة صماء علوها أقل من القامة، وتحتها شبه مغارة على مقدار بيت صغير يعلو قدر القامة، وينزل اليه في درج، وقد هيئ اليه محراب وسي وأتقن" **رحلة العبدري**، ص ٤٧٢.

(١٦٨) بنى الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان قبة الصخرة سنة ٦٦ هـ وبعث الكتب إلى الأمصار أنه يريد بناء القبة لتقي المسلمين من الحر والبرد، فجاءه جوابهم بالرضا، وأرصد لعمارتها مالاً كثيرًا قدر بخراج مصر لمدة سبعة سنين. العليمي، **الأنس الجليل**، ج ١، ص ٢٧٣.

(١٦٩) هو السلطان الناصر قلاوون، قام بهذه الأعمال في ولايته الثالثة (٧٠٩-٧٤١ هـ) وهي كثيرة جدًا فيما يخص المسجد الاقصى ومسجد قبة الصخرة، منها أنه قام بتذهيب قبتي الاقصى والصخرة قبل عام ٧٢٠ هـ، وهي في غاية الحسن والروعة إلى عصر العليمي حتى أن الذي يشاهده يظن أنه فرغ منه توا. العليمي، **الأنس الجليل**، ج ٢، ص ٩٢.

(١٧٠) علق العليمي على هذا الكلام بقوله: "والمشهور عند الناس أن الصخرة معلقة بين السماء والأرض، وحكى أنها استمرت على ذلك حتى دخلت تحتها حامل، فلما توسطت تحتها خافت فأسقطت حملها فبنى حولها هذا البناء المستدير حتى استتر أمرها عن أعين الناس". **الأنس الجليل**، ج ٢، ص ١٨ .

(١٧١) عبارة عن حجر صغير محمول على ستة أعمدة صغار، قيل انه أثر قدم النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج. العمري، **مسالك الأبصار**، ج ١، ص ٢١٤.

(١٧٢) ذكر العبدري أن على الصخرة شباكان محكمان يلقان عليها، أحدهما وهو الخارج من خشب، والثاني من حديد أو صفر محكم العمل بديع الصنعة. **رحلة العبدري**، ص ٤٧٢.

(١٧٣) **تاج المفرق**، ج ١، ص ٧٠-٧١.

(١٧٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ٧١.

(١٧٥) **قبة السلسلة**: قام ببنائها الخليفة عبد الملك بن مروان، وهي تسمى القبة الصغيرة تقع شرقي قبة الصخرة، وأمر بأن تكون على هيئة قبة الصخرة، وتعد في غاية الظرف على عمد من رخام فيها سبعة عشر عمودًا من الرخام غير عمود المحراب. العليمي، **الأنس الجليل**، ج ١، ص ٢٧٣. ويذكر العمري أن سليمان (عليه السلام) جعل سلسلة معلقة من السماء إلى الأرض ليتبين المحق من المبطل، فالمحق ينالها والمبطل لا ينالها. **مسالك الأبصار**، ص ٢١٨.

(١٧٦) **تاج المفرق**، ج ١، ص ٧١.

(١٧٧) **سورة الأنبياء**، الآية (٧٩).

(١٧٨) المشهور أن السلطان الظاهر بيبرس جدد بناء قبة السلسلة سنة ٦٥٨ هـ، فقد زخرفها وأنشأ بها خانًا للسبيل، نقل بابه من القاهرة، وبنى به مسجدًا وطاحونًا وفرنًا وبستانًا. ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين يوسف (ت. ٨٧٤هـ): **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، ط١ مطبعة دار الكتب المصرية (القاهرة: ١٩٣٢م)، ج٧، ص ١٩٤.

(١٧٩) **مسالك الأبصار**، ج ١، ص ٢١٨.

(١٨٠) لم يذكر البلوي اسم المسجد لكن العليمي ذكره صراحة باسم مسجد النساء اذ قال عنه "من جهة الغرب مجمع كبير معقود بالأحجار الكبار وهو كوران ممتدان شرقا بغرب ويسمى هذا المجمع جامع النساء وهو عشر قناطر على تسع سواري في غاية الاحكام". **الأنس الجليل**، ج ٢، ص ١٣.

(١٨١) **تاج المفرق**، ج ١، ص ٧٢.

(١٨٢) **قبة الركن المشرقي**: وهي قبة الطومار التي تقع طرف صحن الصخرة من جهة القبلة مما يلي الشرق، وسبب تسميتها بالطومار هو أن أحد الملوك الاعيان حضر للقدس وصعد إلى جبل طور زيتا ورمى بالطومار، فسقط في موضع هذه القبة فأمر ببنائها، فسميت بقبة الطومار. العليمي، **الأنس الجليل**، ج ٢، ص ٢٣.

(١٨٣) **قبة المعراج**: تقع عن يمين الصخرة والصحن من جهة الغرب، وهي قبة مشهورة مقصودة للزيارة، قام بعمارتها الامير الاسفهسلار عز الدين سعيد السعداء أبو عمرو عثمان بن علي الزنجيلي، متولي القدس في سنة ٥٩٧ هـ، وكان موضعها سابقا قبة قديمة فدثرت ثم جددت هذه القبة. المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٠.

(١٨٤) **قبة موسى البديعة**: تقع أمام باب السلسلة وأمام رواق الحنابلة. العمري، **مسالك الأبصار**، ج ١، ص٢٢٩. إلا أن العليمي يؤكد أنها ليست قبة موسى (عليه السلام) ولم يصح خبر في نسبتها إليه، والذي أمر بعمارتها السلطان نجم الدين أيوب في سنة وفاته التي هي ٦٤٨ هـ، وكانت تُعرف قديمًا بقبة الشجرة. **الأنس الجليل**، ج ٢، ص ٢١.

(١٨٥) **تاج المفرق**، ج ١، ص ٧٢.

(١٨٦) **جبل الطور**: يسمى طور زيتا، وهو الجبل الشرقي عند بيت المقدس، جبل عظيم مشرف على المسجد الاقصى. العليمي، **الأنس الجليل**، ج ٢، ص ٦٠.

(١٨٧) **تاج المفرق**، ج ١، ص ٧٣.

(١٨٨) **رابعة العدوية**: هي رابعة بنت اسماعيل العدوية البصرية أم الخير، كانت مولاة لآل عتيك، صالحة مشهورة وكانت من أعيان عصرها، اشتهرت بالصلاح والزهد والخوف من الله عز وجل، توفيت سنة ١٣٥ هـ وقبرها بظاهر القدس من شرقيه على رأس جبل الطور. ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج ٢، ص ٢٨٥.

(١٨٩) **تاج المفرق**، ج ١، ص ٧٣.

(١٩٠) المصدر نفسه، ج ١، ص ٧٣.

(١٩١) المصدر نفسه، ج ١، ص ٧٣.

(١٩٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٢٤.

(١٩٣) أكد العليمي ذلك التاريخ بأن الجامع الابيض تم تجديده زمن السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٦هـ، على يد رجل اسمه الياس بن عبد الله أحد جماعة الامير علم الدين قيصر عين الأمراء في الدولة الأيوبية. **الأنس الجليل**، ج ٢، ص ٦٩.

(١٩٤) البلاذري، أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩ هـ): **فتوح البلدان**، دار ومكتبة الهلال (بيروت: ١٩٨٨ م)، ص١٤٥.

(١٩٥) رجاء بن حيوه: أبو المقدام رجاء بن حيوه بن جرول الكندي، من العلماء وكان من جلساء الخلفاء ويذكرهم وينصحهم، اشتهر بعلمه وتواضعه، توفي سنة ١١٢ هـ. ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج ٢، ص ٣٠٣.

(١٩٦) **مسالك الأبصار**، ج ٣، ص ٣٨٣.

(١٩٧) **الأنس الجليل**، ج ٢، ص ٦٩.

(١٩٨) **يافا**: مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال فلسطين بين قيسارية وعكا، وهي بلد قحط والمولود فيها قل أن يعيش، أفتتحها صلاح الدين سنة ٥٨٣ هـ. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج ٥، ص ٤٢٦.

(١٩٩) العليمي، **الأنس الجليل** ، ج ٢، ص ٦٩.

(٢٠٠) **تاج المفرق**، ج ١، ص ٧٢.

(٢٠١) **الأنس الجليل**، ج ٢، ص ٣٥ وما بعدها.

(٢٠٢) **تاج المفرق**، ج ١، ص ٦٩.

(٢٠٣) العليمي، **الأنس الجليل**، ج ٢، ص ٣٤.

(٢٠٤) النعيمي، عبد القادر بن محمد (ت. ٩٢٧هـ): **الدارس في تاريخ المدارس**، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية ط١ (بيروت: ١٤١٠هـ)، ج١، ص ٣٢٧.

(٢٠٥) إشارة إلى **سورة الإسراء**، الآية (١).

(٢٠٦) **سورة المزمل**، جزء من الآية (٢٠).

(٢٠٧) **تاج المفرق**، ج ١، ص ٧٢.

(٢٠٨) **تنكز**: سيف الدين أبو سعيد نائب السلطنة بالشام، اشتراه السلطان حسام الدين لاجين ثم انتقل للسلطان الناصر وشهد معه معارك الخازندار وشقحب ضد المغول، تولى النيابة سنة ٧١٢ هـ وكانت له أعمال جليلة منها اعمار جامع حكر السماق وانشاءه تربة وحمام وعمر دارا للقرآن، وأنشأ بالقدس رباطًا وبالجملة كان كريمًا آمرًا بالمعروف، توفي سنة ٧٤١ هـ. الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج ١٠، ص ٢٦٦.

(٢٠٩) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ١٨، ص ٣٢١.

(٢١٠) العليمي، **الأنس الجليل**، ج ٢، ص ٣٥.

(٢١١) **الدارس**، ج١، ص ٤٧.

(٢١٢) محمد بن عبد الرحمن (ت. ٩٠٢هـ): **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، دار الجيل، ط١ (بيروت: ١٩٩٢م)، ج ٤، ص ١٩١ ؛ **الأنس الجليل**، ج ٢، ص ٣٥.

(٢١٣) **خليل بن كيكلدي**: صلاح الدين أبو سعيد خليل بن كيكلدي العلائي، ولد بدمشق سنة ٦٩٤ هـ، اشتهر بسماع الحديث حيث سمع صحيحي مسلم والبخاري سنة ٧٠٣ هـ، ثم طلب الحديث بنفسه سنة ٧١١ هـ، وله كتب مفيدة في الحديث، تولى التدريس بالمدرسة السيفية بالقدس سنة ٧٣١ هـ إلى أن مات سنة ٧٦١ هـ. ابن حجر العسقلاني، **الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة**، تحقيق محمد سيد جاد الحق (القاهرة: ١٩٧٥م)، ج ٢، ص ٢١٤ ـ ٢١٥.

(٢١٤) **صلاح الدين العلائي**: من علماء القدس اشتهر بعلمه ومصنفاته وتخريجه للاحاديث، تولى التدريس بمدرستي الصلاحية ودار الحديث لمدة ثلاثين سنة، توفي سنة ٧٦١ هـ. ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ١٨، ص ٦٠٠.

(٢١٥) ابن حجر العسقلاني، **الدرر الكامنة**، ج ٢، ص ٩١.




www.kanhistorique.org

**Historical Kan Periodical**
ISSN: 2090 – 0449 (Online).
Peer-reviewed, open-access journal, indexed and abstracted in several international databases.

info@kanhistorique.org